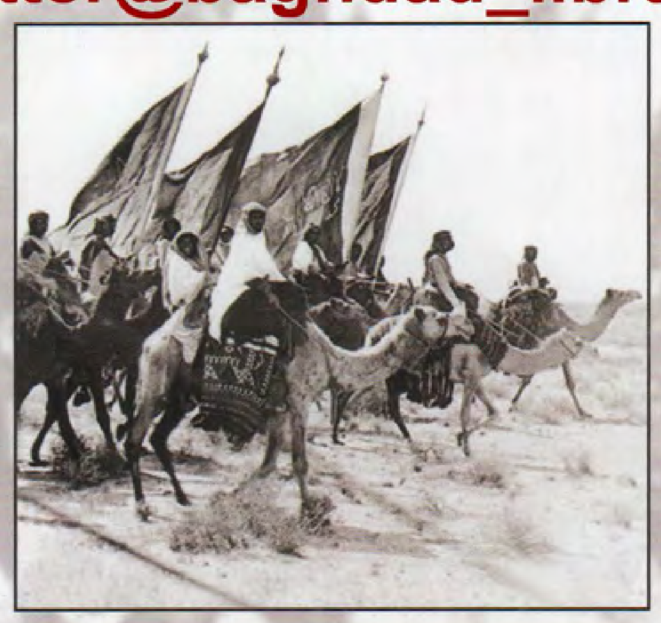
دور غولد

مملكة الكراهية

كيف دعمت العربية السعودية الإرهاب العالمي الجديد



ترجمة: محمد جليد

منشورات الجمل

محمد جليد من مواليد مدينة صفرو المغربية ١٩٧٦. مترجم وإعلامي مهتم بالثقافة المغربية. حصل على الإجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها سنة ١٩٩٩ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس. تخصص بعدها في دراسة الترجمة. وفي سنة ٢٠٠٨، حصل على الماستر في الهندسة الثقافية والفنية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك بالدار البيضاء. وهو منكبّ حالياً على إعداد أطروحة دكتوراه في موضوع «صورة الإسلام في السياسة والفكر والإعلام الأمريكي بعد ١١ سبتمبر»، وهي باللغة الإنجليزية. شارك المترجم في ترجمة كتاب «**الاشتراكية والحرية**» للكاتبة الروسية «رايا دوناييفسكايا»، الذي صدر سنة ٢٠١٠ ضمن منشورات «دفاتر وجهة نظر». كما أصدر ترجمة لكتاب «**العدالة الجنائية الدولية في مفترق الطرق: عدالة عالمية أم انتقام شامل**» للفيلسوف النمساوي «هانس كوكلر». وله العديد من الكتب والمقالات والحوارات المترجمة.

دور غولد

مملكة الكراهية

كيف دعمت العربية السعودية
الإرهاب العالمي الجديد

ترجمة: محمد جليد

منشورات الجمل

ولد **دور غولد** سنة ١٩٥٣ في هارتفورد بالولايات المتحدة الأمريكية، ونشأ في كنف عائلة محافظة. أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٧٠ ثم التحق بجامعة كولومبيا حيث حصل على ليسانس ومن ثم ماجستير في العلوم السياسية. نال شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية والدراسات الشرق أوسطية. ثم درس الأدب العربي وتخصص في القانون الدولي، وشكّلت أطروحته عن المملكة العربية السعودية الأساس لكتابه هذا الذي يرى فيه أن السعودية تموّل الإرهاب من خلال دعمها لأعداء الولايات المتحدة ومهاجمة حلفائها. ألّف غولد كتباً عديدة حول الشرق الأوسط، منها: **«الاستراتيجية العسكرية الأمريكية في الشرق الأوسط»؛ «أمريكا والخليج وإسرائيل: القيادة المركزية الأمريكية والسياسات الأمنية الإقليمية الأمريكية الناشئة في الشرق الأوسط»؛ إسرائيل حليف أمريكا من خارج الناتو: معالم التعاون الدفاعي- الصناعي.**

دور غولد: **مملكة الكراهية**، ترجمة: محمد جليد، الطبعة الأولى

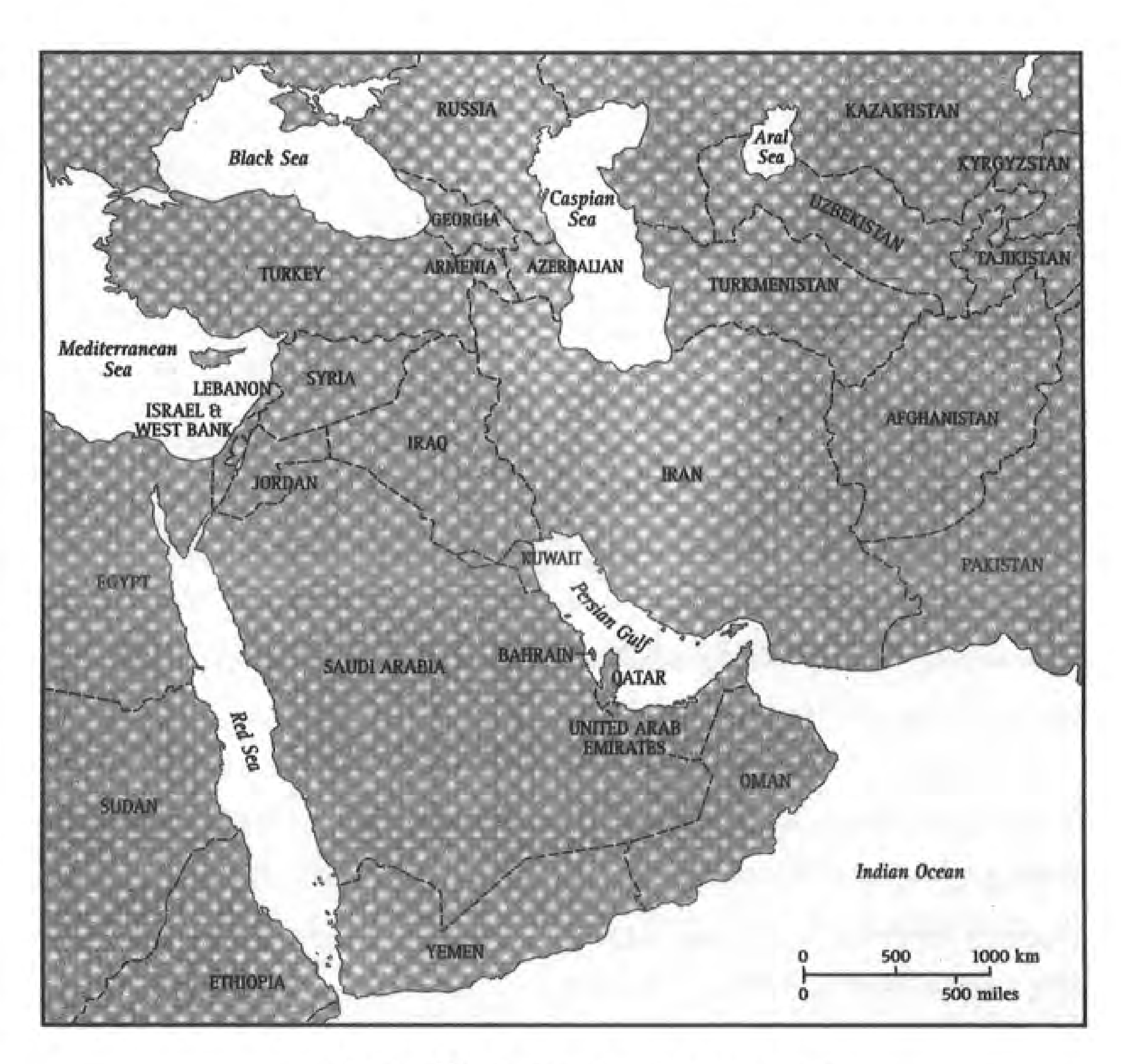
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Dore Gold: *Hatred's Kingdom: How Saudi Arabia Supports the New Global Terrorism*

Postfach 1127 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى أوفرا، زوجتي وشريكتي، مع خالص الحب،

وإلى ولدينا الغاليين يائيل وأرييل.



شبه الجزيرة العربية والشرق الأوسط الكبير

مقدمة

جذور الرعب

منذ ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، الذي شهد هجمات إرهابية على مركز التجارة العالمي والبنتاغون، ظل لغز كبير يكتنف مصدر الكراهية الحقيقي الذي دفع تسعة عشر إرهابياً من الشرق الأوسط إلى الانتحار، في صنيع يهدف إلى القتل الجماعي. لماذا شرعت العقول المدبّرة لهذه الهجمات في قتل آلاف الأبرياء؟ فعلى الرغم من معرفة الكثير عن الإرهابيين- عن المتواطئين معهم، وأهدافهم المعلنة، وفروعهم التنظيمية، بل حتى عن جزء من دعمهم المالي- يبقى السؤال من غير جواب: ما هي القوى العميقة التي دفعت المنفذين إلى مباشرة الهجوم الإرهابي الأكثر فتكاً في تاريخ أمريكا؟ بعبارة أخرى، هل يمكن أن يُحدَّد مصدر كراهيتهم، في ما يتعدّى مختطفي الطائرات أنفسهم وقادتهم، حتى يعالج أيضاً كجزء من الجهد الأوسع لفهم الإرهاب ومنعه؟

لقد نظر بعض المحققين الأمريكيين، أثناء دراسة هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، في الدور الداعم المحتمل الذي لعبته العربية السعودية. إذ إنّ خمسة عشر إرهابياً من التسعة عشر، فضلاً عن قائدهم المحتمل أُسامة بن لادن ولِدوا في العربية السعودية، وفيها

ترعرعوا. وكان ثلث السجناء الذين اعتقلتهم الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب ضد تنظيم بن لادن «القاعدة» حتى صيف سنة ٢٠٠٢[١]، هم من المواطنين السعوديين. فضلاً عن ذلك، كانت الدولة السعودية إحدى ثلاث دول اعترفت ودعمت حكومة طالبان الأفغانية، التي آوت القاعدة أواخر التسعينيات. بل ثمة ملامح دعم سعودي أوسع لابن لادن، حيث تعرفت مصادر استخباراتية عليا على أميرين سعوديين منحا بن لادن تمويلات منتظمة منذ سنة ١٩٩٥[٢] علاوة على ذلك، ففي آب/أغسطس ٢٠٠٢ رفعت عائلات ٦٠٠ مواطن أمريكي قتلوا في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر دعوى قضائية في محكمة المقاطعة الأمريكية في واشنطن دي سي، مدعية أن ثلاثة أمراء سعوديين- بمن فيهم وزير الدفاع السعودي سلطان بن عبد العزيز- قدموا المال لمؤسسات خيرية وجماعات أخرى دعمت القاعدة[٣]

قد يقول قائل إن المفروض أن تكون العربية السعودية حليف أمريكا، لا راعية الإرهاب الدولي مثل ليبيا وسوريا. بالفعل، انحازت العربية السعودية، مذ أسّسها الملك عبد العزيز (المعروف في الغرب بابن سعود) سنة ١٩٣٢، من الناحية الاقتصادية إلى مصالح النفط الأمريكية، حيث تشهد على ذلك، مثلاً، الشركة السعودية العربية الأمريكية للزيت (المعروفة باسم «أرامكو»). فضلاً عن ذلك، ساندت العربية السعودية الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب الباردة، وأنفقت مليارات الدولارات لتحصل على أسلحة أمريكية طوال عقود، وفتحت قواعدها الجوية أمام القوات الجوية الأمريكية خلال حرب الخليج ضد العراق سنة ١٩٩١

لكن أحداث ١١ أيلول/سبتمبر أجبرت أمريكا على إعادة تقييم الاعتماد على العربية السعودية كحليف. في الواقع، قال محلل في

شركة «راند» خلال تموز/ يوليو ٢٠٠٢ لمجلس سياسة الدفاع في البنتاغون إن العربية السعودية عدو الولايات المتحدة الأمريكية. وخلص المحلل إلى أن السعوديين كانوا نشيطين «في كل حلقة من سلسلة الرعب»[٤] إذ ازدادت الشكوك حول تورّط الدولة السعودية في هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر تعمقاً في النهاية. ففي أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٢ تبدّى أن السلطات السعودية كانت تحقق في طريقة وصول شيكات وقعتها الأميرة هيفاء بنت فيصل- زوجة الأمير بندر، السفير السعودي في واشنطن- إلى عمر البيومي، وهو سعودي استضاف اثنين من منفذي هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر عندما وصلا إلى الولايات المتحدة الأمريكية[٥].

كما فحص المعلّقون في العالمين العربي والإسلامي دور السعودية في هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، لكنهم نظروا، بخلاف نظرائهم الأمريكيين، إلى ما وراء عناصر الإرهاب التكتيكية: تجنيد العملاء، التدريب، التمويل، التخطيط، امتلاك الأسلحة والمتفجرات ونقلها، الخ. وحققوا على نحو خاص في أسباب الإرهاب الجذرية، مركزين على عقيدة الإسلام أو نمطه الممارس في العربية السعودية، المعروف بالوهّابية.

يبقى الإسلام الوهّابي، الذي أرساه محمد بن عبد الوهاب في الخليج العربي أواسط القرن الثامن عشر، المذهبَ الدينيَّ المهيمن في العربية السعودية. إذ يعتبر كثيرون الوهابية بمثابة انحراف جذري وعنيف عن التقليد الإسلامي الرئيس. فعلى سبيل المثال، خلص طارق علي، الباكستاني المقيم في لندن في عمود بجريدة بنغالية، إلى أنه بعد سقوط طالبان في أفغانستان، «قد ينجح انتشار الجند بباكستان في قطع دابر الأخطبوط الوهابي، ولا ينجح، لكن رأسه سالم غانم

في العربية السعودية، يحرس آبار النفط، ويمتلك أسلحة جديدة، يحميه الجنود الأمريكيون وقاعدة القوات الجوية الأمريكية في الظهران»[٦] وفي الآونة الأخيرة، صرّح شقيق زكريا الموساوي، الإرهابي العشرين المعتقل على خلفية مؤامرة القاعدة يوم ١١ أيلول/ سبتمبر، أن الوهابية ألهمت أفعال الموساوي المتطرفة.[٧]

وقد صرّح يوسف م. إبراهيم، المعلّق السابق على الشؤون العربية في صحيفة «نيويورك تايمز»، قائلاً إن «المال الذي نشر نفوذ الوهابية في العالم العربي. موّل شبكات المدارس الأصولية من السودان إلى شمال باكستان»[٨] إذ يعتبر قادة طالبان، في الواقع، نتاج هذه الأكاديميات الإسلامية التي تدعمها السعودية، المعروفة باسم «المدارس» في باكستان. كما كتب محمد الشرفي، وزير التربية السابق في تونس، في صحيفة «نيويورك تايمز»، يقول:

> يبدو أن أسامة بن لادن كان نتاجاً خالصاً لتعليمه، شأنه شأن السعوديين الخمسة عشر الذين شاركوا في العمليات الإرهابية يوم ١١ أيلول/ سبتمبر. فبينما تعتبر العربية السعودية رسمياً دولة معتدلة متحالفة مع أمريكا، ظلت أيضاً مسانداً أساساً من مساندي الأصولية الإسلامية بسبب تمويلها المدارس التي تتبع العقيدة الوهابية المتصلبة. إذ لعبت المدارس التي تدعمها السعودية في باكستان وأفغانستان دوراً مهما في تقوية الإسلام الراديكالي في ذينك البلدين[٩]

وقد اعترف بعض السعوديين صراحة بإيديولوجيا الكراهية التي نشأت في بلدهم. ففي كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١، كتبت سحر محمد حاتم، الطبيبة العاملة في الرياض، رسالة موجزة إلى جريدة

تصدر بالعربية من لندن، حيث تشرح في الرسالة المعنونة بـ«ثقافتنا الديماغوجية التي أنتجت بن لادن والظواهري وطبقتهما»:

> بُرمجت عقلية كل واحد منا عند الالتحاق بالمدرسة أثناء الطفولة، لتعتقد. أن كل من ليس مسلما عدوٌّ، وأن الغرب يعني الضعف، والفسق، وغياب القيم، بل وجاهلية في حد ذاتها. وكل من يفلت من هذه البرمجة في لقاءات المدرسة، يصطدم بها في المسجد، أو عبر وسائل الإعلام، أو تأتيه من الوعّاظ القابعين في كل الزوايا.
>
> نركّز جميعاً على أسامة بن لادن وطبقته. لكن علينا أن نركّز أيضاً على الأشخاص الأكثر خطورة، وأقصد أولئك الذين يشحنون رؤوسنا بهذه الخطابة في المدارس والمساجد والإعلام، وينشرون الكلمات بلا تردد، دون اعتبار النتائج أو حتى فهم ذلك في هذا العصر حيث العالم يسمع كل ما يقال[١٠]

إن الهدف الواضح من نقد حاتم هو الوهابية- نسخة الإسلام التي تدعمها الحكومة في العربية السعودية- لأنها أعلنت أن «الحل هو الإسلام الذي علّمه نبي هذه الأمة- إسلام سمحٌ- لا إسلام أولئك الذين يراقبون إعلامنا». إذ كانت حاتم تدافع عن الإسلام الأصلي من فرعه الراديكالي، مجددة الدعوة إلى إسلام ينهل من مصادره الأصيلة، وإلى التعايش والتسامح مع غير المسلمين اللذين سادا أغلب التاريخ الإسلامي.

كذلك ركّز الدارسون المسلمون من خارج الشرق الأوسط على الوهابية. وقد برهن خالد أبو الفضل من مدرسة القانون بجامعة

كاليفورنيا في لوس أنجلس (UCLA) أن سفينة القاعدة «رست» في فقه كان «نتاج بروز الوهابية وهيمنتها النهائية» ونتاج تيارات إسلامية حركية معاصرة أخرى.[١١] ووصف الشيخ هشام قبّاني، اللبناني المولد الذي يرأس المجلس الإسلامي الأعلى في أمريكا، الوهابية بأنها «نتيجة حديثة لبدعة عمرها قرنان من الزمان»[١٢] ويظهر قباني مسلكاً كاملاً من فكر إسلامي يعارض الوهابية، ويعود إلى الإمبراطورية العثمانية. فضلاً عن هذا، صرّح الحاج صالح براند، المبعوث الخاص للحكومة الشيشانية إلى أوروبا، في إشارته المحذرة من انتشار الوهابية في شمال القوقاز، قائلا:

> إن الأجندة السياسية المتكاملة للأصولية الوهابية (ما يسمّيه الغرب اليوم بالإسلام الحركي) هي انحراف عن الإسلام الذي يُدرّس في جامعة المدينة بالعربية السعودية، تدعمها الحكومة السعودية وتستورد من هناك. ومنها جاءت حماس، وطالبان، وأسامة بن لادن، وجبهة الإنقاذ الإسلامي، والسودان، والعصابات التي تجوب اليوم الشيشان وداغستان[١٣]

وفي تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢، وبعد التفجير المدمّر الذي خلف أكثر من ١٨٠ قتيلاً في بالي الإندونيسية، وجّه المعلّق الإندونيسي يوسف ونادي سهامه إلى التهديد الإيديولوجي للوهابية السعودية في رسمه التحدّيات المطروحة على حكومة جاكارتا:

> ربما يكمن أهمّ شيء في الصراع الإيديولوجي ضد الراديكالية والإرهاب باسم الإسلام. إذ رغم أن المسلمن في إندونيسيا

معتدلون في الغالب فهم يحتاجون إلى المساعدة والدعم في نشر منظوماتهم التربوية. التي ظلت قادرة، إلى حد بعيد، على مقاومة التأثيرات الوهابية المتطرفة القادمة من العربية السعودية[١٤]

في الواقع، وجدت الشرطة الإندونيسية أن المشتبه به الأول في التفجير ينتمي إلى خلية وهابية عنيفة في شرق «جافا»، سبق لها أن اصطدمت بمسلمين آخرين، بل وفجرت ضريح وليّ مسلم محلي[١٥]

من هنا، ليست الوهابية، في نظر هؤلاء المعلّقين المسلمين، سوى المصدر الديني والإيديولوجي لموجة الإرهاب الإسلامي العالمي الجديدة- من إندونيسيا إلى الجزائر، ومن روسيا إلى اليمن، وأخيرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. إذ لا ينحصر انتقادهم فقط على الوهابية كعقيدة، بل يمتد بالأحرى إلى المؤسسات الوهابية- شبكات التربية وقنوات الدعم، والآليات الراهنة التي أقامتها الدولة السعودية، لتمنحها امتداداً عالمياً - فما يقولونه للغرب يفيد أنه يستحيل شرح كيف وقعت هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر أو الحيلولة دون وقوع هجوم في المستقبل ما لم يفهم أثر الوهابية السعودية.

لقد أصاب هؤلاء المعلّقون في أقوالهم. إذ تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها تحقيق انتصارات عسكرية مذهلة في أفغانستان، وتجميد حسابات الإرهابيين البنكية، وقطع مؤنهم من الأسلحة، وتصفية العقول الإرهابية المدبّرة. لكنّ هذه الانتصارات، حتى وإن أُخذت مجتمعة، لا تكفي لإزاحة التهديد الإرهابي، لأنها لا تدرك أصل المشكلة. فالإرهاب من درجة هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر لا ينشأ من فراغ، حيث لا يقرر الناس من تلقاء ذواتهم أنهم

سيختطفون طائرة، ويحطمونها على بناية، ويقترفون قتلاً جماعياً (ويضحّون بحيواتهم) بسبب مظلمة سياسية أو إحساس بالحرمان الاقتصادي. لا، ثمة مكوّن خطير آخر من مكوّنات الإرهاب، تم تجاهله عموماً في الغرب: إنه الحافز الإيديولوجي لذبح الآلاف من الأبرياء. إذ لا تقل المصادر الإيديولوجية للهجمات الإرهابية أهمية عن أسئلة الأمكنة التي تدرّب فيها الإرهابيون، والحسابات البنكية التي استعملوها.

لا بد أن كل الإرهابيين تشرّبوا أفكاراً- وغسلت أدمغتهم بالطبع. ولا مناص من أن يجرّد الإرهابيون ضحاياهم من إنسانيتهم كلّية، وهكذا يحرمونهم من الحق الأساس في الحياة. بل يجب أن يتعلّم الإرهابيون ألا يشفقوا على أبنائهم. وما دام الانتحار يخالف الغريزة الإنسانية في الحفاظ على الذات فإن جهوداً خاصة تُبذل بغية تحضير الأفراد للهجمات الانتحارية. ولولا ترسّخ قناعة بفضائل الشهادة وجزائها في الآخرة لما أقبل الإرهابيون على الهجمات الانتحارية خلال العقد الأخير.

باختصار، ما لم تعالج الجذور الإيديولوجية للكراهية التي أدّت إلى ١١ أيلول/سبتمبر لن نكسب الحرب ضد الإرهاب. وستبقى المسألة مسألة وقت فقط قبل أن يبرز أسامة بن لادن المقبل.

المشكلة الحقيقية

ليس الميل في الغرب إلى تناول الأساس الإيديولوجي للإرهاب تناولاً كاملاً، إلا أن المرء ليس في حاجة إلى النظر أبعد من التنظيمات الإرهابية نفسها ليفهم مركزية الإيديولوجيا. إذ يرسم كتيّب تدريب للقاعدة عُثر عليه في بريطانيا المؤهّلات الضرورية لكل عضو جديد:

أول مؤهّل هو الالتزام بالإسلام، والثاني هو«الالتزام بإيديولوجيا التنظيم»[١٦] لكن ما هي تلك الإيديولوجيا؟ وما الذي يقصده بن لادن وعملاؤه بالإسلام؟ بحسب زعيم ديني حركي سعودي على الأقل، فالإسلام الوهابي هو الذي أتاح الأساس لشبكة بن لادن الإرهابية الواسعة. إذ أكد الشيخ عبد العزيز بن صالح الجربوع في كتاب ألّفه بعد ١١ أيلول/سبتمبر أن «أسامة بن لادن هو استمرار طبيعي لمحمد بن عبد الوهاب»[١٧]

هذه نقطة حاسمة، لأنه حتى عندما نظر الأمريكيون في أصل الحقد الذي حمل الإرهابيين على تنفيذ الهجمات، لم يعرف كثيرون أين ينظرون. إذ تساءل كثيرون، خلال الأيام والأسابيع التي تلت ١١ أيلول/سبتمبر عمّا إذا كان الإسلام هو العدوّ. لكن المشكلة لا تكمن في الإسلام. بالأحرى، تكمن المشكلة في متطرفي الشرق الأوسط الذي سخروا خطب الجمعة في المساجد، والجوامع الدراسية، وتلفزيون الدولة لغرض واحد، هو إعداد شباب بشكل منظم لقتل المدنيين الأبرياء بدم بارد.

لذلك تُعتبر الوهابية، كما تطوّرت في العربية السعودية، خطيرة جداً، وتستدعي انتباه أمريكا وحلفائها. إذ صاغ هذا الشكل من الإسلام المتعصب على نحو جذري الرأيَ العام تجاه الغرب داخل العربية السعودية ومناطق أساسية من العالم الإسلامي، وأثّر في أسامة بن لادن منذ سنواته الأولى.

كيف، إذن، ولّدت الوهابية السعودية إيديولوجيا الكراهية التي زرعت بذرة الإرهاب الانتحاري؟ يرتبط هذا السؤال حتماً بسؤال كيفية تناول الوهابية مفهومَ الجهاد في الإسلام (الذي يعني حرفياً «الجهد»، لكن ترجم عموماً بـ«الحرب المقدسة»).

وفقاً للتقليد الإسلامي، يصبح كل محارب يهِب حياته في جهاد حق شهيداً، ويضمن الدخول إلى الجنة. لكن ابتداء من القرن التاسع، عندما انتهى قرنان من الجهاد الإسلامي والتوسع الترابي، وسّع الفقهاء معنى الجهاد، حيث لم يعودوا، تحت تأثير الصوفية، يشددون على الصراع المسلّح، معتمدين أكثر التحديدات الروحية. صحيح أن بعض المتعصبين الذين انشقوا عن الإسلام ما زالوا يشددون على التعريف القديم، الذي يفيد المعنى العسكري للجهاد. فعلى سبيل المثال، جعل الخوارج، الذين خرجوا عن الإسلام الأساس في القرن السابع، من الجهاد الركن السادس من العقيدة الإسلامية (إذ إن أركان الإسلام الخمسة المرتضاة في العالم الإسلامي هي: الإشهاد بالله والرسول، والصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، وحج مكة)[١٨] لكن التيار الإسلامي السائد تخلّى عن هذا التركيز على المقتضى الديني لحملة الجهاد الكونية. ومن هنا، تغيّر معنى «الشهيد» أيضاً. فبينما كان المفهوم يُطبّق في الأصل على من أسلم روحه في المعركة، فقد يُقارَن الدارسُ أو إمام الصلاة اليوم بالشهيد عندما يحلّ يوم حسابه.

غير أن الوهابيين استعادوا فكرة الجهاد بما هو كفاح مسلح، وبدؤوا ينشرون عقيدتهم الجديدة عبر الجزيرة العربية ووراءها خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر. وحتى اليوم يوجد انبعاث الجهاد، وإنزاله منزلة أولية كقيمة دينية، في أعمال مسؤولين دينيين سعوديين من أعلى مستوى أمثال الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد، الرئيس السابق للمجلس الأعلى للقضاء: «الجهاد عمل عظيم بالفعل، ولا عمل أكثر منه جزاء وثواباً، ولذلك فهو أفضل شيء قد يتطوّع له المرء»[١٩] وفي تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١ ذهب فقيه سعودي، في

خطبة صلاة الجمعة ألقاها بمسجد مكة، إلى حد وصف الجهاد بكونه «ذروة سنام الإسلام»[٢٠].

وإذا كانت الوهابية، كما رأينا، قد أثارت نقداً حادّاً في العالمين الإسلامي والعربي، فلماذا راوغت شاشة الرادار المفاهيمي لأغلب المحللين في الغرب، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية؟ يبدو أن الاسم لا يحمل أي ضرر بالغ، حيث الوهابيون هم الذين يفضّلون أن ينظروا إلى أنفسهم كفقهاء يدافعون عن وحدانية الله. وبسبب جزء من ذلك أسيء فهمهم بشكل كبير. ففي الخمسينيات، وصف محلّلو شركة «أرامكو» في العربية السعودية الوهابيين بأنهم «مسلمون موحدون»- وهي عبارة كان المقصود بها زيادة مستوى الارتياح بين أمريكا البروتستانتية والعربية السعودية في زمن كانت فيه العلاقات السعودية- الأمريكية في مرحلة جنينية.[٢١] غير أن الكنيسة الموحدة هي إحدى الكنائس الأكثر ليبرالية وشمولية في المسيحية البروتستانتية، حيث لا يمكن أن تكون الوهابية ليبرالية أو شمولية. وفي كتاب صدر سنة ١٩٨٠ يخلّد ذكرى حكم الملك فيصل، وصف البروفيسور «جورج رانتز» من جامعة «جونز هوبكينز»، الذي ترأّس من قبل قطاع المخابرات والتحليل في قسم الشؤون العربية التابع لشركة «أرامكو»، أنشطة محمد بن عبد الوهاب بـ«الإصلاح الإسلامي»[٢٢]، مردداً كلام مؤرّخين آخرين.

ربما لا يرتاح «الغرباء» حتى للتحقيق في الوهابية باعتبارها شكلاً راديكالياً خاصاً من الإسلام، خاصة إذا نظرنا إلى تقليد حرية الدين في أمريكا. إذ يصعب على الدارس الأمريكي للإسلام أن يقارب مذهباً إسلامياً ما مقاربة نقدية، حتى وإن كان مذهب طائفة أقلّية راديكالية، لأن هذه المقاربة قد تفسّر كهجوم على تقليد ديني برمّته. فعلى

العموم، تُعتبر وجهات النظر الدينية مقدسة، ومن هنا تتعالى على الفحص والتدقيق. لكن يجب أن يخوض المحللون الغربيون في التمييز بين أشكال معيّنة من الإسلام الحركي وباقي الإسلام السائد، حتى لا يُصيَّرَ الإسلام، برمّته، عدواً جديداً.

يفترض المواطن السعودي نوّاف إ. عُبيد، في أطروحة تقدم بها سنة ١٩٩٨ لنيل شهادة الماستر في مدرسة كينيدي للحكومة بجامعة هارفرد، أن المخابرات الأمريكية «أساءت فهم طبيعة الوهابية»[٢٣] إذ يعتقد عبيد أن الخبراء الأمريكيين يستخفون بسلطة الدين، وخاصة المؤسسة الدينية الوهابية، في صناعة القرار في العربية السعودية. وقد يعود هذا الأمر جزئياً إلى أن الأمريكيين لم يأملوا النظر في الجذور الدينية للسلوك السياسي، حيث قد يقول قائل إنهم فضّلوا الشروح القائمة على المصالح الاقتصادية أو الاستراتيجية، أو العوامل السياسية القبلية والملكية. في الواقع، عبّر مسؤول مخابراتي سابق عن هذه النقطة قائلاً: «خلال أغلب سنوات التسعينيات، عندما كنت أنتمي إلى مجتمع المخابرات في واشنطن، منع علينا تماماً النظر إلى الدين باعتباره عاملاً استراتيجياً، لكن اعتُبر الموضوع حساساً وغامضاً- يحتمل الإحراج أيضاً في تلك السنوات من زمن شاع فيه التعبير السياسي الصائب»[٢٤]

أخيراً، ثمة عامل الصراع العربي- الإسرائيلي. ففي الغالب، يعاني صُنّاع القرار قلّة تبصّر عندما ينظرون في الأسباب الكامنة وراء مشكلات الشرق الأوسط، حيث يركّزون تركيزاً جامعاً مانعاً على هذا الصراع، وما برحوا يلفتون الانتباه إلى الموضوع الفلسطيني على الخصوص. هكذا، تستثمر طاقة دبلوماسية غير متكافئة في الدبلوماسية الإسرائيلية- الفلسطينية على حساب معالجة قضايا إقليمية

أوسع، مثل الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩، أو تهديدات صدّام حسين للكويت سنة ١٩٩٠ وبالفعل، وقعت هذه التطورات العامة في الشرق الأوسط كمفاجآت كاملة لإدارة «جيمي كارتر» وإدارة «جورج بوش» الأب، اللتين غاصتا في تفاصيل الدبلوماسية العربية- الإسرائيلية.

يقوم التركيز الغربي، الذي يكاد يكون فردياً، على القضية الفلسطينية على افتراض مفاده أن من شان تسوية هذا الصراع أن تحل العديد من المشكلات الغربية الأخرى في الشرق الأوسط- بدءاً بالحصول على تأسيس حقوق لإقامة قواعد القوات الجوية الأمريكية في الجزيرة العربية، مروراً بتشكيل تحالف فعّال ضد العراق، وانتهاء ببلوغ استقرار أسعار البترول.

وقد أثّر هذا النزوع الخاطئ في النقاش الدائر حول مصادر الإرهاب المعاصر. فعلى سبيل المثال، قال وزير الخارجية البريطاني «جاك سترو» لصحيفة إيرانية إن «أحد العوامل التي ساعدت على نشأة الإرهاب هو الغضب الذي تشعر به شعوب كثيرة في هذه المنطقة تجاه الأحداث الجارية منذ سنوات في فلسطين»[٢٥] بل إن «كاريل مورفي»، من صحيفة «واشنطن بوست»، عبّرت عن ذلك تعبيراً مباشراً بقولها: «إذا كنا نريد تفادي خلق مزيد من الإرهابيين، يجب علينا أن ننهي الصراع الإسرائيلي- العربي عاجلاً»[٢٦] وبعد ١١ أيلول/ سبتمبر جاء فيض هادر من المقالات حول الموضوع ذاته[٢٧]

بالطبع، يُعتبر تحقيق تسوية سلمية بين إسرائيل والفلسطينيين هدفاً مرغوباً. لكن تسوية هذا الصراع لن تكون بمثابة ترياق. فالتركيز على هذا الصراع وحده سيغفل عن القوى المحرّكة الفعلية الكامنة وراء الإرهاب الموجّه ضد الغرب. كما يمثل انحرافاً دبلوماسياً يمنع

الولايات المتحدة الأمريكية والأمم الأخرى من معالجة العوامل الجوهرية التي زعزعت استقرار الشرق الأوسط.

لطالما أصاب المحللون العرب في هذه النقطة من الناحية الفكرية، حيث عادة ما يكونون سبّاقين إلى الإشارة إلى أن أسامة بن لادن لم تحرّكه القضية الفلسطينية. فعلى سبيل المثال، صرّح هشام ملحم، رئيس مكتب يومية «السفير» في واشنطن، على قناة «سي إن إن» قائلاً: «لم يخدم القضية الفلسطينية أبداً. ولم يقدّم أي شيء أبداً لمساعدة الشعب الفلسطيني. كان تركيزه على أفغانستان والشيشان»[٢٨] في الواقع، انتقدت الصحافة العربية أسامة بن لادن عن إغفاله المسألة الفلسطينية.[٢٩] وحتى عندما تحدث بن لادن سنة ١٩٩٨ عن «التحالف الصليبي الصهيوني»، كانت أولوياته المعلنة الجزيرة العربية أولاً، والعراق ثانياً، والقدس ثالثاً[٣٠] فعلى نحو واضح، ثمة أمر آخر يحرك بن لادن وأنصاره- أمر أكثر جوهرية من كراهية إسرائيل.

تنشأ كراهية إسرائيل، في نظر العديد من المتطرفين العرب، من كونها قاعدة غربية أمامية. إذ يحنقون على الغزوات الأوروبية العديدة داخل الشرق الأوسط، بدءاً باحتلال «نابليون» مصرَ سنة ١٧٩٨، وانتهاء بالأنظمة الاستعمارية البريطانية والفرنسية في الشرق الأوسط كله. ذلك أن كتيّب تدريب القاعدة يقدّم لأعضائها المظالم التاريخية، بدءاً بسقوط الإمبراطورية العثمانية لصالح القوى المتحالفة بعد الحرب العالمية الأولى، وحلِّ ديوان الخليفة (وريث الرسول والرئيس الروحي للإسلام السني)، وصعود الأنظمة العلمانية في العالم العربي والإسلامي: «بعد سقوط خلفائنا الراشدين يوم ٣ آذار/ مارس ١٩٢٤، وبعد طرد المستعمرين، ابتُليت أمتنا الإسلامية بحكام مرتدين تولّوا

أمور الأمة الإسلامية. إذ انتهى هؤلاء الحكام أكثر كفراً وجوراً من المستعمرين أنفسهم»[٣١]

وفي كل الأحوال، تمثل إسرائيل، التي لم يرد ذكرها في كتيّب القاعدة، خيطاً صغيراً في نسيج تاريخي أكبر، حيث يكتسي الغرب والأنظمة المناصرة له أهمية أكبر على العموم. ذلك أن الإيرانيين، وهم يعكسون ذلك التناسب، يشيرون إلى أمريكا بـ«الشيطان الأكبر»، وإسرائيل بـ«الشيطان الأصغر». إذ لم يبدأ بن لادن نفسه يتحدث عن العامل الإسرائيلي بشكل موسع إلا بعد هجومه يوم ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ على الولايات المتحدة الأمريكية، في محاولة واضحة للحيلولة دون بروز تحالف شرق أوسطي ضده.

باختصار، يواجه العالم العربي مشكلة مع إسرائيل بسبب غضبه العميق من الغرب.

أسس العنف الدينية والإيديولوجية

من حسن الحظ، بدأ بعض المحللين في الغرب ينظرون إلى أثر العوامل الدينية المحتمل، بما في ذلك الإيديولوجيا الوهابية، في التحريض على الإرهاب الدولي. فخلاصاتهم أشبه بتلك التي بزغت في العالم العربي والإسلامي منذ سنوات. إذ تتضمن مجموعة مقالات تحليلية لمجلس العلاقات الخارجية حول أسباب هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر والاستراتيجية الأمريكية المضادة تحليلاً لـ«ف. غريغوري غوز الثالث»، وهو خبير أمريكي رائد في شؤون الخليج الفارسي، يحمل عنواناً مستفزاً: «المملكة في الوسط: اللعبة المزدوجة للعربية السعودية». ويخلص «غوز» إلى أن على السعوديين أن يخوضوا «امتحان الضمير»، مضيفاً أن «الوهابية قد لا تشجع العنف ضد

الدولة، لكنها تمثل تأويلاً متزمّتاً ومتعصباً للإسلام على نحو خاص. وأن النخب السعودية مطالبة بالنظر في الدور الذي لعبته هذه العقيدة المتزمّتة والبنية التحتية الدينية الواسعة، التي شيّدتها حولها، في صعود بن لادن»[٣٢]

يصل «غوز»، في مقالة لاحقة، إلى استنتاج حاسم واضح: «لا شك في صحة أن نسخة الإسلام الصارمة والمتعصبة على نحو متطرف، التي تُدرّس وتُمارَس في العربية السعودية خلقت الوسط التي انبثق منها أسامة بن لادن ومجنَّدوه»[٣٣]

فضلاً عن ذلك، خلص المحلل اللبناني «رولاند جاكار»، الفرنسي المولد، إلى أن «بن لادن قد يكون رئيس [القاعدة] التنفيذي، لكنْ ثمة مجلس مديرين كامل في العربية السعودية وبلدان أخرى حول العالم». ويضيف أن تجاهل أسس القاعدة الدينية يُعتبر صدعاً عميقاً في الحملة ضد الإرهاب.[٣٤] ويعبِّر «روهان غاناراتنا»، الذي كتب تحليلاً مفصلاً حول القاعدة، عن هذا الرأي، قائلاً إن «التصدير السعودي للوهابية ساعد على إحداث البيئة الإسلامية الراهنة، حيث يجب أن يصلح السعوديون نظامهم التربوي، وأن يخلقوا نظاماً تربوياً معاصراً»[٣٥] وقد شنّ الكاتب والصحافي «ستيفان شفارتز» خلال تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢ هجوماً قوياً جداً على الوهابية، كتبه من منظور مؤيد للإسلام الصوفي كما يمارس في البلقان[٣٦]

ولفهم كيفية وسبب ابتلاء الغرب بالإرهاب يجب أن نغوص عميقاً في النظام السعودي، وأن نفحص الوهابية. سننظر في الإديولوجيا الدينية الوهابية وترجمتها إلى أفعال؛ أي في الأثر العالمي للفقهاء الوهابيين داخل العربية السعودية وتنظيماتهم الإسلامية الدولية.

سيقتفي هذا العمل، بفحص تاريخ الوهابية، أثرَ تطوّر الحماسة

الإيديولوجية التي أنتجت الإرهاب العالمي الجديد. فمنذ البداية، شكلت الوهابية حركة تعصّب شامل تجاه أولئك الذين لا يتبنّون مبادئها، بمن في ذلك المسلمون الآخرون. هذا التعصب الديني المتطرف اقتضى، أولاً، أن يستأصل رموز الحضارة غير الوهابية. إذ لم يكن هذا الأمر بمثابة ممارسة كونية للإسلام في الماضي. وحتى عندما تملّك المسلمون الأماكن المقدسة لصالح العقيدة الإسلامية كانوا عادة يُبقون على البنيات المقدسة القائمة منذ ما قبل الإسلام. وعندما فتح المسلمون مصر في القرن السابع لم يحطّموا رموز الحضارة المصرية القديمة، ولم يهدموا أبا الهول. لكن عندما هاجمت الجيوش الوهابية الأماكن المقدسة في الإسلام الشيعي جنوب العراق خلال القرن التاسع عشر خرّبت القبور ونهبت الأضرحة الدينية الأخرى.

تُعتبر هذه الأفعال، في نظر الوهابيين، جزءاً من حربهم ضد الوثنية. وهي لا تشكل خطوة كبيرة، بدءاً بنهب الوهابيين مدينة كربلاء الشيعية المقدسة سنة ١٨٠٢ إلى تدمير طالبان التماثيل البوذية في وادي «باميان» خلال آذار/ مارس ٢٠٠١ بالفعل، يتبنّى أسامة بن لادن ومتحدثون آخرون باسم القاعدة المصطلحات الوهابية عندما يسمّون أمريكا بـ«هُبَل العصر»[٣٧] فمن الناحية الضمنية، مثلما وجب تدمير هُبل، يجب كذلك استئصال الحضارة الأمريكية[٣٨] وقد تأثر بهذه الرؤية المصري السيّد نصير، أهمّ تلامذة المتعصب المصري الشيخ عمر عبد الرحمان، الذي تورّط، إلى جانب هذا الأخير، في تفجير مركز التجارة العالمي سنة ١٩٩٣ إذ عثرت الشرطة على وثائق دعا فيها نصير إلى تدمير أوثان الحضارة الأمريكية، «وتخريب بنيات أركانهم الحضارية. وبناياتهم العالمية العالية التي يفتخرون بها، وتماثيلهم»[٣٩]

كما أدّى تعصّب الوهابية الديني إلى تكرار ذبح غير الوهابيين. إذ اعتُبر هذا الأمر، أيضاً، تحريفاً للتعاليم الإسلامية الأساسية، لأن الإسلام حمى «أهل الكتاب»، رغم أنه منح في السابق موقعاً ثانوياً لليهود والمسيحيين في ظل حكمه، مانعاً ذبح أتباع الديانات التوحيدية الأخرى. ورغم أن الوهابيين لم يصطدموا عموماً بالمسيحيين واليهود خلال القرن الثامن عشر- إذ لم يوجد عملياً أي منهم في الجزيرة العربية آنذاك- فإنهم عرّفوا الشيعة المسلمين بأنهم مشركون. وهكذا، ذبحت القوات الوهابية الآلاف من الشيعة سنة ١٨٠٢ فيما يعرف اليوم بجنوب العراق. وعادة ما لا تؤول عاقبة المسلمين السنّة الذين لا يؤيدون الوهابية إلى خير.

وقد نعتت الوهابية، كما يقول الخبير الإسلامي عزيز العظمة المقيم في برلين، جيرانها القريبين بالكفّار، «مما يجعل الفتح والإخضاع أمراً إلزامياً تحت لواء الجهاد، باعتباره فعلاً سياسياً لتوسيع دولة ما، والتزاماً شرعياً- دينياً»[٤٠] ففي سنوات العشرينيات من القرن الماضي، كانت جيوش إخوان آل سعود أشبه في وحشيتها بالقوات الوهابية التي ذبحت الشيعة سنة ١٨٠٢ وقد هاجمت جماعات إسلامية متطرفة أخرى العرب العلمانيين بوصفهم مرتدين، بل حاولت أحياناً اغتيال زعمائهم.

وقد تواصلت وحشية التنظيمات الوهابية. إذ «تنظر هذه الجماعات إلى القتل الجماعي»، كما يقول كاتب عمود مصري في جريدة «الأهرام» القاهرية، «باعتباره فعلاً عقائدياً قد يقرّبها من الله، خاصة في رمضان، كما يتجلّى من حمّامات الدم التي خلقتها في الجزائر»[٤١] وبالفعل، شكلت وحدات مقاتلي أسامة بن لادن في أفغانستان إحدى لَبِنات الجماعة الإسلامية المسلحة، التي ذبحت

مدنيين خلال الحرب الأهلية الجزائرية التي خلّفت مئة ألف قتيل بين سنتي ١٩٩٢ و١٩٩٧[٤٢]

في الواقع، بلغ الاستعداد الإيديولوجي عند القاعدة للقتل الجماعي مستوى قياسياً جديداً تماماً. إذ أكد سليمان أبو الغيث، وهو متحدث باسم القاعدة، قائلاً: «يحق لنا أن نقتل أربعة ملايين أمريكي- مليونين من الأطفال- وأن ننفي ضعف هذا العدد، ونجرح ونشلّ مئات الآلاف»[٤٣]

هكذا يشتغل إرهاب أسامة بن لادن الجماعي، حيث انبجس من التقليد الوهابي في نزع المشروعية عن الجماعات الدينية الأخرى، ناعتاً أتباعها بالكفار أو المشركين، معاقباً إياهم بالقتل.

ففي أواخر التسعينيات، كانت المساجد السعودية بمثابة مراكز لتحريض ديني آثم، أصبحت بموجبه «المسيحية ديناً مشوّهاً ومحرّفاً»[٤٤] واعتُبِر الحوار بين الديانات «إثماً»، حيث «حرّم على كثيرين الجمع بين الإسلام والتجديف، بين التوحيد والشرك، بين صراط الله المستقيم وطريق الشيطان»[٤٥] وبما أن المسيحيين واليهود كفار، فمن الجائز، حسب الجوامع الدينية السعودية، «هدم معاقلهم وحرقها وتدميرها»[٤٦]

سيجادل المدافعون عن السعوديين بالقول إن لكل مجتمع جماعاته المتطرفة. لكن أولئك الذين يعبّرون عن تعصب ديني متطرف- يقع على تخوم التحريض والقتل- ليسوا، كما سنكشف، سوى نسخة سعودية من جماعة متطرفة ومتعصبة، لكنها صغيرة أشبه بتنظيم «كلو كلوكس كلان» الأمريكية. بالأحرى، فهم نتاج المجتمع والثقافة السعوديين الأساسيين، وتصونهم الحكومة.

قد يقال أيضاً إن بعض خُطب النار والكبريت، التي تلقى في

مساجد مكة ضد الأمريكيين أو المسيحيين، لا تقدّم حجةً كافية. ومع ذلك، قد يؤكد البعض أن لا أحد ينتبه إلى خطب الفقهاء. وقد يخطئ الصحافيون الزائرون في افتراض أن العربية السعودية لا تختلف عن المجتمعات الغربية، وهم يلاحظون الرموز المألوفة في المجتمعات الاستهلاكية الغربية داخل مراكز التسوق السعودية الراقية. ومما لا شك فيه أنّ عدة خطب متعصبة وعتيقة تصدر داخل عدة مجتمعات تقليدية أخرى عن زعماء دينيين وقوات محافظة أخرى؛ وفي الآن ذاته، تضيق مكوّنات المجتمع الحداثية، التي تلقّت تربية غربية، ذرعاً بهذه الخطب. إذ غالباً ما تقود هذه المكونات الكونية الدبلوماسيةَ، إلى جانب نُخب السياسة الخارجية في واشنطن أو لندن.

لكن في الواقع ثمة قلة قليلة فقط هي التي تخرّجت فعلاً من الجامعات الغربية. فخلف طبقة الحداثة الرقيقة في المجتمع السعودي توجد ساكنة واسعة تقليدية التربية تصيخ السمع لمواعظ المساجد. إذ يجدر التذكر أن محمد عطا، عضو القاعدة المصري الذي قاد الهجمات على أمريكا، توافد على مسجد هامبورغ الذي عُرِف إمامه، أو قائده الديني، بالدعوة إلى «وجوب ضرب أعناق المسيحيين واليهود»[٤٧] لكن لم يعرف ما إذا كان هذا الإمام تحت تأثير الوهابية السعودية. غير أن حالة عطا تُظهر أن التحريض الديني قد يصبح جزءاً لا يتجزأ من الإرهاب.

وقد قال أستاذ سعودي يدرّس الفقه الإسلامي في الرياض لصحافي من جريدة «نيويورك تايمز»: «نعم أكرهك بالفعل لأنك مسيحي، لكن هذا لا يعني أنني أريد قتلك»[٤٨] وتحدّى مستمعه الغربي أساساً أن يثبت العلاقة بين الكراهية والعنف. لكن تاريخ القاعدة الحديث يظهر مدى تطرّف التحريض الديني المتشدد.

ومع ذلك، لا يروم هذا التحليل أن يَسِمَ مذهباً برمّته بالإرهاب. إذ قد تكون لأنصار الوهابية نقاشاتهم الدينية الداخلية حول قضايا معيّنة، مثل دور الأولياء والقائمين على الصلاة، وقد تكون لهم نقاشاتهم المشروعة مع مسلمين آخرين حول مدى تلاؤم الاحتفال بعيد ميلاد النبي محمد. هذه قضايا على الزعماء المسلمين الدينيين أن يبثوا فيها فيما بينهم. ذلك أن المشكلة تبدأ حينما تقود بعض الاعتقادات الدينية إلى الادعاء أن جماعات بكاملها من الناس لا تملك الحق في الحياة، وإنما تستحق الذبح.

لم يعد هذا الأمر موضوع تعصب ديني، بل مسألة أمن شامل بالأحرى، لأن هذه الادعاءات أفرزت آفة الإرهاب العالمي الحديثة. ولوضع حد لأنواع الرعب التي ارتكبها أسامة بن لادن تقتضي الضرورة القصوى فهم البيئة الفريدة التي نشأ منها الإرهاب. من هنا، يجب أن تُلقى نظرة فاحصة على الآليات الداخلية المتحكمة في العربية السعودية، حليف أمريكا المزعوم.

الفصل الأول

الأصول العنيفة

إحياء الجهاد والحرب ضد المشركين

انتشر الإسلام في الشرق الأوسط انطلاقاً من شبه الجزيرة العربية في منتصف القرن السابع بفتوحات عسكرية قادها النبي محمد وخلفاؤه. وفي غضون مئة سنة بسطت جيوش الإسلام سيطرتَها من جنوب فرنسا حتى الهند. وبعد ألف عام اعتبرت هذه الحملة العسكرية الاستثنائية نموذجاً احتذت به الحركة الوهابية، التي تعتبر حركة دينية جديدة في شبه الجزيرة العربية. إذ أحيى الوهابيون الجهادَ، ليمثل صُلب قضيتهم، محفزين أتباعهم بمكافآت الشهادة، بما في ذلك تبشير من سقطوا في ساحة المعركة- بعد القيام بواجبهم في نشر العقيدة- بالذهاب إلى الجنة مباشرة.

العُهدة السعودية- الوهابية

رأى محمد بن عبد الوهاب، مؤسس الوهابية، النور في زمن ما بين ١٦٩٩ و١٧٠٣ في قرية العُيَينة، التي تقع في هضبة نجد في الوسط الشرقي من جزيرة العرب. إذ تختلف هذه المنطقة الداخلية المعزولة نسبياً عن الحجاز حيث تقع المدينتان المقدستان مكة والمدينة

وميناء جدة الدولي الواقع على البحر الأحمر، وعن الأحساء التي تمتد على طول ساحل الخليج الفارسي.

لم يبق محمد بن عبد الوهاب أسير نجد. إذ رحل قاضي العيينة[١]، بعد أن درس على يد أبيه، إلى المدينة حيث تأثر بتلامذة ابن حنبل، وعشاق كتابات فقيه القرن الربع عشر ابن تيمية (توفي عام ١٣٢٨م)، الذي أثبت أن تأثيرات خارجية متزايدة تسرّبت إلى الإسلام بعد الغزوات المنغولية في الشرق الأوسط. وأدان المسلمين الذين تبنّوا ممارسات مسيحية، واعترض على تبجيل القدس المفرط، طالما أن هذه الممارسة مستعارة من اليهودية[٢] ففي رواية أن ابن عبد الوهاب وجد أعماله أخّاذة، إلى حد أنه استنسخها فعلاً بيديه[٣]

سافر ابن عبد الوهاب خارج جزيرة العرب إلى ما يسمّى اليوم بالعراق وسوريا. إذ تظهر الشواهد أنه درس في مدينتي أصفهان وقمّ الفارسيتين خلال حكم نادر شاه (١٧٣٦-١٧٤٧)، الذي حاول أن يعيد بلاد الفرس إلى الإسلام السني، بعد أن تبنّت الإسلام الشيعي ديناً للدولة في أوائل القرن السادس عشر[٤] ولفترة من الزمن صار ابن عبد الوهاب نصيرا للصوفية، لكنه تبرّأ منها في نهاية المطاف[٥] كما زار البصرة، الواقعة جنوب العراق، لكنه طُرد منها ربما بسبب آرائه الدينية المتشددة[٦] باختصار، اكتملت معرفته بأهم مدارس الممارسة الإسلامية بفضل سفره عبر أهمّ مراكز العالم الإسلامي.

كان العالم الإسلامي يتغير خلال هذه الفترة، لأن التوسع العسكري الإسلامي تجمّد بعد أن صُدَّت جيوش الإمبراطورية العسكرية أمام أبواب فيينا سنة ١٦٨٣ وفي سنة ١٧٧١، تخلى العثمانيون عن الأرض لصالح الإمبراطورية الروسية لأول مرة. وصارت السفن البريطانية والهولندية منتظمة في الإبحار إلى الخليج

الفارسي، مرسّخة حضوراً تجارياً، مثلما فعل البرتغاليون قرناً قبل ذلك. وربما كانت هذه التطورات بعيدة عن آفاق سكان نجد، لكن كانت تُناقَش على الأرجح في المراكز الحضرية في الشرق الأوسط الذي زاره ابن عبد الوهاب.

خلص ابن عبد الوهاب، عند عودته إلى جزيرة العرب، إلى أن تأثيرات خارجية أفسدت الإسلام، الذي كان يمارس في المدن العثمانية والفارسية التي زارها. إذ قهر الإسلام حضارات سابقة عديدة، لكنه امتصّ العديد من ممارساتها أثناء ذلك. فعلى سبيل المثال، أصبح تبجيل الأولياء، بما في ذلك الحج وطقوس التعبد في أضرحتهم، ذائع الانتشار.

ربما كان ابن عبد الوهاب يحاول أن يشرح تزايد نفوذ الغرب المسيحي، الذي ربطه بالانحلال في الإسلام في ظل الإمبراطورية العثمانية. ونتيجة لذلك قارب الإسلام بطريقة خاصة، مقاربة تشدد على الحاجة إلى القضاء على أي انحراف عن العقيدة الإسلامية التقليدية خاصة ممارسات الشرك. إذ ارتأى إحياء الإسلام الطُهراني كما كان في عهد النبي محمد والسلف الصالح. وبعد سنوات سَمّى أتباعه، في الواقع، أنفسهم بالسلفيين. لكن حركته تحددت، على العموم، بما عارضته أكثر مما دافعت عنه.

كما عارض ابن عبد الوهاب بشدة بعض الممارسات البدوية في بلدته نجد، بما في ذلك تقديس الأموات، الذي يستلزم التضرّع وتقديم القرابين إلى أضرحتهم. ففي ضريح بجبيلة التمس الناس النجاح في التجارة. بل تعوّدت النساء على حك أنفسهن بالأصنام بغية الإنجاب. وعَبَد بعض المسلمين أشجاراً مقدسة. فلم ينسجم إضفاء قوى قدسية على أشياء جامدة مع تصوّر ابن عبد الوهاب للإسلام الحق.[٧]

كتب ابن عبد الوهاب في «كتاب التوحيد» قائلاً: «الإسلام، فوق كل شيء، نبذ لكل أنواع الآلهة، ورفض السماح للآخرين بالمشاركة في العبادة الخالصة لله وحده. والشرك شرّ مهما كان موضوعه، سواء كان ملكاً أو نبياً أو قدّيساً أو شجرة أو قبراً»[٨]

لقد أصبحت الحرب ضد الشرك انشغاله المركزي. وفي هذا كان ابن عبد الوهاب يتبع ما أدرك أنه الإسلام الطاهر، لأن القرآن يقول: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم»[٩] إذ كان المشركون هم عدوّه المعلن، لكنّ تعريفه الشركَ اختلف أيّما اختلاف عن تعريف بقية العالم الإسلامي.

وقد خرّب ابن عبد الوهاب، باسم توحيده الصارم الجديد، قبور صحابة الرسول محمد، التي أصبحت موضوع تبجيل. ذلك أنه هدم قبر زيد بن الخطاب، أخي عمر بن الخطاب ثاني خلفاء الإسلام[١٠] وأكد أن الصلاة في القبور أشبه بتبجيل المسيحيين للأولياء. لكن التأثيرات المسيحية لم تشكل انشغاله الوحيد، حيث أصبح الإسلام، بُعيد ظهوره، منقسماً بين المذهب السنّي الأساس والمذهب الشيعي. ففي البداية، تقاتل المذهبان حول من وجب أن يكون خليفة النبي محمد. وسرعان ما انتصر الإسلام السنّي. وفي الوقت المعاصر، لا يشكل المنتمون إلى الجماعات الشيعية المختلفة سوى ١٦ في المئة من المسلمين[١١] غير أن أوسع التكتلات الشيعية في زمن ابن عبد الوهاب تركزت في إيران والعراق والبحرين، وعلى امتداد الساحل الشرقي من شبه الجزيرة العربية.

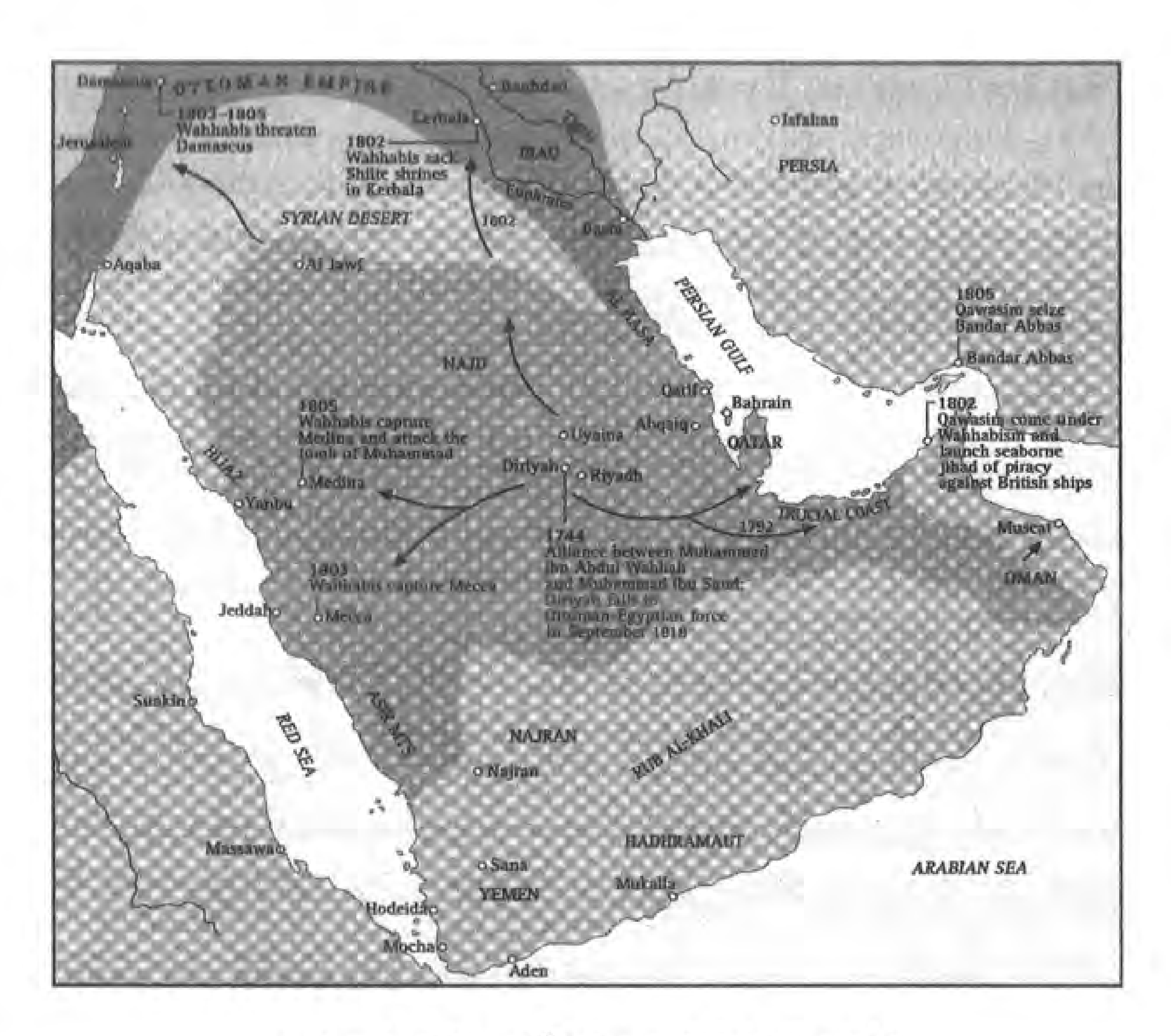
لقد أضاف شيعة علي، صهر الرسول، بُعداً لاهوتياً إلى نقاش الخلافة. ذلك أنهم أضفوا صفات دينية خاصة على عليّ وابنيه الحسن والحسين، وعلى سلالتهم أيضاً. إذ أسّس عليّ وخلفاؤه إمامة يرثها

الزعماء الروحيون الذين يملكون المعرفة السرية والقوى الخارقة، وينتظر أن يعود الإمام الثاني عشر في صورة مهدي منتظر وسيط بين الإنسان والله. بل إن عليا اشترك، كما يقول الشيعة، في النبوّة مع محمد. ولأن الإسلام الشيعي يبجّل عليّاً وخلفاءه فإن الشيعة أثاروا غضب ابن عبد الوهاب وأتباعه.

بل إن ابن عبد الوهاب أنزل العقوبة الإسلامية القديمة على زانية، راجماً إياها حتى الموت، وهو أمر اعتبره الزعماء المسلمون الآخرون مهجوراً[١٢] إذ تغذّى تعصّبه برغبة في إعادة خلق الإسلام الحق القائم على ما أدرك أنه الممارسة الإسلامية في جزيرة العرب خلال عهد الرسول في القرن السابع. لكن ابن عبد الوهاب طُرد من العُيينة، لأن كثيراً من أنشطته أثارت حفيظة العلماء المحليين، أو الزعامة الدينية، حيث بحث عن حامٍ جديد- وصار الأمر ضرورة ملحة لأنه خاصم أمير قبيلته ووالده معاً.

في نهاية المطاف، آواه محمد بن سعود، حاكم الدرعيّة القريبة من الرياض. ولربما كانت نجد، وقتئذ، تخضع صورياً لحكم الإمبراطورية العثمانية، لكنها كانت مقسّمة أساساً بين العديد من العائلات القبلية، مثل آل سعود في الدرعية. عقد الرجلان حلفاً سنة ١٧٤٤ إذ تقول رواية إن ابن سعود طمأن حليفه الجديد: «هذه الواحة واحتك، لا تخش أعداءك. ولو اجتمعت نجد كلها لإخراجك لما اتفقنا على طردك». وأجاب ابن عبد الوهاب قائلاً: «إنكم قائد الاستقرار ورجل حكيم. أريدك أن تقسم لي على كلمة جهاد الكفار»[١٣]

هكذا، عقد محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب ميثاقاً، أسس بموجبه ابنُ سعود الدولة السعودية الأولى، ووضع ابنُ عبد الوهاب



الإمارة الوهابية السعودية الأولى: ١٧٤٤-١٨١٨

عقيدتها الرسمية. كان الميثاق، باختصار، صفقة سياسية، حيث سيحمي ابنُ سعود ابنَ عبد الوهاب وينشر عقيدته الجديدة، بينما يُضفي ابنُ عبد الوهاب المشروعية على الحكم السعودي داخل دائرة متسعة من قبائل البدو، التي أخضعها الجهاد الجديد. كما أصبح ابن سعود إمام جماعة ابن عبد الوهاب الدينية الجديدة. (ويظهر أنه استخدم فقط لقب *الأمير*؛ غير أن الأجيال اللاحقة من الزعماء السعوديين تبنّوا بالفعل مصطلح *الإمام*)[١٤]

بل إن ميثاقهما تضمّن زواجاً أميرياً، حيث تزوّج ابن سعود ابنة

عبد الوهاب[١٥] ولقد قامت سلالة آل سعود وآل الشيخ مقام زعماء الدولة السعودية الأصلية لأجيال. وسمّت الجماعة الجديدة حركتها باسم *الدعوة والتوحيد*. لكن سُمّيت العقيدة الطُهرانية الجديدة في الغرب بالوهّابية نسبة إلى مؤسّسها، وسُمّي أتباعها بالوهابيين.

التطرف والوحشية

بهذا التحالف السياسي- الديني أمكنت الإغارة على القبائل آنذاك كقضية دينية. فما كان في السابق غنيمة أضحى يُطلب الآن زكاة. فعلى نحو ملحوظ شَرْعَن ابن عبد الوهاب الجهاد ضد إخوته من المسلمين لأول مرة، حيث سينسخ الغزوات الإسلامية خلال القرن السابع بفضل تحالفه العسكري مع ابن سعود.

منذ ذلك القرن برزت في الإسلام السني الأساس أربعة تأويلات أو مذاهب فقهية مختلفة هي: المذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي، والمذهب الحنفي، والمذهب المالكي. إذ انتشر المذهب الحنفي على نطاق واسع داخل الإمبراطورية العثمانية، حيث تباينت آراء المذاهب حول القيام بالشعائر الدينية، لكنها تباينت أيضاً في ما يتعلق بالفلسفة السياسية. ورغم أن ابن عبد الوهاب لم يؤسس مذهباً جديداً، فإن دعوته داخل المذهب الحنبلي تميّزت بانفصال واضح عن الإسلام الأساس. إذ ظل أتباع المذهب الإسلامي السنّي الواحد ينظرون، طيلة قرون، إلى أتباع المذهب الآخر كمسلمين حقيقيين، لكن ابن عبد الوهاب قطع مع هذا التقليد.

وقد أثارت الطبيعةُ الجذرية لخلاف ابن عبد الوهاب مع الإسلام الأساس انتباهَ الشيخ جميل الزهاوي (١٨٦٣-١٩٣٦)، وهو فقيه بغدادي أصبح ابنه مُفتيَ مُفتي العراقِ العثماني. إذ كتب مناهضاً تاريخ

الحركة الوهابي: «ويسمي له جماعة من أكابر العلماء الماضين أنهم كانوا كفاراً!. وكان يصرّح بتكفير الأمة منذ ستمئة سنة، ويكفّر كل من لا يتبعه»[١٦]

وأورد الزهاوي كيف ذهب ابن عبد الوهاب- الذي قرر أن الصلوات يجب ألا تلمّح إلى أي نوع من التدخل الإنساني، حتى من خلال النبي محمد- أبعد إلى حد إحراق الكتب التي تتضمن الصلاة على النبي، وتدمير مجلدات الشريعة الإسلامية، وتفاسير القرآن، والتحليلات العلمية للأحاديث.

واشترك أيوب صبري باشا (الذي توفي سنة ١٨٩٠)، وهو لواء الأسطول العثماني في عهد السلطان عبد الحميد خان الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩)، في تأليف كتاب في تاريخ أصول الوهابية. وبحسب رواية هذا الكتاب، أعلن ابن عبد الوهاب وابن سعود أن من لا يقبلون الوهابية هم «كفّار ومشركون»، ولذلك من الجائز «قتلهم ومصادرة أملاكهم»[١٧] وهكذا، استطاعت الوهابية أن تنتشر بالقوة العسكرية.

كان التكفير عقيدة من عقائد الوهابية المركزية، وهي تهمة تفيد أن المسلمين قد يصبحون كفاراً، أو أسوأ من ذلك، بالانخراط في أنشطة دينية خاطئة. وحتى من نطق الشهادة، وظل يأتي الشرك ينبغي أن «يُكفَّر ويُقتَل»[١٨] ففي رسالة إلى منتقد، عرّف ابن عبد الوهاب الكافر بأنه من «عرف دين الرسول، وظل واقفاً ضده، ويمنع الآخرين من اعتناقه، ويظهر العداء لمن يتبع دينه»[١٩] إذ شرع هذا التعريف الباب أمام حرب دينية ضد المسلمين الذين يعرفون الإسلام تعريفاً مختلفاً عن العقيدة الوهابية.

لقد وصف «دومينغو باديا إي ليبليش»، وكيل «نابليون» الذي زار الجزيرة العربية سنة ١٨٠٧ باسم علي باي (العباسي)، كيف عامل

التعامل الوهابي- السعودي أولئك الذين لم يخلصوا الولاء للوهابية بالقول:

> اعتنقت إصلاحَ ابن عبد الوهاب، الذي سلّم به ابن سعود، كلُّ القبائل الخاضعة لحكمه. إذ شكل هذا الأمر ذريعة لمهاجمة القبائل المجاورة، التي أُجبرت تباعاً على الخيار بين الإصلاح أو الهلاك بسيف المصلح[٢٠]

كان الوهابيون قساة على خصومهم، حيث خيّروا «المشركين» الأسرى بين خيارين: اعتناق الوهابية أو الموت.

وجاء انتشار الدين هذا، في الواقع، انطلاقاً من الإسلام الكلاسيكي، لا استمراراً له. صحيح أن الرسول محمد أمر المسلمين أن «يجاهدوا في سبيل الله»، حيث يفهم ذلك أنه مصدر الجهاد. وفي القرن السابع، بسطت جيوش المسلمين هيمنة الإسلام الجغرافية- «دار الإسلام»- عبر التوسع في العالم الخارجي، في «دار الحرب»، التي تضمنت بيزنطة والإمبراطوريات الفارسية.

بيد أن جيوش المسلمين المنتصرة لم تجبر شعوب هذه المناطق المغلوبة على تغيير دينها، حيث حظي المسيحيون واليهود بالحماية، باعتبارهم «موحدين» و«أهل كتاب». وعلى امتداد القرون الموالية لم يعتنق كثيرون الإسلام، ليس لأن حياتهم كانت في خطر، بل لأنهم كانوا يأملون الانعتاق من الرسوم التمييزية التي فرضتها عليهم الإمبراطوريات الإسلامية المتعاقبة، كالجزية والخراج وهما ضريبتان تمييزيتان مفروضتان على الأرض.

باختصار، إن الصورة الشعبية، التي تفيد أن الإسلام انتشر بحد السيف المسلط على أعناق من قد يغيرون دينهم، هي صورة غير

صحيحة ببساطة. ففي نظر «برنارد لويس»، المؤرخ البارز المتخصص في قضايا الشرق الأوسط، «لم يكن تطبيق الجهاد قاسياً أو عنيفاً»[٢١] إذ يشرح «لويس» أن الفتح الإسلامي، الذي امتد إلى فرنسا والهند والصين بعد مئة وخمسين عاماً من تأسيس الإسلام فقد أغلب قوته: «فبينما انتهت الخلافة العالمية إلى دويلات، انتهى الجهاد الصامد والدائم، وقامت علاقة تسامح متبادل بين العالم الإسلامي وبقية أقطار العالم». وحتى عندما قاد العثمانيون حرب توسع مقدسة أواخر القرن السابع لم يُعتمَد الجهاد في جميع الأحوال والأمكنة. إذ قاتلوا في البلقان على أبواب فيينا، وفي روسيا (الأرذوكسية) أيضا، لكنهم لم يبذلوا أي جهد لاستعادة الأندلس أو صقلية. ففي حالات عديدة لم تكن الفتوحات الإسلامية في «دار الحرب» مُجدية، حتى ينتقل الجهاد، كما يقول «لويس»، من «زمن تاريخي إلى زمن تبشيري». وعندما دعا العثمانيون إلى جهاد قوى التحالف خلال الحرب العالمية الأولى لم تتمكن دعوتهم من توحيد العالم الإسلامي.

وقد لاحظ «السير هاميلتون جيب»، الخبير البريطاني في الإسلام، أن «مفهوم الجهاد ضعف تدريجياً داخل المجتمع التاريخي، وأعيد تأويله على نحو واسع وفق الأخلاق الصوفية»[٢٢] ولاحظ محلل آخر أن «الجهاد تلاشى»[٢٣] إذ بات الجهاد مع جمود النزعة التوسعية الإسلامية مستبطناً كصراع أخلاقي أو روحي.[٢٤] هكذا، وعلى نحو مفاجئ، اعتبرت الجماعاتُ المتشددة خلال التسعينيات مثل الجهاد الإسلامي المصرية الجهادَ «واجباً مهملاً»[٢٥] وظهر أن المتشددين تاقوا إلى الجهاد العسكري كما كان في القرن السابع.

ففي تعبير ديني محض، لم يكن المفهوم العسكري التقليدي

للجهاد سهلا، حتى عندما يصبح ممكناً من الناحية السياسية. إذ لا يُنادى على الجهاد في الفقه الإسلامي السنّي الصارم إلا عندما تتوفر له دلائل نجاح معقولة. ذلك أن القرآن ينصح: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، (إن الله لا يحب المعتدين)»[٢٦] يجدر التذكير أن الجهاد ليس ركناً من الأركان الخمسة في العقيدة الإسلامية.

وفي أواخر شهر آذار/ مارس ٢٠٠٢، شرح الإمام الأكبر لجامع الأزهر محمد سيّد طنطاوي أن الجهاد لا يعلنه سوى رئيس دولة أو زعيم الشعوب العربية كلها، وفقط عندما تُغزى الأراضي العربية وتُحتل[٢٧] وهذا يعني ضمناً أن سلطة سياسية دينية مركزية في الإسلام السني، أشبه بالخليفة، باتت ضرورية لإعلان الجهاد، ومن هنا تضمن لشهدائه دخول الجنة.

وقد حاول الفقهاء المسلمون السنّة التقليل من أهمية الجهاد بطرق عدة خلال العصور الوسطى المتأخرة. إذ قالوا إن حسنات أولئك الذين يموتون أثناء الجهاد قد تكتسب عبر أنماط أخرى من العبادة، مثل السفر إلى المدينة بغية تعلّم الحكمة الإسلامية أو تعليمها. بل إن الفقهاء قرروا، لإخضاع الحركات الدينية المتشددة المناهضة للسلطة المركزية في الدولة، أن «الجهاد الذي يُشنّ انطلاقاً من معارضة السلطة لا يملك حق المطالبة بثواب الله». لأنهم انشغلوا بنشوب الفتنة ضد الحاكم الشرعي[٢٨]

وفي ظل الإسلام الشيعي، لن يباشر أي جهاد عسكري هجومي ضد الكفار إلا بعودة الإمام الثاني عشر، حيث أرجئ الجهاد إلى أن «يظهر الإمام ثانية كمهدي منتظر لاستعادة الإسلام الأصلي»[٢٩] وحدهم الخوارج، الذين يشكلون حركة أقلية عنيفة انسحبت من

الإسلام الأساس وتمرّدت على الخلافة خلال القرن السابع، عرّفوا فعلاً الجهاد باعتباره ركناً سادساً من أركان عقيدتهم.

غير أن الكتابات الوهابية ارتقت بالجهاد إلى مستوى الواجب المركزي في الإسلام، وهي تنسب إلى النبي محمد أقوالاً مثل: «الجهاد ذروة سنام الإسلام، كما يقول الرسول.. إنه الفرن الذي يُصهر فيه المسلم، والذي يسمح بفصل المسلم الخبيث عن المسلم الطيب. إنه أيضا تذكرة مرور إلى الجنة، والجنة تحت ظلال السيوف». ليس هذا الجهاد، فوق ذلك، سوى «صراع مسلّح»، بدل أين يكون جهاداً داخلياً للنفس[٣٠]

قدّم ابن عبد الوهاب، في *كتاب التوحيد*، أجندة متطرفة في معاداة المسيحية واليهودية، واصفاً أتباع الديانتين معاً كسحرة يؤمنون بعبادة الشيطان. إذ ذكر حديثاً مفاده أن «حد الساحر ضربُه بالسيف»[٣١] وكتب أن الجماعتين معاً جعلتا، على نحو خاطئ، من قبور أنبيائهما أمكنة للعبادة، وحذّر المسلمين من تكرار أخطائهما التاريخية.[٣٢] وخلص ابن عبد الوهاب إلى أن «سُنَّة أهل الكتاب مذمومة كسُنّة المشركين»[٣٣] إذ جعل هذا التحليل الوهابية متعصبة إزاء المسيحية واليهودية أكثر مما كان عليه الإسلام الكلاسيكي.

وقد سمح تبنّي الجهاد للوهابية بمنح مقاتليها مزايا الاستشهاد الكاملة- أي الدخول المباشر إلى الجنة. إذ كان هذا الأمر بمثابة إغواء كبير، لأن المسلمين كلهم يواجهون، بحسب التقليد الإسلامي، «يوم القيامة» الذي يحدد دخولهم الجنة أو جهنم. ذلك أن القرآن يصف الجنة بأنها «جنة النعيم». «فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّر طعمُه، وأنهارٌ من خمرٍ لذّةً للشاربين وأنهارٌ من عَسلٍ مُصفّى»، وفيها عذارى حور عِين «عُرُباً أتراباً»[٣٤] فبإحياء الجهاد وذمّ

الأعداء كمشركين لا يستحقون الحياة مهّدت الوهابية الطريق لنجاح حملاتها العسكرية السريع خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ولوحشيّتها المشينة.

الحملات العسكرية السعودية- الوهابية

رغم أن محمد بن سعود توفي سنة ١٧٦٥ فقد واصل ابنه عبد العزيز الحروب الوهابية، وبلغ ساحل الخليج الفارسي سنة ١٧٨٠ عندما استولى على الأحساء. وتقدم الوهابيون نحو الكويت سنة ١٧٨٨ واعترفت البحرين بسيادتهم بدفع الزكاة للزعيم السعودي. لكن سرعان ما تعرّض الوهابيون للهجوم. ففي سنة ١٧٩٠ أرسل الشريف غالب بن مساعد، الذي عيّنه العثمانيون حاكماً على مكة، جيشاً من الحجاز لمحاربتهم، لكنه هُزِم. وبعد سبع سنوات أرسل حاكم بغداد العثماني جيشاً قوامه سبعة آلاف تركي وأربعة عشر ألف عربي لمحاربة الجيش الوهابي بقيادة سعود، ابن عبد العزيز، ليخسر الجيش العثماني هذه المعركة أيضاً.

وقد توفي محمد بن عبد الوهاب سنة ١٧٩١، لكن الحملة الوهابية التوسعية استمرت. إذ أرسل عبد العزيز نسخة من كتابات ابن عبد الوهاب إلى حكام عُمان طالباً منهم أن يتبنّوا، هم وشعبهم، العقيدة الوهابية، وهو اقتراح رفضه العُمانيون. وقد كتب ابن رزيق، وهو مؤرّخ عُماني، عن هذا العمل يقول: «إنه كتيّب. يُبيح قتل كل المسلمين الذين ينشقّون عنهم (الوهابيين)، والاستيلاء على ممتلكاتهم، واسترقاق أبنائهم، والزواج من زوجاتهم دون طلاق»[٣٥]

وفي ربيع سنة ١٨٠٢ احتل اثنا عشر ألف وهابي بقيادة سعود الجزء الجنوبي من العراق العثماني. وفي شهر نيسان/ أبريل من السنة

ذاتها دخل الجيش كربلاء حيث ذبح حوالي أربعة آلاف شيعي، ونهب الأضرحة الشيعية المقدسة، بما في ذلك قبر الشهيد الحسين، حفيد النبي محمد(٣٦) وبعد نهب المدينة غادر الوهابيون حاملين غنائم ثمينة تضمّ سيوفاً مرصّعة بالجواهر، ومسدسات، وحلياً ذهبية، وزرابي فارسية، ونقلوا كل ذلك على ظهور أربعة آلاف جمل(٣٧)

وقد سجّل علي باي طبيعة الهجوم على كربلاء قائلاً: «لم يصمد السكان طويلاً، وأعمل الغزاة السيف في رقاب الرجال والأطفال الذكور من الأعمار كلها. وبينما كانوا ينفّذون هذه المجزرة الرهيبة، كان طبيب وهابي يصرخ من أعلى برج: «اقتلوا واشنقوا كل الكفار الذين يشركون بالله»»(٣٨) وبالفعل، شكل الاقتناع بأن خصومهم «مشركون» التبرير الذي احتاج إليه الوهابيون لارتكاب المجزرة(٣٩)

وقد عدّد مصدر غربي آخر، هو «ج. روسو» والذي عاش في العراق خلال هذه الفترة، مظاهر الرعب في الهجوم الوهابي على كربلاء: «مات الشيوخ والنساء والأطفال بحدّ سيف المتوحشين. فضلاً عن ذلك، يقال إنهم كلما رأوا حاملاً بقروا بطنها وتركوا الجنين فوق جثمان الأم الدامي. إذ لم تشف وحشيتهم غليلهم، حيث لم يتوقفوا عن القتل، وتدفق الدم كالماء»(٤٠)

وفي سنة ١٨٠٥، حاصرت القوات الوهابية النجف، المدينة الشيعية المقدسة في العراق، ومدفن عليّ صهر النبي محمد. ولرد الهجوم دعا فقيه قيادي شيعي، باعتباره مندوب الإمام المنتظر، إلى جهاد دفاعي مبرر ضد «أعداء الإسلام»(٤١) وبخلاف كربلاء لم تنهزم النجف.

لكن كانت النجف استثناء خلال هذه الفترة. ففي سنة ١٨٠٣ وقعت مكة المكرّمة في يد جيش وهابي بقيادة سعود، حيث واصل

الوهابيون عادتهم في تخريب الأضرحة. ويروي علي باي أن «سعود أمر بأن تسوّى بالأرض كل المساجد والصوامع المكرّسة لذكر النبي وآله». إذ دمّروا «أضرحة الأولياء والأبطال التي احتُفظ بها على سبيل التبجيل»[٤٢] فهدم الجيش صومعة في جبل النور حيث أنزل جبريل الفصل الأول من القرآن على النبي محمد، كما يقول التقليد الإسلامي. ثم عيّن الوهابيون حارساً على الجبل، ليمنع الحجاج من الصلاة في قمته[٤٣]

لكنّ قاتلاً شيعياً قتل عبد العزيز في مسجد الدرعية يوم ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٠٣ انتقاماً لنهب كربلاء. غير أن الوهابيين، الذين لم يرتدعوا، واصلوا حملاتهم في عهد سعود، لتسقط المدينة المنوّرة بعد ذلك بسنة.

وأضحى هجوم الوهابيين سنة ١٨٠٢ على قلعة الطائف، خصوصاً، معروفاً كفعل من أفعال البربرية الهمجية. إذ رفع الطائفيون علم الهدنة فوق قلعتهم. لكن مبعوث الوهابيين طلب كل ممتلكات سكان الطائف كشرط للاستسلام، على أن يضمن في المقابل حياة الرجال فقط بينما يغلل النساء والأطفال.

فشلت مهمة المبعوث. إذ كتب مؤرّخ أن الوهابيين «أعملوا السيف في كل من صادفوه من الأهالي، دون أن يفرّقوا بين رجل أو امرأة أو طفل. ولم يتورّعوا عن تمزيق الأبرياء إرباً إرباً في منامهم ومخادعهم». واستسلم الناجون بعد اثني عشر يوماً، لكنهم «أصعدوا ٣٦٧ رجلاً مكبّلي الأيدي إلى ظهورهم ومعهم أطفالهم ونساؤهم إلى التل المذكور، وقتلوهم عن بكرة أبيهم»[٤٤]

وفي المدينة المنوّرة طبّق الوهابيون عقيدتهم الدينية القاضية بتدمير

الأضرحة وتحريم أي شيء أشبه بتمجيد الأولياء. بل ذهب الوهابيون أبعد من أفعالهم في كربلاء عندما حاولوا هدم القباب الفخمة القائمة فوق قبر النبي محمد نفسه[٤٥] كما أزال الغزاة الوهابيون كل الأشياء الثمينة من القبر، ونهبوا خزينة مسجد الرسول[٤٦] وطردوا ساكنة المدينة المنوّرة التركية الواسعة، وهو فعل استعدى بوضوح الإمبراطورية العثمانية[٤٧]

وفي سنة ١٨٠٢، كان الوهابيون قد أخضعوا ساحل الخليج الفارسي بكامله، من البصرة شمالاً إلى خليج عُمان. وفي ظل النفوذ الوهابي استهدف قراصنة من قبيلة القواسم في الخليج الأدنى السفنَ البريطانية. إذ زعم تقييم بريطاني أن «الوهابيين حثوا» القواسم على توسيع أنشطتهم لتشمل سواحل الهند[٤٨] بل عبر الوهابيون القواسم الخليج الفارسي، واستولوا سنة ١٨٠٥ على بندر عباس (التي تعتبر اليوم القاعدة الأساسية للبحرية الإيرانية). ففي أواخر خمسينيات القرن الماضي لخّص «دونالد هاولي»، العميل السياسي البريطاني السابق في ولايات الساحل المهادن (Trucial States) (التي تعرف اليوم باسم الإمارات العربية المتحدة)، تاريخَ هؤلاء القراصنة الوهابيين بالقول إن «الورع الديني الوهابي أثّر في القواسم، الذين جرفهم حماس الاهتداء إلى درجة المغامرة في البحر الذي ربما ما كانوا ليبلغوه بطريقة أخرى»[٤٩]

حسب هذه الرواية، امتد الحراك والنزعة التوسعية الوهابيان إلى أن بلغ البحر، حتى إن البحارة الأوربيين سمّوا شاطئ الشارقة ورأس الخيمة بـ«ساحل القراصنة». كما أشار معلق إلى القرصنة الوهابية بـ«الجهاد البحري»[٥٠] وفي نهاية المطاف هدّأ البريطانيون الساحل العربي، وعقدوا هدناً منفصلة مع كل شيخ قبلي لكبح القرصنة. إذ

أضحت مشيخات ساحل القرصنة معروفة، بفضل هذه الهدن، باسم «المشيخات المهادنة».

واستؤنفت الغزوات الوهابية في العراق سنة ١٨٠٥، وامتدت إلى سوريا أيضاً. ففي سنة ١٨٠٨ طلب سعود من شيوخ دمشق وحلب اعتناق الوهابية. وأغار حلفاؤه من القبائل المخضعة من جبل شمّر على الصحراء السورية نيابة عنه، وتحدوا دمشق سنة ١٨١٠[٥١] وفي سنوات ١٨٠٨ و١٨١٠ و١٨١٢ هددت الغارات الوهابية بغداد. وسرعان ما بلغ مجال التأثير الوهابي تدمر في الشمال، ثم امتدّ عميقاً داخل سوريا، ليصل إلى عمان في الجنوب. وأضحت الدولة السعودية الناشئة أوسع كيان سياسي مفرد ينبثق في شبه الجزيرة العربية منذ زمن النبي محمد.

وأنذر تعاظم هذه النجاحات العسكرية بتهديد النظام السياسي في الشرق الأوسط. ذلك أن جلّ هذه المنطقة كان ما يزال خاضعاً اسمياً لمراقبة الإمبراطورية العثمانية، لكن الرعايا العثمانيين أوّلوا الانتصارات الوهابية بأنها تعبير عن غضب الله من البدع التي أدخلها السلطان العثماني سليم الثالث (١٧٨٩- ١٨٠٧)[٥٢] ففي سنة ١٨٠٣ عيّن سليم الثالث، الذي أصبحت سلطته السياسية تواجه تحديات كبرى، حاكماً جديداً على دمشق لمعالجة التهديد الوهابي[٥٣]

لكن التهديد الوهابي لم يكن سياسياً فحسب، بل كان كل انتصار وهابي على الرعايا العثمانيين يقوّض كذلك السلطة الدينية للسلطان سليم الثالث، الذي كان خليفة (ومن ثمة حامي) الإسلام السنّي. إذ كان الرد العثماني دفاعاً عن الإسلام السنّي أمراً حتمياً.

الفصل الثاني

مواجهة الخطر الإرهابي

خلال القرن التاسع عشر، باتت الإمبراطورية العثمانية آخر قوة في سلسلة قوات إسلامية عظمى بدأت منذ القرن السابع مع الغزوات العسكرية تحت قيادة النبي محمد. إذ تواصل التوسع الإسلامي، بعد وفاة النبي، تحت قيادة خلفائه- الخلفاء الراشدين (الذين استقروا في المدينة المنوّرة منذ سنة ٦٣٢ إلى ٦٦١)، والأمويين (الذين استقروا في دمشق من سنة ٦٥١ إلى ٧٥٠)، والعباسيين (الذين استقروا في بغداد من سنة ٧٥٠ إلى ١٢٥٨). وامتدت الإمبراطورية العثمانية، في أوجها، من الجزائر غرباً، عبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط، إلى غرب فارس، وبحر قزوين، كما شملت شمالاً اليونان والبلقان وهنغاريا، والجنوب الأوكراني، وراقبت جنوباً شبه الجزيرة العربية حتى اليمن.

في سنة ١٤٥٣، غزا العثمانيون القسطنطينية- عاصمة العالم المسيحي الشرقي، الذي قاوم هجمات القوى الإسلامية السابقة كلها- وغيّروا اسم المدينة باسم اسطنبول. وبهذا الانتصار حَقَّ للسلطان العثماني أن يطالب بموقع تفوّق غير قابل للجدل تجاه القادة المسلمين، وهو موقع «أمير المؤمنين»، لأن السلطة الروحية ظلت،

طوال قرون التوسع الإسلامي، ترافق السلطة السياسية. وتعزز هذا الأمر عندما استولى السلطان على المدن الإسلامية المقدسة في الحجاز سنة ١٥١٧

وطالب العثمانيون أن يتنازل آخر الخلفاء العباسيين، الذي ظلت عائلته تعيش في المنفى بمصر منذ أن دمر المغول بغداد سنة ١٢٥٨، عن لقبه للسلطان سليم الأول عندما فتح العثمانيون القاهرة سنة ١٥١٧ بعد ذلك تولّى السلاطين العثمانيون أيضاً الخلافة، وهي أسمى سلطة دينية في الإسلام السنّي. لقد كان مطلباً صعب المنال، نظراً إلى أن العقيدة الإسلامية السنّية تستوجب أن ينحدر الخليفة من قبيلة قريش العربية[1] ذلك أن العثمانيين كانوا أتراكاً، لا عرباً. فضلاً عن ذلك، يعتبر العديد من الدارسين انتقال الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين انتقالاً ملفّقاً ومشكوكاً فيه. غير أن السلاطين العثمانيين وصفوا أنفسهم بلقب «الزعيم الديني الأسمى في الإسلام» منذ سنة ١٧٧٤[2]

ورغم أن العثمانيين أضحوا زعماء الإسلام السنّي الروحيين فإنهم لم يستعملوا سلطتهم لمهاجمة الجماعات أو المذاهب الإسلامية الأخرى. في البداية، وسم الحكام العثمانيون الشيعة بالهراطقة، لكنهم أظهروا، خلال السنوات الموالية، تسامحاً كبيراً تجاه ساكنتهم الشيعية. بل حضر مسؤولون عثمانيون محليون في العراق العثماني أحياناً أحداثاً دينية شيعية، كمواكب عاشوراء التي تخلّد استشهاد الحسين، بدل قمع الشيعة، مثلما فعل الوهابيون[3] وباستثناء ساحل الخليج الفارسي الممتد من الكويت إلى الأحساء وعُمان، كان محور شبه الجزيرة العربية- حيث ترعرعت الوهابية- سُنّياً على نحو راسخ. لكن الأراضي العثمانية الممتدة إلى الشمال كانت شديدة التجانس، بحيث

كان على الحكام إدماج الجماعات الدينية الأقلية بدرجة أكبر.

وقد شكلت الغارات الوهابية على أقاليم الإمبراطورية العثمانية تحدياً لسيادة السلطان السياسية. إذ لمّا كان الوهابيون لا يعتبرون أولئك الذين لا يتبنّون عقيدتهم مسلمين حقيقيين، ولمّا كان المقام الديني للسلطان- الخليفة العثماني قد نشأ من السمعة العسكرية للإمبراطورية العثمانية كحامي المسلمين[٤]- أضحى التوسع العسكري الوهابي يشكل تحدياً مباشراً لسلطة السلطان- الخليفة العثماني الدينية. إذ لم يعد بإمكان السلطان، بعدما صارت مكة والمدينة المنوّرة بين أيدي الوهابيين، أن يسمّي نفسه حامي الحرمين الشريفين، أو أن يضمن الأمن لرعاياه خلال الحج. ونتيجة لذلك وصف الشيخ جميل الزهاوي، الذي عاش في العراق ومثل سلطته الدينية في أواخر القرن التاسع عشر، محمد بن سعود، مؤسس الحلف السعودي- الوهابي، بأنه «الباغي الذي حاد عن طاعة الخلافة الإسلامية العظمى»[٥]

الهجوم المضاد

غير أن العثمانيين أتيحت لهم فرصة تحدي القوة الوهابية. ففي سنة ١٧٩٨ احتل نابليون مصر العثمانية، بعد أن غزا معظم أوروبا القارّية. وكان يعتقد لانه بعدما كسب رهان مراقبة الطريق الأساسية من شرق البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندي سيعزل البريطانيين عن إمبراطوريتهم في الهند، حيث افترض الفرنسيون أن هذه الاستراتيجية غير المباشرة أسهل من هجوم مباشر على الجزر البريطانية.

لكن القوات الفرنسية أُجبرت على الانسحاب من الشرق الأوسط بعد بضع سنوات، بعد أن مُنيت بالهزيمة على يدي الأميرال «هوراسيو

نيلسون» والبحرية البريطانية[٦] وعندما غادر الفرنسيون مصرَ، عينت الإمبراطورية العثمانية الضابط الألباني محمد علي حاكماً على القاهرة، وكلّفته بمواجهة التهديد الوهابي. ورداً على ملتمس السلطان، نظم محمد علي قوة مسلحة، وضعها في البداية تحت قيادة ابنه الشاب طوسون لاسترجاع مدن الإسلام المقدسة من الوهابيين.

احتلت القوة المصرية الأولى، التي بلغت الضفة الأخرى بحراً، الساحل العربي لمدينة ينبع خلال شهر تشرين الأول/أكتوبر من سنة ١٨١١ ثم وصلت كتيبة فرسان برّاً. وبلغ عدد القوتين معاً ثمانية آلاف رجل. ورافقت القيادة الدينية المصرية، التي تكوّنت من علماء الأزهر، القوة العسكرية.

لكن القائد السعودي سعود كان مستعداً للهجوم المصري، إذ نشر جيشاً وهابياً قوامه ثمانية عشر ألف رجل بين ينبع والمدينة المنوّرة. وقد سحق الوهابيون، بقيادة عبدالله بن سعود، القوات المصرية التي فرّت إلى ساحل البحر.[٧]

غير أن المصريين أصرّوا على مواصلة حملتهم التي استمرت ضد الوهابيين ست سنوات أخرى حتى سنة ١٨١٨ إذ سقطت المدينة المنوّرة في قبضة مصر خلال تشرين الثاني/نوفمبر ١٨١٢، واستسلمت جدة خلال كانون الثاني/يناير ١٨١٣، وأضحت مكة والطائف بُعيد ذلك في أيدي المصريين الذين احتفلوا بفتح مصر مكة والمدينة في القاهرة، وبعث محمد علي مفاتيح المدينتين إلى السلطان في اسطنبول حيث استمر الاحتفال أسبوعاً كاملاً.

وعندما توفّي سعود يوم ٢٧ نيسان/أبريل ١٨١٤ في العاصمة السعودية الدرعية، تولّى عبدالله السلطة زعيماً جديداً للدولة السعودية. وكانت آخر نصائح سعود لعبدالله، كما يقول «جان لويس

بوركهارد»، ما يلي: «لا تنازل الأتراك أبداً في السهول»[٨] وقد اختار عبد الله الذي كان يدرك تفوق القوات العثمانية- المصرية أن تنهكها القوات الوهابية من مواقع في الجبال. لكن هذه النصيحة لم تتبع دائماً.

وقرر محمد علي، الذي لم يكتف بفتحه الحجاز ومدن الإسلام المقدسة، اختراق داخل الجزيرة العربية، وتحطيم ما تبقّى من الدولة السعودية. فعيَّن ابنه الأكبر إبراهيم لقيادة هذه الحملة. وقد تميزت هذه القوة المصرية الجديدة بإيجابيات خاصة، حيث وظفت أطباء أوروبيين واستعملت تقنيات نابليونية في الحرب، وأمكنها الاعتماد على إمدادات جديدة من الحاكم العثماني في بغداد، والأهمّ من هذا أنها حصلت على قطع المدفعية الأوروبية. وتعلّم المصريون من هزيمتهم النكراء على أيدي الفرنسيين قبل خمس عشر سنة. إذ رغم قناعات المحاربين الدينية الراسخة لم يكن سيوفهم المعقوفة، التي نحتت عليها آيات قرآنية، لتناظر التكنولوجيا والعتاد العسكري الفرنسي.

اكتسح جيش إبراهيم نجد كلها. واستسلم عبدالله يوم ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨١٨، فأخذه إبراهيمُ أسيراً. وبعد أن سقطت الدرعية في أيدي المصريين وسوّيت بالأرض انتهت الدولة السعودية الأولى، واحتفل المصريون في القاهرة بسقوط الوهابيين احتفالاً عارماً باستخدام الشهب النارية. ونُقل الأسير عبدالله إلى اسطنبول حيث مثل أمام السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨- ١٨٣٩)، مغلولاً بقيود ثقيلة. وبعد أن أُجبر على السير في شوارع العاصمة العثمانية ثلاثة أيام ضُرب عنقه إلى جانب أحد وزرائه وإمامه أمام الباب الرئيس لآيا صوفيا، غير بعيد عن قصر الباب العالي. ولأنهم اعتبروا هراطقة فقد

حُرموا من إقامة جنازة إسلامية لهم وألقيت جثثهم في البحر بعد أن عُرضت أمام الملأ لعدة أيام. ويقال في رواية أخرى إن الجثث تركت تنهشها الكلاب الضالّة.[٩]

وخلّد العثمانيون انتصارهم على الوهابيين باعتباره «هزيمة لخصوم الدين الإسلامي». وحتى الشاه الفارسي الخصم، الذي عُدَّ حامي المسلمين الشيعة، اعترف بانتصار العثمانيين على الوهابية في رسالة موجّهة إلى محمد علي. وأمر السلطان - الخليفة أن تقام الصلوات في أرجاء الإمبراطورية العثمانية كلها حمداً لله على «محق الطائفة التي خرّبت مكة والمدينة»[١٠]

الوهابية تنجو- وتنتشر

لكن الوهابية لم تمت بإعدام عبدالله. في الواقع، اكتسبت هذه العقيدة، بعد سقوط الدولة السعودية الأصلية، درجة مدهشة من التأثير داخل أمكنة أخرى من العالم الإسلامي. ففي الشرق الأدنى، أعلن سيد أحمد بارلوي، الذي اطلع على تعاليم محمد بن عبد الوهاب عندما زار مكة في العشرينيات من القرن التاسع عشر، الجهادَ على الكفّار، مقاتلاً السيخ في البنجاب (التي تُسمّى اليوم بالهند)، ومؤسساً دولة وهابية في بيشاور (التي تسمّى اليوم بباكستان). وبعد مقتله سنة ١٨٣٠ أعلن أتباعه الجهاد على البريطانيين لمقاومة الاستعمار. وبشّر الدعاة الوهابيون المسلمين الهنود بـ«الخلاص أو الجنة. في كل خطبة»[١١]

فضلاً عن ذلك، تأثر الحجاج الإندونيسيون إلى مكة سنة ١٨٠٣ بالوهابية، فنقلوا عقيدتها إلى سومطرة حيث وجّهوا طاقاتهم نحو غير المسلمين. ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، سينقض وهابيو

سومطرة، المعروفون باسم «حركة بادري»، على السلطات الاستعمارية الهولندية. إذ شن الهولنديون، في الواقع، حرباً ضد وهابيي سومطرة طيلة نحو خمسة عشر عاماً.

ولم يعنِ سقوط الدولة السعوْدية أيضاً نهاية الوهابية في الجزيرة العربية حيث نشأت وتطورت. ففي سنة ١٨٢٥ عاد عبد الرحمان بن حسن آل الشيخ، وهو حفيد ابن عبد الوهاب، من المنفى ودعا القبائل إلى العودة إلى «الإسلام الأصيل»، وأنكر أفعال الشرك «لما يسمّى بالمسلمين». وهذه العبارات مستوحاة من الوهابية الكلاسيكية.

وفي الوقت ذاته، عاد سليل مباشر لمحمد بن سعود، مؤسس التحالف السعودي الوهابي، ليعيد تأسيس مطالبة عائلته بالزعامة. إذ شنّ تركي بن عبدالله، الذي فر من الهجوم المصري، غارات جديدة سنة ١٨٢٣ في قلب الجزيرة العربية، واستعاد الرياض من المصريين، ليحكم دولة سعودية ثانية إلى أن اغتيل سنة ١٨٣٢ ثم أضحى أخوه فيصل حاكم الرياض، لكنه وقع أسير القوات المصرية سنة ١٨٣٨، ونقل إلى القاهرة.

وفي الآن ذاته، واجه نفوذ محمد علي المتزايد تحدياً يكمن في كون توغل الزعيم المصري شمالاً نحو سوريا بات يهدد سلطة السلطان العثماني. وكانت استراتيجية بريطانيا منذ زمن «لورد بالمرستون»، وزير الشؤون الخارجية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، تقتضي حماية وحدة الإمبراطورية العثمانية الترابية بغية الحفاظ على توازن النفوذ الهش في أوروبا. لذلك سرعان ما تدخلت القوى الأوروبية لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية، مجبرة محمد علي على العودة إلى مصر.

ونتيجة لذلك أجبر المصريون سنة ١٨٤١ على سحب أغلب قواتهم من شبه الجزيرة العربية. وفرّ فيصل من سجنه في القاهرة سنة

١٨٤٣، عائداً إلى الرياض، ليستعيد السلطة باعتباره إمام السعودية. وعيّن عبد الرحمان، الذي واصل نشر تعاليم جده الوهابية، قاضياً في الرياض سنة ١٨٤٥، حيث أضحى ينظر إليه، منذ أوائل ستينيات القرن التاسع عشر حتى وفاته سنة ١٨٦٩، باعتباره «إمام القصر». ونُصّبت الوهابية، على نحو راسخ، في قلب السلطة خلال الدولة السعودية الثانية.

وواصل الوهابيون الإساءة للشيعة والحط من قدرهم، كما جاء في شهادة الرحّالة البريطاني «وليام بالغرايف» بعد زيارته الرياض سنة ١٨٦٢ ومعاينته ما حدث للحجاج الفرس على الأراضي السعودية في طريقهم إلى مكة:

> عيّن فيصل هنا، بعد تدقيق المبلغ الباهظ الذي يطلبه الوهابيون السنّة من الهراطقة الشيعة نظير السماح بزيارة المدينة المقدسة وقبر الرسول، قائداً وزعيماً لهم عبدالعزيز أبو بطين، وهو نجدي من النجديين، كان عليه أن يقودهم ويغنمهم باسم الله والعقيدة الحقة على امتداد ما تبقى من الطريق إلى مكة والعودة منها[١٢]

ففي رأي «بالغرايف»، ظل الوهابيون ينظرون إلى الجميع، ما عدا أنفسهم، باعتبارهم «أعداء الله». إذ اعتبر أنه وجب على كل حاج شيعي أن يدفع للوهابيين ضريبة خاصة قيمتها حوالي ستين جنيهاً استرلينياً. بل إن سكان نجد ابتلوا بـ«ضرائب وهابية مفرطة»، كما لاحظ «بالغرايف»، حيث فرضت ضرائب استثنائية عند الجهاد، وكان يعامل من رفض دفعها كأنه مهرطق أو كافر.

لقد أذعن رعايا فيصل للوهابية، بل إنه أعلن الجهاد رسمياً في

مطلع ستينيات القرن التاسع عشر بغية إخضاع خصومه القبليين. وكانت هذه الهجمات الوهابية وحشية، تتجاوز غارات البدو العرب، الذين كان غرضهم كسب الغنائم. ففي رأي «بالغرايف»، «يميّز النجديون أنفسهم عن باقي أبناء بلدهم العرب، بتفضيلهم الذبح على الغنيمة، حيث كانوا لا يأخذون الربع ولا يسألون عنه، إذ كانوا لا يولون أهمية للغنيمة ما دام هناك رجال ليقتلوهم»[١٣]

لكن رغم صرامة الحياة الدينية تحت جناح هذا المذهب الإسلامي المحارب والمتعصب، وضراوة الوهابية في إدارة الحرب في الداخل العربي، لم يترجم صعود الدولة السعودية الثانية إلى نزعة توسعية دينية كانت الدافع وراء سياسات محمد بن سعود. إذ عوّضت سياسات القوى الإيديولوجيا الوهابية إلى حد ما خلال هذه الفترة، حيث أدرك القادة السعوديون حدود قوتهم بعد صداماتهم المسلحة مع المصريين والعثمانيين. ورغم أن فيصل احتل سنة ١٨٥٠ قطر، التي اعتنقت الوهابية في وقت لاحق، فقد كانت حملاته محدودة على العموم. واستعدّت القوات الموالية لفيصل لغزو البحرين سنة ١٨٥٩، لكن البريطانيين أقنعوها بالعدول عن ذلك. ولم تكن هناك غزوات في سوريا والعراق. وبخلاف سابقيه لم يتحدّ فيصل هيمنة الإمبراطورية العثمانية على مدن الإسلام المقدسة، بل إنه دفع إتاوة سنوية للسلطان في اسطنبول.

غير أن ذلك لا يعني أن الوهابيين تخلّوا عن طموحاتهم إلى استرجاع مكة والمدينة المنوّرة. لقد كتب «السير رتشارد بورتن»، الذي زار الحجاز مطلع خمسينيات القرن التاسع عشر، قائلا: «لقد سمعت من مصادر موثوقة أن الوهابيين يتطلّعون إلى اليوم الذي تمكنهم فيه حملة جديدة من تطهير الأرض من رجسها الذي يتخذ

شكل الفضة والذهب»[١٤] لكن الوهابيين لم يبذلوا في الواقع جهداً كبيراً لتحقيق مطامحهم وقتئذ.

ومع فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ بسطت الإمبراطورية العثمانية قوتها على البحر الأحمر بشكل فعلي. ففي سنة ١٨٧١ نزلت قوة عثمانية عددها ٣٠٠٠ رجل، يدعمها ١٥٠٠ عربي، أرض الأحساء، على طول الساحل الشرقي للجزيرة العربية، في محاولة لإعادة تثبيت السلطة العثمانية. وبدل تسخير حاكمهم في مصر للتدخل في الجزيرة العربية، مثلما فعلوا في مطلع ذلك القرن، انقلب العثمانيون إلى مدحت باشا، الحاكم العثماني على إقليم بغداد الذي يقع شمال نجد. ورغم أن العثمانيين أدركوا أن الوهابيين يشكلون خطراً، كما كتب طالب لبيب درس الوهابية آنذاك، فقد بقيت الوهابية «حلفاً سياسياً-دينياً يشرعن الغنيمة غير الشرعية ويسترقّ كل الشعوب خارج نطاق حدودها»[١٥] كما أعاد السلطان العثماني تأكيد سلطته الدينية على الحجاز، متدخلاً في تعيين شريف مكة، الذي اقتضى العُرف أن يكون سليل النبي محمد، وأن يكون من العشائر الهاشمية الثلاث[١٦] ورغم أن حملة وهابية على غرب الجزيرة العربية في هذه الظروف كان من شأنها ألا تفضي إلى نتائج أكيدة فقد سادت الحجاز مشاعر غاضبة من العثمانيين. فعلى سبيل المثال، وردت تقارير على مكة سنة ١٨٥٥ مفادها أن الإمبراطورية العثمانية شرعت في إصلاحات جديدة، من بينها إلغاء استعباد السود، ومنح المسيحيين حقوقاً مساوية، وتحرير النساء[١٧] فأصدر الشيخ جمال، كبير علماء مكة، فتوى تستنكر هذه البدع وتقول بوجوب اعتبار العثمانيين كفارا إذا أقدموا على تنفيذها، وأعقب ذلك إعلان الجهاد ضد العثمانيين. فلم يستخف العثمانيون بموقعهم في الحجاز.

كان قلق المسؤولين العثمانيين من احتمال انبعاث الوهابية أمراً مفهوماً. وقد هاجم مفتي مكة الشيخ أحمد بن زيني دحلان، في كتابه «فتنة الوهابية»، سجلّ الوهابية: «ثم كثر شرهم وتزايد ضررهم واتسع ملكهم وقتلوا من الخلائق ما لا يحصون واستباحوا أموالهم وسبوا نساءهم»(١٨) ودون أن يترك أي مجال للشك حول رؤيته إلى الحركة، وصف العقيدة الوهابية باعتبارها «مذهباً خبيثاً»، حيث كتب في سياق آخر من الكتاب: «كان مؤسس مذهبهم الخبيث محمد بن عبد الوهاب وأصله من المشرق من بني تميم وكان من المعمّرين فكاد يعد من المنظرين لأنه عاش قريب مئة عام حتى انتشر ضلالهم»(١٩)

لكن الدولة السعودية الثانية انهارت في النهاية بسبب الانشقاق الداخلي عقب وفاة فيصل سنة ١٨٦٥، لما تقاتل أبناؤه- عبدالله، سعود، محمد، عبد الرحمان- على الخلافة. وأدت خصومتهم إلى مزيد من التدخل الأجنبي. فعندما خلع سعود أخاه عبد الله، ناشد الأخيرُ السلطانَ العثماني التدخل لصالحه(٢٠) وإلى جانب الاقتتال على التحكم في الجزيرة العربية، شاع أن الإخوة اختلفوا حول تطبيق العقيدة الوهابية، خاصة فيما يتعلق بـ«قتل غير الوهابيين»(٢١)

وأظهرت القوات العثمانية تفوقها التكنولوجي المتواصل على رجال القبائل العرب، عندما هزم ١٦٠٠ جندي من حملة البنادق العثمانيين ٨٠٠٠ مقاتل قبلي موال لسعود في مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر.

وأنشأ العثمانيون مواقع استراتيجية قوية لاحتواء أي انبعاث وهابي في المستقبل- على طول البحر الأحمر في الحجاز، وعلى امتداد الخليج الفارسي في الأحساء، وفي شمال الجزيرة العربية عبر رشيديي

جبل الشمر، خصوم السعوديين. هكذا طوقت الإمبراطورية العثمانية، التي أعادت تأكيد سلطتها في الجزيرة العربية، ديارَ السعوديين في نجد من ثلاث جهات.

غير أن سلطة العثمانيين في شبه الجزيرة العربية لن تبقى ثابتة إلى الأبد بلا منازع.

أثر الوهابية الثابت

في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر، زار المستكشف البريطاني «تشارلز م. دوتي» الجزيرة العربية، حيث روى بتفصيل الثروات المتدنية لما تبقّى من الدولة السعودية: «تُعتبر الرياض وضاحيتها والبادية المجاورة لها كل ما تبقّى من السيادة الوهابية، التي باتت إمارة صغيرة وضعيفة- مثل بُريدة. إذ تخلّى خدم آل سعود عن نجومه المشؤومة، وأجّروا أنفسهم لدى محمد بن الرشيد. ولم يعد البدو يطيعون الوهابي»[٢٢] وبحسب «دوتي»، تذكرت المدن المجاورة أيام «الاستبداد الوهابي»، الذي سعدت بتجاوزه[٢٣]

لكنه أضاف أنه بينما كادت تنهار سلطة الوهابيين السياسية كانت جاذبية مذهبهم الديني لا تزال قوية، بحيث أن كثيرين في المنطقة رفضوا التعاون مع السلطات المحلية. إذ عاد جباة الضرائب السعوديين بخفّي حُنين من قرى عديدة. كما لاحظ «دوتي» أن البدو «لزموا الدين المقوَّم»، مستعملين مصطلحاً مشتركاً للوهابية.

وكتب «دوتي» أن الالتزام الثابت بالوهابية كان يعني أيضاً أن المسيحيين، الذين سمّاهم البدو بالنصارى، كانوا يعرّضون أنفسهم للخطر بالسفر في الجزيرة العربية: «يعتقدون أن النصراني ابن الشر، ومن ثم فهو يستحق الموت: ونصف أهل المدن هم وهابيون»[٢٤]

ورغم أن الوهابيين نادراً ما احتكوا بالمسيحيين فقد اعتبروهم مع ذلك أبناء الشيطان.

بل إن الرشيديين، خصوم السعوديين العرب، أبقوا على مصلحتهم من الوهابية. فعندما استولى الرشيديون على الرياض سنة ١٨٩١، طلب الأمير الرشيدي من عبدالله بن عبد اللطيف- وهو علّامة وهّابي من سلالة محمد بن عبد الوهاب- الانتقال إلى حائل عاصمة الرشيديين. وعاد بعد سنة إلى الرياض التي كان يحكمها الرشيديون، وواصل الدعوة إلى المذهب الوهابي وتعليمه. (وفيما بعد، في سنة ١٩٠٢، سامحه ابن سعود مؤسس الدولة السعودية الحديثة عن ارتباطاته بالرشيديين. وبالفعل، تزوج ابن سعود ابنة عبدالله بن عبد اللطيف طرفة آل الشيخ، وسيصبح ابنهما فيصل ملك العربية السعودية فيما بعد)[٢٥]

في الواقع، انتشرت الوهابية في بداية القرن التاسع عشر. ولأن الوهابية حكمت مكة فترة من الزمن، وخلّفت أثراً عاماً هناك على نحو واضح، فإن المسلمين الحجاج تعرّضوا لتأثير المذهب، ونتيجة لذلك وصلت الوهابية إلى مجتمعات إسلامية أخرى. فالسيد محمد علي السنوسي (١٧٩١- ١٨٥٩) وهو جزائري درس أولاً في فاس، ثم ذهب إلى مكة حيث تعرّض للتأثير الوهابي. وقد أسس الدعوة السنوسية في هذه المدينة المقدسة، وهي دعوة تقدّم أصولية متزمتة جديدة، وقد نقل أفكاره، في أربعينيات القرن التاسع عشر، إلى برقة (ليبيا اليوم) حيث أصبحت القوة الدينية المهيمنة في البلد. وأصبح أحد أحفاده، وهو الملك إدريس، أول عاهل في البلاد خلال القرن العشرين. (وفي سنة ١٩٦٩، خلعه العقيد معمّر القذافي، الذي تربّى في كنف التقليد السنوسي).

وما أن انتشرت الوهابية حتى أضحى البريطانيون ينظرون إلى الوهابيين باعتبارهم خطراً دائماً يهدد إمبراطوريتهم الهندية. فبعد أن سُفكت دماء كثيرة، أصدر رؤساء الجماعات الإسلامية في الهند، سنة وشيعة، خلال سنتي ١٨٧٠ و١٨٧١ تصريحات رسمية ينأون فيها بأنفسهم عن عقيدة الجهاد الوهابية.

وقد وصلت الوهابية إلى آسيا الوسطى الروسية مع حلول القرن العشرين، حيث أسّس سيد شرع محمد، وهو مواطن من المدينة، خلايا وهابية في وادي فرغانة (وهي منطقة تقع في ما يُسمّى اليوم بأوزبكستان)[٢٦] ثم واصلت انتشارها. ومع توالي عقود القرن العشرين حيث شهد الوهابيون اضمحلالاً وضعفاً سياسياً في محيطهم تبنّت التنظيمات التي هيمنت عليها الوهابية، في نهاية المطاف، استراتيجية نشاط إسلامي محارب؛ أي العنف الصريح.

وكما سنرى، تعود الأصول الفكرية والإيديولوجية، التي تشبّع بها العديد من أولئك الذين بدؤوا هذا الحراك الإسلامي المحارب، إلى وهابية القرن التاسع عشر. والخلاصة أن الفكر الإسلامي المتشدد، كما تطور في الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر، ساهم مساهمة مهمة في حملات العنف ضد الغرب والإرهاب الإسلامي الذي حصل خلال القرن العشرين.

الفصل الثالث

«الرعب الأبيض»

الإخوان ونشأة المملكة السعودية الحديثة

انبثقت العربية السعودية الحديثة، شأنها شأن باقي دول الشرق الأوسط، من أنقاض الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى. إذ زالت الدولة العثمانية، التي ظلت تُعرف باسم «رجل أوروبا المريض»، تدريجياً، كما كانت لهذا الزوال انعكاسات مباشرة على الوهابية، لأن القوة العثمانية ظلت تراقب توسّع الدولة الوهابية الثانية أواخر القرن التاسع عشر وبخاصة عبر حماية مدينتي مكة والمدنية المقدستين.

غير أن الإمبراطورية العثمانية بإبقائها على مراقبة الوهابيين مكنتهم كذلك من تقوية سلطتهم في الجزيرة العربية. إذ لم يباشر الزعماء الوهابيون، وهم يعترفون بالتفوق العسكري العثماني، حملة حربية توسعية بحكمة فحسب، بل اعترفوا أيضاً أن الحرب القبلية داخل الجزيرة العربية لم تشكل دائماً انشغالاً عظيماً لاسطنبول. كما لم يثر الوهابيون انشغالات القوى الأوروبية العظمى إلا عندما هددوا التجارة البريطانية في الخليج الفارسي، لكن ذلك لم يدم طويلاً. وهكذا أصبحت الوهابية ذات جذور عميقة مع بداية القرن العشرين.

ومع ذلك، ستنبعث حملة وهابية منفلتة من المراقبة، إذ كان على الوهابيين أن يعبروا الحدود الدولية الحديثة العهد، التي وضعتها وضبطتها الإمبراطورية البريطانية، القوة العالمية الصاعدة.

لقد رسّخت بريطانيا هيمنتها داخل الشرق الأوسط قبل انهيار الإمبراطورية العثمانية بكثير. فبعد أن غزا «نابليون» مصر سنة ١٧٩٨ في محاولة لعزل إنجلترا عن جوهرتها الإمبريالية في الهند، شرعت لندن في مراقبة بوابات المحيط الهندي: البحر الأحمر والخليج الفارسي، و«كايب تاون»، وجنوب أفريقيا، وسنغافورة في الشرق الأقصى. ومع حلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، احتل الجيش البريطاني مصر والسودان، وتولى مراقبة قناة السويس التي استحدثها الفرنسيون، والتي تصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندي. ووقّعت الهند البريطانية سلسلة اتفاقات حماية مع الزعماء العرب في الخليج الفارسي، بدءاً بالبحرين سنة ١٨٨٠ وفي سنة ١٨٩٩، وسّع اللورد «كورزون»، نائب الملك في الهند، نظام الحماية ليشمل الكويت. وتلقى كل شيخ عربي، بموجب هذه الاتفاقات، اعترافاً بريطانياً، وافق بمقتضاه على التنازل عن سلطاته السيادية في تدبير الشؤون الخارجية.

كما حدّت هذه الاتفاقات من حرية المشيخات في مباشرة التجارة مع الشركات غير البريطانية، إذ غالباً ما قادت امتيازات المعادن أو السكك الحديدية إلى محطات الفحم أو الأساطيل البحرية أو التجارية التي تتحدى الهيمنة البريطانية الإمبريالية. ففي مطلع سنة ١٨٩٣، وصف وزير الشؤون الخارجية البريطاني اللورد «لاندسداون» «إقامة قاعدة بحرية، أو ميناء محصّن في الخليج الفارسي من طرف أية قوة أخرى باعتباره تهديداً جسيماً للمصالح البريطانية»[1]

ومن شهد أهمية هذه القوة البريطانية النامية كان شاباً يدعى عبد العزيز بن عبد الرحمان آل سعود، الذي أضحى يعرف بابن سعود في الغرب. فابن سعود، الذي رأى النور سنة ١٨٨٠، هو ابن عبد الرحمان، أحد أبناء فيصل الأربعة الذين تنازعوا العرش السعودي. نفي ابن سعود، وهو فتى، إلى الكويت، حيث هرب والده، لأن العثمانيين كانوا يدعمون خصوم السعوديين في شرق الجزيرة العربية، وهم رشيديو جبل الشمر الذين استولوا على الرياض سنة ١٨٩١ ومن الكويت التي باتت شبه محمية بريطانية سنة ١٨٩٩، أخذ ابن سعود يراقب الأمور لما كان البريطانيون يندفعون مذعورين لإبعاد القوى الإمبريالية الأوروبية الأخرى عن الخليج الفارسي.

ابن سعود ينازع العثمانيين

وقتئذ، مثّل الألمان التهديد الأكبر للسيطرة البريطانية على الشرق الأوسط. إذ كانت ألمانيا تثبّت أقدامها في الإمبراطورية العثمانية الآيلة للانهيار باقتراحها إنشاء السكة الحديدية الرابطة بين برلين وبغداد. وكان من مصلحة بريطانيا في منطقة الخليج الفارسي من خلال هذه النقطة ألا تقتصر على النظر في المسالك البحرية الاستراتيجية فقط. إذ كان اكتشاف النفط حديث العهد هناك، حيث احتاجت البحرية، عندما استبدلت البحرية الملكية بمحركات سفنها الحربية التي تعتمد على الفحم محركات أخرى تستهلك النفط في مطلع القرن، إلى الحفاظ على المنطقة بين الأيدي البريطانية[٢]

واستغل الزعماء العرب المنافسة الناشئة بين القوى الأوروبية. ففي سنة ١٩٠٠، مثلاً، تعرض حاكم الكويت الشيخ مبارك وضيوفه السعوديون لهجوم من الرشيديين الذين يدعمهم العثمانيون (وهم عرب

يخاصمون السعوديين)، ونجوا بفضل الاتصال بسفينة حربية بريطانية في الخليج الفارسي. إذ أطلقت الزوارق البريطانية المسلحة النار على الرشيديين مجبرة إياهم على الانسحاب. كما حالت البحرية البريطانية دون وقوع هجوم تركي على الكويت سنة ١٩٠١

بعد سنة من ذلك استعاد ابن سعود، وهو في سن الثانية والعشرين، عاصمة أجداده الرياض من الرشيديين، وبدأ حملة لاستعادة الأراضي السعودية التي ضاعت خلال القرن التاسع عشر، ودامت هذه الحملة اثني عشر عاماً. فباعترافه بنفوذ بريطانيا المتزايد في المنطقة- حيث قاد «اللورد كورزن» سنة ١٩٠٣ أكبر الصناعات من الأساطيل البحرية البريطانية في ذلك الزمان إلى الخليج الفارسي- انتزع ابن سعود المساعدة من البريطانيين ضد العثمانيين. إذ التقى بوكيل لندن السياسي في الكويت القبطان «وليام شكسبير»، حيث شرح له «أننا، نحن الوهابيين، نكره الأتراك بدرجة أقل من الفرس بسبب الممارسات الكافرة التي أدخلوها على الدين الحق والطاهر الذي أوحى به القرآن إلينا»[٣] وخلافاً للعديد من الفقهاء الوهابيين الذين عارضوا المسيحية بشدة، عُرف ابن سعود في الواقع بتفضيله المسيحيين على المسلمين غير الوهابيين، حيث شرح ذات مرة أن المسيحيين يتصرفون على الأقل انسجاماً مع دينهم، بينما المسلمون غير الوهابيين، الذين لم يستوعبوا أهمية الثبات على التوحيد، هم مشركون[٤]

كما قامت عروضه للبريطانيين على إعجاب بقوة العثمانيين المتهاوية. ففي سنة ١٩١١، سعى العثمانيون وراء دعم ابن سعود لإخماد تمرد عسير شمال اليمن. وبعد أن عجزوا عن تعزيز قوتهم العسكرية في شبه الجزيرة العربية، طلبوا دعمه سنة بعد ذلك للدفاع

عن موقعهم في الأحساء، على طول الخليج الفارسي. فضلاً عن ذلك، وبينما انشغل العثمانيون بالبلقان آنذاك، استغل ابن سعود انكشافهم لينتزع حاميتهم العسكرية في الأحساء في أيار/ مايو ١٩١٣ إذ أدرك، وهو يواصل هذه الحملات العسكرية، أنه يحظى بدعم الوكلاء السياسيين البريطانيين- ما لم يحتل أراضي الشيوخ الذين يحظون بالحماية السياسية البريطانية[٥] فكان عليه أن يحذر تأكيد المطالب الوهابية القديمة بالبحرين وقطر وأجزاء من عمان، حيث وافق ابن سعود على ملتمسات البريطانيين، بعد أن بلغ سواحل الخليج الفارسي بغزوه الأحساء، والتحق رسمياً بنظام الحماية يوم ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٥

ثمة حجة ضعيفة تفيد أن الوهابية لعبت دوراً عاماً في تلك المراحل الأولى من توحيد ابن سعود الأراضي. لكن انبعاثاً مستقلاً للوهابية انبثق في نجد الخاضعة للسعودية بينما كانت تباشر تلك الحملات. إذ سيتجلى أن هذا الانبعاث حيوي بالنسبة للقيادة العسكرية السعودية الجديدة.

حركة الإخوان

أسّس سليل محمد بن عبد الوهاب، عبد الله بن عبد اللطيف الذي كان قاضي الرياض، حركة دينية جديدة استقرت في الأرطاوية، وهي قرية تقع في نجد شمال الرياض. هناك أسس مستوطنو نجد تنظيم الإخوان- وهو تنظيم وهابي أصرّ على أن يعيش «إخوانه» وفق التعاليم الوهابية الصارمة، وأن يتجنبوا الأوروبيين، وأن يعيشوا داخل مستوطنات فلاحية مشتركة تعرف باسم هُجَر (مفردهَا هجرة).

انتشرت حركة الهجرة عبر الجزيرة العربية، حيث انتصبت ٥٢

مستوطنة مع حلول سنة ١٩٢٠، و١٢٠ في سنة ١٩٢٩ وواصل بدو الهجر الانخراط في الغارات العسكرية- ليس فقط من أجل سلب القوافل، مثلما فعلوا في الماضي، بل لأن الإغارة في التقليد الوهابي تكتسي بعداً دينياً، حيث استلزمت شن الحروب ضد «المشركين»[٦]

وقد حلَّل «هارولد ر. بـ. ديكسن»، الذي اشتغل لدى الوكيل السياسي البريطاني في الخليج الفارسي «السير بيرسي كوكس»، موقف ابن سعود من نفوذ حركة الإخوان المتزايد:

> في أواخر سنة ١٩١٥ أو مطلع ١٩١٦، وجد ابن سعود أن الحركة الإخوانية بدأت بلا ريب تكسب السيطرة على شؤون نجد. ورأى أنه مطالب أن يقرر أحد أمرين: إما أن يكون حاكماً مؤقتاً ويسحق الإخوان، وإما أن يصبح زعيماً روحياً لهذه الوهابية الجديدة. وربما ارتأى في المقام الأول أن يستغلها لتقوية موقعه، لكنه اضطر في نهاية المطاف إلى أن يقبل عقائدها ويصبح زعيمها، خشية أن يهلك[٧]

جوهرياً، سعى ابن سعود إلى استمالة الإخوان، عبر مدّهم بالدعم وبالمعلّمين الدينيين. وعيّن القضاة، الذين مدّوا الهجر بالتوجيه الديني والقانوني، من خَلَف محمد بن عبد الوهاب. وأمل إبعاد أعضاء الإخوان عن ولائهم السياسي الأول- عن زعمائهم القبليين- ومن ثم إضعاف قوة منافسيه المحتملين.

مثلت النزعة القبلية مشكلة عويصة لكل زعيم عربي سعى إلى توحيد شبه الجزيرة العربية. ففي كتابه حول القبائل العربية، حدد فؤاد حمزة، الذي كان نائب وزير الشؤون الخارجية في عهد ابن سعود، سبعاً وتسعين قبيلة أساسية في شبه الجزيرة[٨] وكان ابن سعود في

حاجة إلى وسيلة لتوحيد هذه القبائل التي تتمتع باستقلالية كبيرة، فكان الإسلام الوهابي بمثابة اللحمة التي تجمع الدولة السعودية الناشئة، وكان الإخوان الأداة المستعملة لقولبة المجتمع الوهابي الجديد.

لقد انتمى الإخوان في الغالب إلى خلفيات بدوية، ولم يمتلكوا في الغالب توجيهاً شاملاً في الإسلام، حيث مالوا إلى استعراض الحماسة، إن لم نقل التشدد، في تطبيق دينهم الحديث العهد بالتأسيس على حياتهم اليومية. فضربوا إخوانهم الذين لا يصلّون خمس مرات في اليوم، واعتبروا باقي المسلمين مشركين. كما ارتدى الإخوان لباساً مميزاً، بما في ذلك عمائم بيضاء، بدل الكوفية العربية التقليدية. وكانوا يغطون وجوههم عندما يلتقون الأوروبيين أو العرب من خارج العربية السعودية عوض أن يسمحوا بـ«تدنيس» أنفسهم.

وجاؤوا بهذا التشدد الديني إلى مجال الحرب، مثلما فعل وهابيو القرن الثامن عشر. ففي سنة ١٩١٦ أمر ابن سعود القبائل البدوية في الجزيرة العربية جميعها بأن يلتحقوا بالإخوان، وأن يؤدوا له الزكاة، لأنه وجب الاعتراف به إماماً لهم. وإذا عجزوا عن أدائها واجهوا الغزو[٩] ذلك أن الإخوان اعتبروا أولئك الذين لم يلتحقوا بهم مشركين- فكانوا قساة ضدهم أيّما قسوة. وأطلق مؤرخ سوفياتي على الإخوان اسم «الرعب الأبيض» في الجزيرة العربية[١٠]، حيث أصبح لهم تأثير في غزوات ابن سعود اللاحقة، ملهمين القبائل العربية الالتحاق بالقضية.

وقد أحدثت الحرب العالمية الأولى ثورة في موقع الإمبراطورية البريطانية داخل الشرق الأوسط عموماً، وفي محيط أراضي ابن سعود خصوصاً. إذ أحكمت بريطانيا قبضتها على أغلب الأراضي العربية التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. كما نسجت بريطانيا علاقة

خاصة مع شريف حسين، الذي عيّنه العثمانيون حاكماً هاشمياً على مكة منذ ١٩٠٨ ووعدوه بدولة عربية مستقلة تمتد من الجزيرة العربية إلى ما يعرف اليوم بالحدود السورية- التركية مقابل دعمه الجهود الحربية البريطانية ضد العثمانيين. هكذا نادى شريف حسين يوم ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٦ بنفسه «ملكاً للدول العربية».

واقتضى اللقب الجديد أن يوسع حكمه ليشمل الأراضي التي خضعت من قبل لسلطان زعماء عرب آخرين. وأضحت الحدود في حاجة لأن ترسم بغية فصل الأراضي العثمانية السابقة عن بقية الجزيرة العربية، وخاصة لتحديد أين تنتهي أراضي الملك حسين في الحجاز، وأين تبدأ أراضي ابن سعود في نجد. وبينهما وقعت واحة مدينتي الخرمة وتربة. أما القبائل التي عاشت في هذه المناطق فكانت تدين بولائها للملك حسين، رغم أن بعثات الإخوان نشطت في هدايتهم إلى الوهابية.

وفي ربيع سنة ١٩١٩، أرسل الملك حسين ابنه عبد الله، الذي سيصبح ملك الأردن فيما بعد، في مهمة احتلال تربة. لكن الإخوان فتكوا بجيش عبد الله فتكاً شديداً، حيث لم يتبق سوى ثلاثة رجال من جنوده المشاة البالغ عددهم خمسة آلاف، وفرّ عبد الله بشق الأنفس، مرتدياً قميص النوم[١١] ولم ينسحب ابن سعود من الواحات المتنازع عليها إلا بعد أن أصر البريطانيون على بقاء تلك المناطق محايدة إلى أن ترسم الحدود.

لكن ابن سعود سارع، عندما علم أن البريطانيين يهتمون بتنصيب فيصل شقيق عبد الله ملكاً على العراق، إلى الاستيلاء على ما تبقى من جبل الشمر الخاضع لسيطرة الرشيديين وسط شمال الجزيرة العربية قبل أن يستولي عليه العراق، وقاد جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل من

الإخوان إلى حائل، عاصمة الرشيديين، في شهر آب/أغسطس ١٩٢١

وبسقوط حائل فقد خصوم السعوديين من الرشيديين استقلالهم. لكنهم لم يخسروا كل شيء. ذلك أن ابن سعود الذي أسر أمير الرشيديين محمد بن طلال ما لبث أن تزوّج ابنة خصمه المنهزم. وسيصبح عبد الله بن عبد العزيز، ولد ابن سعود من ابنة خصمه الرشيدي، بعد عدة سنوات ولي عهد عرش العربية السعودية، أي سنة ١٩٨٢

وقتئذ أضحى رسم حدود الدول الجديدة الناشئة في الشرق الأوسط أمراً مستعجلاً، بالنظر إلى نجاح النزعة التوسعية الوهابية. وكانت الحاجة ملحة لاحتواء ابن سعود وقواته من الإخوان. وفي يوم ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٢ بدأت المفاوضات في العقير بغية تحديد الحدود بين أراضي ابن سعود وأراضي العراق الجديد، حيث ترأس المفاوضات «السير بيرسي كوكس»، الذي رقي إلى مرتبة المفوض البريطاني السامي في بلاد الرافدين. في البداية، سأل «كوكس» ابن سعود عن أطراف أراضيه في نجد لكن الزعيم السعودي لم يسمع أبداً بالحدود الدولية، التي تعتبر مفهوماً غربياً، حيث ظل سلطان زعماء الجزيرة العربية يتحدد بالولاءات القبلية.

كانت خريطة ابن سعود طموحة، حيث شعر، في ملاحظته هجرة البدو النجديين، أن مجاله ينبغي أن يمتد شمالاً إلى نهر الفرات. ففي الواقع، هاجرت قبيلة الشمّر الكبيرة بانتظام من الجزيرة العربية إلى الصحراء السورية. (في منتصف القرن العشرين، كانت الحدود السورية- العراقية لا تزال قريبة من جبل الشمّر.) وقد أنهى «كوكس» النقاش أساساً بفرض حدوده الشمالية على ابن سعود، حيث تناول

ببساطة قلما أحمر ورسم بحذر الحدود السعودية- العراقية. كان حزن ابن سعود واضحاً على الأراضي التي أُجبر على التضحية بها، لذلك قال «كوكس»، وهو يشد على يدي الزعيم السعودي: «يا طويل العمر، أنا أعرف بدقة حقيقة مشاعرك، لذا فإنني أعطيك ثلثي أراضي الكويت»[١٢]

مع ذلك واصل الإخوان ترويع الشرق الأوسط، حيث اتبعوا السكة الحديد الحديثة العهد في الحجاز (١٩٠٩)، والتي ربطت مكة ودمشق وامتدت عميقاً إلى شرق الأردن، وصولاً إلى محيط عمّان. إذ أغار مقاتلو الإخوان على قرية قرب زيزيا بضاحية عُمان حيث قتلوا ساكنتها بأكملها. ورداً على ذلك طاردت العربات المسلحة البريطانية وطائرات القوات الجوية الملكية الإخوان ليهلك أغلب فيلق الجمّالة في الصحراء.

لكن هجمات الإخوان في شرق الأردن ومذابح القرى لم تتوقف حتى أمام ثأر القوات الجوية الملكية. ففي سنة ١٩٢٧ أغار الإخوان على جنوب العراق، يرومون بوضوح نهب أضرحة كربلاء الشيعية، مثلما فعلت الجيوش الوهابية قبل أكثر من قرن من ذلك[١٣] غير أن القوات الجوية البريطانية احتوت الوهابيين.

وحشية وهابية أكبر: الحرب السعودية- الهاشمية

كما اتضح، لم تكن ثمة حاجة إلى رسم حد بين أراضي الملك حسين في الحجاز وأراضي ابن سعود في نجد. ففي آذار/ مارس ١٩٢٤ قرر الملك حسين إعلان نفسه خليفة، عندما ألغت الجمهورية التركية (التي حلّت محلج الإمبراطورية العثمانية المنهزمة) الخلافة العثمانية في اسطنبول. وبعد خمسة أشهر اجتمع ابن سعود بالإخوان،

وأعلن الجهاد ضد الملك حسين. وتلقى الإخوان، الذين أرادوا «تطهير» مدينتي مكة والمدينة المقدستين، نبأ الحرب بحماسة، ودخلت جيوش ابن سعود من الإخوان مدينة الطائف الحجازية يوم ٢٤ آب/أغسطس وقتلوا حوالي أربعة آلاف رجل وامرأة وطفل. ويربط السجل الدبلوماسي البريطاني لهجوم الإخوان على الطائف بين وحشية الإخوان وتعصّب الوهابيين الديني الضاري: «ثمة حجة تفيد أن الغزاة أظهروا تشدداً دينياً، حيث خاطبوا ضحاياهم دوماً على أنهم كفار ومشركين»[١٤] وبالفعل، قدّم علماء ابن سعود التبرير الديني لغزو الإخوان السعودي المتحمس[١٥]

وفي يوم ٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٤ تنازل الملك حسين عن العرش، وخلفه ابنه البكر علي. وفي كانون الأول/ديسمبر جددت قوات ابن سعود هجومها على جدّة، وكررت الأفعال ذاتها التي اقترفتها الجيوش الوهابية قبل مئة عام من ذلك، حيث خرّبت أضرحة دينية لم تكن، من وجهة نظر وهابية، تشكل جزءا من الإسلام الحق. هكذا خرّبوا قبّة الضريح الذي يُفترض أنه يحوي بقايا حواء، ومنعوا الصلوات الشعبية في الموقع[١٦] وما لبث علي أن تخلّى عن العرش في كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٥ طالباً اللجوء في العراق.

وعندما أدرك البريطانيون أن توازن القوى في الجزيرة العربية تغير أجلوا الملك حسين إلى قبرص. وسرعان ما نقلوا مدينتي معان والعقبة من الحجاز وألحقوها بشرق الأردن الهاشمي حيث ولّى البريطانيون عبد الله ابن الملك حسين السلطة. (ستحتفظ هذه المنطقة، خاصة معان، بصلاتها مع الجزيرة العربية، حيث مارس كثيرون الإسلام الوهابي، وبعد عقود رفع عدد كبير من هؤلاء الأردنيين العلم السعودي فعلاً خلال أعمال شغب سنة ١٩٨٩).

وفي يوم ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٤ دخل ابن سعود مكة، مستعيداً المدينة المقدسة التي حكمها أسلافه منذ أكثر من قرن. وتقوّضت بقايا النظام الهاشمي بُعيد ذلك. وبعد سنة اكتسب ابن سعود لقباً جديداً: ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها. وتجدر الإشارة إلى أنه تبنّى لقب ***ملك*** الهاشمي بدل ***أمير*** أو ***سلطان***؛ وربما لم يتمكن ابن سعود من أن يسمح لنفسه بلقب أقل من لقب خصمه الهاشمي المخلوع. غير أنه لم يستعمل لقب ***الإمام***، لأنه لم يرد إعطاء الانطباع بأنه تراوده مطامح بإعلان نفسه خليفة.

كانت الحملة العسكرية السعودية في الجزيرة العربية باهظة الثمن في ما يتعلق بأرواح المدنيين. وقد كتب سعيد أبوريش، وهو صحافي فلسطيني، رواية مناهضة لآل سعود يصف فيها وحشية غزوات الإخوان: «قتل أو جرح ما لا يقل عن ٤٠٠ ألف، لأن الإخوان لا يأسرون، بل غالباً ما يقتلون المنهزمين. وفرّ أكثر من مليون من سكان الأراضي التي غزاها ابن سعود إلى بلدان أخرى: العراق، سوريا، مصر، الأردن، والكويت»[١٧] وعلى سبيل المثال، طلبت الأجزاء غير الوهابية من قبيلة الشمّر اللجوء إلى العراق، الذي كان يديره البريطانيون بعد سقوط الرشيديين في عاصمتهم حائل[١٨]

مسار التصادم

روى «إلدون راتر»، وهو إنجليزي اعتنق الإسلام، انطباعاته عن أول حج تحت الحكم الوهابي سنة ١٩٢٥ إذ زار مولد النبي محمد، الذي كان منذ القديم أحد «مواضع مزارات الورع. [وهو عبارة عن] مسجد مربع صغير، تعلوه قبة، وتتوج جانبه صومعة صغيرة». ولاحظ «راتر» التغييرات التي أدخلها الوهابيون، الذين اعترضوا بشدة على

هدم الوهابيون، المخلصون لمبادئهم، قبة هذه البناية وصومعتها، وأزالوا منها الستائر وزخارف أخرى. كما منعوا ورثة حراسه من الجلوس في بابه لتلقي الصدقات. وقبل احتلال المدينة المقدسة بات هذا الاحتلال المسالم المصدرَ الأساس لدخل أسرة من الشرفاء. أما اليوم فكلما ذكر مولد النبي في مجلس المكيين، أضحت الوجوه كالحة، وتصدر شتيمة لاذعة هنا وهناك من الجماعة ضد النجديين[١٩]

كان الإخوان بمثابة «حد الوهابية القاطع» خلال عشرينيات القرن الماضي، بل إنه حدّ أشد قطعاً من الدولة السعودية الوليدة نفسها، التي كان عليها، مع ذلك، الاعتراف بإملاءات القوة البريطانية. إذ جرفتهم قناعة دينية عميقة، دون أن يشعروا بالإكراهات السياسية التي واجهها ابن سعود. هذا الأمر دفع بالإخوان وابن سعود إلى الاصطدام، فكان هذا الأخير مجبراً على ممارسة السياسة الواقعية. وقد لاحظ أمير الكويت القريبة أنه «عندما دشن ابن سعود حملته الدينية أجج الإخوان الفكرة التي مفادها أن أيام النبي عادت. وعندما كبح [البريطانيون] توسع قوة ابن سعود أُجبر على كبح إخوانه والتخلي عن جهاده»[٢٠]

وواجه زعماء الإخوان، الذين غضبوا من كونهم لم يعطوا مواقع نفوذ في الحجاز، ابن سعود بلائحة من الشكاوى. إذ قالوا إن المفاوضات مع البريطانيين استلزمت التعاون مع قوة كافرة. ففي مناطق مثل الأحساء حيث ألحق ابن سعود ساكنة شيعية واسعة أعلن الإخوان أنه وجب «إما أن يهديهم إلى الإسلام (يعني الوهابية) أو يقتلهم»[٢١] بالطبع، لم يقبل ابن سعود هذه المصطلحات كلها.

واصطدمت جيوش الإخوان مع قوات ابن سعود الأخرى سنة ١٩٢٩ في معركة السبلة، وانهزمت في نهاية المطاف. ولو لم يبق البريطانيون الإخوان تحت المراقبة الدائمة باستعمال القوات الملكية الجوية في العراق وشرق الأردن لاكتسب الإخوان قوة كافية لسحق ابن سعود. بهذا المعنى، كان البريطانيون حليفه السري.

لكن الإخوان لم يندثروا. وفي ما بعد قرّر ابن سعود عدم الاعتماد على قوة عسكرية واحدة وأحدث هياكل عسكرية متنافسة أبقى أحدها الآخر تحت المراقبة. كما أدرك أنه ملزم بحماية موقع السعودية باعتبارها القيِّم على مكة، لأن كثيرين في العالم الإسلامي رأوا في ابن سعود، خلال الحملة السعودية في الحجاز، «طائفياً متعصباً»[٢٢] إذ صرح الوزير الأول الإيراني، مظهراً تحفظات الشيعة على الوهابية، قائلاً إن «الحكومة الفارسية عاجزة عن أن تبقى مكتوفة الأيدي، وألا تبالي بأفعال شرذمة من المتعصبين الذين انخرطوا في مسعى فرض آرائهم على العالم الإسلامي»[٢٣]

ربما كان هذا الارتياب في السيادة السعودية على مدن الإسلام المقدسة مدمراً للسعوديين، حيث دار حديث، في الهند البريطانية التي كانت وقتئذ موطن أكبر ساكنة مسلمة في العالم، حول تدويل الحجاز ومدنها المقدسة. وقد زار الشيخ محمد الأحمدي الظواهري، الذي سيصير في ما بعد شيخ الجامع الأزهر بالقاهرة، مكة سنة ١٩٢٦ بصفته رئيس وفد مصري إلى مؤتمر العالم الإسلامي الذي دعا إليه ابن سعود. (ومما يثير الانتباه أن حفيد الظواهري أيمن محمد ربيع الظواهري سينبعث في عالم الأصولية المصرية المقاتلة، ليصبح في نهاية المطاف نائب أسامة بن لادن داخل تنظيم القاعدة.) ووصف الظواهري، سنة ١٩٢٦، سلوك المندوبين إلى مؤتمر مكة: «كانوا

جميعهم يعارضون حكومة ابن سعود والوهابيين في الحجاز، رغم أن أقلية غير مبالية من بينهم ناصرت الوهابية. عندما برزت حركة ابن سعود غيّروا وجهة آمالهم نحوه، لكن عندما جاؤوا إلى مكة ورأوا ما رأوا خذلهم أيضاً»[٢٤]

فما الذي رآه الظواهري والمندوبون الآخرون في مكة؟ لقد حرّم بدء الصلوات، في ظل عقيدة وهابية صارمة، بعبارة «رسول الله»، لأن هذا الأمر اعتبر شركاً، ويجب أن يُخاطَب الله وحده أثناء الصلاة. ففي مسجد مكة الأكبر شهد الظواهري وهابيين يطوقون مصرياً ويؤنّبونه، قائلين: «صلّيت بعبارة «يا رسول الله»». لكن المصري، الذي شعر بالخوف، أنكر استعماله العبارة. وحاول الظواهري تهدئة المصري المرعوب حينها واعترف: «لا أخفيك أنني كتمت في قلبي أنني أيضاً أبدأ صلواتي بعبارة «يا رسول الله»»[٢٥] بعبارة أخرى، شعر الرجل، الذي سيصير أحد أهم الوجوه الدينية في مصر والعالم الإسلامي برمّته آنذاك، أيضاً بأنه خائف داخل مكة، التي حكمها الوهابيون خلال سنة ١٩٢٦، من أن يصلّي بحرية كمسلم متديّن. فكان من الممكن أن تعرّض التجاوزات الوهابية الموقع السعودي في مكة بوضوح بتعزيز مطلب تدويل الحرمين الشريفين.

وبالنسبة لابن سعود، ثمة ما هو معرّض للخطر أكثر من السيادة السعودية. فأثناء التوسع السعودي خلال العقدين السابقين كان المال المستمد من الإخوان وزكاة القبائل المدفوعة لابن سعود مصدراً عاماً من مصادر مداخيل المملكة. كما كسب ابن سعود، بعد احتلال مكة، رسوم الحج السنوية. ولم تكن تلك الموارد المادية جديرة بالمجازفة.

من هنا، كانت الضرورة تقتضي أن يوضح ابن سعود ما تعنيه الوهابية، حيث لم يكن يؤسس مذهباً إسلامياً جديداً، أو مدرسة

جديدة في الفقه الإسلامي. ولو أدرك الناس الوهابية كذلك لأضعف موقعه الجديد، باعتباره حامي مكة والمدينة. ففي ١١ أيار/ مايو ١٩٢٩ ألقى خطابا في قصره الملكي موضحاً النقطة الآتية:

> يسموننا بالوهابيين، ويسمون مذهبنا الوهابي، باعتبار أنه مذهب خالص. وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثها أهل الأغراض. هذه هي العقيدة التي قام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب يدعو بها، وهذه هي عقيدتنا، وهي عقيدة مبنية على توحيد الله- عز وجل- خالصة من كل شائبة، منزهة من كل بدعة[٢٦]

وقد نجح ابن سعود في تبديد مخاوف العالم الإسلامي من الوهابية. وتطلب هذا الأمر موازنة بين فقهائه الوهابيين وباقي الدول الإسلامية. ولحماية الموقف السعودي كان عليه أيضاً موازنة المصالح السعودية مع مصالح القوة الكبرى التي تسيطر على السياسات الخارجية لأغلب الدول الإسلامية وقتئذ؛ أي الإمبراطورية البريطانية.

احتواء الوهابية جزئياً

انبثق مظهر الشرق الأوسط الحديث، في نهاية المطاف، عقب الصراع السعودي- الهاشمي خلال عشرينيات القرن الماضي. إذ تنازلت الإمبراطورية العثمانية، قبل حلّها، عن سيادتها على أراضيها الآسيوية، ما عدا الأناضول، التي احتفظت بها منذ سنة ١٥١٧ ومع حلول سنة ١٩٣٢ وحّد ابن سعود الحجاز ونجد ومناطق عربية أخرى، مثل مناطق آل الرشيد السابقة في جبل الشمّر، لتشكل جميعها المملكة العربية السعودية.

ولو انتصر الهاشميون لسمّي الكيان الناشئ العربية الهاشمية، ولباتت الوهابية حركة إسلامية هامشية، لا قوة دينية مهيمنة تسيطر على مكة والمدينة. لكن الهاشميين خسروا ديار أسلافهم في الحجاز لفائدة المملكة الوهابية الجديدة. وبقيت آثارهم في معان والعقبة، اللتين اقتطعهما البريطانيون من الحجاز ومنحوهما لشرق الأردن قبيل اكتمال الغزوات السعودية. إذ كان البريطانيون، بالفعل، الفاعلين الأساسيين في الصراع الهاشمي- السعودي، حيث نشأت العلاقات البريطانية مع ابن سعود خارج نظام الحماية البريطاني في الهند الذي طبّق في الخليج الفارسي خلال القرن التاسع عشر، ورعى مكتب الهند تلك المصالح في لندن. غير أن وزارتي الحرب والاستعمار رعتا، في الآن ذاته، العلاقات البريطانية- الهاشمية. هكذا، كان لكل مصلحة بريطانية زبونها العربي الخاص[(٢٧)]

لكن الهاشميين لم يعودوا بخفيّ حُنين نهائياً، حتى بعد أن خسروا الجزيرة العربية. إذ تولى فيصل بن الشريف حسين السلطة أول الأمر في سوريا، لكن الفرنسيين أبعدوه عنها. ذلك أن الأمم المتحدة فوّضت للفرنسيين إدارة الانتداب في سوريا ولبنان، اللتين اعتبرتهما فرنسا جزءاً من مجال تأثيرها منذ اتفاق «سايكس- بيكو» السري سنة ١٩١٦ وبعد أن خسر فيصل سوريا نصّبه البريطانيون في بغداد حيث أضحى ملكاً على العراق. (سيحكم الهاشميون العراق حتى سنة ١٩٥٨ عندما أطاح بهم انقلاب عسكري عنيف).

كان البريطانيون في حاجة إلى إيجاد مكان آخر على رقعة شطرنج الشرق الأوسط لابن آخر من أبناء الشريف حسين هو عبدالله. لذلك قرر المخططون الإمبرياليون البريطانيون تنصيبه حاكماً على شرق الأردن، حيث كانت أراضيه جزءاً من الانتداب البريطاني في فلسطين،

ومن ثم موعودة للشعب اليهودي والحركة الصهيونية، وفق إعلان «بلفور» سنة ١٩١٧ لكن البريطانيين فصلوا فعلياً شرق الأردن عن باقي الانتداب في فلسطين سنة ١٩٢٢ محدثين إمارة لعبدالله. كانت هذه المنطقة، في عهد العثمانيين، جزءاً من ولاية دمشق، مما كان يعني أن عبدالله أمل في أن يحكم سوريا في نهاية المطاف، ما أن ينكَبَّ على معالجة الاعتراضات الفرنسية على نظام هاشمي آخر. (بعد أن ألحق شرق الأردن بالضفة الغربية عقب الحرب العربية- الإسرائيلية سنتي ١٩٤٨- ١٩٤٩، غيّر عبدالله اسم بلاده ليصبح المملكة الهاشمية الأردنية. وقد حاولت الحكومات السورية فيما بعد استعادة الأرض الممنوحة لعبد الله، حيث كانت ترى في المنطقة جزءاً من ***بلاد الشام***، أو جزءاً من سوريا الكبرى).

ورسمت بريطانيا بحذر خريطة دولتيها الهاشميتين، في الأردن والعراق، حتى يكونا متماستين عبر مضيقين ضيقين. وكان المضيقان حاجزاً بين العربية السعودية وسوريا، إلى جانب تأمينهما الاتصالات الإمبريالية البريطانية- بما في ذلك خطوط النفط- من الخليج الفارسي إلى البحر الأبيض المتوسط. إذ أرادت بريطانيا الحيلولة دون تكرار توسع الوهابيين نحو الصحراء السورية، شأن غاراتهم على حلب ودمشق خلال القرن الثامن عشر، أو هجرات الشمال لقبائل الشمّر، التي عاشت في هذه المنطقة حيث يلتقي الأردن والعراق وسوريا.

من هنا احتوت الخريطة الجديدة انتشار الوهابية القتالي. ذلك أن القوة العسكرية البريطانية حصرت الوهابيةَ في الجزيرة العربية، بينما وضعت لندن حدوداً جديدة داخل الأراضي العثمانية السابقة في الشرق الأوسط. وقد لاحظ «لورنس غارفتي سميث»، وهو دبلوماسي بريطاني محنّك، أنه لولا الحضور البريطاني في الشرق الأوسط

لاستبدّت الوهابية بشرق الأردن والعراق[٢٨]

لكن حتى مع تحديد الحدود الشمالية للجزيرة العربية ستنتشر الأفكار الوهابية داخل العربية السعودية وخارجها في آخر المطاف. إذ بقدر ما أثار الإخوان المخاوف في بعض مناطق الشرق الأوسط كانت دوائر أخرى في الشرق الأوسط تبدي إعجابها بالوهابيين السعوديين، وتحذو حذوهم خلال عشرينيات القرن الماضي. فعلى سبيل المثال، كان ابن سعود وجيوشه يحظون بالاحترام في سوريا، لأن الهيمنة الأجنبية لم تلطخ سمعتهم، حيث حالوا دون خضوع الجزيرة العربية للسيادة الأوروبية المباشرة[٢٩] وكانوا محاربين مسلمين صادقين.

كان أحد مساندي الوهابية المتحمسين وقتئذ هو رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥)، الذي دشن حركة النهضة الإسلامية في القاهرة رفقة شيخه محمد عبده. في الواقع، ربما كان رضا أهمّ شخص تأثر بالعقيدة الوهابية تأثراً عميقاً. إذ اتبع المذهب الحنبلي في الفقه الإسلامي، شأنه شأن الوهابيين. وأحس أن العالم الإسلامي انحطّ لأنه انحرف عن الإسلام الحق للسلف الصالح؛ وعلى ذلك فمن شأن عودة إلى الإسلام الحق إحياء العالم الإسلامي وتخليصه من الفساد والضعف السياسيين. كما دعا، على غرار الوهابيين، إلى وحدة إسلامية، لكنه انتقد الصوفية والتشيّع، حيث كتب أن هذا الأخير حافل بـ«الخرافات والبدع غير الشرعية».

صحيح أن كتابات رضا تختلف، في نواحي مهمة، عن عقائد الوهابية. إلا أنه حصر، على نحو حذر، إمكانية تطبيق مفهوم الجهاد، مصرّحاً أن الحروب العدوانية لنشر الإسلام لم تكن شرعية إلا حيث منعت الدعوة إلى الإسلام بشكل سلمي. كما أقرّ بخطأ إكراه «أهل الكتاب»- اليهود والمسيحيين- على اعتناق الإسلام[٣٠] وقد نشر

رضا معظم هذه الأفكار بشكل منتظم في جريدته «*المنار*» ورغم أنه لم يتبنَّ كل المواقف المتشددة في الوهابية فإنه جعل أغلب مواقفه الأخرى تأتلف بعقائدها.

ومهما يكن الأمر، لا يمكن إنكار صلته الوثيقة بالوهابية. ففي سنة ١٩٠٨، استنكرت جماهير دمشقية مساندته الوهابية[٣١] وكتب في ما بعد كتاباً مناصراً للوهابية عنوانه ***الوهابية***، ودافع خلال العشرينيات عن دعوة الوهابيين إلى غزو الحجاز، رافضاً اتهام الوهابية بكونها هرطقة. ذلك أن مواقف رضا كانت صريحة في مناصرة الوهابية، بحيث أثار ذلك شك معاصريه في كونه حصل على راتب سعودي- شك تأكد عندما اعترف مستشار ابن سعود الشيخ حافظ وهبة أن «ثمة مالاً في العملية»[٣٢] ويفيد مصدر آخر أن الملك السعودي أعطى رضا حوالي ستة آلاف جنيه استرليني. بالطبع، ربما لم تكن تلك آخر مرة يدعم السعوديون مثقفاً عربياً بارزاً، فغالباً ما وسّع خلفاء ابن سعود مجالات تأثيرهم، كما سنرى، عبر وسائل الدعم المادي.

وسيكون لاعتناق رضا العقائد الوهابية وإعجابه بالمقاتلين المسلمين السعوديين عواقب وخيمة. ذلك أن تلميذ رضا حسن البنّا (١٩٠٥-١٩٤٩)، وهو يتبع دعوات معلمه إلى إصلاح جذري، سيبرز باعتباره الوجه الرئيس الذي يقف وراء انبعاث النزعة الأصولية الإسلامية في مصر.[٣٣] (بل إن البنّا سيتولّى أمر جريدة رضا ***المنار*** بعد وفاة هذا الأخير سنة ١٩٣٥). ورغم انهيار المؤسسات الإسلامية الأساسية بعد زوال الإمبراطورية العثمانية- إذ ألغيت الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤، وهيمنت القوى الأوروبية على المراكز الإسلامية الأساسية في القاهرة ودمشق وبغداد، رفض البنا أن تتبنّى مصر دستوراً علمانياً، بل ارتأى بالأحرى أن يبعث الإسلام باعتباره المرشد الأول

في الفعل السياسي. من هنا، وكخطوته الأولى نحو الإصلاح، أسس سنة ١٩٢٨ تنظيماً منذوراً لإعادة تأسيس الأجندة السياسية في الإسلام.

لا غرابة أن يُسمّي تلميذ محمد رشيد رضا تنظيمه الإسلامي الجديد بـ«الإخوان المسلمين»، طالما أنه كان ينشد محاكاة الجماعة الإسلامية الطاهرة التي أنشأها الإخوان الوهابيون. وليس من المدهش أن تشكل عقيدة الإخوان المسلمين، بالنظر إلى الوحشية والتعصب المتأصلين في سجلات المقاتلين الإسلاميين، رسالة قوية في القتال الإسلامي: «الله غايتنا، والرسول قدوتنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، **والموت في سبيل الله أسمى أمانينا** (إبراز الحروف من إضافة الكاتب)»[٣٤]

في نهاية المطاف، وبعد عقود عديدة، شكّل الإخوان المسلمون وحدات شبه عسكرية، وتبنّوا استراتيجية العنف الكلي- ارتكاب أفعال إرهابية، بما في ذلك تفجير القاعات السينمائية العلمانية، ومهاجمة الأقليات غير المسلمة في مصر (اليهود والأقباط المسيحيين)، واغتيال الزعماء المصريين. ونشأت فروع الإخوان المسلمين في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، بما في ذلك سوريا والسودان والأردن.

بعبارة أخرى، لم تُحْتَوَ القوة الوهابية القتالية، حتى من قبل القوى العسكرية البريطانية. بل قُيِّض لها أن تنتشر في أماكن بعيدة عبر العالم الإسلامي برمّته.

الفصل الرابع

بناء الدولة السعودية الحديثة

النفط والقضية الفلسطينية والأمريكيون

تجلّت إحدى المزاعم المقدمة ضد ابن سعود خلال الصراع بين الزعيم السعودي والإخوان في كونه تعاون مع «قوة كافرة»، أي بريطانيا. بالفعل، فقد وافق ابن سعود سنة ١٩١٥ على أن تكون نجد شبه محمية بريطانية، وأن يحصل على إعانة مالية شهرية من الحكومة الهندية البريطانية. وتعهد في اتفاقه مع الهند البريطانية أن «يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مع حكومة أو دولة أجنبية». بل صادر حقه في «أن يمنح امتيازات. لرعايا دولة أجنبية دون رضا الحكومة البريطانية»[١] لكنه حاول أن يخفي تبعيته المالية إلى لندن، مفسراً الأمر لأتباعه بأنه كان يجبي الجزية من البريطانيين[٢]

كان لابن سعود مبرّره في إنكار علاقاته بالبريطانيين، بما أن العقيدة الوهابية تحرّم هذه الارتباطات. إذ حرّم الشيخ سليمان عبد الله، حفيد محمد بن عبد الوهاب، كل الصلات بالكفار، معتبراً أنه لا يجوز للمرء أن يستخدمهم، أو يستشيرهم، أو يستنصحهم، أو يصاحبهم[٣] وأدرك البريطانيون الحساسيات في العربية السعودية. فما أن استولى ابن سعود على الحجاز حيث توجد مدن الإسلام المقدسة

حتى أدركت لندن أن العربية السعودية لن تصير محمية استعمارية بريطانية كالكويت، أو البحرين، أو الدول المهادنة (التي ستصبح الإمارات العربية المتحدة). ذلك أن جعل الأرض الإسلامية المقدسة جزءاً من الإمبراطورية البريطانية سينفّر المسلمين في العالم أجمع. ونتيجة لذلك تخلّى البريطانيون سنة ١٩٢٧ عن وضع المحمية في العربية السعودية، واعترفوا باستقلالها، وحلت معاهدة إنجليزية-سعودية محل الاتفاق السابق بينهما سنة ١٩١٥

لكن الدول المجاورة، التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية في وقت سابق، ظلت عالة على الإمبراطورية البريطانية. إذ كانت مصر محتلة، فيما أدارت بريطانيا الأردن والعراق ضمن انتدابات عصبة الأمم، واختزلت الدول المهادنة في شبه محميات تابعة للهند البريطانية.

واستطاع ابن سعود، الذي تحرر جوهرياً من الهيمنة الإمبريالية، التركيز على بناء الدولة السعودية- ولم يتجاهل أبداً مركزية الإسلام، والوهابية خصوصاً، في قضيته. بعد سنوات، شرح ابن سعود، خلال لقاء في جدة بالوزير البريطاني «ف. هـ. و. ستونهيور بورد»، سبب تشديده على اعتبار الإسلام لحمة المجتمع السعودي:

> للعرب خاصّيتان: الإسلام والعروبة. لكن أن تكون عربياً غير كاف. إذ ما زال ثمة العديد من العرب الذين لا يعرفون توحيد أنفسهم في وطن كبير. يبقى إسلامهم؛ الذي على أساسه يمكن تأسيس وطن، أي إذا كان إسلاماً حقاً لم يفسده الجهل والبدعة[٤]

وكان يستعمل، في حديثه عن الإسلام الذي أفسدته «البدع»،

اللغة الوهابية التقليدية في وصف ممارسات عديدة وجدت في الإسلام السني. إذ أظهرت عبارات ابن سعود أنه ظل يجلّ الإسلام (أو الوهابية على الأقل) لأنه يوفّر أسس الدولة السعودية.

ومع ذلك، كان على ابن سعود أن يوازن حساسيات أتباعه الدينية مقابل حاجته إلى تشكيل حلف بغية بناء المملكة السعودية. ففي الواقع، اتضح أن الحاجة إلى الاتصالات الدولية تجاوزت التزامه بالحفاظ على مجتمع قائم على تأويل صارم للإسلام.

المال والنفط: مفاتيح السلطة السعودية

أضحى ابن سعود لا يعوّل على الوهابية وحدها في توحيد القبائل العربية، عندما لم يعد الإخوان يشكلون عاملاً. وهكذا أصبحت مكافآته لقبائل البدو أهم. إذ منحت الحكومة البريطانية ابن سعود حوالي ٦٠ ألف جنيه استرليني سنوياً لهذا الغرض، وارتفعت الإعانات البريطانية خلال عشرينيات القرن الماضي إلى مئة ألف جنيه استرليني سنوياً.

لكن الحفاظ على وحدة مملكته الموسعة بات أمراً باهظ الثمن على نحو متزايد. إذ جمع ابن سعود حوله، عبر نظامه في منح الهبات للقبائل، حاشية ضخمة من شيوخ الجزيرة العربية، الذين لم يُعلهم بالمأكل والإيواء فحسب، بل بالسيارات، والبيوت، والزوجات، والأموال[٥] ثم واجه النفقات العسكرية المتواصلة، خاصة بسبب تمرّد أبناء العسير على الحكم السعودي سنة ١٩٣٣، وحرب الأشهر الثلاثة ضد اليمن سنة ١٩٣٤

وفي الآن ذاته، كانت مداخيل ابن سعود تتراجع بسبب الأزمة الكبرى. ورغم أنه استفاد من الحج بفضل هيمنته على مكة، فقد

تراجع عدد الحجاج من ١٣٠ ألف حاج سنة ١٩٢٦ إلى ٤٠ ألف حاج سنة ١٩٣١؛ ومن ثم انخفضت مداخيل الحج بمعدّل الثلثين. وأخبر المسؤولون البريطانيون نظراءهم الأمريكيين في بغداد أن ابن سعود «أفلس عملياً»(٦) إذ كانت ميزانية وطنية مرهقة تعني إعانات مالية أقل للقبائل- والإعانات المالية الأقل تضمر صعوبة أكبر في الحفاظ على وحدة المملكة الصحراوية.

وقد تساءل الدبلوماسيون الأمريكيون المتمركزون في عدن عن احتمال استمرار تحكّم ابن سعود في زمام السلطة. إذ تنبأت برقية كتبت في شهر آب/ أغسطس ١٩٣٣ أنه «لا يتوقع أن يبقى هو [ابن سعود]، ولا حكومته، مدة أطول بدون مال». وقبل سبعة أشهر من ذلك صرّحت برقية أخرى أن «العائلة الوهابية ستتنازل، كما فعلت مرتين من قبل، عن الحجاز، وتنسحب إلى نجد، بعيد وفاة ابن سعود، أو ربما قبل ذلك»(٧)

وبالإسراع في تحسين التدفق المالي في العربية السعودية أمكنت موازنة هذه الاتجاهات. هكذا منح ابن سعود شركة «ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» (سوكال = SOCAL) امتيازاً نفطياً ضخماً يغطي ٣٦٠ ألف ميل مربع في الجزء الشرقي من المملكة السعودية. وسددت «سوكال» رسماً سنوياً بقيمة ٣٥ ألف دولار، وقدمت قروضا بقيمة ٢١٠ آلاف دولار و١٤٠ ألف دولار خلال السنتين الأوليين من الامتياز. كما أنشأت فرعاً خاصاً لعملياتها السعودية: «كاليفورنيا أرابيان ستاندرد أويل كامباني» (كاسوك = CASOC). واستخدمت شركة «تيكساكو» (Texaco) كشريك في الامتياز السعودي سنة ١٩٣٦ وعندما اكتشف النفط سنة ١٩٣٨ كسبت العربية السعودية ٣,٢ ملايين دولار من حقوق الملكية خلال تلك السنة وحدها.

وبلغت حقوق الملكية النفطية السعودية ١٠ ملايين دولار سنة ١٩٤٦، و٥٣ مليون دولار سنة ١٩٤٨، و٢١٢ مليون دولار سنة ١٩٥٢[٨] وبعد الحرب العالمية الثانية استخدمت شركة «كاسوك» شريكين إضافيين هما: «ستاندرد أويل أوف نيوجيرسي» و«ستاندرد أويل أوف نيويورك». وغيّر الفرع الموسع اسمه ليصبح «أرابيان أمريكان أويل كامباني» (أرامكو = ARAMCO).

لماذا سمح ابن سعود للشركات النفطية الأمريكية، لا البريطانية، بالدخول إلى مملكته؟ في العقد الأول من القرن العشرين أثار البريطانيين ضد الإمبراطورية العثمانية لمصلحته الشخصية، وهكذا تعلم كيفية التعامل مع القوى الكبرى. إذ كانت الولايات المتحدة الأمريكية تتنافس بوضوح مع بريطانيا العظمى باعتبارها قوة صناعية وتجارية. لكن كانت ثمة اعتبارات سياسية أيضاً.

بموجب اتفاق شبه الحماية السابق المبرم سنة ١٩١٥ بين ابن سعود والبريطانيين، كان يفترض فيه أن يحابي الشركات البريطانية وحدها. ولأن ذلك الاتفاق لم يعد ساري المفعول، كما لوحظ، فإنه لم يكن يخرق من الناحية القانونية أي التزام تجاه لندن. ومع ذلك أدرك ابن سعود أن البريطانيين أرادوا حماية مصالحهم الاقتصادية داخل مجالات تأثيرهم السياسي- أو «الأفضلية الإمبريالية»، كما كانوا يسمّونها. وفي المقابل، تحدث الأمريكيون فقط عن «الأبواب المشرعة» أمام شركاتهم، تلك التي تمنحهم فرصة للمنافسة الاقتصادية دون الحاجة إلى بناء صرح إمبراطورية أمريكية داعمة. وكان السماح لشركة «سوكال» بالدخول إلى الجزيرة العربية أشبه بدس الأصبع في أنف بريطانيا.

يمكن القول إن حافز ابن سعود القوي كان اقتصادياً، حيث منحت

شركة «سوكال»، في نهاية المطاف، السعوديين خمسة أضعاف ما قدمته شركة النفط العراقية (IPC)، التي كان يهيمن عليها البريطانيون. ورغم أن الشركة البريطانية ضمّت شركات أمريكية، فإن مكوّنها الأوسع هو شركة النفط الإنجليزية- الفارسية، التي كانت الحكومة البريطانية تملك أغلب أسهمها. (وبالعودة إلى سنة ١٩١٤، فاوض «وينستون تشرتشل»، اللورد الأول في البحرية، على شراء الحكومة البريطانية ٥١ في المئة من أسهم الشركة الإنجليزية- الفارسية قصد الحفاظ على ولوج البحرية الملكية إلى النفط)[٩] وقبل عشر سنوات من هذا التاريخ كان ابن سعود قد منح امتيازاً نفطياً سنة ١٩٢٣ لشركة بريطانية أخرى هي «إسترن أند جينيرال سانديكيت»، لكن الشركة تخلّفت عن تسديد ما بذمّتها عندما لم يستطع جيولوجيوها السويسريون تحديد النفط شرق الجزيرة العربية. وبدت «سوكال»، التي اكتشفت النفط في البحرين سنة ١٩٣٢ رهاناً مأموناً. من هنا، تفوّق ابن سعود على أعضاء آخرين من العائلة- بمن في ذلك شقيقه عبدالله بن عبد الرحمان، الذي فضل شركة النفط العراقية على «سوكال»[١٠]- وعلى العلماء الوهابيين الذين اعترضوا في البداية على دخول غير المسلمين إلى العربية السعودية.

بالطبع واجه ابن سعود، كما أظهر موقف العلماء، مشكلات داخلية في تقديم أي امتياز للأجانب، أكانوا أمريكيين أم بريطانيين. وكان من أدرك هذا الأمر هو المسؤول الحكومي البريطاني السابق «هـ. سانت جون فيلبي»، الذي أصبح مستاء من السياسة البريطانية، واعتنق الإسلام، والتحق بحاشية ابن سعود. (سيبرز ابنه «كيم» فيما بعد كأحد أشهر الجواسيس الذين عملوا لصالح الاتحاد السوفياتي في بريطانيا). إذ كتب «فيلبي» أن «الملك كان، بالنظر إلى المشكلات الأخيرة مع

الزعماء الأكثر تشدداً في الحركة الوهابية، يمانع فتح بلاده أمام الكفار»[١١] لكن مصالح الشركات الأمريكية انتصرت في نهاية المطاف. (كما انتصر «فيلبي»، حيث وظفته شركة «سوكال»).

ورغم أن المال كان بوضوح عاملاً أساساً في قرار ابن سعود فهو لم يغفل أبداً الاعتبارات الجيوسياسية. إذ رأى البريطانيون في مملكته الدولة التي تخلف الإمبراطورية العثمانية داخل الجزيرة العربية وحصروه بحدود جديدة في الشمال والشرق. وفي الوقت نفسه رأى ابن سعود في العربية السعودية دولة تخلف الإمبراطورية الوهابية في القرن الثامن عشر. وسيستلزم منه أي امتياز تهيمن عليه بريطانيا القبول بالهيمنة البريطانية، بينما قد تمنحه شراكة واشنطن، بدل لندن، مرونة أكبر لتحقيق طموحه.

عموماً، لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية خلال ثلاثينيات القرن الماضي تملك لائحة طويلة من المطالب السياسية أو المصالح في الشرق الأوسط. ولم تملك إمبراطورية في الهند تضم عدداً كبيراً من الرعايا المسلمين، الذين ينبغي أخذهم بعين الاعتبار.

ففي سنتي ١٩٣٢ و١٩٣٣ تفاوضت وزارة الخارجية الأمريكية مع السعوديين حول تبادل التمثيليات الدبلوماسية. وقد تردد السعوديون، خوفاً من أن تصرّ واشنطن على الحق في تحرير العبيد السعوديين- وهو ما طالب به البريطانيون. لكن وزير الخارجية في عهد الرئيس «هربرت هوفر»، «و. ر. كاستل جونيور»، ثم وزير الخارجية في عهد الرئيس «فرانكلين د. روزفلت»، «كورديل هول»، طمأنا السعوديين بأن القانون الأمريكي لا يرخص للمكاتب القنصليات الأمريكية بتحرير العبيد[١٢].

باختصار، كانت الولايات المتحدة الأمريكية قوة أقل تدخلاً من

بريطانيا. إذ لم تحاول فرض قيمها على المملكة الوهابية- بل لم تفرض حتى اعتراضها على العبودية، التي لم تلغ في العربية السعودية حتى سنة ١٩٦٢

وقد أدى النجاح الأمريكي في الحصول على حقوق النفط في العربية السعودية إلى تنافس شامل بين الإنجليز والأمريكيين حول النفط. إذ بذلت شركة النفط العراقية، التي يهيمن عليها البريطانيون، جهداً استثنائياً لانتزاع ما تبقى من الامتيازات العربية في المشيخات الصغرى داخل الخليج الفارسي، بما في ذلك الدول المهادنة، لاستباق التقدم الأمريكي. ففي قطر، على سبيل المثال، حاولت الشركة الإنجليزية- الفارسية أن تطالب لشركة النفط العراقية بحقها في امتياز النفط هناك. ذلك أنه مع تحديد انتهاء هذا الحق في آب/ أغسطس ١٩٢٤، خلصت الحكومة البريطانية إلى أن الزعماء القطريين كانوا يرفضون إنجازات شركة النفط العراقية حتى يمنحوا الامتياز لشركة «سوكال» عندما ينتهي عقد الشركة الإنجليزية- الفارسية. كما ارتاب البريطانيون في أن ابن سعود كان ينصح قطر بالانحياز إلى شركة «سوكال»؛ أي إلى الأمريكيين، بدل البريطانيين، إذ سيمتلك السعوديون، بإحكام القبضة على امتياز النفط، وقتاً مريحاً لإلحاق قطر. وأضحت بريطانيا منشغلة أكثر من أي وقت مضى بالجهود السعودية الرامية إلى التوسع.

في نهاية المطاف، منحت قطر امتياز النفط في سنة ١٩٣٥ لشركة النفط العراقية، لكن كان على البريطانيين، في مقابل ذلك، أن يضمنوا دعماً عسكرياً لقطر في حالة وقوع هجوم بري. إذ كان القطريون يتخوفون أساساً من تهديد البدو السعوديين.

وفي سنة ١٩٣٩، استبقت شركة النفط العراقية «سوكال» إلى دبي

والشارقة ورأس الخيمة وأبوظبي وعجمان (وهي المشيخات التي ستشكل الإمارات العربية المتحدة خلال السبعينيات). كما حصل فرع من فروع شركة النفط العراقية على حقوق النفط في عُمان. وبمحاصرة الأمريكيين في ما تبقّى من الجزيرة العربية صار البريطانيون حينها رادعاً مهماً أمام ابن سعود وأحلامه في مطالبته باسترداد إمبراطورية أجداده الوهابية[١٣].

الوهابية حيّة ومُعافاة

رغم أن مداخيل النفط كانت أساسية بالنسبة لابن سعود فإنه لم يتجاهل المؤسسة الدينية الوهابية، التي شرعنت حكم العائلة الملكية السعودية. إذ اعتمد الملك على العلماء أكثر من أي وقت مضى، بعد إخماد تمرّد الإخوان سنة ١٩٢٩، حيث استعمل بانتظام هذه الزعامة الدينية لإصدار الفتاوى حول جملة من القضايا السياسية. ففي الواقع استصدر فتوى قبل قمع الإخوان. ورغم أن العلماء اعترضوا في البداية على الوجود الأجنبي الذي جاء به الامتياز النفطي فقد كان متيقناً من إثارة اهتمام الزعماء الدينيين بالسماح للأمريكيين باستكشاف النفط.

لقد استشار ابن سعود الزعماء الدينيين الوهابيين حول موضوع النفط في الأربعينيات. ففي سنة ١٩٤٤ أصدر «وليام أ. إيدي»، رئيس المفوضية الأمريكية في العربية السعودية، تقريراً حول «زعيم ومتشدد وهّابي موقّر وعنيد» يدعى الشيخ أبو باز، يتحدر من مكان قريب إلى الربع الخالي النائي، تلك المنطقة المترامية الأطراف جنوب نجد. إذ كان أبو باز يجاهر في الدعوة إلى كون ابن سعود خان العهد «ببيع البلاد للأجنبي». ويظهر أنه كان يشير إلى الأمريكيين الذين انخرطوا في مشروع للتنمية الفلاحية. لذلك استدعى ابن سعود أبا باز إلى

الرياض حيث مثل الاثنان أمام العلماء. وقد عبّر أبو باز عن تهمته من جديد، معلناً أن ابن سعود وضع البلاد والعباد «رهن الكفار» فالتفت ابن سعود إلى العلماء سائلاً عمّا إذا كان النبي محمد قد استخدم المسيحيين وباقي «أهل الكتاب»، وعمّا إذا كان بإمكانه، بناء على ذلك الأساس، استخدام الخبراء الأجانب «لزيادة الموارد المادية للبلاد، واستخراج المعادن والنفط والماء الذي وضعه الله في باطن أرضنا لصالحنا». فحكم العلماء أن ابن سعود كان مصيباً، وأبا باز مخطئاً[١٤]

فاز ابن سعود في تلك المحاكمة- وربما تأكد أن العلماء سيدعمونه. ومع ذلك سجل تقرير «إيدي» الدور الخطير الذي لعبته المواقف الدينية الوهابية في العربية السعودية. إذ بات بإمكان السعودي أن يجاهر بتحدي سلطة الملك عندما يظهر أنه فشل في الإخلاص للمبادئ الوهابية. فلم ينجح أي ملك سعودي في الحكم دون دعم العلماء.

كما احتكر العلماء السياسات التربوية والدينية، ضامنين أن يتعلم السعوديون المبادئ والقيم الوهابية ويتبعوها[١٥] هكذا بقيت الوهابية، رغم «الغزوات» التجارية الأمريكية في العربية السعودية، حية ومعافاة. وشعر «إيدي» أن تقريره «رسم رهاباً رَجعياً وتشدداً دينياً» لدى زعماء القبائل النائية في العربية السعودية[١٦] لكن ذلك التشدد لم يعبر حدود الدولة، خلال الثلاثينيات والأربعينيات على الأقل.

العربية السعودية والكفاح من أجل فلسطين

لمّا كبرت موارد ابن سعود أضحى من غير ريب أكثر ثقة بحماية سيادة العربية السعودية. ولمّا كانت العربية السعودية تبدو أشبه بدولة

دائمة أكثر من اتحاد قبلي مؤقت بات يتوقع منها، أكثر فأكثر، أن تلعب دوراً رائداً في شؤون الشرق الأوسط. وكان المقصود من ذلك جرّ ابن سعود إلى قضية تأسيس دولة يهودية في فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني.

وحتى الثلاثينيات كانت فلسطين تهمّ الهاشميين أكثر من السعوديين. ومع ذلك، وإلى حدود نهاية الحرب العالمية الأولى، قدّم البريطانيون التزامات متناقضة في ظاهرها؛ تجاه شريف حسين بإقامة دولة عربية كبرى فوق الأراضي الآسيوية التابعة للإمبراطورية العثمانية (١٩١٥)؛ وتجاه الفرنسيين بتقسيم تلك الأراضي نفسها إلى مجالات تأثير بريطاني وفرنسي (١٩١٦)، وتجاه الحركة الصهيونية بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين (١٩١٧). وقد وقع عبء تصحيح تلك المواقف البريطانية المتباينة على عاتق الهاشميين، لا السعوديين.

انخرط فيصل بن شريف حسين في الحركة الصهيونية انخراطاً مباشراً، موقّعاً «اتفاقية فيصل- وايزمان» (١٩١٩). وبموجب هذه الاتفاقية تدعم الحركة القومية العربية قيام وطن قومي يهودي في فلسطين، وفي المقابل تدعم الحركة الصهيونية قيام دولة عربية كبرى تمتد على ما تبقّى من الأراضي العربية التابعة لتركيا (سوريا والعراق والجزيرة العربية). لكن عندما شعر الهاشميون بالخيانة المزدوجة الناجمة عن الالتزامات البريطانية المتناقضة، رفض الشريف حسين توقيع اتفاقية بريطانية- حجازية لأنها ستعترف بشرعية الأراضي العثمانية السابقة- سوريا والعراق وفلسطين- باعتبارها مناطق انتداب عصبة الأمم خاضعة للإدارة البريطانية والفرنسية.

وخلال الثلاثينيات انجذب ابن سعود إلى القضية الفلسطينية على مضض. إذ أطلق العرب الفلسطينيون «ثورتهم الكبرى» سنة ١٩٣٦

محاولين حث الدول العربية على التدخل لدى بريطانيا العظمى لصالحهم. وبعد أن تلقّى نداءات من الزعماء الفلسطينيين، أمثال الحاج أمين الحسيني مفتي القدس، انقلب ابن سعود إلى البريطانيين- لا لكسب التأييد لصالح العرب الفلسطينيين، وإنما للاستنصاح حول كيفية تفادي التدخل في شأن يقع خارج اختصاصه السياسي.

وأرسل مفتي القدس دعوات سنة ١٩٣١ لعقد مؤتمر إسلامي في القدس. لكن وفد السعوديين وصل بعد انتهاء المؤتمر لأنهم كانوا يشكّون في المفتي[١٧] وفي سنة ١٩٣٩ طلب من العربية السعودية إرسال وفد إلى لندن، إلى جانب مصر واليمن والعراق وشرق الأردن، لمناقشة الحلول الممكنة للقضية الفلسطينية. فحضر السعوديون اللقاء هذه المرة، لكن اتضح أنهم لم يلعبوا دوراً طليعياً.

قبل ذلك بعام كان ابن سعود، في مراسلة إلى الرئيس «روزفلت»، قد بدأ يعبّر عن موقفه المناهض للدولة اليهودية. وتجلّى قلقه على الخصوص في أن الاقتراحات الأولى الرامية إلى تقسيم الانتداب البريطاني في فلسطين، كتقرير لجنة «بيل» سنة ١٩٣٧، رَدَّت الأجزاء العربية من فلسطين إلى خصومه الحجازيين القدامى، أي الهاشميين[١٨]

فمن جهة، حاول البريطانيون أن يجعلوا ابن سعود جزءاً من حل المشكلة الفلسطينية. ففي أيار/مايو ١٩٤١ نظر الوزير الأول «وينستون تشرتشل» في منح الملك السعودي «الحكم المطلق على العراق وشرق الأردن». إذ ارتأى «تشرتشل»، الذي اعتقد أن ابن سعود كان «أعظم عربي حي»، «إنشاء وحدة يهودية مستقلة داخل الخلافة العربية»[١٩] وكان الوهابيون قد ارتأوا، قبل عقدين من ذلك، عدم جدوى الهيمنة على مدينتي مكة والمدينة المقدستين، وها هم البريطانيون الآن

يدفعون بزعيم تلك الطائفة الإسلامية، وعلى نحو لافت للنظر، باعتباره المرشح الأول لقيادة «خلافة عربية» جديدة. إذ أضحى ابن سعود نقطة الارتكاز في العديد من مبادرات حل القضية التي اقترحها البريطانيون والآخرون.

فماذا كان رأي ابن سعود في هذه القضية؟ في سنة ١٩٤٣، وفي لقاء سري مع ممثل بريطانيا الأسمى المبعوث إلى مملكته «ف. هـ. و. ستونهيور بورد»، عبّر عن ازدواجيته تجاه القادة العرب الذين دعوا إلى التضامن العربي مع القضية الفسلطينية:

> تحدثنا عن فلسطين. أقول لك أنا العربي إن العرب خلقوا مشكلة فلسطين. مَنْ غير العرب دعا إلى المؤتمرات، وصاح صارخاً، وبشر وهذر بفلسطين؟ ومن هم هؤلاء العرب؟ ثمة ثلاثة أنواع: رجل سعى إلى أن يشهر نفسه ويصير على كل لسان، ومغامر لا مصلحة له في فلسطين وسوريا، ورجل جشع ارتأى إغناء نفسه. دع عرب كل بلد يتطلعون إلى تغيير بلدانهم أولاً[٢٠]

لم يكن القصد من هذه الأفكار الصريحة أن ابن سعود لم يمتلك آراء إيديولوجية قوية حول القضية الفلسطينية. ففي مراسلة موجهة إلى الرئيس «روزفلت» رفض المطالب التاريخية اليهودية بفلسطين. وأكد العديد من تلك المواقف ذاتها في لقائه خلال شهر شباط/ فبراير ١٩٤٥ بـ«روزفلت» على متن باخرة «يو. إس. إس كوينسي» في البحيرة المرّة الكبرى في مصر. إذ كانت إدارة «روزفلت» منشغلة بكون الحرب العالمية الثانية استنفدت موارد النفط الأمريكية في «تكساس» و«أوكلاهوما»، متوقعة أن يصبح الشرق الأوسط منذئذ مركز

عالم النفط، حيث قررت الإدارة أن تلتزم الولايات المتحدة الأمريكية بزيادة معاملاتها مع ابن سعود، حتى في ما يتعلق بقضية فلسطين الحساسة.

وأضمر ابن سعود مشاعر قوية مناهضة لليهود، ولم يقو على تقديم المساعدة على الصعيد الدبلوماسي. إذ أخبر الموظفين التنفيذيين في شركة «أرامكو» في مطلع سنة ١٩٤٧ أنه بينما دعا القرآن المسلمين إلى احترام المسلمين، فإن الأمر ذاته، بحسب تأويله، لا ينطبق على اليهود[٢١] لكن النزوعات الإيديولوجية الوهابية كانت تروم أمراً واحداً هو أن المصالح الوطنية شأن مختلف تماماً.

اختبرت سياسة ابن سعود حول فلسطين اختباراً حقيقياً عقب صدور قرار الأمم المتحدة الرقم ١٨١ (الدورة الثانية). إذ صوّتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، يوم ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، على قرار يوصي بتقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية. ورغم أن القرار لم يكن قانوناً دولياً ملزماً فقد قدّم دعماً ومشروعية كبيرين لتأسيس دولة يهودية.

وقد ساندت الولايات المتحدة الأمريكية القرار؛ في حين امتنعت بريطانيا عن التصويت. وأفاد التقييم المهني لوزارة الخارجية الأمريكية أن العربية السعودية ستنتقم من أمريكا لدعمها قرار التقسيم الأممي، ربما بإلغاء الامتياز النفطي الأمريكي الضخم.

كانت الشركات الأمريكية حينها تنشئ أنبوب النفط العابر للدول العربية لشحن النفط السعودي إلى شرق البحر الأبيض المتوسط، لينقل من هناك في السفن إلى حلفاء أمريكا الأوروبيين. إذ أدركت الولايات المتحدة الأمريكية أن توفر النفط السعودي سيشكل عاملاً أساسيا في استرداد عافيتها بعد الحرب وقدرتها على مقاومة الشيوعية السوفياتية.

وكانت لحظة الحقيقة بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية في ما يتعلق بقطع النفط السعودي يوم ٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧؛ أي بعد أربعة أيام من التصويت على قرار الأمم المتحدة. إذ دعا ابن سعود «ج. رايفز تشايلدز»، رئيس البعثة الدبلوماسية الأمريكية في الرياض، من أجل الاستماع. وصرف الملك، على نحو مفاجئ، المترجمين الرسميين الأمريكيين والسعوديين، ربما للتأكيد على خطورة الوضع، حيث اضطر أحد مستشاري الملك إلى الترجمة.

بدأ ابن سعود بطمأنة ضيفه الأمريكي بالقول: «رغم أننا نختلف كثيراً حول القضية الفلسطينية، ينبغي أن نحافظ على مصالحنا المتبادلة وصداقتنا». ولم يحاول أن يقنع الولايات المتحدة الأمريكية بتغيير موقفها، بل ركّز على مدى تعويله على الأمريكيين من أجل تحقيق أمنه، بما في ذلك توفير مؤن الأسلحة. إذ خشي أن يكون هناك تفاهم إنجليزي- أمريكي سري تدخل العربية السعودية بموجبه في مجال تأثير بريطانيا السياسي[٢٢] ولم يستطع «تشايلدز» الإجابة على هذه النقطة، بل كان عليه أن يرسل برقية إلى واشنطن للحصول على التعليمات.

وفي لقاء ثان مع «تشايلدز» في اليوم الموالي شرح ابن سعود الصلة بين القضية الفلسطينية وتطلعه إلى مستقبل الدعم العسكري الأمريكي. إذ كان يواجه ضغوطاً جديدة من خصومه الهاشميين التقليديين في شرق الأردن والعراق، حيث قال إن غاية بغداد وقف «العلاقات الاقتصادية بين العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية، خاصة امتيازات النفط». وأضاف الملك السعودي:

سأخضع من الآن فصاعداً لضغط أكبر من أي وقت مضى في

هذا الصدد يعزز المطالب بأن ألغي امتيازات النفط. إذ المسألة الأساسية بالنسبة لي هي معرفة مدى اعتمادي على مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية في تمكيني من مقاومة أي هجوم من العراق أو شرق الأردن، قد يكون نتيجة فشلي في الاستسلام أمام الضغط المفروض علي للدخول في صراع اقتصادي مفتوح مع الولايات المتحدة الأمريكية[٢٣]

وقد أبرق «روبرت لوفيت»، القائم بأعمال وزارة الخارجية الأمريكية، إلى «تشايلدز» ليخبر ابن سعود أن الولايات المتحدة الأمريكية ستتصرف عبر الأمم المتحدة لدعم وحدة العربية السعودية الترابية واستقلالها السياسي[٢٤] وكان لا بد لهذا الجواب أن يخيّب آمال ابن سعود، لأن صدره ضاق بدور الأمم المتحدة في تحقيق أمنه. وبعد سنتين، سيبث «تشايلدز» شكواه من احتمال إحالة الحكومة الأمريكية مسألة احتلال الحجاز على الأمم المتحدة، التي لن تفعل أي شيء في حالة وقوع ذلك[٢٥]

ليس من الواضح ما إذا كان ابن سعود قد تخوّف فعلاً من احتلال هاشمي، أم أنه كان ببساطة يغذي طموحاته الترابية. لكنه أضمر، على نحو أكيد، آمال استعادة مدينتي العقبة ومعان الأردنيتين، اللتين اقتطعهما البريطانيون من الحجاز قبيل أن يُلحق السعوديون الهزيمة بالهاشميين سنة ١٩٢٥ إذ مثّل احترام الحدود بين العربية السعودية وشرق الأردن الخاضع للمراقبة البريطانية شيئاً، بينما شكّل احترام مملكة أردنية مستقلة شيئاً مختلفاً تماماً.

غير أن مخاوف ابن سعود من الطوق الهاشمي، أو حتى من الاحتلال، ربما نتج أيضاً عن شكوك الهاشميين في استمرار وجود

نظام وهابي في الحجاز. إذ أخبر طلال أمير الأردن الدبلوماسيين البريطانيين قائلاً: «بينما لا يرجح أن يحاول البيت الهاشمي، خاصة الملك عبد الله، تنفيذ أي عمل مسلح. يتضح أن العالم الإسلامي لن يواصل معاقبة الوهابيين باعتبارهم حراس الأماكن المقدسة في الحجاز»(٢٦)

وربما زاد الصراع العسكري حول فلسطين، الذي تلا تصويت الأمم المتحدة، الطين بِلّة بالنسبة إلى ابن سعود. إذ انسحب البريطانيون من فلسطين، وأعلنت إسرائيل استقلالها يوم ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨، وصدّت جيوش سبع دول عربية احتلال الدولة اليهودية الجديدة، حيث تقدم الجيش المصري، في هجوم على جبهتين، على طول ساحل أسدود غرباً، إلى ضواحي القدس شرقاً. وفي الوقت ذاته سعى الفيلق العربي الأردني إلى عزل القدس عن السهل الساحلي في اللطرون، واحتل القدس الشرقية، بما في ذلك المدينة القديمة، حيث كانت بعض وحدات الفيلق لا تزال تخضع لقيادة مسؤولين بريطانيين. واستفادت مصر والعراق وشرق الأردن من السلاح والتدريب البريطانيين.

وفي الآن ذاته حاصرت القوات السورية واللبنانية إسرائيل من الشمال. وعبر ثلث الجيش العراقي نهر الأردن، حيث احتل السامرة (التي تقع في ما يسمّى اليوم بـ«الضفة الغربية» على نهر الأردن)، متجهاً نحو «روش حايين» حتى كاد يبلغ البحر الأبيض المتوسط. وأوشكت القوات العراقية، التي كان عددها حوالي عشرة آلاف جندي، على شق دولة إسرائيل الوليدة إلى نصفين.

وتدافع العرب نحو ما اعتبرته توقعاتهم بقايا الانتداب البريطاني في فلسطين. إذا انصبّت أنظار العراق على حيفا حيث المنفذ المتوسطي

لخط الأنبوب النفطي التابع لشركة النفط العراقية. وطالب السوريون بمياه بُحيرة الجليل. وأرادت مصر جسراً برياً يمتد من سيناء إلى الهلال الخصيب، عبر صحراء النقب الجنوبية. وسعى الأردن إلى الحصول على جزء من فلسطين كان مخططاً أن يُخصَّص للعرب الفلسطينيين، كخطوة أولى في سبيل تأسيس سوريا الكبرى، هدفه على المدى الطويل.

لم تحدد العربية السعودية مصالحها تحديداً دقيقاً، حيث كانت مساهمتها العسكرية في جهد الحرب العربية متواضعةً. إذ لم يعثر على أثر لجيوش الإخوان، التي أرعبت حدود العراق والأردن قبل ثلاثين سنة من ذلك. فلم تشارك سوى سريتين سعوديتين في جهد الحرب(٢٧)؛ حيث قاتلت تحت القيادة المصرية، واحتشدت على طول السهل الساحلي في منطقة غزة وعسقلان وأسدود(٢٨) وكان قائد السعوديين شرطياً حجازياً في السابق، وما أن تلقى مهمته لقيادة القوات السعودية حتى هرول «مذعوراً» إلى قائد المهمة العسكرية البريطانية في العربية السعودية ملتمساً منه تعليمات تخص الاستراتيجية العسكرية(٢٩).

وإذا كان السعوديون لم يشاركوا في الحرب بشكل فعّال فإنهم عبّروا صراحة عن موقف مذهل من القضية الفلسطينية. ففي خطاب بمكة مطلع سنة ١٩٤٩ استشاط الأمير فيصل، وزير الشؤون الخارجية السعودي، غضباً من الغرب والسوفيات أساساً. إذ ظهرت مقتطفات من خطابه في الجريدة السعودية الرسمية *أم القرى*، حيث شرح أن «العالم العربي بدا ضحية سوء فهم مفاده أننا نحارب اليهود. إننا لا نحارب اليهود اليوم، وإنما الدول الإمبريالية المستبدة التي تروم أهدافها الجشعة الهيمنة على أوطان العالم بغية استعباد الضعيف

واستغلاله»[٣٠] ذهل السفير البريطاني «أ. س. تروت» من ملاحظات فيصل، ورفع مراسلة رفيعة المستوى إلى وزير الخارجية البريطانية «أرنست بيفين»[٣١] ووصف خطاب فيصل بأنه «بائس»؛ وبالنظر إلى سخاء القوى الغربية مع السعوديين في السابق اندهش من كون الأمير فيصل اعتبر أن «أعداء العرب الحقيقيين في فلسطين ليسوا اليهود. بل الدول الإمبريالية مثل بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي».

ومع نهاية سنة ١٩٤٩ صدّت قوات الدفاع في إسرائيل الناشئة الجيوشَ العربية. لكن القوات الهاشمية في شرق الأردن حققت، بمساعدة حلفائها من هاشميي العراق، مكاسب ترابية ملموسة. وفي سنة ١٩٥٠ ألحق الأردن أراضي الضفة الغربية، التي باتت تخضع لسيطرته العسكرية، وكذا القدس الشرقية، بما في ذلك البلدة القديمة. وفي وقت لاحق غيّر شرق الأردن اسمه إلى المملكة الهاشمية الأردنية. ورفضت الدول العربية، بما في ذلك العربية السعودية، الاعتراف بسيادة الهاشميين على هذه الأراضي. وحدهما بريطانيا العظمى وباكستان اعترفا بما ضمّه الأردن، بل إن لندن نصّت على أن هذا الاعتراف لا يشمل القدس الشرقية.

كان على ابن سعود أن ينشغل بالهاشميين؛ ذلك أن الدولتين الهاشميتين، اللتين حصلتا على السلاح والتدريب البريطاني، لم تترددا في إظهار قوتهما العسكرية. ولو استطاع العراقيون استعراض قوتهم على آلاف الأميال في حرب مع إسرائيل لزحفوا ربما إلى داخل التراب السعودي أيضاً. فضلاً عن ذلك، أوضح الملك الأردني عبد الله أنه لم يتخل عن مطالبته بالحجاز. في الواقع، جرت محادثات سنة ١٩٤٩ حول إلحاق سوريا بالعراق الهاشمي، مما كان

من شأنه أن يزيد قوة الدولتين الهاشميتين وأثرهما في شمال العربية السعودية. كما واصل البريطانيون دعم الهاشميين، خاصة بعدما عبّر السعوديون عن مطالب ترابية في الدول المهادنة الساحلية، مما هدد امتيازات شركات النفط البريطانية. إذ اقترح المسؤولون البريطانيون إرسال موظفي الفيلق العربي من الأردن بغية تشكيل نواة قوة عسكرية في الدول المهادنة.

استشعر ابن سعود، مع دعم بريطانيا الهاشميين، صحة خوفه من الطوق الهاشمي[٣٢] فعندما زار «جورج ماك غي»، مساعد وزير الخارجية الأمريكية في شؤون الشرق الأدنى، الرياض في آذار/ مارس ١٩٥٠ كشف ابن سعود سبب اعتقاده باعتراض البريطانيين عليه. إنه الامتياز النفطي السعودي. إذ قال إنه «رغم أن البريطانيين حرموا أولاً من الحصول على النفط، فقد ظلوا مستائين من منح أمريكا هذا الامتياز». وصرّح أن «المشكلات مع البريطانيين بدأت منذئذ»[٣٣]

ففي نظر ابن سعود ارتبط النفط بالأمن. ومع ذلك فالضوابط الأصلية في اتفاقيات الحماية، التي أبرمتها الهند البريطانية مع الشيوخ العرب تنص على ما يلي: سيحصلون على الحماية البريطانية مقابل ألا يمنحوا القوى الأوروبية الأخرى أي امتيازات اقتصادية. لكن ابن سعود لم يُبرم أي اتفاق رسمي مع البريطانيين منذ سنة ١٩٢٧ ولأنه لم يمنحهم النفط السعودي فإنه لم يعتمد عليهم، ليشملوه بالحماية.

وعلى ضوء التهديد الإنجليزي- الهاشمي أراد ابن سعود شيئاً ما من الولايات المتحدة الأمريكية. إذ التمس اثنان من مستشاري ابن سعود سراً من مساعد وزير الخارجية الأمريكية «ماك غي» التصريح علناً بما كان يسعى إليه الملك السعودي المسنّ، ألا وهو اتفاق تحالف رسمي مع الولايات المتحدة الأمريكية[٣٤]

«القشرة الصلبة»

تربّى السعوديون على مبادئ الإمبراطورية البريطانية. ففي بداية القرن ربط البريطانيون الولوج إلى النفط بقوتهم العسكرية كقوة إمبريالية، حيث كانت الحكومة البريطانية تملك جزءاً من شركات النفط البريطانية، مثل الشركة الإنجليزية الفارسية وشركة نفط العراق (IPC). وفي المقابل أرادت الولايات المتحدة الأمريكية ترتيباً تجارياً صريحاً دون فخاخ- أرادت أن تصبح شركات النفط الأمريكية قادرة على العمل بحرية داخل العربية السعودية، دون أي التزامات أمنية رسمية جديدة. إذ كانت شركات النفط الأمريكية، التي امتلكت «أرامكو»، شركات خاصة. ولم تكن الحكومة الأمريكية صاحبة أسهم فيها.

ورغم أن ابن سعود كان يسعى إلى اتفاق دفاع رسمي، لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية مستعدة للوفاء به، وافقت واشنطن على تدشين حضورها العسكري في العربية السعودية. إذ بعث الرئيس «هاري ترومان» رسالة إلى ابن سعود يوم ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٠، يعيد فيها التأكيد على «المصلحة الأمريكية في الحفاظ على استقلال العربية السعودية ووحدتها الترابية»[٣٥] كما بحثت أمريكا توسيع مهام تدريبها القوات المسلحة السعودية، حيث خلق الدور العسكري والاقتصادي الأمريكي المتنامي في العربية السعودية مشكلات داخلية جديدة لابن سعود، ذلك أن العربية السعودية كانت لا تزال بلداً تقليدياً جداً. صحيح أن ابن سعود أثبت أنه كان نفعياً في بناء الدولة، لا إيديولوجياً متحمساً. لكن بينما تم احتواء أثر الوهابية في صناعة القرار السعودي فإنه ظل جزءاً لا يتجزأ من الحياة السعودية. ذلك أن تقرير السفارة البريطانية السنوي خلص إلى أن «القشرة الصلبة في مذهب الأخلاقية الوهابية ظلت سليمة برمّتها

تقريباً». إذ شدد التقرير على أنه ما عدا مظهر الحداثة- «كماليات الحضارة الغربية»، مثل سيارات «كاديلاك»، و«كوكا كولا»، وكرة القدم- لم تحل المثل الغربية محل المشهد السعودي السابق(٣٦)

وقد اتضح أن أي حضور عسكري أمريكي وجب أن يأخذ هذه الحساسيات بعين الاعتبار. وربما نتيجة لهذه الحساسيات لم تستعمل الولايات المتحدة الأمريكية، ما أن بدأت الحرب الباردة، استعمالاً كاملاً مطارها العسكري الأمريكي في الظهران، الذي بُني بعدما أبرم الأمريكيون اتفاقا مع ابن سعود في آب/أغسطس ١٩٤٥ وأبقت الولايات المتحدة الأمريكية على الظهران قاعدةَ نقلٍ، بدل أن تدمجها في شبكتها العالمية للقيادة الجوية الاستراتيجية التي تضم المقاتلات العابرة للقارات المستخدمة في تطويق الاتحاد السوفياتي.

وكان حضور الأمريكيين المتزايد يعني، في نظر العديد من السعوديين، تكاثر الكفار، حيث نظم الأمريكيون خدماتهم الدينية، بما في ذلك داخل قاعدة الظهران الجوية، التي كان يحضرها موظفو «أرامكو» والقاعدة الجوية الأمريكية. فاعترض السعوديون على ذلك ظنّاً منهم أن ضابطاً أمريكياً انخرط في نشاط تبشيري مسيحي. ومما يلفت النظر أن تحفظاتهم لا تنطبق فحسب على الخدمات المسيحية في المنطقة الإسلامية المقدسة- الحجاز- بل أيضاً على الجهر بالشعائر المسيحية في *أي مكان* داخل المملكة السعودية(٣٧)

وقد شرح الأمير فيصل للسفير «ج. ريفز تشايلدز» أنه كان يُنظر إلى ابن سعود آنذاك كمن ذهب بعيداً في مجاملة الأمريكيين. وكان خاضعاً «لضغط كبير جداً» في الإبقاء على منع أي خدمات دينية علنية، ما عدا تلك المتعلقة بـ«المذاهب السنّية التقليدية الأربعة». إذ اعتقد فيصل أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تفهم ببساطة مدى

المشاعر السعودية حول هذا الموضوع[٣٨] وربما صدر الضغط عن المؤسسة الدينية الوهابية، التي اعتبرت الجهر بالمسيحية أمراً غير شرعي، حيث لم يكن هذا الضغط جديداً، بالطبع.

لقد أبرزت الوهابية أثرها المتواصل في سياسات العربية السعودية الداخلية[٣٩] إذ كان على الدبلوماسيين الأمريكيين، قبل عشرين سنة من ذلك، طمأنة السعوديين حول امتناع الموظفين الدبلوماسيين الأمريكيين عن تحرير العبيد. وكان على الأمريكيين، في هذه المرة المحرجة أيضا، تهدئة انشغال السعوديين بقيام المواطنين الأمريكيين بالشعائر المسيحية.

غير أن الملك السعودي لم يكن مهتماً كثيراً بالأمر، مفضلاً التركيز على تعزيز مكاسبه الترابية، وعلى بناء مملكة سعودية مستقرة جديدة.

عهد جديد

توفّي ابن سعود سنة ١٩٥٣، بعد أن أنجب خمسة وأربعين ابناً من اثنتين وعشرين زوجة. فاعتلى ابنه الثاني سعود العرش، إذ كان ابنه البكر تركي قد توفي سنة ١٩١٩ بسبب الأنفلونزا. وأصبح ابنه الرابع فيصل وليا للعهد. (وكان ابنه الثالث قد توفي أيضاً).

كافح الملك سعود في سبيل الحفاظ على إرث والده، فأغلق القاعدة الجوية الأمريكية في الظهران سنة ١٩٦٢، وسعى إلى استرضاء الراديكالية العربية في أواخر الخمسينيات، وأغرق مالية بلاده في الفوضى. ولن تستشعر قيادة الزعيم السعودي الجديد والواثق بنفسه أثر الوهابية على الساحة الدولية مجدداً، إلا في أواخر الستينيات.

الفصل الخامس

انتعاش الوهابية

عادت العربية السعودية إلى جذورها الوهابية سنة ١٩٦٤ ، عندما تربّع الملك السعودي الثالث فيصل بن عبد العزيز على العرش، بعد خلع أخيه الأكبر الملك سعود. إذ كانت والدة فيصل طرفة آل الشيخ تنحدر مباشرة من سلالة محمد بن عبد الوهاب، مؤسس الوهابية خلال القرن الثامن عشر. توفيت طرفة سنة ١٩١٢ ، وفيصل في السادسة من عمره، فتربّى الأمير في كنف جده من أمه- الذي كان قادراً، وهو الذي ولد سنة ١٨٤٩ ، على تذكر الدولة السعودية الوهابية الأولى، وكان هو نفسه عالماً وهابياً بارزاً درّس ابن سعود خلال طفولته[١]

لم توجد في مجتمع الجزيرة العربية قواعد أو قوانين راسخة تنظم خلافة زعماء القبائل، بل إن حكم القبيلة ينتقل، وفق التقليد، «إلى الابن الأكبر والقريب الذكر الأكثر أهلية»[٢] واضح أن ابن سعود اشترط، وهو على فراش الموت، أن تكون خلافة الملوك السعوديين من نصيب «الابن الأكبر الأقدر»[٣] إذ أدخل استعماله كلمة «الأقدر» قدراً كبيراً من الذاتية في سيرورة اختيار الملوك. وقد ظهر ضعف الملك سعود وانكشافه نتيجة صراعاته باعتباره خليفة والده.

في الواقع، ساهمت النخبة الدينية السعودية، التي تتكون من

العلماء، في خلع الملك سعود وتنصيب فيصل عاهلاً. إذ هاجم العلماء سعود بسبب «عاداته في الحياة التي لا ترقى إلى موقف من تاجه يتضمن لقب أمير المسلمين». وفي المقابل، كان فيصل قريباً جداً من العلماء. صحيح أنه أطلق سنة ١٩٦٢، وهو لا يزال ولياً للعهد، برنامجاً إصلاحياً من عشر نقاط كاد يدخله في خصام مع العناصر الأكثر محافظة في المجتمع السعودي. لكن فيصل كان، كما والده من قبله، داهية مناوراً، حيث عرف كيف يواصل برامجه دون استبعاد النخبة الوهابية السائدة. وكما علّق محلل في مكتب الخارجية البريطانية لاحقاً على تقدم الإصلاحات، سيناور فيصل «العلماء بين الفينة والأخرى، لكنه تجنّب الصدام معهم وجهاً لوجه»[٤]

وهكذا، حصل فيصل، يوم ٣٠ آذار/ مارس ١٩٦٤ على صلاحيات الملك سعود الحكومية وامتيازاته في المُلك، بعدما تحدى العلماء سلطته[٥] وفي تشرين الأول/ أكتوبر التقى خمسة وستون عالماً في بيت مفتي العربية السعودية الأكبر محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والتحق بهم لاحقاً مئة أمير في إقرار وجوب تنازل الملك سعود عن العرش. وقد خلع سعود يوم ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٤، ليصبح فيصل ملكاً. وفي سنة ١٩٦٥، قررت العائلة الملكية أن يصبح خالد شقيق فيصل ولياً للعهد، وأن يصبح شقيق آخر، هو فهد، ثانياً في خط وراثة العرش[٦]

لاحظ مراسل عربي آنذاك أن «العنصرين الأساسيين في حكومة العربية السعودية هما: أولاً، الملك وولي عهده والإدارة؛ وثانياً، المجلس الأعلى الذي يتشكل من الأمراء والعلماء. فعندما يفشل العنصر الأول في العمل على نحو مناسب يتدخل الثاني تلقائياً لتصحيح الوضع»[٧]

لن ينسى فيصل أبداً الدور الذي لعبه العلماء في توليه السلطة، حيث ظلوا يشكلون جزءاً من قاعدة سلطة الملك السعودي[٨]؛ ومن ثم كان عليه أن يمنح المؤسسة الوهابية دوراً بارزاً في الشؤون السعودية. لكن كان عليه موازنة اعتبارات أخرى أيضاً. وجاء اختباره الحقيقي الأول أثناء صراع العربية السعودية ضد الحركة القومية العربية، التي استلهمت جمال عبد الناصر، والتي أجبرت الملك فيصل على أن يصبح أكثر نشاطاً في الخارج. في آخر المطاف، سيعزز هذا الصراع، مع ذلك، العلاقة بين الوهابية والدولة السعودية.

رابطة العالم الإسلامي: انتشار الوهابية دولياً

تولّى جمال عبد الناصر، رئيس مصر، السلطة أول الأمر سنة ١٩٥٢، كجزء من انقلاب «الضباط الأحرار» ضد الملك فاروق. وقد خرج من مواجهته سنة ١٩٥٦ مع إنجلترا، وفرنسا، وأخيراً إسرائيل، حول قناة السويس زعيماً للقومية العربية دون منازع. وسقطت مملكة عربية أخرى سنة ١٩٥٨، عندما أطاح انقلاب عسكري بالملكية الهاشمية في العراق. وأخذت القوى المساندة لعبد الناصر تتعاظم عندما أسقطت أنظمة عسكرية عربية الملكيات العربية القديمة.

لقد حاول عبد الناصر، في أواخر الخمسينيات، توسيع دائرة أثره في العالم العربي بتوحيد مصر وسوريا في كيان جديد هو الجمهورية العربية المتحدة. وبعد انسحاب سوريا من الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٦١ وجّه انتباهه نحو الجزيرة العربية. إذ ركز، على نحو خاص، على اليمن حيث أرسل حملة عسكرية مصرية لمساندة القوات المعارضة للملكية في حرب ذلك البلد الأهلية. ولأن السعوديين ساندوا ملكيي اليمن نشأ صدام مصري- سعودي. وقد بدأت القوة

الجوية المصرية ضرب مدن الحدود السعودية مثل نجران خلال كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٢ باستعمال مقاتلات «إليوشن» السوفياتية.

لكن التهديد المصري لم يكن مجرد تهديد خارجي، لأن بعض السعوديين التفوا حول الناصرية. وعبّر بعض الأمراء، بزعامة الأمير طلال بن عبد العزيز، خلال الفترة الممتدة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٤، عن دعمهم للإديولوجيا الناصرية القائلة باشتراكية عربية متميزة. هذا الأمر هدد أسس الدولة السعودية، حيث انشق ربّان سعودي، وفرّ إلى القاهرة أواخر سنة ١٩٦٢ وجاءت علامات أخرى بعثت على القلق والدمار سنتي ١٩٦٥ و١٩٦٦، خاصة في منطقة إنتاج النفط. وفي سنة ١٩٦٩ كشفت الحكومة مؤامرة مؤيدة لجمال عبد الناصر داخل القوات المسلحة السعودية، تورّط فيها ثمانية وعشرون ضابطاً من الجيش، وأربعة وثلاثون ضابطاً من القوات الجوية، وتسعة موظفين عسكريين آخرين، وسبعة وعشرون مدنياً[٩]

كان ثمة بُعد دولي في هذا الصراع أيضاً. فمنذ بدء الحرب الباردة نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في تطويق الاتحاد السوفياتي باستعمال الأحلاف الداعمة لها مثل: منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) في أوروبا، ومنظمة الحلف المركزي (CENTO)، إلى جانب الخط الشمالي الرابط بين الشرق الأوسط وجنوب آسيا، ومنظمة حلف جنوب شرق آسيا (SEATO) في آسيا. وقد دعمت موسكو النزعة الناصرية لتخطي الخط الشمالي في الشرق الأوسط الداعم لأمريكا- تركيا، إيران، باكستان- واختراق العالم العربي.

وقد انقلب فيصل، حتى قبل أن يصبح ملكاً، إلى الإسلام بما هو قوة توازن الاشتراكية العربية الناصرية. وأضحى الصراع بين الزعيمين حرباً عربية باردة، تحرّض الجمهوريات العربية الجديدة ضد الممالك

العربية القديمة. ذلك أن الحكومة السعودية موّلت مؤتمراً إسلامياً دولياً في مكة سنة ١٩٦٢، بغية استنباط استراتيجية إسلامية جديدة. وفي يوم ١٨ أيار/ مايو ١٩٦٢ أُسدل الستار على المؤتمر، حيث أسّس مئة وأحد عشر عالماً وفقيهاً رابطة العالم الإسلامي، وهي منظمة دولية مكرّسة لنشر الإسلام[١٠] هذه المنظمة الجديدة، المخصصة لرعاية التضامن الإسلامي، ستحيي الوهابية وتنشرها على الصعيد العالمي، إذ لم تسعَ إلى دعوة المسيحيين إلى اعتناق الإسلام فحسب، بل أيضا إلى إقناع المسلمين بتبني الوهابية.

خضعت رابطة العالم الإسلامي، التي اتخذت من مكة مقراً لها، لهيمنة سعودية كاملة. إذ شكل كبار الزعماء الدينيين السعوديين مجلسها التأسيسي، مؤكدين بذلك توجهاً وهابياً يتحكم في أنشطة المنظمة الدعوية، حيث ترأس المجلسَ المفتي العام في العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ. وكان من الأمناء العامين لرابطة العالم الإسلامي في وقت لاحق الشيخ محمد علي الحركان، وزير العدل السعودي السابق، الذي سيؤدي، كما سنرى، دور المفتي العام في العربية السعودية لاحقاً وعلى نحو فعّال.

وكانت رابطة العالم الإسلامي فعالة جداً في النهوض بالإسلام- وبالوهابية خصوصاً. إذ أوفدت المنظمة البعثات الدينية، وجمعت المال لبناء المساجد، ووزعت أعمال ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب. وقد أدى هذا الأمر بمتخصص في الإسلام الحديث إلى القول إن رابطة العالم الإسلامي كانت بمثابة جهد «لوهبنة الإسلام في العالم كله»[١١]

وعلى مر السنين لم تفعل القيادة السعودي سوى أن عززت هيمنتها على رابطة العالم الإسلامي، حيث أصبح بعض أمنائها العامين وزراء

في الحكومة السعودية. وقد اعترف عبد الله عمر ناصف، الذي خلف الحركان في الأمانة العامة مطلع الثمانينيات أن «٩٩ في المئة من مالية [رابطة العالم الإسلامي]» جاء من العربية السعودية[١٢] ذلك أن الرابطة مارست تأثيراً كبيراً تجاوز مشاريعها الخاصة، مثلما زكّت اقتراحات الأثرياء السعوديين التي استحقت دعمهم. بهذه الطريقة، أمكن أن تنتقل الأموال مباشرة من المساهمين السعوديين إلى الجماعات الإسلامية دون المرور عبر الحسابات البنكية التابعة لرابطة العالم الإسلامي.

لا غرابة، إذن، ألا تتوقف رابطة العالم الإسلامي أبداً عن خدمة مصالح الدولة السعودية. إذ باتت الرابطة أساساً ناطقاً غير حكومي باسم المملكة السعودية، ووسيلة لحماية العالم الإسلامي من الإديولوجيات الأجنبية المتشددة. ففي الستينيات كان المقصود من ذلك القومية العربية والناصرية. وهكذا، على سبيل المثال، أدانت رابطة العالم الإسلامي سنة ١٩٦٦ إعدام الإخوان المسلمين في مصر[١٣]

الفقهاء الوهابيون يحصلون على هيمنة أكبر

في عهد الملك فيصل، نسجت الحكومة السعودية والنخبة الوهابية علاقة تكافل حميمة. فعندما اعتلى فيصل العرش أدرك أن عليه الحفاظ على تلك العلاقة قصد البقاء في السلطة. وكان ذلك يعني إعطاء الفقهاء الوهابيين حصتهم من الهيمنة على الحكومة السعودية الآخذة في التوسع.

لم تكن الحكومة السعودية في عهد ابن سعود، حتى سنة ١٩٥١، تتكون سوى من ثلاث وزارات: الشؤون الخارجية، والمالية، والدفاع. وانضافت ست وزارات جديدة من سنة ١٩٥١ إلى سنة

١٩٥٤ كما انضافت أربع عشرة وزارة أخرى من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٧٥ ذلك أن فيصل كان في حاجة إلى صيغة ما تعطي العلماء دوراً في الحكم يسترضيهم، دون أن يضعف سيادة العائلة الملكية السعودية[١٤]

هكذا لم يُعْطَ الزعماء الدينيون الوهابيون التحكم في أي من الوزارات الثلاث الأهم- الوزارات الأم في عهد ابن سعود- لكن العديد من الوزارات الأخرى أضحت حكراً عليهم. إذ تولوا، على نحو طبيعي، التحكم في وزارة الحج والأوقاف[١٥] ثم أنشأ الملك فيصل وزارة العدل سنة ١٩٧٠، وعيّن الشيخ محمد علي الحركان أول وزير عليها. وبالفعل حل الحركان محل المفتي العام، وكان الشيخ محمد قد توفي سنة ١٩٦٩، فلم يعيّن فيصل خليفة له أبداً. وفي سنة ١٩٧٥ حلّ مكان الحركان الشيخ إبراهيم بن محمد، وهو من آل الشيخ وسليل ابن عبد الوهاب[١٦]

والأهمّ أن فيصل منح، سنة ١٩٦٣، الزعماءَ الدينيين الوهابيين التحكم في التربية السعودية. ومن بين كل الخطوات نحو تنصيب الوهابيين في مراكز السلطة سيكون لهذا القرار نتائج بعيدة المدى.

وقد أشرف الأمير فهد، حليف فيصل المقرّب، على وزارة التربية منذ تأسيسها سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٦٠، عندما حل عضو من آل الشيخ محله. وعندما تقلّد الملك فيصل السلطة ترك وزارة التربية بين أيدي العلماء، وحوّل وزارة الداخلية إلى فهد[١٧] وحتى بعد إعادة التنظيم التي حصلت خلال السبعينيات احتفظ العلماء بمراقبة الجامعات السعودية وفضاءات أخرى من التعليم العالي، حيث ظلت جامعة على الأقل خاضعة للاختصاص المباشر للمفتي العام ورئيس القضاة، وهي الجامعة الإسلامية في المدينة. (وكان نائب رئيس

الجامعة في مطلع السبعينيات هو الشيخ عبد العزيز بن باز، الذي سيعيّن المفتي العام خلال التسعينيات).

لقد شب الجيل الذي رأى النور خلال الستينيات وبلغ سن الرشد خلال الثمانينيات برمّته على العقائد الوهابية. فرغم مسؤولية العلماء الخاصة عن التعليم الجامعي أضحت وزارة التربية معقلاً حصيناً للبيروقراطيين المحافظين دينياً. كما نصبت الحكومة السعودية أنصار الإخوان المسلمين في جميع مستويات التربية[١٨] وركّز منهاج المدارس على الدراسات الإسلامية والعربية معززاً الحفاظ على سيطرة الوهابية على المجتمع السعودي[١٩]

وفي عهد الملك فيصل وسّع العلماء دائرة تأثيرهم في المجتمع عبر مؤسسات أخرى. إذ مدت إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد المساجد السعودية بخطب الجمعة، ونشرت ووزعت كتب محمد بن عبد الوهاب. فضلاً عن هذا، تفحص هيأة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي يهيمن عليها العلماء، إلى جانب متطوعيها، أو الشرطة الدينية، السلوكَ في الأماكن العمومية، ضامنة عدم اختلاط الرجال بالنساء، وانسجام ملابسهم مع «الأخلاق العامة»، وحضور صلوات الجماعة. وبالعودة إلى الثلاثينيات، كان ابن سعود قد جرّد المتطوعين من سلطتهم في الاعتقال، حيث لم يكن بمقدورهم سوى إبلاغ الشرطة بانتهاكات الممارسة الدينية. وأدى هذا الأمر إلى درجة مدهشة من الانحلال في طريقة ممارسة الوهابية في الحجاز، خاصة مع انتشار أجهزة الراديو والفونوغراف والسجائر[٢٠] هكذا ردت النخبة الوهابية، في بداية عهد فيصل، بقوة على الابتعاد عن الممارسات الوهابية التقليدية[٢١]

وحتى عندما ضحّى العلماء، في السبعينيات، ببعض السلطات

الحكومية لصالح بيروقراطية الدولة، ظلت المؤسسة الدينية الوهابية تلعب دوراً حيوياً في العربية السعودية. ففي سنة ١٩٧٥ عيّن السعوديون حسن بن عبدالله آل الشيخ- وهو سليل آخر من سلالة محمد بن عبد الوهاب، رئيساً جديداً للتعليم العالي[٢٢] وأصبحت الدروس الدينية إجبارية حتى في الجامعات ذات التوجه العلماني[٢٣]، حيث كانت ثلاث من الجامعات السعودية الست الأساسية إما عبارة عن مؤسسات دينية، وإما شددت على تكوين ديني.

لقد منحت هيمنة الزعامة الدينية السعودية على منظومة التربية العقيدة الوهابية امتداداً وأثراً لا يصدّق. إذ انفجر عدد الطلبة في الجامعات السعودية خلال ربع قرن، بدءاً من منتصف الستينيات إلى أواخر الثمانينيات. ففي سنة ١٩٦٥ كان هناك ٣٦٢٥ طالباً جامعياً في المملكة السعودية؛ وفي سنة ١٩٨٦ بلغ العدد ١١٣٥٢٩[٢٤] غير أن بعض السعوديين غادروا من أجل الدراسة في الجامعات الغربية. وفي منتصف الثمانينيات بلغ عدد الطلبة السعوديين في الخارج ذروته بـ ١٢٥٠٠ طالب، وسيتراجع هذا الرقم إلى ٣٥٥٤ سنة ١٩٩٠، وسيظل في هذا المستوى خلال بقية العقد[٢٥] وتخصص ٣٠ في المئة من الطلبة السعوديين في الجامعات السعودية في الدراسات الإسلامية، بينما كرّس ٧٠ في المئة منهم معدل ثلث عملهم الدراسي لدراسة الدين[٢٦]

هكذا مارس الزعماء الدينيون الوهابيون هيمنة رهيبة على أجيال الشباب السعودي، وكان لهذه الهيمنة آثار عميقة في العربية السعودية. ففي سنة ١٩٩٢ قدّر أكاديمي سعودي في جامعة الإمام محمد بن سعود أن ٦٥ في المئة من الساكنة السعودية أرادت أن يسير البلد على خطوط إسلامية موغلة في التقليد[٢٧]

كما امتلكت المؤسسة الوهابية، بفضل تحالفها مع الحكومة السعودية، وسيلة لنشر عقيدتها الدينية خارج الحدود السعودية. ففضلاً عن رابطة العالم الإسلامي، كانت هناك الندوة العالمية للشباب الإسلامي (WAMY)، التي تأسست تحت رعاية وزارة التربية سنة ١٩٧٢ لنشر التوحيد، العقيدة الإسلامية المركزية التي تشدد عليها الوهابية[٢٨] واشتغلت الندوة العالمية للشباب الإسلامي كسلاح شبه حكومي، تحميها السفارات والقنصليات السعودية في الخارج[٢٩] وعلى مر السنين صار يُنظر إلى الندوة العالمية للشباب الإسلامي باعتبارها تنظيماً أكثر تشدداً من رابطة العالم الإسلامي[٣٠]

«الوهابية يجب أن تصدر»

باختصار، جدد الملك فيصل تعاقد أسلافه مع سلالة محمد بن عبد الوهاب. إذ عقدت العائلة الملكية السعودية والمؤسسة الوهابية صفقة سياسية، حيث تدعم هذه الأخيرة السياسات السعودية في الحقول التي لم تخضع لاختصاصها، بينما تطلق الأولى العنان للزعماء الدينيين، وتدعم وزارات الوهابية ومؤسساتها.

وقد أضحى المفتي العام محمد بن إبراهيم آل الشيخ، قبل وفاته سنة ١٩٦٩، أحد أقرب المستشارين إلى فيصل. إذ لم يَنْأَ الشيخ محمد، وهو سليل عبد الوهاب شأنه شأن فيصل، بنفسه عن الجدل، بل كان راغباً فعلاً في التدخل في بعض الصراعات الأكثر حساسية بين سعود وفيصل. ففي حادثة وقعت يوم ١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٣، أصدر إنذاراً إلى الملك سعود: إما سحب القوات السعودية التي حاصرت قصر الناصرية لتهديد فيصل، وإما مواجهة سحب الدعم الديني[٣١] فسُحبت القوات. كما أيد الشيخ محمد أن يلعب السعوديون

دوراً أكثر فعالية في الشرق الأوسط، حيث صرّح، قبيل وفاته، أنه «يجب أن تقود العربية السعودية العالمَ العربي، وأن تُصدِّر إيديولوجيا الوهابية»[٣٢]

وخلصت السفارة البريطانية في جدة، في تقريرها السنوي لسنة ١٩٦٩، إلى أن دور العلماء لم يتراجع رغم حماس الملك فيصل في البداية لإجراء إصلاح داخلي أكبر. إذ لاحظ تقرير السفارة على نحو صريح أن «أثر العلماء، خاصة المفتي العام (حتى وفاته في كانون الأول/ ديسمبر من العام ذاته) لم يتآكل رغم انتشار النفور، حتى بين السعوديين الأتقياء، من التعصب الذي يمثلونه»[٣٣] لربما لم تكن المواقف الوهابية ذائعة الصيت، لكن العلماء مارسوا، مع ذلك، تأثيراً رهيباً.

ورغم أن فيصل لم يعيّن مفتياً عاماً دائماً ليحل محل الشيخ محمد عندما توفي في سنة ١٩٦٩، فقد أنشأ الملك عدة أجهزة استشارية ليمنح العلماء دوراً استشارياً متقدماً. وفي سنة ١٩٧١ أنشأ مجلس كبار العلماء، وجعل الشيخ عبد العزيز بن باز رئيساً له (رغم أن الملك نفسه حدد عضوية هذا المجلس، وكذا عضوية لجنة الإفتاء الدائمة).

سيتحول الشيخ ابن باز، وهو فقيه وهابي أعمى ولد في الرياض سنة ١٩٠٩، إلى أحد أهمّ المرجعيات الدينية في المملكة السعودية خلال العقدين التاليين. إذ ارتقى إلى منصب رئيس الجامعة الإسلامية الجديدة في المدينة المنورة بعد ثمانية أعوام من تعيينه نائب رئيسها سنة ١٩٦١ وكان الشيخ ابن باز من بين اثني عشر عالماً تزعموا التوقيع على فتوى ٢٩ آذار/ مارس ١٩٦٤، التي نقلت أهم صلاحيات الملك سعود إلى الأمير فيصل، وأدت في نهاية المطاف إلى خلع سعود[٣٤] كما ترأس اللجنة المؤسسة لرابطة العالم الإسلامي.

لكن ابن باز لم يكن الزعيم الوهابي الأكثر تأثيراً في هذه القضية. إذ حافظ الشيخ إبراهيم بن محمد آل الشيخ، الابن البكر للراحل المفتي العام، على علاقات قريبة من فيصل، وكان يلتقي الملك أسبوعياً[٣٥]، وقد رأى الشيخ إبراهيم، كوالده، أن العربية السعودية ينبغي أن تتبنّى دوراً رائداً في العالم العربي، وألا تتخلى عن هذا الموقع للآخرين وخاصة مصر عبد الناصر. لقد اعتقد والده أن مصر انهزمت سنة ١٩٦٧، لأن عبد الناصر كان اشتراكياً كافراً. وأضحى الشيخ إبراهيم حينها قوة بارزة تنحو نحو حث السعوديين على الانخراط في الحرب العربية ضد إسرائيل.

وقد أظهرت علاقة فيصل بالشيخ إبراهيم طبيعة الوضعية المحفوفة التي قد يوضع فيها الملك بسبب ترتيب اقتسام سلطته مع القيادة الوهابية. وبالفعل، عاشت الملكية السعودية والعلماء صراعاً متواصلاً، وإن كان ساكناً، حول مجالات سلطتهما. وفي هذا السياق، سعى الشيخ إبراهيم، بما هو مرجعية دينية، إلى التأثير في مجال لم يكن يدخل في اختصاص العلماء على وجه الخصوص. والأهمّ أن العربية السعودية كانت عاجزة تماماً عن تبني دور المواجهة في الحرب العربية ضد إسرائيل، التي شجّع عليها الشيخ إبراهيم وبعض الزعماء الدينيين الآخرين. إذ ظهر انكشاف المملكة أمام الهجمات الجوية المصرية خلال الصراع اليمني، وكان انتشار ثمان قوات جوية أمريكية مكونة من طائرات «إف ١٠٠» وحدع هو الذي صَدَّ التفجيرات المتزايدة. كما أن العربية السعودية لم تمتلك قاعدة سكانية كما في مصر أو العراق اللذين بإمكانهما دعم مؤسسة عسكرية واسعة.

فضلاً عن هذا، اتضح من محادثات الملك ابن سعود السرية مع

الدبلوماسيين الأمريكيين بين سنتي ١٩٤٧ و١٩٤٩ حول التهديد الهاشمي، أن نزاعات العرب السياسية بدت أكبر في نظر القيادة السياسية السعودية من الصراع العربي- الإسرائيلي. وتواصلت هذه الرؤية في عهد الملك فيصل أيضاً.

هكذا، أوردت السفارة البريطانية في جدة في تقرير لها سنة ١٩٦٥ أن «مشكلات العربية السعودية مع الجمهورية العربية المتحدة كانت تتجلّى في انشغال فيصل الأساس- ولم تكن إسرائيل انشغاله الرئيس»[٣٦] ذلك أن العربية السعودية لم تلعب، منذ الحرب العربية الإسرائيلية الأولى سنة ١٩٤٨، سوى دور هامشي في المواجهة العسكرية العربية- الإسرائيلية. وأقر الملك فيصل بأنه كان «مكرها على إثارة موضوع» إسرائيل مع الرئيس «ليندن بـ. جونسون» خلال زيارة إلى البيت الأبيض في شهر حزيران/ يونيو ١٩٦٦[٣٧] بالأحرى، كانت الأجندة السعودية تتضمن قضايا أكثر إلحاحاً.

وحتى في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ كان انخراط العربية السعودية محدوداً جداً. فقبل الضربة الاستباقية الإسرائيلية صباح يوم ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧، نشر المصريون قوات تعدادها تسعين ألف رجل على حدود إسرائيل الجنوبية، وطلبوا سحب قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، وحاصروا ميناء إيلات جنوب إسرائيل. وكانت سوريا قد نقلت جيشها إلى مرتفعات الجولان. وحشد الأردن كل قواته البرية تقريباً، بما في ذلك المدفعية والمدرعات، في هضاب الضفة الغربية، متجاهلاً السهل الساحلي المأهول جداً في إسرائيل، بل إنه سمح للقوات العراقية والمصرية بالدخول إلى أراضيه كجزء من جهد الحرب المشتركة ضد إسرائيل. لكن المساهمة العسكرية السعودية كانت، مثلما في سنة ١٩٤٨، رمزية برمّتها تقريباً، تتجلّى في

تحرك لواء سعودي وحيد إلى جنوب الأردن بُعيد نشوب الأعمال العدائية، لكنه لم يشارك البتة في المعركة[٣٨]

كان للملك فيصل، كما والده، رؤية عنيدة إلى إسرائيل، حيث جاهر بتشدده نحو اليهود. وقد صرّح للصحافة العربية بدعمه التشهير الذي أدان اليهود بكونهم مارسوا القتل الطقوسي ضد الأطفال المسيحيين والمسلمين[٣٩] وفي محادثات مع السفير الأمريكي «جورج بال» بعد حرب الأيام الستة، أنكر أن يكون أي مكان في القدس مقدساً بالنسبة للشعب اليهودي، مدعياً أن الحائط الغربي (حائط البراق) وهيكل سليمان لا يكتسيان أي مغزى ديني عميق بالنسبة لليهود. وأضاف فيصل، بحسب مذكرات السفير عن هذا اللقاء، أن «آخر شيء في المنطقة اكتسى قدسية لليهود. كان الصخرة التي ضربها موسى بعصاه، والتي سمحت الجمهورية العربية المتحدة بنقلها بحراً من سيناء إلى نيويورك. وهكذا يمكن لليهود ببساطة أن يزوروا مكانهم المقدس في نيويورك»[٤٠]

وحذر فيصل «بال» أن من شأن أي «تسوية غير مرضية للقدس أن تتطلب منه إعلان الجهاد»[٤١] كما عُرف الملك خلال تلك السنوات بقوله، الذي يكشف أثر المفتي العام السعودي الشيخ محمد، إنه أمل «أن يصلّي الفجر في مكة، والظهر في المدينة المنورة، والعشاء في القدس، دون أن يترك أبداً الأراضي العربية». (في الواقع، لم يزر القدس عندما كانت خاضعة للحكم الأردني خلال السنوات الممتدة بين ١٩٤٨ و١٩٦٧)[٤٢] وكان على فيصل موازنة هذه النزوعات الإيديولوجية بحس حاد من السياسة الواقعية، بالنظر إلى حدود ما يمكن أن تقوم به العربية السعودية عسكرياً.

وبعد انهزام عبد الناصر سنة ١٩٦٧ كان أمام فيصل خيار واحد

لزيادة انخراطه في الحرب ضد إسرائيل- مساعداً عدة تنظيمات فلسطينية كانت تحارب الإسرائيليين، بارتكاب أفعال إرهابية في الغالب. إذ لم يلتق الملك فيصل بعضو من حركة فتح بقيادة ياسر عرفات إلا بعد حرب الأيام الستة، حيث رفع السعوديون، على امتداد سنة ١٩٦٨، المساعدات المقدمة للفدائيين الفلسطينيين، الذين كانوا ينفذون عمليات التخريب والإرهاب ضد إسرائيل من الأردن. كما كان دعم فتح بمثابة طريقة لموازنة منظمة التحرير الفلسطينية، التي كان ينظر إليها كصنيعة عبد الناصر، قبل أن تتولى حركة فتح الأمر سنة ١٩٦٩[٤٣].

وبعد سنة ١٩٦٩ شكلت مساعدة منظمة التحرير الفلسطينية طريقة للسعوديين لموازنة التنظيمات الفلسطينية الماركسية، مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. ففي سنة ١٩٦٩ هاجمت الجبهة الشعبية خط الأنابيب الممتد عبر البلاد العربية (Tapline) في مرتفعات الجولان، الذي ينقل النفط السعودي من شرق الجزيرة العربية إلى البحر الأبيض المتوسط. وعندما انضمت هذه الجماعات الفلسطينية الراديكالية ذاتها- التي خرجت من رحم جماعات القومية العربية الناصرية كحركة القوميين العرب ويشتبه في تخريبها الإنتاج النفطي السعودي- إلى منظمة التحرير الفلسطينية، ظل السعوديون، مع ذلك، يدعمون المنظمة الفلسطينية. وصارت لحركة القوميين العرب فروع في اليمن وشبه الجزيرة العربية- ما أن تزعمها فلسطينيون أمثال جورج حبش ووديع حداد ونايف حواتمة[٤٤].

لماذا ستواصل العربية السعودية دعم منظمة التحرير الفلسطينية حتى عندما تعارض الجماعات العضو في المنظمة؟ لأن من شأن مساعداتها المقدمة لمنظمة التحرير الفلسطينية أن تقي المصالح

السعودية من هجمات الفلسطينيين. وسرعان ما أصبح السعوديون أهمّ الداعمين الذين يعتمد عليهم ياسر عرفات في العالم العربي[٤٥]
ورغم أن ياسر عرفات لم يكن عضواً رسمياً في حركة الإخوان المسلمين في مصر، التي دعمها فيصل فقد كان متعاطفاً معها. ومع مرور الزمن، صار عرفات منتظماً في حضور اللقاءات السنوية للمجلس التأسيسي لرابطة فيصل للعالم الإسلامي[٤٦] بالإضافة إلى هذا، فاز بالمنصب الشرفي نائباً دائماً لرئيس منظمة المؤتمر الإسلامي، التي تدعمها السعودية، والتي أنشئت سنة ١٩٦٩ خلال لقاء قمة رؤساء الدول الإسلامية في الرباط بالمغرب. إذ حصل عرفات على دوره البارز في المنظمة لأن المؤتمر ركز أساساً على موضوع القدس.

غير أن هذه السياسة الداعمة لفتح طرحت مشكلات على جار السعوديين في الشمال: المملكة الأردنية الهاشمية. ذلك أن الأردنيين واجهوا مشكلة داخلية حادة نتيجة النشاط العسكري الفلسطيني المكثف داخل مملكتهم. وبالفعل، اشتكى الملك حسين، في مطلع شهر أيلول/سبتمبر ١٩٦٨، لـ«هاريسن م. سايمس»، السفير الأمريكي في عمّان، من أن «السعوديين يقدّمون يد العون لفتح في الحاضر شريطة ألا ينسّقوا مع أي حكومة عربية، بما في ذلك الأردن»[٤٧] وفي غضون سنتين انخرط الأردن في حرب أهلية شاملة حرضت القوات الأردنية المسلحة ضد منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة مكوّنها الأكبر فتح. وكادت الحرب الأهلية أن تتحول إلى صراع إقليمي شامل عندما قررت سوريا احتلال الأردن دفاعاً عن الفلسطينيين، وقد انسحبت القوات السورية من الأردن بعد التزام عسكري، لكن أظهر هذا الحدث الآثار المزلزلة الناجمة عن دعم السعوديين حركة فتح.

وكما اتضح، لم يحصّن السعوديون أنفسهم تماماً من الهجمات الفلسطينية. ففي فاتح آذار/ مارس ١٩٧٣ اقتحم ثمانية إرهابيين من جماعة أيلول الأسود السرّية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية السفارةَ السعودية في الخرطوم، واعتقلوا السفير السعودي، والسفير الأمريكي في السودان، والقائم بأعماله، ودبلوماسي بلجيكي[٤٨] وبعد المطالبة بإطلاق سراح السجناء في الأردن وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، بما في ذلك سرحان سرحان، الذي قتل «روبرت ف. كينيدي»[٤٩]، تلقّى الإرهابيون أوامر من مقر منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت بإعدام الأمريكيين والبلجيكي. وفي وقت لاحق اتصل ياسر عرفات بنفسه هاتفياً للتأكد من أن الإرهابيين فهموا أمر الإعدام- وألا يفعلوا أي شيء بالسفير السعودي.

وفي سنة ١٩٧٣، تبيّنت صعوبة الحفاظ على موقف العربية السعودية القاضي بعدم التدخل حيال إسرائيل. فعندما خططت مصر وسوريا لتنفيذ هجوم متزامن على إسرائيل فكر الملك فيصل ملياً في استعمال سلاحه الأساسي: النفط.

سلاح النفط

كانت ميول فيصل حول قضية النفط، في الأصل، هي ذاتها عند والده ؛ بالطبع، لم يكن ابن سعود راغباً في أن يعرّض العلاقات النفطية السعودية الأمريكية للخطر باعتبار ذلك جزءاً من دعمه حرب الدول العربية مع إسرائيل. ورغم أن فيصل علّق إمدادات النفط إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى لوقت وجيز بعد حرب الأيام الستة فإنه ظل يعتقد أن النفط يجب ألا يستعمل سلاحاً سياسياً[٥٠]

لكن الوضعية النفطية تغيّرت منذ زمن ابن سعود. ففي تموز/يوليو ١٩٦٨ استولى تحالف يتكون من ضباط الجيش العراقي والفرع العراقي لحزب البعث، وهو حزب اشتراكي قومي تأسس في سوريا، على السلطة في بغداد؛ وفي منتصف سنة ١٩٧٢ أمّم النظام الجديد، الذي كان رجله القوي هو نائب الرئيس صدّام حسين، شركة النفط العراقية التي كان يهيمن عليها البريطانيون. وفي حزيران/يونيو ١٩٧٣ حذا النظام الليبي الجديد بقيادة معمر القذافي، الذي أطاح بالملك إدريس في أيلول/سبتمبر ١٩٦٩، حذو العراقيين، مؤمّماً «شركة بانكر هانت النفطية»، وهي منتج نفطي أمريكي صغير ومستقل.

وقد بدأ الضغط في العربية السعودية يسير، وقتئذ، نحو تأميم شركة «أرامكو». ففي مطلع السبعينيات طمأن الملك فيصل الشركاء الأربعة في «أرامكو» (إيسو، موبيل، شيفرون، وتيكساكو) بالقول إن «المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط آمنة نسبياً في العربية السعودية وحدها». لكنه حذّر أيضاً من أنه يصعب «استبعاد تيار الرأي»، مع تزايد المطالب بالمشاركة السعودية في «أرامكو»، بسبب دعم أمريكا إسرائيل[٥١] غير أن فيصل لم يلمّح أبداً إلى حظر النفط، حتى عندما لام المطالب السعودية بتحكم أكبر في شركة «أرامكو» بسبب قضية إسرائيل.

ومنذ بداية حرب ٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣، عندما شنّت مصر وسوريا هجوماً مفاجئاً مشتركاً على المواقع العسكرية الإسرائيلية في سيناء ومرتفعات الجولان، امتد إلى ١٩ تشرين الأول/أكتوبر، رفض فيصل دعم اقتراحات حظر النفط عن الولايات المتحدة الأمريكية. وفي يوم ١٦ تشرين الأول/أكتوبر، رد فيصل على رسالة وزير الخارجية «هنري كيسينجر» السابقة مُبلغاً إياه موقف الرياض من

القرار الأمريكي بمد جسر جوي للمؤن العسكرية المقدمة لإسرائيل، لكنه لم يأت على ذكر أي حظر نفطي. إذ قال إن العلاقات السعودية-الأمريكية ستصبح «فاترة»، ما لم تستجب واشنطن للاقتراحات المصرية الرامية إلى انسحاب إسرائيلي إلى حدود ١٩٦٧، وإلى المطلب السعودي الرامي إلى إيقاف المساعدات العسكرية الأمريكية الموجهة إلى إسرائيل[٥٢] لكن تهديد السعودية الولايات المتحدة الأمريكية بقي غامضاً. ذلك أن فيصل، وهو يؤذن ربما بالتزام سعودي أكبر في هذا الصراع مع إسرائيل، أرسل لواءً سعودياً إلى الجبهة السورية على مرتفعات الجولان. لكن هذه القوة كانت، كما العادة، ضعيفة مقارنة مع جيوش الدول العربية الأخرى المشاركة، حيث شكل لواء سعودي، على سبيل المثال، ثلث حجم كتيبة عراقية. وكان العراق قد أرسل كتيبتين ونصف الكتيبة، أي حوالي ثلاثين ألف جندي، إلى مرتفعات الجولان[٥٣]

وفي يوم ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر فقط قرر الملك فيصل وقف تصدير النفط إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وفي اليوم الموالي خطا خطوة أخرى في هذه السياسة فقطع الإمدادات النفطية عن الأسطول الأمريكي السادس في البحر الأبيض المتوسط. وقد شكلت هذه الخطوة عملاً في مسار محفوف بالمخاطر على نحو واضح، لأن الطائرات السوفياتية كانت آنذاك تعيد تزويد زبناء الاتحاد السوفياتي من المصريين والسوريين والعراقيين بحاجاتهم من المؤن.

ما الذي أحدث، إذن، التحوّلَ في السياسة السعودية؟ ولِمَ حدث في هذا الوقت؟ في وقت مبكر من الحرب تفوّقت القوات المصرية والسورية على الجيش الإسرائيلي الصامد الصغير تفوقاً كبيراً من حيث العدد. ففي مرتفعات الجولان وحدها تقدمت سوريا على إسرائيل

بثماني حسنات مقابل واحدة في الدبابات. وظلت القوة الجوية الإسرائيلية عاجزة إلى أن شلّت دفاعات خصومها الجوية. فضلاً عن ذلك، كانت القوات الإسرائيلية الصغيرة في الخطوط الأمامية منكشفة أمام هجوم مباغت تشنّه تشكيلات الدول العربية النشطة والمستعدة للمعركة في حين كان الجيش الإسرائيلي يتشكل في عمومه من وحدات الاحتياط التي استغرق استنفارها أياماً عديدة.

لكن ما أن حشد الجيش الإسرائيلي جيشه الاحتياطي واستعاد المباردة حتى بدأت كفة المعركة تتغير. إذ شنت إسرائيل أول هجوم معاكس ناجع ضد مصر يوم ١٦ تشرين الأول/أكتوبر عندما عبرت القوات الإسرائيلية، بقيادة اللواء «أرييل شارون»، قناة السويس حيث أوشكت على تطويق الكتائب المصرية برمّتها، وخاصة الجيش المصري الثالث. وبعد مكاسب أولية مدهشة كادت مصر تخسر الحرب. هنا دشن السعوديون الحظر النفطي، بعد أن بلغت القوات الإسرائيلية، في نهاية المطاف، مواقع تقع على بعد سبعين إلى ثمانين كيلومتراً من ضواحي القاهرة.

ويظهر أن الملك فيصل وكبير الفقهاء توصلا إلى اتفاق يقضي باستعمال سلاح النفط، إذا سار جهد الحرب المصرية على نحو سيئ[٥٤]

بحسب هذا التحليل، انطلق التحرك ضد الولايات المتحدة الأمريكية من المؤسسة الدينية الوهابية، أكثر منه من العائلة الملكية السعودية. ذلك أن دور العلماء في مسائل السياسة العليا كان قد ازداد ولا بد أن الملك فيصل أدرك أن المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية كانت خطيرة، خاصة عندما استهدف حظر النفط السعودي القوات العسكرية الأمريكية وراء البحار. ففي الماضي كان السعوديون

ينفرون من الانجذاب إلى القضايا العربية- الإسرائيلية. اتضح ذلك من السجلات الدبلوماسية البريطانية والأمريكية خلال الستينيات، ومن الأفعال السعودية خلال الحروب العربية- الإسرائيلية السابقة أيضا. إذ توقّع قليلون أن تختلف سنة ١٩٧٣ أيّما اختلاف؛ حتى أن الرئيس المصري أنور السادات سيدعي أنه لم يتوقع أبداً أن يستعمل فيصل سلاح النفط فعلاً(٥٥).

لقد أظهر السلوك السعودي في حرب تشرين الأول/ أكتوبر أن شيئاً أساسياً قد تغيّر. إذ بإمكان المرء أن يجادل أن العربية السعودية لم تنخرط في حربي ١٩٤٨ و١٩٦٧، لأن إسرائيل كانت تقاتل أكبر خصوم السعوديين: الأردن الهاشمي أولاً، ثم مصر الناصرية. وفي الواقع أثار الدبلوماسيون البريطانيون هذا الاحتمال عند تحليل صراع سنة ١٩٤٨ «وحتى عداء العربية السعودية لإسرائيل بدا، من الناحية العملية، تابعاً إلى حد ما لعقدتها من الهامشيين، ما دام أن القوة الإسرائيلية قد تشكل وزناً موازياً مفيداً للأردن»(٥٦) بل إن هذا التحليل قد ينطبق أكثر على نزاع سنة ١٩٦٧، ذلك أن الانتصار الإسرائيلي في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ أجبر المصريين على سحب حملتهم العسكرية من اليمن، منهياً فعلياً التهديد الناصري لشبه الجزيرة العربية. وفي سنة ١٩٧٣ كان عبد الناصر قد توفي وحلّ محله في الحكم أنور السادات، وانتهى تهديد المصريين العربية السعودية. حدث ذلك عندما دعم السعوديون مصر، مُدَشِّنِين حظر النفط عن الولايات المتحدة الأمريكية- حظر رفعوه في ربيع سنة ١٩٧٤ بعد أن توصلت مصر (وسوريا) إلى اتفاق فصل القوات مع إسرائيل. وقد خدم النفط السعودي المصالح المصرية.

لكن اعتبارات توازن القوى لا تفسر السلوك السعودي تفسيراً تاماً.

ففيصل الستينيات كان عازماً على أن يكون مصلحاً، لكنه أضحى محافظاً أكثر خلال السبعينيات. وتجلى العنصر الحقيقي الوحيد ضمن برنامجه الإصلاحي الذي نفذه في إلغاء العبودية. وربما تأثر فيصل المحافظ، على نحو خاص، بزعامة بلاده الدينية، التي شكّل انخراطها الأكبر في قرارات السياسة الخارجية السعودية الحرجة التفسير الأرجح لاتخاذ قرار حظر النفط عن الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كان المفتي العام الراحل الشيخ محمد بن إبراهيم قد نصح فيصل بأن «العربية السعودية يجب أن تقود العالم العربي» فإن حظر النفط عن الولايات المتحدة الأمريكية شكل خطوة مهمة نحو تحقيق تلك الغاية. إذ خسرت مصر وسوريا الأرض فعلاً لفائدة الإسرائيليين في حرب تشرين الأول/أكتوبر، لكن الهجوم الدبلوماسي السعودي لم يلقَ رداً. بهذا المعنى برز الملك فيصل باعتباره المنتصر الرئيس في الجانب العربي.

وكانت النصيحة الثانية التي أسداها الشيخ محمد بن إبراهيم للملك فيصل تفيد «وجوب تصدير إيديولوجيا الوهابية»، حيث أضحى السعوديون، بعد آخر صراع عربي- إسرائيلي في وضع أفضل لتحقيق تلك الغاية، ذلك أن حظر النفط كان له أثر جانبي مهم، وهو انفجار أسعار النفط، مما يعني زيادة الدخل الوطني السعودي. إذ ارتفعت آنئذ مداخيل النفط السعودي، التي كانت قد انتقلت من ٢,٧ مليار دولار سنة ١٩٧٢ إلى ٤,٣ مليار دولار سنة ١٩٧٣، وفجأة إلى ٢٢,٦ مليار دولار سنة ١٩٧٤[٥٧] هكذا ارتفعت الاعتمادات المالية المخصصة لنشر الوهابية، وهي نسخة الإسلام السعودية، عبر منظمات مثل رابطة العالم الإسلامي. وكان بإمكان الوهابية أن تؤكد ذاتها بشكل كبير.

الفصل السادس

مشتل التطرف الإسلامي المقاتل

للصراع بين القومية الإسلامية السعودية والنزعة الناصرية آثار جانبية أخرى دامت عقوداً، بل دامت إلى ما بعد وفاة عبد الناصر سنة ١٩٧٠ وقد تمثلت أهم قوة معادية للناصرية في الخمسينيات في جماعة الإخوان المسلمين، التي أنشأها المعلم المصري حسن البنّا (١٩٠٦-١٩٤٩) سنة ١٩٢٨ بغية خلق نظام سياسي واجتماعي مغاير تماماً، عندما تحررت مصر من الهيمنة الأجنبية- أي خلق مجتمع قائم على الشريعة الإسلامية. فتحوّل الإخوان المسلمون، بهذا القصد، إلى معارضة سياسية هائلة في مصر، حيث أصبح التنظيم، مع حلول سنة ١٩٤٩، يمتلك ألفي فرع في البلد كله. لكن الأهم أن الجماعة باتت آنئذ حركة مقاتلة خطيرة بـ«جهاز سري» امتلك السلاح وأدخل الرعب في قلوب خصومها. ففي سنة ١٩٤٨ اغتال عضو من الإخوان المسلمين الوزير الأول المصري النقراشي باشا، كما اغتيل حسن البنا في أقل من شهرين بعد ذلك. وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٤ حاول أخ مسلم الإجهاز على حياة عبد الناصر[1]

لجأ العديد من الأعضاء المصريين في تنظيم الإخوان المسلمين، الذين أبعدهم نظام عبد الناصر عن مصر، إلى العربية السعودية.

وحصل بعضهم على معاشات من الحكومة السعودية. وسار الإخوان المسلمون الفلسطينيون على النهج ذاته، حيث غادر أبو جهاد (خليل الوزير)، الذي كان عضواً في الإخوان المسلمين قبل أن يصبح أحد مؤسسي حركة فتح، غزة التي كانت خاضعة للهيمنة المصرية قصد التدريس في العربية السعودية. وطلب ياسر عرفات، الذي قاتل كمتعاطف مع وحدات الإخوان المسلمين سنة ١٩٤٨ رغم أنه لم يكن إخوانياً بشكل رسمي، التأشيرة السعودية سنة ١٩٥٧، لكنه قرر آنئذ الرحيل إلى الكويت[٢] (بعد عقودٍ من ذلك ستصبح العربية السعودية مجدداً ملجأً للإخوان المسلمين. وعندما انشقت حركة الإخوان المسلمين السورية، بعدما سحقها الرئيس حافظ الأسد سنة ١٩٨٢، لجأ فصيل على الأقل من فصائلها إلى العربية السعودية[٣] كما قَدِم الإخوان المسلمون السودانيون إلى المملكة السعودية طلباً للجوء السياسي. وبلغ عدد لاجئي الإخوان المسلمين الذين فروا إلى العربية السعودية الآلاف[٤]). وقد أضحى بعض الإخوان المسلمين المصريين، الذين وصلوا إلى العربية السعودية أواخر الخمسينيات، شخصيات بارزة في الجامعة الإسلامية في المدينة، التي تأسست سنة ١٩٦١ بعد مشاورات بين هؤلاء الأصوليين الأجانب والعلماء الوهابيين وسلطات سعودية أخرى[٥] وأمل السعوديون أن يبنوا، بمساعدة هؤلاء اللاجئين المصريين، الجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة، كبديل لجامعة الأزهر الشهيرة في القاهرة، التي باتت تخضع لمراقبة ناصرية صارمة سنة ١٩٦١ وعُيّن الزعيم الإسلامي الباكستاني مولانا أبو الأعلى المودودي قيّماً على الجامعة الجديدة[٦]، فانجذب العديد من علماء مصر المستقبليين إلى العربية السعودية خلال تلك السنوات، حيث قضى الشيخ طنطاوي، الذي سيصبح في آخر الأمر المفتي العام

في مصر، أربع سنوات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة[7]

لم تكن الجامعة خاضعة لاختصاص وزارة التربية السعودية، بل كان يراقبها المفتي العام الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ. وكان نائب رئيس الجامعة هو الشيخ عبد العزيز بن باز، الفقيه الوهابي المحافظ القوي، الذي سيصبح هو نفسه المفتي العام خلال الستينيات. وتلقّى طلبة من العالم الإسلامي كله دروس هذه الجامعة، فكانوا معرّضين لأفكار الوهابية ولأفكار الإخوان المسلمين. وبعد سنوات شكّل غير السعوديين نسبة ٨٥ في المئة من جسمها الطلابي، ما جعلها أداة مهمة لنشر الإسلام الوهابي دولياً[8] وكان ثمة مركز مهم آخر للطلبة الأجانب هو جامعة الملك عبد العزيز، التي تأسست سنة ١٩٦٧ وسرعان ما أصبحت الجامعتان معاً مشتلَين لنمو القتال الإسلامي.

وراكم لاجئون آخرون من الإخوان المسلمين ثروات عائلية في العربية السعودية، بمن فيهم محمد عثمان إسماعيل، الذي أصبح وسيطاً بين مصر ما بعد عبد الناصر والعربية السعودية. وفي أواخر السبعينيات أضحى بعض هؤلاء الأغنياء الجدد من الإخوان المسلمين مساهمين أساسيين في الحركات الإسلامية المصرية[9] ولسوف تُتهم مصادر مصرية خلال التسعينيات من خلال جريدة *السفير* اللبنانية أيضاً مسؤولين سعوديين سامين بدعم النشاط الإرهابي في مصر[10]

لقد كانت العربية السعودية ملجأً طبيعياً للإخوان المسلمين، وكان للمملكة مصلحة في التأثير في مصر. ففي الأحوال كلها، كان المصريون قد غزوا شبه الجزيرة العربية مرتين، وقاتلوا السعوديين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. وبالفعل، أظهرت حرب اليمن خلال الستينيات- عندما خاضت القومية العربية العلمانية الناصرية

الحرب ضد الوهابية- التهديد الذي شكلته مصر عندما كانت تقف موقف العداء الإيديولوجي التام للدولة السعودية. من هنا كان الاستثمار في الحركات الإسلامية المصرية وهزم التيارات العلمانية المصرية استثماراً في الأمن بالنسبة إلى السعودية العربية. وبالطبع، تميزت الوهابية وحركة الإخوان المسلمين بانصهار إيديولوجي كبير. ذلك أنهما تشكلان معا حركتين سلفيتين تسعيان إلى استعادة العصر الذهبي الإسلامي- الإسلام كما كان في عهد النبي محمد أو السلف الصالح. وكلاهما تغذيا على فهمهما لابن تيمية (١٢٦٣-١٣٢٨)، الذي وجد محمد بن عبد الوهاب كتاباته مغرية جداً، فاستنسخها بخط يده.

كتب ابن تيمية أن أجزاء كبرى من العالم الإسلامي انقلبت إلى الجاهلية، مع الغزوات المغولية للعراق في منتصف القرن الثالث عشر، حتى بعد أن اعتنق المغول الإسلام. ونتيجة لذلك جاز الجهاد، كما قال، ضد الدولة المغولية. ومن ثم تبنّى الوهابيون أفكار ابن تيمية لتبرير حروبهم ضد الإمبراطورية العثمانية. كما سلك الإخوان المسلمون سلوكاً مشابهاً إزاء الأنظمة العلمانية في الشرق الأوسط، حيث شنّوا الحرب ضد عبد الناصر، وحتى ضد خلفه الرئيس السادات، لأنهما مسلمان مخادعان، شأنهما شأن المغول الذين حكموا الشرق الأوسط.

ثمة أمثلة عديدة من التلاقح بين الحركتين. فكما سبقت الإشارة، كان محمد رشيد رضا، وهو معجب بالوهابية- بل ومتعهد لها- معلم حسن البنّا، مؤسس الإخوان المسلمين. وربما تلقّى رضا دعماً مالياً من ابن سعود مكافأة له عن مواقفه الداعمة للسعودية («ثمة مال في المسألة»، كما اعترف أحد مستشاري ابن سعود)[١١]

كما كانت العربية السعودية ملجأً لمحمد قُطب، شقيق سيّد قُطب، وهو أهمّ وجوه حركة الإخوان المسلمين. ففي سنة ١٩٦٦ أعدم عبد الناصر سيّد قطب، وقد أدان العلماءُ الوهابيون والمجلسُ التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي برئاسة المفتي السعودي الأكبر هذا الإعدامَ[١٢]

غير أن سيد قطب كان قد أصبح، قبل وفاته، المدافع الرائد عن الإصلاح الإسلامي الحركي- ليس في مصر فحسب، بل في العالم كله.

الكراهية «خفيّة وضارية»

وجد سيد قطب، وهو كاتب ومفكر غزير الإنتاج من بين أعماله تفسير للقرآن من ستة أجزاء، أن المصريين يعيشون جاهلية جديدة. إذ زعم قطب، مقتبساً ابن تيمية، وكذا العلاّمة الباكستاني مولانا أبا الأعلى المودودي الذي كتب حول حالة المسلمين في ظل الحكم البريطاني في الهند، أن مصر انتقلت من دار الإسلام إلى دار الحرب. كما قال إن الأنظمة العربية قد تصبح موضوع جهاد على نحو مشروع[١٣]

قضى قطب سنوات عدة في أمريكا، ليصبح لاحقاً متشدداً في معاداة الغرب، مؤمناً بـ«انتقاد الجاهلية الغربية»[١٤] إذ ربط بين الحضارة الغربية والجاهلية التي قهرها النبي محمد في فجر الإسلام: «الإنسان في مفترق الطريق وهذا هو الاختيار: الإسلام أو الجاهلية. فالجاهلية الحديثة داخل المجتمعات المصنّعة في أوروبا وأمريكا شبيهة أساساً بالجاهلية القديمة في الجزيرة العربية الوثنية والبدوية. وفي كلا النظامين، يعبد الإنسانُ الإنسانَ، ولا يعبد الله»[١٥] وفي عمل موالٍ خلص إلى أن مجتمع «الأوثان البشرية» يجب أن يزول بغية «التخلص

من نير» الجاهلية[١٦] ومع مرور الوقت تحوّل تركيزه من الحاجة إلى إسقاط الحكومات العلمانية العربية إلى الدعوة إلى مكافحة الغرب نفسه.

تنبأ قطب أن صراع حضارات بين الإسلام والغرب سيحدث في نهاية المطاف، وأن الغرب سينهار لأنه بات مفلساً أخلاقياً[١٧]، وسيلبس الإسلام عباءة قيادة العالم. وقال إن المسلمين نسوا تغلّبهم[١٨]، وهكذا أُهمل الجهاد، بما هو فريضة قرآنية[١٩] وجدد الدعوة إلى جهاد قتالي: «والذي يدرك طبيعة هذا الدين [الإسلام]. يدرك حتمية الانطلاق الحركي في صورة الجهاد بالسيف- إلى جانب الجهاد بالبيان»[٢٠]

في العربية السعودية طبع محمد قطب كتابات سيد قطب ونشرها. ودرّس الدراسات الإسلامية في آخر المطاف بجامعة الملك عبد العزيز في جدة. وتضمنت كتاباته، كما كتابات أخيه، تيمات قوية معادية للغرب؛ فعلى سبيل المثال، استعمل مصطلح «الصليبي» للإشارة إلى «المسيحي» ومصطلح «الصليبية» لـ«المسيحية» و«العالم المسيحي،» والغرب الحديث برمّته، بينما كتب شقيقه سيد حول «الروح الصليبية التي تجري في دماء الغربيين كلهم»[٢١] وذكّر محمد قطب القرّاء بمهمتهم القتالية الجديدة: «أوجعت ثلّة من الرجال، بالإيمان، الإمبراطورية البريطانية الواهنة في القناة. لم يكونوا في حاجة إلى الأسلحة الثقيلة لتحقيق ذلك. فإذا استرجعنا إيماننا الصارم سنهزم إمبراطوريات العالم الكبرى، مثلما فعل المسلمون الأوائل. سنستطيع إقامة التوازن بين القوى الكبرى في الشرق والغرب»[٢٢]

وفي سنة ١٩٥٤ كتب محمد قطب أن رحى الحروب الصليبية كانت لا تزال دائرة. لكن الدبلوماسيين الغربيين في العربية السعودية

فشلوا في كشف التهديد الضمني للغرب عندما تبنّى السعوديون أنفسهم هذه اللغة. ففي مذكرة سرّية سنة ١٩٦٦ حول نهوض الملك فيصل بالوحدة الإسلامية، لاحظ دبلوماسي في السفارة البريطانية بجدة:

> ألفت الانتباه إلى الرأي الملطّف حول أنشطة فيصل. إذ تشاطر السفارة الأمريكية هنا، التي ناقشنا معها الموضوع على مستويات عدة، هذا الرأي. هذا يعني أن مفهوم الإسلام كقوة عدوانية اختفى تماماً، ما عدا لدى بعض السعوديين الكبار. ذلك أن مقالاً نشر في صحيفة منذ أسابيع قليلة أشار إلى أفريقيا باعتبارها «دار الحرب»، وإلى أعداء الإسلام كالشيوعية والصهيونية والصليبية، محيلاً بالطبع على النشاط التبشيري المسيحي[٢٣]

هكذا، ووفق رأي المسؤول الإنجليزي- الأمريكي، عكست إشارات النشطاء الإسلاميين إلى «الصليبية» ببساطة الحساسيات السعودية من التبشير المسيحي فوق الأرض العربية. غير أن أولئك الذين تابعوا أدبيات الإخوان المسلمين بدقة توصلوا إلى خلاصة مختلفة جداً، حيث كتب «ويلفريد كانتويل سميث» من جامعة «ماكجيل» أن «أغلب الغربيين لم يملكوا ببساطة أية معرفة بمدى عمق وضرواة كراهية الغرب التي أحكمت قبضتها على العرب السائرين في طريق الحداثة»[٢٤]

«أمير الجهاد»

في السبعينيات شكلت إيديولوجيا الإخوان المسلمين والوهابية السعودية مزيجاً فعّالاً في الجامعات الإسلامية السعودية والشبكات

الإسلامية الدولية التي أسّسها الملك فيصل عبر رابطة العالم الإسلامي.

والتمس مزيد من المتشددين الإسلاميين اللجوء إلى العربية السعودية، حيث قضى السوداني حسن الترابي سنوات عديدة منفياً، قبل أن يُستدعى للالتحاق بحكومة الرئيس جعفر النميري سنة ١٩٧٧[٢٥] وأقام الشيخ عمر عبد الرحمان، الفقيه المصري الأعمى الذي سيدان في ما بعد بسبب تورّطه في تفجير المركز التجاري العالمي سنة ١٩٩٣، بالعربية السعودية من سنة ١٩٧٧ إلى ١٩٨٠، معلماً بمدرسة للبنات في الرياض. وكان ناقداً لاذعاً لعبد الناصر، يصف نظام الزعيم المصري بـ«غير الإسلامي»، بل أفتى بتحريم إقامة صلاة الجنازة عليه بعد رحيله. وسجنته السلطات المصرية مرات عديدة بسبب أنشطته[٢٦]

وفي الثمانينيات رحّب السعوديون بأيمن الظواهري، رغم انخراطه السابق في التطرف الإسلامي، وتورطه في اغتيال أنور السادات (الذي قضى بسببه عقوبة بالسجن في مصر). وفي سنة ١٩٨٦ غادر الظواهري العربية السعودية إلى أفغانستان. وفي أواخر التسعينيات أصبح نائب أسامة بن لادن والمنظر الإيديولوجي الرئيس في القاعدة[٢٧]

والأهمّ ربّما هو أن عبدالله عزّام، وهو أحد المفكرين الأصوليين الإسلاميين الأكثر تأثيراً، التمس اللجوء إلى العربية السعودية. ويصعب تقدير تأثير هذا المتطرف الإسلامي.

ولِد عزّام في بلدة فلسطينية قرب جنين سنة ١٩٤١ وفي سنة ١٩٥٩ رحل إلى سوريا قصد متابعة الدراسة في جامعة دمشق، عاش هناك حتى سنة ١٩٦٦ والتحق بالإخوان المسلمين خلال تلك الفترة.

وفي سنة ١٩٧٣ نال درجة دكتوراه في القانون الإسلامي بالأزهر في القاهرة حيث التقى عائلة سيد قطب. وفي وقت لاحق درّس عزام الشريعة في جامعة الأردن في عمّان، وهناك جدد نشاطه داخل حركة الإخوان المسلمين. لكنه صُرف من منصبه الجامعي بسبب انخراطه في الإخوان. وهكذا رحل إلى العربية السعودية كباقي الإخوان المسلمين حيث التحق بمحمد قطب في كلية جامعة الملك عبد العزيز. وفي هذه الجامعة اشترك قطب وعزام في تدريس طالب سعودي اسمه أسامة بن لادن[٢٨]

تتجلّى أهمّ مساهمة لعبدالله عزام في االحركة الأصولية الإسلامية باستعادة مركزية فكرة الجهاد. وأطلق عليه لقب «أمير الجهاد»[٢٩] إذ توصل إلى خلاصة واضحة بعد تحليل أسباب الانحطاط النسبي في العالم الإسلامي مفادها: «أن الناظر في واقع المسلمين اليوم يجد أن مصيبتهم الكبرى هي ترك الجهاد»[٣٠] وكتب في رأي شرعي حول الدفاع عن أرض إسلامية تعرضت لهجوم ما، أن «الجهاد في مثل هذه الحالة الراهنة. فرض عين في النفس والمال، كما قرره فقهاء المذاهب الأربعة بلا استثناء، ومعهم جمهرة المفسرين والمحدثين الأصوليين». وفي كتيّب بعنوان *الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان*، جعل من الجهاد أولوية إسلامية جديدة على نحو واضح.

لم يتأثر عزام في هذه الفترة بكتابات أصحابه من الإخوان المسلمين فحسب، بل أيضاً بالعلماء الوهابيين في العربية السعودية وبخاصة الشيخ عبد العزيز بن باز[٣١] إذ صرّح في مقدمة الكتيب: «فهذه الفتوى كتبتها، وكانت أكبر من هذا الحجم، ثم عرضتها على فضيلة شيخنا الكبير سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وقرئت عليه

واستحسنها، وقال: «إنها طيبة»، ووافق عليها». وبحسب عزام، أعلن الشيخ ابن باز بعد ذلك، في مساجد جدة والرياض، أن الجهاد كان واجباً على كل مسلم. وكان من طليعة العلماء الوهابيين الذين استشارهم عزام الشيخ محمد بن صالح العثيمين، وهو أحد أعلى المرجعيات الدينية في الوهابية السعودية، الذي ذهب أبعد من ذلك بالتوقيع على فتوى عزام[٣٢]

كما تأثر عزام بالمصادر الكلاسيكية. إذ اقتبس هذا التصريح من ابن تيمية: «إذا دخل العدو بلاد الإسلام فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة، وأنه يجب النفير إليه بلا إذن والد ولا غريم». وسمّى عزام هذا الأمر بـ«النفير العام»، ورفع من أهمية واجب الدفاع عن الأراضي الإسلامية، واضعاً إياه في مرتبة ثانية بعد الواجب الرئيس، وهو الإيمان بالله. إذ كتب أن «هذه بعض الأدلة والمبررات للنفير العام إذا دخل الكفار أرض المسلمين. إن دفع العدو الكافر هو أوجب الواجبات بعد الإيمان». وصرّح مقتبساً [ابن العربي في الأحكام القرآنية] أنه «قد تكون حالة يجب فيها نفير الكل. وذلك إذا تعين الجهاد على الأعيان بغلبة العدو على قطر من الأقطار أو لحلوله بالعقر، فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج، فإن قصروا عصوا». ويقود إغفال الجهاد، في رأي عزام، إلى الشرك والكفر- وهما خطران على الدين حاولت الوهابية دائماً استئصالهما. وفيما بعد كتب حول هذا الموضوع قائلاً «إن الشرك سيعمّ ويسود بدون قتال»[٣٣]

وقد دفع الاجتياح السوفياتي لأفغانستان في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩ الأصوليين الإسلاميين، أمثال عبدالله عزام، إلى إعلان الجهاد. بل حل الصراع الأفغاني، في نظر العديد من أتباع عزام،

محل القضية الفلسطينية، باعتباره يمثل إجماعاً إسلامياً. إذ لاحظ كاتب إسلامي في منتصف الثمانينيات:

> إنها مسألة رؤية غامضة أو قصر نظر أو خيانة بالنسبة للعرب والمسلمين الانشغال بالقضية الفلسطينية وجعل[ها] نقطة محورية في الصراع بينهم وبين الصهاينة، الذين تدعمهم الرأسمالية الإمبريالية الغربية، وتجاهل أن إسقاط الدولة العثمانية. بكل وقائعه السياسية والعسكرية والجغرافية، بل والجهوية، شكل الخطوة الأساس نحو كسر بوابة الشرق والانقضاض على العالم الإسلامي.

وفق هذا المنطق، كان هجوم واسع على العالم الإسلامي- من الصومال إلى كشمير، بما في ذلك أفغانستان- في حاجة إلى أن يعالج[٣٤]

وكان لإيديولوجيا عزام أثر معيّن في نفوس العديد من الشباب السعودي، إلى جانب أسامة بن لادن. إذ ثمة سعودي آخر كان من أتباع عزام خلال سنوات مقامه في العربية السعودية هو أبو عبد العزيز، المعروف أيضاً باسم «بارباوس»، الذي سيقود المتطوعين العرب في البوسنة خلال التسعينيات. وكان قد سمع بعزام أول مرة سنة ١٩٨٤. ومثلما فعل عزام خلص إلى أن الجهاد تراجع: «نسينا مفهوم الجهاد في الإسلام. أنوار الجهاد وأحكامه وفروضه (كما يفصّلها الشرع الإسلامي) تلاشت (واختفت) من واقعنا اليومي»[٣٥]

وقد أتيحت لعزام فرصة تنفيذ أفكاره. فبعد أن غادر منصبه الجامعي في جدة، أرسلته رابطة العالم الإسلامي للتدريس في الجامعة الإسلامية الدولية في إسلام آباد الباكستانية. وقد سيّر مكاتب رابطة

العالم الإسلامي والإخوان المسلمين في بيشاور بباكستان سنة ١٩٨٤، حيث كان مسؤولاً، أول الأمر، عن إيجاد المدرسين للمدارس المشجعة على الجهاد[٣٦] وقد علّق أحد كتّاب سيرته قائلاً إنه «استطاع أن يأتي بالشباب السعودي المرفّه. ويخرجه من شوارع جدة والرياض ويصل به إلى جبال الهندوكوش»[٣٧]

والتحق آخرون بقضيته في باكستان. إذ جاء أحد الإخوان المسلمين، وهو الأردني محمد عبد الرحمان خليفة، ليرأس مكتب رابطة العالم الإسلامي في بيشاور، وسيتزوج خليفة فيما بعد إحدى بنات أسامة بن لادن[٣٨] كما أصبح السعودي وائل حمزة جليدان موظفاً في رابطة العالم الإسلامي بباكستان، حيث سيلتحق فيما بعد بشبكة بن لادن الإرهابية. وذهب وديع الحاج، وهو أمريكي ولد في لبنان واعتنق الإسلام، أيضاً إلى بيشاور؛ حيث عمل لفائدة بن لادن[٣٩] باختصار، غذّت مكاتب رابطة العالم الإسلامي في باكستان ما سيتحول إلى شبكة أسامة بن لادن الإرهابية. ومن المثير للاهتمام أن شخصاً آخر التحق بالدكتور عزام في باكستان كان هو الشيخ عمر عبد الرحمان، الفقيه المصري الأعمى الذي درس لسنوات عديدة في العربية السعودية - والذي سينخرط في أول عمل إرهابي ضد المركز التجاري العالمي[٤٠]

وفي سنة ١٩٨٤ أقام عبد الله عزام مكتب خدمات المجاهدين في بيشاور لتجنيد العرب وترتيب الدعم من أجل محاربة السوفيات في أفغانستان. وتدفق عليه المال من المخابرات السعودية، والهلال الأحمر السعودي، والأمراء السعوديين، ورابطة العالم الإسلامي[٤١] وجهّزت مصالح المخابرات الباكستانية الداخلية المجنّدين الجُدد بالتدريب والمنشآت الأساسية، بينما قدّمت المخابرات المركزية

الأمريكية كماً هائلاً من الأسلحة، تاركة للباكستانيين كيفية توزيعها.

ربما اعتبرت الحرب ضد السوفيات في أفغانستان جهداً متعدد الجنسيات، مع دعم المتطوعين العرب حربَ العصابات الأفغانية وتسليحها بالسلاح الغربي. لكن هذا الجهد اقتضى أيضاً دعماً مالياً مهماً، كان مصدره العربية السعودية وجمعياتها الخيرية الإسلامية. وساعدت قناعة عبدالله عزام الإيديولوجية على حشد المتطوعين من أجل الصراع الأفغاني؛ ولولا السعوديون، لافتقد الأفغان الموارد لرد السوفيات.

إيديولوجيا الجهاد عند عبدالله عزام

تواصل تطور إيديولوجيا عزام. ففي سنة ١٩٨٨ جال في الولايات المتحدة الأمريكية لجمع المال. إذ استشعر، وهو يتوقع أن تهزم القوات الإسلامية السوفيات، أن هذا النصر سيمثل منعطفاً تاريخياً بالنسبة إلى لإسلام- ليس فقط في ما يتعلق بهزم الاتحاد السوفياتي. ذلك أنه أعلن في خطاب ألقاه في أوكلاهوما: «إخوتي، بعد أفغانستان، لن يستعصي عنا بعد الآن أي شيء في العالم- ليس هناك أية قوة عظمى أو صغرى، مهما كانت قوة إرادتنا»[٤٢] وبعد سنة أوضح عزام في خطاب آخر أن حركته قد تستهدف الولايات المتحدة الأمريكية: «عليكم أن ترغبوا في أن تجازفوا بالجهاد حيثما أمكنكم القيام به، حتى في أمريكا»[٤٣] وظهر أن عزام أمل في تكرار انتصارات الإسلام العسكرية خلال القرن السابع. إذ رأى عزام أن جهاده الجديد سحق الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية، مثلما هزمت جيوش المسلمين الأوائل القوتين العظميين آنذاك الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية.

وفي شباط/ فبراير ١٩٨٩ انسحب الاتحاد السوفياتي من أفغانستان. لكن النصر لم يكن سوى نقطة انطلاق عبد الله عزام. إذ تصوّر جهاداً عالمياً: «لن تزول هذه الفريضة بالنصر في أفغانستان، وسيظل الجهاد فريضة على كل فرد مسلم حتى تتحرر كل الأراضي التي كانت سابقاً إسلامية حتى تعود لنا، ويحكم الإسلام فيها مرة أخرى، فأمامنا فلسطين وبخارى ولبنان وتشاد وإيريتيريا والصومال والفلبين وبورما واليمن الجنوبي وتشقند والأندلس»[٤٤] والأندلس هي الاسم العربي لإسبانيا، التي كانت مطمحاً على المدى البعيد للمسلمين مذ أصبحت جزءاً من العالم المسيحي في القرن الخامس عشر. وإذا كان المقاتلون الإسلاميون الأوائل، بمن في ذلك الإخوان المسلمون، قد استهدفوا الأنظمة العلمانية في بلدانهم، حيث ركز الإرهابيون الفلسطينيون في منظمة التحرير الفلسطينية على إسرائيل، رغم أنهم بدؤوا العمل خارج حدود الشرق الأوسط، إلا أن جهاد عبدالله عزام أدخل نظاماً جديداً تماماً على القتال الإسلامي، ذلك أن العمليات المسلحة التي دافع عنها لم تحدّها حدود جغرافية.

مما لا شك فيه أن فكر عبدالله عزام السياسي الراديكالي، الذي تلقّى دعماً ثابتاً من السعوديين، أثر آنئذ تأثيراً عميقاً في الأحداث العالمية. وبالفعل لعبت إيديولوجيته دوراً أساسياً في هزم قوة عالمية عظمى. لكن العقائد التي روّج لها- والتي تأثرت في جزء كبير منها بالنشاط الإسلامي المقاتل للمؤسسة الوهابية السعودية- سيكون لها أثر أهمّ في الشؤون العالمية، لأن كتاباته برّرت، في نهاية المطاف، الإرهاب الأعمى الذي ستمارسه القاعدة. إذ كتب أن «العديد من المسلمين يعرفون الحديث الذي أمر فيه النبي صحابته ألا يقتلوا أي امرأة أو طفل، الخ، *لكن القليلين جداً يعرفون أن هناك استثناءات في*

هذه *الحالة* [التشديد هنا من إضافة الكاتب]. وخلاصة القول، على المسلمين ألا يوقفوا هجوماً على المشركين لوجود نساء وأطفال غير مقاتلين»[٤٥]

واعترف عزام أن المسلمين عموماً ينبغي أن يتجنبوا قتل الأطفال والنساء المسالمات. لكن تمييزه بين الكفار غير المقاتلين، الذين وجب أن يمنحوا هذه الحماية، والمشركين الذين وجب أن يحرموها، خلق مقولات فقهية سمحت، في حالات معيّنة، بقتل المدنيين جماعة. باختصار، أتاح عزام، وهو يخلق هذه المقولات، التبرير الديني للقتل الجماعي، ومهّد الطريق لعولمة الإرهاب الشرق الأوسطي.

وفي يوم ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩ قُتل عبدالله عزام وابناه محمد وإبراهيم بواسطة سيارة مفخخة في بيشاور. ولم يعثر أبداً على المنفذين، لكن ربما كانت مصالح المخابرات في نظام أفغانستان الداعم للاتحاد السوفياتي وراء الهجوم. غير أن وصيته القوية أوجزت ميراثه الإيديولوجي على النحو الآتي: «إن الذين يظنون أن دين الله يمكن أن ينتصر بدون جهاد وقتال ودماء وأشلاء، هؤلاء واهمون لا يدركون طبيعة هذا الدين»[٤٦] وأصدرت رابطة العالم الإسلامي في مكة بلاغات تعزية، وامتدح الأمين العام للمنظمة عبدالله عمر نصيف مساهمة عزام في الجهاد. ولفترة من الزمن قام صهر عزام الجزائري بوجمعة بونوار، المعروف أيضاً باسم عبدالله أنس، مقام خليفته. وقد جاء أنس، في الواقع، بعقيدة عزام الجهادية إلى الجزائر. وواصل فايز عزام شقيق عزام جهود جمع الأموال في الولايات المتحدة[٤٧] لكن خليفة عبدالله عزام المؤثر هو طالبه السعودي أسامة بن لادن.

هجين قتالي جديد

باتت رابطة الملك فيصل للعالم الإسلامي، على نحو واضح، أداة حاسمة في الدفع بالسياسات الوطنية السعودية. ففي سنة ١٩٧٤، عندما حصلت على ميزانية سنوية بقيمة ٥٠ مليون دولار، اختارت نشطاء سياسيين إسلاميين بارزين، أمثال مولانا أبو الأعلى المودودي، المرشد الإيديولوجي لسيد قطب[٤٨] كما تشكل طاقمها من أعضاء في تنظيم الإخوان المسلمين[٤٩] ونشرت رابطة العالم الإسلامي، التي يدعمها السعوديون، النشاط الإسلامي الراديكالي، باستقطابها منظرين إيديولوجيين للقتال الإسلامي إلى صفوفها. ولم يكن الانتقال من التماهي الإيديولوجي مع المقاتلين الإسلاميين إلى الدعم الفعلي للجهاد انتقالاً كبيراً جداً.

أما المنظمة السعودية الثانية للعمل الإسلامي الدولي فهي الندوة العالمية للشباب الإسلامي، التي نشرت ووزعت نصوصاً حول الإسلام، كما سبقت الإشارة. فإلى جانب الكتب التمهيدية العادية نشرت أيضاً أعمالاً حول مواضيع متخصصة، بما في ذلك الجهاد. لكن أبرز كتبها هي كتابات سيد قطب ومولانا المودودي ومحمد قطب[٥٠] وتجلى هدف الندوة العالمية للشباب الإسلامي المعلن في «خدمة إيديولوجيا الإسلام عبر نشر التوحيد»، المعتقد الإسلامي الأساس الذي شددت عليه الوهابية. وهكذا أدمجت منظمة سعودية تعنى بنشر العقيدة الوهابية على الصعيد الدولي كتابات آل قطب والمودودي في رسالة الوهابية.

ورغم الاختلافات التاريخية بين نشأة الإخوان المسلمين ونشأة الوهابية تلتقي الحركتان في تشابهات مهمة. فأيمن الظواهري، الذي دشن مساره الإسلامي في الإخوان المسلمين، قال ذات مرة إن أعمال

سيد قطب أكدت «مدى أهمية قضية *التوحيد* في الإسلام، وأن المعركة بين الإسلام وأعدائه هي في الأصل معركة عقائدية حول قضية *التوحيد* [إبراز الحروف هنا من الكاتب]». من هنا شكل مبدأ التوحيد الإسلامي- باعتباره المحور الوهابي-، في نظر الظواهري، قضية أسمى بالنسبة لقطب، فثمة معركة بين أولئك الذين تبنّوا التوحيد الصارم بشكل صحيح وأولئك الذين يدّعون، بحسب تعبير الظواهري، «الوساطة بين الخالق وخلقه». فمنذ القرن الثامن عشر، صنّف العلماء الوهابيون تبجيل الأولياء وإدخال الوسطاء في العبادة باعتبارهما شركاً ينبغي استئصاله من الإسلام- عسكرياً إذا اقتضى الأمر. وخلص الظواهري إلى أن «دعوة سيد قطب إلى إخلاص التوحيد لله والتسليم الكامل لحاكمية الله ولسيادة المنهج الرباني [كانت، وما زالت] شرارة البدء في إشعال الثورة الإسلامية ضد أعداء الإسلام في الداخل والخارج»[٥١]

وفي السبعينيات والثمانينيات طورت الحركة الوهابية والإخوان المسلمون علاقة عمل، رغم أنه لم يكن للإخوان المسلمين فرع سعودي. ولاحظ الخبير الفرنسي المعروف «أوليفي روا» أن «نوعاً من المغامرة المشتركة قامت في الثمانينيات بين السعوديين والإخوان المسلمين العرب». ذلك أن السعوديين استخدموا دائماً شبكات الإخوان المسلمين لنشر رسالتهم الإسلامية[٥٢] فضلاً عن ذلك، وفّرت العربية السعودية الحماية لنفسها بدعم الإخوان- وهو منهج عمل لدى السعوديين عند التعامل مع الخصوم المحتملين. غير أن الإخوان المسلمين حصلوا من السعوديين ورابطة العالم الإسلامي على مناصب لأعضائهم وأموال لعملياتهم. ونتيجة لهذه العلاقة باتت العربية السعودية مركزاً من المراكز الأساسية التي صدّرت الأصولية

الإسلامية الجديدة خلال السبعينيات والثمانينيات.

فكيف أثّر هذا التفاعل في البيئة الفكرية في العربية السعودية؟ في أواخر السبعينيات بدأ يبرز هجين جديد من إيديولوجيا الوهابية السعودية والإخوان المسلمين. ولا غرابة في هذا الأمر بالنظر إلى أن العربية السعودية آوت ودعمت العديد من هؤلاء النشطاء في حركة الإخوان المسلمين، مانحة إياهم وظائف في جامعاتها ومنظماتها الإسلامية. وقد جسّدت أعمال عديدة آنذاك نوع التفكير الذي كان بصدد الانبثاق.

تجلّى أحد الأمثلة في كتاب يعادي الغرب بقوة بعنوان *أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي*، كتبه محاضران سعوديان بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة لطلبة الشريعة والدعوة الإسلامية[٥٣] إذ رأى الكاتبان، في مقدمة كتابهما، أن الغرب يرفع راية العلمانية، حيث «يرفع في مجال الاقتصاد مبادئ الرأسمالية، ويرفع في مجال السياسة مبادئ الديمقراطية، ويلوح في مجال المجتمع بمبادئ الحرية». فالغرب كان، كما يزعمان، يغزو المجتمع الإسلامي ليبتعد به عن قيم الإسلام. ولمواجهة هذا الغزو الفكري لا بد من قيام دول إسلامية قوية، كما جادل الكاتبان، ولا بد من تقوية الأمة الإسلامية. ووصفا علمانية التعليم والإعلام كـ«عدوان على الشريعة الإسلامية». والغرب لا يمثل، في نظر الكاتبان، سوى عدو الإسلام، ولن يكون ثمة تعايش بينهما.

وقد امتلأت الكتب بتيمات تعادي المسيحية بقوة في أواخر السبعينيات. إذ يحمل أحد الأعمال المنشورة سنة ١٩٧٧ عنوان *ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير*. وقد يُصرف النظر عن هذا الكتيّب ذي اللون الأخضر الفاتح باعتباره عملاً هامشياً

لولا أن غلافه يحمل خاتم المملكة العربية السعودية وتمويل الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. فقد نشرت هذه الإدارة- وهي إحدى قلاع العلماء السعوديين الحكومية- كتباً لأولئك المتخصصين في الشريعة الإسلامية أو المنخرطين في نشر الإسلام في الخارج. فمنذ سنة ١٩٧٤ تولّى الرئاسة العامة الشيخُ عبد العزيز بن باز، الفقيه الوهابي، الذي سيصبح المفتي العام في العربية السعودية خلال التسعينيات. باختصار مثل هذا الكتاب الفكر السعودي الرسمي[٥٤]

تحددت نبرة الكتاب من الإهداء: «إلى شهداء الإسلام من ضحايا الحقد الصليبي». إذ يبدأ الكتاب بتذكير «أهل الكتاب»- النصارى واليهود- بأنهم والعالم الإسلامي يتفقون على معارضة الشرك. لكن الكاتب شرع بعد ذلك في التمييز بين المسيحية الأصلية والمسيحية الحديثة، زاعماً أن هذه الأخيرة لم تعد عقيدة توحيدية: «ولتنقلهم من دين الإسلام الحنيف إلى دين عجيب- الوثنية سداه، والشرك لُحمته، والخرافات جزء لا يتجزأ من طقوسه وشعائره. ويسمونه الدين المسيحي زوراً وبهتاناً»[٥٥]

أقام الكاتب ادعاءه بأن المسيحية كانت شكلاً من الوثنية على نقده الثالوث المقدس: «يعلمون [المبشرون المسيحيون] أنه لا يمكن الجمع أو التوفيق بين الإسلام والنصرانية، ولا بين التوحيد والتثليث». وكتب عن هجمات المسيحيين على الإسلام بتنسيق مع يهود العالم وتخطيط معهم، وناقش قيامهم بـ«هجوم شامل على الإسلام تحت المظلة الأمريكية الجديدة»[٥٦]

وفي نظر الكاتب، «لعل القارئ لا يدري أن الحروب الصليبية التي أشعلها أعداء الإسلام (. .) لا تزال باقية إلى الآن (. .). وما زلنا

نعاني من آثارها (في الفلبين، وفي لبنان، وفي الحبشة، وفي نيجيريا، وفي السودان، وفي تشاد، وفي بلغاريا، وفي تايلاند، وفي فلسطين وغيرها) وستبقى هذه الحروب وتدوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أو يتم استئصال أسباب هذه الحروب، من جذورها»[٥٧] هذا الهجوم على العالم الإسلامي كان مألوفاً في الدوائر الدينية السعودية آنذاك، حيث كتب الشيخ ابن باز نفسه سنة ١٩٧٤ أن المسيحية كانت شكلاً من التجديف وتحريفاً للقرآن. وادّعى أنه قد لا تكون هناك أية أخوّة بين «الكفار [يعني المسحيين] والمسلمين»[٥٨]

كان الكاتب يردّد، في الواقع، صدى الحجج الوهابية الكلاسيكية، لأنه بوصفه المسيحيين مشركين نزع الحماية التي منحها الإسلام إياهم قديماً بوصفهم «أهل الكتاب». وفي تاريخ الوهابية اعتبر التصريح بأن جماعة من الأفراد مشركون بمثابة ترخيص بقتلهم. لكن الكاتب كان واعياً بالسلطة الكامنة في رسالة الكتاب، لأنه حرص على تحذير القارئ: «لا أريد أن تثور ولا أن تلجأ إلى العنف ولكني أريد منك (. .) أن تتسلح بالوعي وأن تعمل على إحباط هذه المخططات [المسيحية] بكل الطرق والوسائل المشروعة»[٥٩]

لم تكن الرسالة التي تعادي المسيحية في هذا النص السعودي الرسمي مجهولة؛ فهي تظهر، بالفعل، مخترقةً الدوائر الدينية. وبعد سنوات تساءل خالد محمد باطرفي، وهو سعودي كاتب عمود في يومية *الحياة* اللندنية، في مقالة صحافية: «لماذا نكره أهل الكتاب؟» إذ شكا باطرفي من كون خطيب جمعة يعرفه دعا إلى «هلاك المسيحيين واليهود». ولمّا واجه باطرفي الداعية قائلاً إن الإسلام يحمي «أهل الكتاب»، رد الخطيب إن «هؤلاء ليسوا أهل الكتاب الذين كانوا في عهد النبي». فهذه الديانات تميل، كما قال الداعية، ميولات شركية

اليوم- منها الثالوث المقدس مثلاً- ومن ثم لم تعد ديانات توحيدية.[٦٠]

والملاحظ في هذا النص السعودي الرسمي- بما في ذلك معاداته أمريكا وإحالاته المتكررة على الحروب الصليبية المستمرة- هو مدى ألفته وانتشاره. ذلك أن أسامة بن لادن وأتباعه في القاعدة روجوا، خلال السنوات الأخيرة، العديد من هذه التيمات ذاتها في حوارات وأحكام دينية. بيد أن هذا الكتاب نشر قبل أربع وعشرين سنة من الهجوم على مركز التجارة العالمي والبنتاغون. ولم يكن أسامة بن لادن قد وطئ بعد أرض أفغانستان وكان مجرد طالب جامعي في العربية السعودية. لكن يبدو أن الحجج التي رددتها الدوائر الوهابية النشيطة في المملكة السعودية أواخر السبعينيات ساعدت على تمهيد الطريق أمام القفزة إلى الإرهاب الذي شهده العالم بعد عقدين من الزمن.

الفصل السابع

الوهابية تؤكد ذاتها من جديد

في يوم آذار/ ٢٥ مارس ١٩٧٥ كان الملك فيصل يستقبل وفداً كان من بينه وزير النفط الكويتي عبد المطلب الكاظمي. فجأة اقتحم الغرفةَ ابن أخ الملك الأمير فيصل بن مساعد، وأخرج مسدساً، ثم قتل عمّه ملك العربية السعودية. بعد هذا الاغتيال، أصبح ولي العهد خالد شقيق فيصل الملك الجديد. وعيّن فهد المتمرس، الذي كان وزير التعليم ثم وزير الداخلية، ولياً للعهد، بينما عيّن عبدالله، قائد الحرس الوطني السعودي، نائباً ثانياً للوزير الأول، ما جعله ثانياً في ترتيب اعتلاء العرش[١].

وإلى اليوم، ظلت دوافع ابن مساعد لقتل الملك غامضة. إذ أشار كثيرون إلى أنه كان خطيب ابنة الملك سعود المخلوع، وأن والدته تنتمي إلى آل الرشيد من شمال الجزيرة العربية، الذين هزمهم ابن سعود. لكن هذا التفسير لم يكن كافياً. وربط آخرون الاغتيال بشغب المتدينين سنة ١٩٦٥، الذي حدث قبل ذلك بنحو عقد؛ أي أثناء الاحتجاج ضد افتتاح المحطة التلفزيونية السعودية الأولى، حين قتلت الأجهزة الأمنية السعودية شقيق ابن مساعد الأصولي خالد بن مساعد. وأنحى والدهما على أخيه الملك فيصل باللائمة على هذا القتل[٢]

وفي وقت لاحق، سافر فيصل بن مساعد إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أسدل شعره وأدمن المخدرات. واعتقل في كولورادو وبحوزته مخدر (LSD). وسرعان ما رحل إلى بلده بسبب إغراقه في مظاهر الغرب. لكنه اعتنق بعد ذلك تدريجياً شكلاً متطرفاً من الوهابية، وكان ذلك في أوائل السبعينيات، والتحق بجماعة تتشبه في لباسها بالإخوان المسلمين في العشرينيات، حيث كانوا يعفون عن اللحى، ويلبسون عمائم بيضاء وزياً أبيض قصيراً[٣] وربما كان اغتيال الملك فيصل انتقاماً بعدياً، لكنه ربما اكتسى بُعداً دينياً.

وقد استجوبت أجهزة الأمن السعودية فيصل بن مساعد والعديد من آل الرشيد. لكنها لم تستطع أبداً تحديد دوافع القاتل الحقيقية[٤] وفي نهاية المطاف ضُرب عنقه في الرياض أمام حشد من عشرين ألف نسمة[٥]

كان الحدث بمثابة ذكرى صادمة من حيث إن التهديدات الموجهة إلى العائلة الملكية السعودية لم تأت من البلدان الأخرى، ولا حتى من خارج العائلة. ربما كان فيصل بن مساعد، كما زعم البعض، مجرد مختلّ، لكن حجة أن الدين حفز القاتل كانت حجة مقبولة على الأقل. وبالفعل، ستتحدى المؤسسةُ الوهابية الدينية النظامَ السعودي تحدياً واضحاً، بعد مرور أربع سنوات على الاغتيال.

تحدّ داخلي جديد

سجّل يوم ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩ بداية القرن الإسلامي الخامس عشر. ففي الصباح الباكر من ذلك اليوم، وفي فجر قرن إسلامي جديد، أحكم المئات من الرجال المسلحين السيطرة على المسجد الحرام في مكة، محتجزين مئات الرهائن من الحجاج، وقاد

الهجوم على أماكن الإسلام المقدسة سعوديان هما: جهيمان بن محمد العتيبي ومحمد بن عبدالله القحطاني. وقد أعلن القحطاني نفسه المهدي المنتظر في صباح استيلائهما على الحرم المكي.

اختلف العتيبي والقحطاني عن زعماء المعارضة السعودية المعتادة. ذلك أنهما لم يستلهما أي قوة خارجية، مثلما فعل الناصريون السعوديون قبل ذلك بعشر سنوات، رغم أن بعض أتباعهما كانوا من المصريين واليمنيين. ولم يمثلا أقلية إثنية أو دينية مضطهدة، كالشيعة السعوديين في الإقليم الشمالي، أو العمال الأجانب في الصناعة النفطية السعودية. بل إنهما لم ينتميا إلى منطقة محرومة جغرافياً كإقليم العسير القريب من الحدود اليمنية، أو إلى فصيل محبط سياسياً، كالحجازيين الذين استاؤوا من حكم النجديين الأكثر تخلفاً.

لا بل كان هذان الرجلان نتاج المؤسسات السعودية الرسمية. إذ درس العتيبي والقحطاني على يد القيادة الدينية السائدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، حيث حضر الأول دروس الشيخ عبد العزيز بن باز، العميد المحافظ الذي سيصبح في ما بعد المفتي العام في العربية السعودية. وكان العتيبي، على الخصوص، يحظى بثقة وهابية قوية؛ ذلك أنه ينتمي إلى عائلة مقاتل إخواني سعودي قتلته قوات ابن سعود في معركة السبلة سنة ١٩٢٩، رغم أن فرع العتيبي داخل القبيلة ظل وفياً للعاهل السعودي[٦] فضلاً عن ذاك، خدم ثمانية عشر عاماً في الحرس الوطني السعودي، وهي القوة الأمنية المحلية التي نشأت من رحم الإخوان، حيث كان تحت قيادة الأمير عبدالله بن عبد العزيز.

رأى العتيبي والقحطاني في التحديث المتسارع في المجتمع السعودي ابتعادا عن الإسلام الحق، وتحدت حركتهما أوراق الاعتماد

الإسلامية للنظام السعودي. والملاحظ أن للعتيبي والقحطاني حلفاء داخل النخبة الوهابية، رغم كونهما زعيمين في حركة معارضة. فبعد سنة من الهجوم على الحرم المكي، استدعت السلطات السعودية في وزارة الداخلية الشيخ عبد العزيز بن باز، بعد استجواب العتيبي (إلى جانب ثمانية وتسعين مشتبه بهم)، بغية إبداء رأيه في المجموعة. لكن الشيخ رفض وصف أفعال مجموعة تلميذه السابق بالخونة[٧] في الواقع، التمس ابن باز وعلماء محافظون آخرون الرأفة بتنظيم العتيبي والقحطاني[٨] ووفق العتيبي، اعتبر الشيخ ابن باز الحجج الواردة في كتيّب المجموعة حججاً مبنية جيداً، حتى وهو يعترض على انتقاداتها الحكومة السعودية[٩] بل إن زعيماً دينياً سعودياً آخر، هو الشيخ صالح بن محمد بن اللحيدان، شجع هذا التحرك[١٠]

لا يمكن إنكار أن للوهابية التقليدية أثراً عميقاً في فكر العتيبي والقحطاني؛ حتى إنهما أطلقا بالفعل اسم الإخوان على هذه الحركة. فبقدر ما كانا يتفاعلان خاصة مع آثار التحديث جسّدت حركتهما في الواقع الشكاوى السعودية القديمة. ذلك أن تذمر العتيبي من العربية السعودية كان أشبه بتذمر أسلافه الوهابيين، حيث كان الإخوان الأوائل قد احتجوا على علاقات ابن سعود بالبريطانيين الكفار، ودعوا إلى مواصلة الجهاد الوهابي حتى الحدود الهاشمية لشرق الأردن والعراق. وركزت حركة إخوان العتيبي آنئذ على قضايا مماثلة. إذ اعتقد أن الحكومات الإسلامية والعلماء كانوا قريبين جداً من المسيحيين: «هل يمكن إعلان الجهاد على الدول الكافرة بينما نحتفظ بسفرائنا داخل ترابها، ونبقي على دبلوماسييهم وخبرائهم وأساتذتهم في بلداننا؟ كيف ندعو إلى الإسلام ونحن نتخذ المسيحيين أساتذة؟ كيف نقبل أن نرى الأعلام المسيحية إلى جانب الأعلام الإسلامية؟»[١١]

غير أن هذا الموقف لم يعكس موقفاً إخوانياً قديماً فحسب، بل إنه يعود إلى آباء الوهابية المؤسسين. إذ لم يكن بمقدور المسلمين، كما يقول الشيخ سليمان بن عبدالله حفيد ابن عبد الوهاب، إجراء أي اتصال مهما كان بالكفار؛ فـ«الوظيفة، والاستشارات، والثقة، والزيارة، والنصيحة، والصداقة، والتقليد، والمودة، والمعاشرة»- كل هذه الأمور كانت محرمة[١٢]

هكذا، وبعد استيلاء جماعة العتيبي على الحرم المكي، عانى العلماء الوهابيون السعوديون مشكلة عويصة في التعامل مع حركة الإخوان. إذ استفتى الملك خالد العلماء، لكن إصدار الفتوى استغرق منهم أربعة أيام. وتجنبت الفتوى، التي قدّمت في آخر المطاف، إصدار أحكام حول إيديولوجيا العتيبي، مركزة عوض ذلك على الاستيلاء على المسجد نفسه[١٣] بيد أن فتوى العلماء رخّصت للقوات السعودية قتلَ جماعة العتيبي إذا لم تسلّم نفسها. فاقتحم السعوديون المسجد المكي، تدعمهم فرق أجنبية، وقهروا آخر رجال العتيبي في نهاية المطاف يوم ٣ كانون الأول/ ديسمبر. واستسلم العتيبي نفسه، فأعدم هو وأتباعه في النهاية.

لكن أزمة السعوديين لم تنتهِ، فقد زعزع هذا التمرّد استقرار المؤسسة السعودية على نحو خطير، من حيث إن جماعة العتيبي استهدفت العائلة الملكية السعودية بسبب فسادها. ولم يكن متمردو العتيبي يشكلون التهديد الوحيد أمام أوراق الاعتماد الوهابية في الدولة السعودية. ففي الواقع عكست انتقادات العتيبي الجذرية ارتجاجاً أعمّ ضد آثار الازدهار النفطي في المجتمع السعودي خلال السبعينيات. إذ نتيجة لهذا الازدهار تدفّق الغربيون على المملكة السعودية، مهددين نمط الحياة الوهابي المحافظ، حيث برزت من جديد المعركة بين قوى

التحديث والمحافظة، التي كانت دائماً جزءاً من التاريخ السعودي.

فضلاً عن ذاك، وقبل يوم من الهجوم على المسجد المكي، احتفل الشيعة السعوديون، الذين يشكلون ٤٠ إلى ٥٠ في المئة من الإقليم الشرقي السعودي الغني بالنفط، بعاشوراء علناً تخليداً لذكرى وفاة الحسين حفيد النبي محمد[١٤] إذ يحتفل الشيعة في إيران ودول عربية أخرى بعاشوراء سنوياً، لكن هذا الاحتفال ممنوع كلياً في العربية السعودية التي عكست قوانينها المعادية للشيعة آراء فقهائها الوهابيين. هكذا كان هؤلاء الشيعة يتحدون المؤسسة الوهابية السعودية بشكل مباشر. فثار الشغب عندما حاولت الشرطة السعودية تفريق الشيعة، وتواصل ثلاثة أيام، كما خرّبت منشآت النفط.

بل إن حل أزمة المسجد المكي خلقت مشكلات للقيادة السعودية. إذ كانت ثمة تقارير رائجة على نطاق واسع تفيد أن كومندوسات فرنسية ساعدت على التغلب على جماعة العتيبي. فهل سمحت العائلة الملكية السعودية لغير المسلمين بالدخول إلى الحرم الأقدس في الإسلام؟

كان السعوديون، مع طرح مثل هذا السؤال ومواجهة هذا النقد، في حاجة إلى دعم مشروعيتهم كزعماء للإسلام. باختصار، كان عليهم الانكباب على المصالح الدينية الخاصة بالعلماء، الذين أكدوا حاجة السعوديين إليهم لحل مشكلة الإخوان عسكرياً، حتى وهم يرفضون وصف إيديولوجيا العتيبي بالهرطقة. وهكذا وسّع الملك خالد وولي العهد الأمير فهد سلطة العلماء في «الإشراف على طابع المملكة الوهابي»[١٥]

بعد الهجوم على المسجد بات من المهم بالنسبة للعلماء أنفسهم القيام بدور أكبر في الشؤون السعودية، لأن مؤاخذة العتيبي على النظام

السعودي تضمّنت كون العلماء سمحوا بالفساد داخل الدولة السعودية[١٦]

وقد وصف سليمان الهتلان، وهو صحافي سعودي بجامعة «هارفرد»، انعكاسات الهجوم على المسجد المكي سنة ١٩٧٩ بالقول:

> رغم أن الحكومة قتلت المتطرفين فإنها ما لبثت أن تبنت جوهر عقيدتهم. فبعد حادث مكة بدأت السلطات السعودية تفرض قوانين صارمة وتافهة ماحقة. فمنعت النساء من الظهور في التلفزيون، ولم تسمح بعزف الموسيقى في الإعلام السعودي. وأغلقت الدكاكين والمراكز التجارية خلال الصلوات الخمس. ومنحت أفراد الشرطة الدينية سلطة أكبر للتدخل في حيوات الناس الشخصية. وقامت الحكومة السعودية بكل هذه الأمور لإرضاء الإسلاميين، وربما خوفاً من تهديدات متطرفة إضافية[١٧]

بالفعل، منحت القيادةُ السعودية العلماءَ سلطة أكبر في تدبير شؤون المملكة، حيث دعمت الحكومة مطالب العلماء بمراقبة القوانين الوهابية مراقبة أشدّ صرامة[١٨] وطردت العائلة الملكية مدير الأمن العام سنة ١٩٨٠ تثميناً لسلطة العلماء المتزايدة، واستبدلت به عضواً من عائلة آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب[١٩] كما استُبْدِل حاكم مكة وقتذاك.

وازداد تأثير الشيخ عبد العزيز بن باز في ظل المناخ الديني الصارم الذي استقر بعد سنة ١٩٧٩ إذ كان ابن باز أحد العلماء الثلاثين الذين صادقوا على العمل العسكري الرامي إلى سحق هذه الجماعة، لذلك لم يشكك في أن يخرج السعوديون سالمين من محنة الصراع على المسجد المكي. غير أنه كان، في الآن ذاته، مصدر الإلهام الديني

للعتيبي، وكذا لعبدالله عزام الذي سيطوّر، كما سبقت الإشارة، عقيدة جهادية جديدة خلال الصراع الأفغاني، حيث سينقلها إلى تلميذه أسامة بن لادن. وسيتبين أن الشيخ ابن باز وجه بارز في تطوير الوهابية وتوجيهها خلال العقد ونصف العقد الموالي.

ولد ابن باز سنة ١٩٠٩ في الرياض. وفي سن السادسة أصيب بمرض في العين وفقد نعمة البصر. تلقّى تعليمه الإسلامي من خلف ابن عبد الوهاب، بمن في ذلك آخر المفتين العامين في العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الذي درّسه طيلة عشر سنوات[٢٠] عمل قاضياً، ودرّس في ما بعد الفقه الإسلامي في الرياض، إلى أن أصبح سنة ١٩٦١ نائب عميد الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، التي بثت الوهابية وعقائد الإخوان المسلمين في طلبة من العالم الإسلامي كله. وبعد تسع سنوات أصبح عميداً. وفي سنة ١٩٧٤ عُيّن رئيس الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد وهو الجهاز الحكومي السعودي الذي يراقب فتاوى الفقهاء ومحتويات خطب الجمعة.

كانت آراء الشيخ ابن باز الدينية محافظة جداً. ففي سنة ١٩٦٦ كتب مقالة نشرت في صحيفتين، مدعياً أن القرآن يقول إن الشمس تدور حول الأرض، لا العكس[٢١] ومع ذلك تمتع بسلطة أخلاقية هائلة داخل العربية السعودية. ومن سمات كتاباته عداؤه الكبير للمسيحية واليهودية، حيث كتب مفسراً: «قد دلّ الكتاب والسنّة وإجماع المسلمين على أنه يجب على المسلمين أن يعادوا الكافرين من اليهود والنصارى وسائر المشركين». وأضاف أن آيات كثيرة «تدلّ دلالة صريحة على وجوب بغض الكفار من اليهود والنصارى وسائر المشركين»، وأن هذا العداء يجب أن يتواصل «حتى يؤمنوا بالله

وحده»[٢٢] وشدد في مناسبة أخرى على وجوب أن يكون للإسلام امتداد كوني حتى يحارب النشاط التبشيري المسيحي في شرق آسيا[٢٣] وكانت لغته غامضة إلى حد ما إزاء ما إذا كان المسيحيون واليهود مجرد كفار أم ينتمون إلى فئة دنيا من المشركين.

وشدد الشيخ ابن باز تشديداً خاصاً على أهمية الجهاد، حيث كتب أن «الجهاد في سبيل الله من أفضل القُربات»[٢٤] ففي نظر ابن باز يمكن للمسلمين من خلال مجاهدة الكفار رفع العراقيل كلها ونشر الدعوة في العالم كله. وبرّر ضمنياً الجهاد بالسيف باعتباره أداة مهمة لنشر الإسلام، مستشهداً بالفتوحات الإسلامية التاريخية[٢٥] باختصار، كانت سلطة أعلى السلطات الرسمية في العربية السعودية تردّد الكتابات الراديكالية لعبدالله عزام وأتباعه الذين كانوا يقاومون السوفيات في أفغانستان.

مثّل تفكير ابن باز في الجهاد تغيراً جذرياً في العقيدة. إذ لا يمكن إعلان الجهاد، بحسب المقاربة السابقة، إلا عن طريق زعيم آمر لكل المسلمين، أشبه بخليفة جديد في الإسلام السنّي. هذا الأمر يرجئ فكرة الجهاد إلى المستقبل البعيد، جاعلاً منها مفهوماً أخروياً تقريباً. وفي الآن ذاته سينشر الدعاة والوعاظ الإسلام. لكن ابن باز قلب النظام، وهو يأتي بالجهاد من المستقبل إلى الحاضر، حتى يفتح الجهادُ البابَ أمام الدعوة، بدل أن تسبق الدعوةُ الجهادَ النهائي.

ورغم أن الشيخ ابن باز أدرك أن الجهاد يعني الحرب- المعركة المقدسة-، فإنه أعلن أيضاً نوعاً جديداً من الجهاد: الجهاد بالمال[٢٦] وسيكون لهذه الفكرة عواقب وخيمة، لأن المحسنين السعوديين تبنّوا هذه المقاربة ودعموا القضايا الوهابية في العالم خلال الثمانينيات والتسعينيات.

التحديات الخارجية:

سقوط الشاه والحرب الإيرانية- العراقية

واجهت العربية السعودية تهديدات خارجية أيضاً، حيث ارتجّت المملكة السعودية وأسسها الوهابية بثلاثة تطورات متصلة حدثت خلال السبعينيات والثمانينيات.

حدث أول تحدٍّ قبل الاستيلاء على الحرم المكي سنة ١٩٧٩ إذ أطاح نظام إسلامي شيعي ثوري بشاه إيران مما أصاب القيادة السعودية بالذهول. ذلك أن النخب الإيرانية بقيادة آية الله الخميني أبدت رغبة أكبر في تحدي العربية السعودية باعتبارها زعيم العالم الإسلامي، لأنها عرفت كيف ينظر الوهابيون إلى الإسلام الشيعي. فباتت العربية السعودية في حاجة إلى الرد عملياً دفاعاً عن إسلامها الخاص. ولم يزد احتلال العراق إيرانَ في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ الصدع بين الدول العربية السنّية والفقهاء الشيعة في إيران إلا تشققاً، حيث دعمت العربية السعودية جهد الحرب العراقية، جاعلة من إيران الثورية خصماً عسكرياً استراتيجياً وإيديولوجياً في آن واحد.

وبرزت ضغوط جديدة على العربية السعودية في مجرى الدبلوماسية العربية- الإسرائيلية، وأجبر قيام إيران الثورية السعوديين على تغيير موقفهم داخل العالم العربي. إذ اتضح أن السعوديين كانوا في حاجة إلى دعم توافق جديد بين الدول العربية ضد التهديد الإيراني، ومن ثم لم يستطيعوا تحمّل الانشقاقات في العالم العربي حول القضايا العربية- الإسرائيلية. فعلى سبيل المثال، دعم الملك خالد وولي العهد الأمير فهد شريكهما الاستراتيجي مصر في البداية، في مفاوضاتها مع إسرائيل. وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٧٥، بُعيد اغتيال فيصل، دعما مصر في مفاوضاتها حول اتفاقية سيناء الثانية، التي

انسحبت بموجبها القوات الإسرائيلية من معبري الجدي ومتلة الاستراتيجيين في شبه جزيرة سيناء. وبينما اعترضت سوريا على اتفاقية سيناء الثانية، خوفاً من أن تعقد مصر سلاماً منفصلاً مع إسرائيل في نهاية المطاف، دعم السعوديون الاتفاقية التي موّلها الأمريكيون. ففي الواقع عملت العربية السعودية على تجاوز الاعتراض السوري. وعندما اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية سنة ١٩٧٦ تقدمت العربيةُ السعوديةُ الدولَ العربية في الاعتراف بسلطة سوريا على لبنان آملة إقناع السوريين بالقبول بتفاهم مصر الجديد مع إسرائيل[٢٧]

لكن الاعتراض على مصر صار قوياً جداً داخل العالم العربي في سنة ١٩٧٧ عندما زار الرئيس المصري أنور السادات القدس؛ وفي سنة ١٩٧٩ عندما وقعت مصر بالفعل اتفاقية سلام مع إسرائيل. إذ لم تقوَ الدبلوماسية السعودية، داخل شرق أوسط أكثر راديكالية، على جَسرِ الهوّة بين مصر من جهة، ودول كليبيا وسوريا والعراق من جهة ثانية. كما انعكست هذه الانشقاقات داخل العائلة الملكية السعودية، ذلك أن ولي العهد الأمير فهد كان لا يزال يأمل مساعدة المصريين، بينما تعاطف الأمير عبدالله أكثر مع السوريين. ومن الملحوظ أن كمال أدهم، مهندس التقارب السعودي- المصري في عهد الملك فيصل، طُرد من منصبه رئيسا للمخابرات السعودية وقتئذ.

لا غرابة إذن أن تلتحق العربية السعودية، بعد توقيع اتفاق السلام، بتحالف الدول العربية الست عشرة لقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر السادات، وأن توقف دعمها الاقتصادي أيضاً. إذ رغب السعوديون عن الذهاب إلى هذا الحد، لكن ضغوطاً إقليمية تعاظمت خلال مؤتمر عربي في بغداد. فرئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، الذي كان قد تلقّى دعماً مالياً سخياً من الملك فيصل، هاجم

آنئذ سعود الفيصل، وزير الخارجية الجديد، قائلاً إنه ألحق «العار بوالده»[٢٨] ففي مناخ بغداد شعر عرفات أنه قادر على تهديد مناصريه السعوديين بشكل علني: «لا ترغمونا على أن نصبح عصابة من القتلة»[٢٩]

كان على العربية السعودية النظر في عوامل أخرى في علاقاتها الدولية. ففي ذلك الوقت كانت المملكة السعودية تسعى إلى تحديث قدراتها الدفاعية الجوية بالحصول على مقاتلات F-15 الأمريكية الجديدة وطائرات الإنذار المبكر «أواكس». لكن الصفقة أثارت جدلاً واسعاً في الولايات المتحدة الأمريكية (حيث لن تحصل على موافقة الكونغرس إلا بعد جهود بذلها اللوبي المناصر للعربية السعودية طيلة شهور). ففي سنة ١٩٧٨ باعت إدارة «كارتر» العربية السعودية اثنين وستين مقاتلة F-15، مبينة أن الصفقة ستُليّن السياسة السعودية تجاه إسرائيل. لكن السعوديين اعترضوا لاحقاً، بالطبع، على اتفاق السلام الإسرائيلي- المصري. وباتت مبادرة سلام سعودية جديدة ضرورية، إذا رغبوا في أن يصادق الكونغرس على صفقة الأسلحة الجديدة.

وفي ٧ آب/ أغسطس ١٩٨١ أصدر ولي العهد الأمير فهد مخططاً من ثمان نقاط يروم وضع استراتيجية سلام عربية بديلة. ورغم أن مخطط فهد لم يدعم السلام المصري- الإسرائيلي فقد اقترح مقاربة مختلفة تماماً كانت غير قابلة للتطبيق من حيث الجوهر. إذ وضعت مبادئ غامضة لتسوية سلمية من دون أن تعطي أي تفاصيل عن كيفية تنفيذ هذه المبادئ. وقد سبق للمفاوضين الإسرائيليين والمصريين أن رسموا مخططاً مفصّلاً لتنفيذ سلام عربي- إسرائيلي، حيث لاحظ وزير الخارجية الأمريكي «ألكسندر هايغ»، في ما بعد، أن مخطط فهد «لم يمتلك أي تصور عن سيرورة التفاوض العربي- الإسرائيلي

المباشر»[٣٠] فضلاً عن ذلك، لم يصرّح المخطط السعودي بالدعوة إلى السلام مع إسرائيل، لكنه ارتأى بالأحرى سلاماً لـ«كل دول المنطقة»، مما أدّى إلى تقديم تصريحات سعودية متناقضة بشأن استعداد الرياض للاعتراف بالدولة اليهودية، فيما واصل فهد دعم منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها ممثل المصالح الفلسطينية رغم رفضها التخلي عن الإرهاب.

باختصار، لم يكن السعوديون مستعدين للتزحزح عن الموقف العربي المشترك، مما دلّ على أن سياستهم ظلّت رهينة الخط العربي الراديكالي. إذ غيرت الإطاحة بالشاه وقيام النظام الإيراني- ومعاداة الفقهاء الشيعة الوهابية- طريقة اشتغال السعوديين. فلم تعد العربية السعودية، مع هذه القوة الجديدة داخل العالم الإسلامي، تخشى دعم إرساء السلام العربي- الإسلامي، إذا رفضت البلدان العربية الأخرى الشروع في مسار مصالحة مع إسرائيل. وسرعان ما فشل مخطط فهد - سنة ١٩٨٢، وتبنت الدول العربية نسخة مخففة من المخطط[٣١]- ثم ركزت العربية السعودية ثانية طاقاتها الدبلوماسية على تهديدات آنية.

وارتبط التحدي العام الثاني الذي واجهته العربية السعودية بسقوط شاه إيران ارتباطاً مباشرة. هذا التحدي يكمن في غزو العراق إيران يوم ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ ففي اتفاق الجزائر سنة ١٩٧٥ أذعن صدّام حسين، نائب رئيس العراق آنذاك، لمطالب إيران الترابية على طول حدود البلدين المشتركة المحاذية لمجرى نهر شط العرب، مقابل توقف إيران عن دعم التمرد الكردي ضد بغداد شمال العراق. لكن ما أن أطيح بشاه إيران في شباط/ فبراير ١٩٧٩ حتى تغير ميزان القوى بين الدولتين. إذ طهّر آية الله الخميني قوات الجيش الإيراني من آلاف الضباط الذين يشتبه في مناصرتهم الملك، وأخفق في الولوج إلى قطع

الغيار الأمريكية التي تحتاج إليها القوات الجوية الإيرانية، فاستغل صدام حسين، الذي أصبح رئيس العراق سنة ١٩٧٩، هذا الضعف الإيراني الجديد وضرب باتفاق الجزائر عرض الحائط، وأرسل جيشه إلى إيران. ومنذ ذلك الحين بات هذا الصراع بين جاري العربية السعودية شغلها الشاغل.

من الطبيعي أن تنخرط العربية السعودية في علاقة وثيقة مع العراق ضد إيران الثورية. لكن العلاقة السعودية- العراقية لم تكن مسألة بسيطة. ذلك أن العراق ظل يقوده منذ سنة ١٩٦٨ حزب البعث، وهو حزب سياسي عربي قومي أسسه في البداية عربي مسيحي سوري هو ميشيل عفلق. وكان حزب البعث يعارض [حكم] الدين، ولم يتعاطف مع الإسلام [السياسي]، ومن ثم كان الحزب الملائم لقيادة المجتمعات العربية المتعددة الأديان كسوريا والعراق اللذين يتوفران على ساكنة مسلمة غير سنّية، وعلى حضور مسيحي مهم أيضاً. وانجذبت الأقليات العربية إلى حركات علمانية من هذا النوع تمكنت أن تشارك فيها مشاركة كاملة دون أن تكون مسلمة. كما كان حزب البعث مؤيداً للاتحاد السوفياتي. فلا غرابة، إذن، أن يصف الشيخ ابن باز حزب البعث بـ«حزب الشيطان»[٣٢]

لقد واجهت الدوائر الدينية السعودية مشكلات جدية، خاصة مع حزب البعث السوري في عهد الرئيس حافظ الأسد، الذي تولّى السلطة سنة ١٩٧١ إذ كان الأسد علوياً. والعلويون أقلية طائفية سورية مؤثرة تفرعت عن الإسلام الشيعي، حيث أنزلوا عليّاً صهر الرسول منزلة رفيعة، مما جعلهم هراطقة في نظر أغلب المسلمين. وعلى غرار باقي زعماء البعث، الذين سعوا إلى علمنة المجتمع السوري، اصطدم الأسد بالإخوان المسلمين، فقتل عشرين ألفاً من

أعضائهم في مذبحة حماة سنة ١٩٨٢ ولجأ العديد من الناجين إلى العربية السعودية.

وفي المقابل، كان العراقي صدّام حسين مسلماً سنّياً يصدّ التهديد الشيعي الحركي، حيث لم يمنع شيعة إيران من غزو العالم العربي السني فحسب، بل الأهم أنه اضطهد الأغلبية الشيعية في بلده (إذ شكل الشيعة حوالي ٦٥ في المئة من ساكنة العراق)[٣٣] ومن هنا استطاع السعوديون مصالحة وهابيتهم مع دعم نظام البعث العراقي.

لقد مثّل انخراط العربية السعودية في الحرب الإيرانية- العراقية تحولاً مهماً آخر، حيث لم تنحصر حرب إيران والعراق على العالم العربي، لأن إيران إثنية فارسية لا عربية. إذ عكس انشغال السعوديين تحولاً في بؤرة سياستهم الخارجية- من العالم العربي إلى العالم الإسلامي الأوسع. وحتى قبل اندلاع حرب إيران والعراق كان السعوديون قد بدؤوا في الواقع ينظرون إلى الأمم الإسلامية الأخرى من أجل الدعم. فعلى سبيل المثال، منحت العربية السعودية سنة ١٩٧٥ دعماً بقيمة ٩٤٨,٩ مليون دولار لحليفتها مصر- أي بما يزيد عن نصف كل المساعدات السعودية الخارجية المقدمة للبلدان الإسلامية. لكن بعد سنة فقط انخفضت المساعدات السعودية لمصر إلى ٤٩٦,٨ مليون دولار، أو إلى نحو ربع إجمالي المساعدات المقدمة للبلدان الإسلامية؛ بينما رفع السعوديون مساعداتهم لباكستان على نحو واضح، من ٧٤,٨ مليون دولار إلى ٥١٤,٨ مليون دولار سنة ١٩٧٥[٣٤] فأصبحت باكستان حليفاً سعودياً استراتيجياً خلال الستينيات، عندما تحالف الملك فيصل مع أمم إسلامية أخرى لمواجهة حركة عبد الناصر القومية. أما الآن، فما أن حاول السعوديون مواجهة الرسالة الإسلامية الراديكالية لإيران الثورية، حتى باتت

باكستان- وهي دولة مسلمة سنّية تجاور إيران- حليفاً أهمّ.

وبالفعل، جسّدت علاقة العربية السعودية مع باكستان نموذجاً لكيفية تشكيل السعوديين تحالفات في هذا العهد الجديد. إذ استغل السعوديون الدعم السياسي والمالي الذي قدموه، منذ زمن الملك سعود، للجماعة الإسلامية، أكبر أحزاب باكستان الإسلامية(٣٥) ذلك أن المال السعودي شق طريقه نحو الشبكات التربوية للجماعة الإسلامية، التي أصبحت أيضاً نشيطة في رابطة العالم الإسلامي الخاضعة للهيمنة السعودية(٣٦) وانتهت بعض فصائل الجماعة الإسلامية إلى اعتناق الوهابية(٣٧)

بل إن العربية السعودية انجذبت إلى السياسة الداخلية الباكستانية، بحيث توجّه الوزير الأول ذو الفقار علي بوتو إلى السفير السعودي في باكستان لكي تمارس العربية السعودية «تأثيرها الديني والمالي» على المعارضة الباكستانية، التي تضمّنت هذه الجماعات الإسلامية(٣٨) فوافق ولي العهد الأمير فهد على الدور السعودي الجديد(٣٩)

هكذا أصبحت باكستان نموذجاً لكيفية استعمال شبكات العربية السعودية الإسلامية في الخارج قصد خدمة المصالح الأمنية الوطنية للدولة السعودية.

ورغم كل التغيرات التي حدثت في السياسة الخارجية السعودية فإن تغيرات أخرى سوف تحدث في عهد ملك جديد، فقد توفي الملك خالد في حزيران/ يونيو ١٩٨٢، وأصبح ولي العهد الأمير فهد العاهل الجديد. وترقّى أخوه غير الشقيق عبدالله إلى مرتبة ولي العهد. وأصبح شقيق فهد الأمير سلطان، وزير الدفاع السعودي، نائباً ثانياً للوزير الأول، مما جعله تالياً في خط التربع على العرش. ولما كان سلطان قريباً جداً من شقيقه الملك فهد أصبح حليفاً أساسياً داخل

العائلة الملكية، إذ كان فهد وسلطان معاً ولدي ابن سعود وحصّة بنت أحمد السديري، التي حافظت على أبنائها السبعة عصبة متراصّة داخل العائلة الملكية. وقد استطاع الملك فهد أن يستخدم هذا الجماعة كلوبيّ في سياساته.

بدايات البناء الأمريكي

ربما كان فهد، أثناء ولاية العهد، أكثر الأمراء الكبار مناصرة لأمريكا.[٤٠] فلما أصبح ملكاً كان عليه أن يواجه وقائع استراتيجية في الشرق الأوسط ستتطلب منه نسج علاقات أكثر حميمية مع الولايات المتحدة الأمريكية، وتكثيف الحضور الأمريكي داخل المملكة- وهذه طبعاً خطوة مهمة لمملكة تمتد جذورها في المنظور الديني الوهابي.

ومن المدهش أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تمتلك قوات عسكرية واسعة في شبه الجزيرة العربية مماثلة لقواعدها في أوروبا والمحيط الهادئ الغربي، رغم وجود امتياز «أرامكو» النفطي الضخم. إذ لم تنتشر القوات الجوية العسكرية الأمريكية دولياً إلا بأعداد قليلة في الماضي. فكان هذا الأمر، إلى حد ما، نتيجة ترتيب أمريكي- بريطاني موروث عن الحرب العالمية الثانية، حيث أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية بموجبه القوة الاستراتيجية الأولى في أوروبا والشرق الأقصى، بينما غطت بريطانيا الشرق الأوسط والمحيط الهندي[٤١] هذا التقسيم الأساسي ظل قائماً خلال الحرب الباردة، حتى عندما انسحبت بريطانيا، في مراحل معيّنة، من دورها وراء البحار: من قناة السويس، وعدن، وأخيراً من الخليج الفارسي.

ثم اهتمت الحكومة الأمريكية، خلال السبعينيات، بـ«الركنين التوأمين» في الخليج الفارسي- المملكة السعودية وإيران الشاه- قصد

الحفاظ على استقرار المنطقة. فعندما سحبت بريطانيا آخر قواتها من الخليج سنة ١٩٧٢ كانت الولايات المتحدة تنسحب من فيتنام، موضحة أنها لم تعد قادرة على أن تكون شرطي العالم، حيث ستتحمل القوى الإقليمية مسؤولية أكبر في تحقيق الأمن العالمي.

غير أنه لم يبق مع الإطاحة بالشاه سوى الركن السعودي فأدركت الولايات المتحدة الأمريكية أنها لن تستطيع الاعتماد على العربية السعودية وحدها. ففي سنة ١٩٧٩ أنشأت الولايات المتحدة الأمريكية قوة الانتشار السريع ذات المهمة المشتركة والمكوّنة من الوحدات الجوية والبرية والبحرية، بغية إبراز النفوذ الأمريكي في الخليج الفارسي. ومع حلول سنة ١٩٨٣ أقامت الولايات المتحدة الأمريكية قيادة موحدة جديدة في المنطقة، هي القيادة المركزية الأمريكية، وهي شبيهة بالقيادتين الموحدتين التي وجدت طيلة سنوات في ساحات المعارك الأخرى: القيادة الأوروبية الأمريكية (USEUCOM) بالنسبة لأوروبا والقيادة الأمريكية في المحيط الهادئ (USPACOM) بالنسبة للشرق الأقصى. وفي السنوات الموالية ستخضع القيادة الأوروبية الأمريكية لقيادة الجنرالات الأمريكيين أمثال «نورمان شفارزكوف»، و«أنتوني زيني»، و«تومي فرانكس».

وفي الآن ذاته بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تحديث وتوسيع القوات الجوية العربية السعودية وقواعدها العسكرية. وارتفعت نفقات الدفاع من ٩,٦ مليار دولار سنة ١٩٧٨ إلى ٢٢ مليار دولار سنة ١٩٨٢، لكنها أنفقت ٦٠ إلى ٦٥ في المئة من هذا المبلغ على مشاريع البنى التحتية[٤٢] وخصص فيلق مهندسي الجيش الأمريكي، خلال الفترة الممتدة بين سنتي ١٩٧٢ و١٩٨٨، خمسة مشاريع بناء عسكرية ضخمة، بما في ذلك مدينة الملك خالد العسكرية، بكلفة

إجمالية قدرها ١٤ مليار دولار[٤٣] هذه المنشآت العسكرية الضخمة صُمّمت لتسمح بانتشار القوات الأمريكية السريع، في حال حاول السوفيات غزو إيران من أفغانستان المحتلة حديثاً. وبالفعل جعل الغزو السوفياتي أفغانستان خطط أمريكا لاستعراض النفوذ في الشرق الأوسط مطلباً مستعجلاً. ففي يوم ٢٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٠، أعلن الرئيس «جيمي كارتر» أن «أي محاولة من قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج الفارسي ستعتبر هجوماً على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية وسيصدّ هذا الهجوم بكل الوسائل الضرورية، بما في ذلك القوة العسكرية».

وفي أوروبا والمحيط الهادئ الغربي شيّدت الولايات المتحدة الأمريكية بنى تحتية واسعة من القواعد وقوات الانتشار الأمامية الأمريكية، لكن أي بنية من هذه البنى التحتية لم تكن قائمة في الشرق الأوسط- ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية أغلقت قواعدها في ليبيا والعربية السعودية خلال الستينيات. وشرعت إدارة «كارتر» في جسر الهوة باكتساب الولوج إلى المنشآت العسكرية المنتشرة في العربية السعودية وفي كينيا وعمان والصومال. كما جهزت البوارج الأمريكية مسبقاً بالتجهيزات العسكرية وأبقتها «في الأفق» في انتظار وقوع أزمة عسكرية في شبه الجزيرة العربية.

بيد أن هذه الأمور لم تكن كافية. إذ كانت أمريكا في حاجة إلى حضور بحري وجوي في الخليج الفارسي نفسه، بغية تنفيذ «عقيدة كارتر» الرامية إلى حماية نفط العالم الصناعي. ونتيجة لذلك شهدت الثمانينيات تزايد النفوذ الأمريكي في العربية السعودية، مما سمح في نهاية المطاف بانتشارات أمريكية شاملة في العربية السعودية خلال حرب الخليج سنة ١٩٩١ ومما لا شك فيه أن الحضور الأمريكي

المهم عزز أمن العربية السعودية الخارجي، لكنه طرح أيضاً تحديات داخلية أكبر على النظام السعودي.

وقد دفعت العربية السعودية ودول خليجية أخرى ثمن دعم العراق ضد إيران، حيث هاجمت القوات الجوية الإيرانية، في أوائل الثمانينيات، المنشآت النفطية وناقلات النفط. ففي يوم ٥ حزيران/ يونيو ١٩٨٤ أسقطت طائرة «إف-١٥» تابعة للقوات الجوية الملكية السعودية طائرة إيرانية من نوع «فانتوم إف-٤» على الجانب السعودي من الخليج. وفي مطلع سنة ١٩٨٧ ظلت الزوارق الإيرانية السريعة تهاجم ناقلات النفط السعودية في الخليج الفارسي حيث كانت إيران تقود مناورات بحرية في المياه الإقليمية السعودية.

فضلاً عن ذلك، استهدفت إيران الكويت جارة العربية السعودية بشكل متكرر، حيث انقلبت الكويت إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد تكرار الهجمات الجوية الإيرانية على سفنها. ففي يوم ١٩ أيار/ مايو ١٩٨٧ صادق الرئيس «رونالد ريغان» على مخطط يقضي بتوفير حامية بحرية أمريكية ترافق الناقلات الكويتية في الخليج الفارسي. لكن مجلس التعاون الخليجي، الذي يضم في عضويته العربية السعودية والكويت، اعترض منذ سنة ١٩٨١ على التدخل الأجنبي في المياه الخليجية، معلناً أن الدفاع عن الخليج من مهمة «أبناء الخليج». وتعيّن على هذه السياسة أن تتغير آنئذ. ففي سنة ١٩٨٦ اقترحت العربية السعودية، التي كانت حساسة إزاء توسيع الدور الجوي والبحري الأمريكي دون أن تكون راغبة بالتأكيد في التخلي عن حماية واشنطن، «خط الملك فهد» في الخليج الفارسي، حيث ستكون الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولة عن الأمن في مياه الخليج الدولية، بينما يلتزم السعوديون ودول مجلس التعاون الخليجي بحماية مياهها

الإقليمية. ولأسباب عسكرية استراتيجية مقبولة، تخطت أمريكا شيئاً فشيئاً حدود شبه الجزيرة العربية ولم تبق «في الأفق».

الإسلام الوهابي يردّ

كان للإطاحة بالشاه تأثير مهم آخر في العربية السعودية. ففي سنة ١٩٧٩ ارتفعت أسعار النفط ثانية، وارتفعت مداخيل النفط السعودي من ٣٢,٢ مليار دولار سنة ١٩٧٨ إلى ٤٨,٤ مليار دولار سنة ١٩٧٩، لتبلغ ١٠٢,١ مليار دولار سنة ١٩٨١[٤٤] من هنا امتلكت العربية السعودية المال الكافي لمواصلة سياسة نضالية على حساب مصالح الإسلام الدولية- غير أن السعوديين اختاروا تحديد تلك المصالح. إذ أضحت رابطة العالم الإسلامي، من جديد، إحدى الأدوات السعودية الأساسية لنشر الوهابية.

كان الشيخ ابن باز هو من أرسى أسلوب هذا الحراك الجديد بوصفه رئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي. فقد أعلن أن الدول الإسلامية مسؤولة عن تشجيع المجاهدين ودعاة الإسلام في أفغانستان والفلبين، وفي أي مكان آخر. وقد شكل هذا الأمر بوضوح طلباً للدعم الديني والعسكري معاً[٤٥] ذلك أن ابن باز وعلماء آخرين كانوا يتخذون مواقف، أكثر فأكثر، حول قضايا السياسة الخارجية والأمنية التي لم تكن خاضعة لاختصاصهم في السابق. ولم يكن العلماء السعوديون يتبنون النموذج الفقهي الإيراني بوضع أنفسهم فوق الحكومة، حيث اعترف التحالف الأصلي بين العائلة الملكية السعودية ومحمد بن عبد الوهاب بسلطة الحاكم السعودي، التي تسمو على المؤسسة الدينية، باعتباره إمامهم. ومع ذلك بدا أن بعض العلماء يظنون أن بمقدورهم اقتسام السلطة بشكل متساو مع العائلة الحاكمة.

وسوف يقول ابن باز في نهاية المطاف إن النخبتين الحاكمتين في العربية السعودية متساويتان. لكن نشاط العربية السعودية الإسلامي ازداد على نحو ملحوظ، سواء أسارت القيادة السعودية على خطى العلماء أم تصرفت استجابة لرؤيتها إلى مصالحها. إذ استغل الملك فيصل رابطة العالم الإسلامي في الستينيات لمواجهة تحديات الناصرية. أما الملك فهد فقد استعمل الدبلوماسية الإسلامية لمواجهة إيران الثورية، ولتجديد أوراق اعتماده الإسلامية أيضاً.

وباتت الصراعات الوهابية- الشيعية القديمة، التي شهدها القرن التاسع عشر، متقلبة تماماً من جديد. إذ رافقت الصراعات الإيرانية- السعودية في مكة والمدينة المنورة مواسم الحج منذ سنة ١٩٧٩، حيث قتلت القوات السعودية أربعمئة حاج (أغلبهم إيرانيون) في حادثة وقعت خلال شهر تموز/ يوليو ١٩٨٧ عندما نشب اشتباك عنيف بين المحتجين الإيرانيين وقوات الأمن السعودية فأثار ذلك غضب الإيرانيين.

كانت الرهانات هائلة، حيث كان على السعوديين الإبقاء على الدول الإسلامية السنّية مصطفة إلى جانبهم في مواجهة إيران الثورية. لكن أعضاء كثراً في الجماعة الإسلامية الباكستانية تماهوا في الواقع مع حماسة الثورة الإيرانية. وبالفعل، فقد شنت العربية السعودية وإيران حرباً بالوكالة من أجل التأثير في باكستان عبر التنظيمات الدينية السنية والشيعية المقاتلة[٤٦] فضلاً عن ذلك، وكما أثبتت أحداث سنة ١٩٧٩، استطاع التحريض الإيراني أن يثير الساكنة الشيعية الواسعة والهائجة في الإقليم الشرقي بالعربية السعودية.

وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٧ انعقد المؤتمر الإسلامي العام الثالث لرابطة العالم الإسلامي، فيما كانت خصومة الملك فهد الإقليمية مع إيران تزداد تأججاً. وقد أُدينت إيران في هذا المؤتمر-

الذي حضره نحو ستمئة ممثل من ١٣٤ دولة (وتلك الأرقام تؤكد امتداد المنظمة العالمي الهائل).

وقد ردّ الإيرانيون، الذين رأوا في المؤتمر الإسلامي العام آلية لنشر الوهابية والهجوم على الشيعة، فوصف آية الله الخميني السعوديين بـ«هؤلاء الوهابيين الفاسدين والفجّار»، وقال إنهم «أشبه بالخناجر التي تخترق قلب المسلمين من الظهر». وتحدث الناطق باسم البرلمان الإيراني هاشمي رفسنجاني عن «الهوليغانز الوهابيين»، ووصف العائلة الملكية السعودية بـ«عصبة الشر»[٤٧] وقد انشغل السعوديون على الخصوص بالجماهير المتعاطفة مع الدعاية الإيرانية داخل الدول العربية. ففي البحرين يشكل الشيعة أكثر من ٦٠ في المئة من الساكنة؛ وفي الكويت ٣٠ في المئة؛ وفي الإمارات العربية المتحدة ١٦ في المئة.

تقارع الطرفان. وأعلن الرئيس الإيراني علي خامنئي أن العربية السعودية لم تكن مؤهلة لحماية المدينتين المقدستين في الإسلام مكة والمدينة المنورة، واتهم آية الله منتظري السعوديين بكونهم «جماعة من الوكلاء البريطانيين في نجد»، ثم أعلن أن مكة والمدينة ستحرران من «مخالب آل سعود» مثلما ستحرر القدس من «مخالب إسرائيل الغاصبة»[٤٨] ولم تمثل إيران تهديداً أمنياً فحسب، إذ هاجمت مشروعية النظام السعودي وحقه في تقديم نفسه كخادم الحرمين الشريفين.

لكن السعوديين كانوا على أتم الاستعداد للرد على هذا الهجوم الإيديولوجي الشيعي. فمع سنة ١٩٨٧ مضت خمس وعشرون سنة على وجود رابطة العالم الإسلامية، حيث راكمت تجارب وعلاقات دولية واسعة، مع تأسيس ثلاثين مكتباً لها في العالم. وقد ساهم

مجلسها الأعلى العالمي للمساجد بعشرات الملايين من الدولارات لبناء المساجد في العالم، وكان المال يأتي من الحكومة السعودية (شكلت مساهمات السعوديين أغلب ميزانية رابطة العالم الإسلامي)، التي أرسلت نحو ألف بعثة إلى العالم أجمع، ودرّبت وموّلت الفقهاء المسلمين من جميع أنحاء العالم، وأدت نفقات الحج إلى مكة لنحو ألف مسلم سنوياً. وبالطبع، أصبحت رابطة العالم الإسلامي، في منتصف الثمانينيات، إحدى قنوات تمويل السعودية للحربَ ضد السوفيات في أفغانستان[٤٩]

وعندما واجهت العربية السعودية التهديد الشيعي الإيراني اكتسبت الوهابية قوة مجدداً داخل المملكة. وحتى عندما حث الملك فهد على التحديث، وأقام حلفاً أقرب من الولايات المتحدة الأمريكية، بدت حكومته أكثر صرامة من الناحية الدينية. إذ مثّل التحدي الإيراني، بالطبع، سبباً خوّل النخب الوهابية مزيدا من النفوذ في العربية السعودية، لكن كان للملك فهد أسباب أخرى تسمح بمنح العلماء مزيداً من السلطة. أولاً، أراد أن ينفي سمعته كعاهل مؤيد لأمريكا، التي أضعفت ربما مكانته داخل الدوائر الدينية. والأهم من ذلك اكتسب سمعة الساعي وراء اللذة، الذي قضى وقته في قصوره بإسبانيا وسويسرا وفرنسا. ذلك أن خسائره في ملاهي «فرانتش ريفيرا» خلال سنة ١٩٧٤ راجت على نطاق واسع، مما جرّ عليه توبيخ شقيقه الأكبر الملك فيصل[٥٠]

جاهد فهد صورته السيئة بطرق عديدة. أولاً غيّر لقبه: بدل أن يشار إليه بـ«جلالته،» تبنّى في تسرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٦ لقباً دينياً أكثر هو: «خادم الحرمين الشريفين»[٥١] وفي أواخر الثمانينيات بدا مبتعدا عن مواقفه الداعمة لأمريكا، بعد مساندة العديد من سياسات

إدارة «ريغان»- بما في ذلك دعم أمريكا في قوات محاربة الشيوعية، مثل «الكونتراس» (Contras) في أمريكا الوسطى والمجاهدين في أفغانستان. ففي سنة ١٩٨٦، مثلاً، أدانت العربية السعودية الولايات المتحدة الأمريكية عن هجومها الجوي على ليبيا. وفي السنة الموالية، عندما تعرضت «يو إس إس ستارك» (USS Stark)، وهي فرقاطة أمريكية راسية في الخليج الفارسي، لهجوم مقاتلة «ميراج» عراقية، لم يستجب السعوديون لمطلب أمريكي باعتراض الطيران العراقي، وقتل سبعة وثلاثون بحاراً أمريكياً في الهجوم. ومما يلفت النظر أن السعوديين رفضوا، حتى بعد الهجوم على «ستارك»، السماح للقوات الجوية الأمريكية باستخدام القواعد الجوية السعودية لتوفير تغطية جوية للقوافل البحرية الأمريكية في الخليج الفارسي[٥٢] أخيراً، وفي آذار/ مارس ١٩٨٨، اتضح أن العربية السعودية، التي قدمت نفسها كمعقل لمحاربة الشيوعية، حصلت على الصواريخ البالستية «سي إس إس-٢» (CSS-2) من الصين الشيوعية. وكان من المفترض أن تحمي السعوديين في الخليج، لكن صفقة الصواريخ السرية هذه بدت كأنها تصويتاً بسحب الثقة من المظلة العسكرية الأمريكية.

وعلى الصعيد الداخلي تبنّى فهد عدداً من الإجراءات التي يصعب أن توصف بأنها تقدمية. إذ مدد ساعات الدراسات الدينية داخل النظام التربوي «العلماني» السعودي. كما فرضت حكومته فصلاً صارماً بين الجنسين في الجامعات السعودية. وتقلّصت فرص توظيف النساء[٥٣] وفي سنة ١٩٨٤ أيّد علناً تحذير الشيخ ابن باز الموجّه للشباب السعودي بالامتناع عن السفر إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية («بلدان الهرطقة»)، لأن هذا السفر قد يصرفهم إلى طريق الشر- هذا رغم زيارات الملك الخارجية المتكررة والموسعة[٥٤]

فضلاً عن ذلك، عوّض فهد عن صورته كـ«تحديثي» موالٍ للغرب بتوسيع أنشطة الشرطة الدينية السعودية (المتطوعين). ونتيجة لذلك اصطدم العديد من الغربيين، الذين ذهبوا للعمل في الصناعة النفطية، بمناخ متبدل. إذ كتب أحد الملاحظين في الظهران أن «حقوق الإنسان والممارسات المتحضرة التقليدية تتخذ الآن المقعد الخلفي في الحركة الوطنية الدينية الإسلامية المفرطة في الحماس والتي تؤثر في حياة المرء اليومية. أما أغلب من تستهدفهم الحركة، فهم (١) التجمعات الكنسية المسيحية و(٢) النساء و(٣) المسلمون المتغربنون و(٤) الغربيون والفلبينيون». كما ورد أن الصلبان والماء المقدس والبيانات الكنسية لم يعد مسموحاً بها. وتخلّى العمال البروتستانت عن القيام بطقوس دينية داخل بيوت خاصة في الرياض. ولم تكن بعض هذه الإجراءات جديدة، ذلك أن بيع أشجار عيد الميلاد منع سنة ١٩٦٧، بسبب ضغط العلماء[٥٥] لكن هذه الإجراءات لم تقتصر آنذاك على المجال العام، إذ أصبحت الشرطة الدينية أكثر اقتحاماً لحياة الناس خلال هذه الفترة. وحتى العاملون في مساحات أرامكو المطوقة لم يكونوا بمنأى عن العقوبات الإسلامية[٥٦] ولقد كشفت أفعال فهد جميعها أن الدولة السعودية كانت لا تزال بالفعل خاضعة لتأثير وهابي قوي، مثلما كانت منذ تأسيسها. وغالباً ما اصطدمت حاجات القيادة السعودية بسياسات النخبة الدينية الوهابية. لكن لم يستطع أي عاهل سعودي أن يحيا طويلاً دون دعم أولئك القادة الدينيين. وحتى فهد صاحب الفكر الطليعي أجبر على التراجع إلى الوراء، مانحاً العلماء دوراً مهماً في الشؤون السعودية. من هنا وبّخ النظام، الذي رحّب في البداية بوجود عسكري غربي موسع، آنئذ أمريكا وقمع حياة الغربيين في العربية السعودية. كما استثمرت القيادة السعودية بقوة في

المؤسسات الدينية، التي تنشر الإسلام الوهابي في العالم كله، بغية الحفاظ على دعم النخبة الوهابية.

للمشروعية ثمنها. إذ تجلت المفارقة في أن الملك فهد صاحب الرحلات الكثيرة، الذي عُرف في الماضي بكونه صوتاً من الأصوات القوية الداعية إلى تحديث العربية السعودية وتوجهها الداعم لأمريكا، سيصبح العاهل السعودي الذي أشرف على تصدير الوهابية على مستوى عالمي.

الفصل الثامن

امتداد الوهابية العالمي

وسّعت العربية السعودية، خلال حكم الملك فهد، تأثيرها الديني على الصعيد العالمي. إذ نشأ جزء من هذا التوسع عن حاجة فهد إلى دعم أوراق اعتماده الدينية، بالنظر إلى سمعته كمقامر في «فرانتش ريفيرا» واستمتاعه بحياة البذخ في قصوره العديدة في أوروبا. وقد ضمّ قصره في «ماربيا» الإسبانية مئة غرفة، وامتلك يختاً بقيمة ٥٠ مليون دولار، وكانت طائرته «بوينغ ٧٤٧» مزوّدة بثرّيا ومصعد وتجهيزات حمّام ذهبية وسونا[١] وقد عُرف فهد بتجربته وكفاءته، لكن تقارير حماقاته الشخصية تكاثرت[٢]، حيث ثمة قصص تروي أنه شرب الويسكي الاسكتلندي في شبابه علناً، وأمر بأرطال من الكافيار، وتردد على ملاهي بيروت الليلية[٣]

للمظاهر شأن لدى الملوك السعوديين. ومع ذلك كان فهد، كباقي الملوك قبله، إمام الحركة الوهابية أيضاً. ففي أوائل الستينيات أثارت سمعة الملك سعود الدينية الملطخة تحفّظ العلماء وانتهت بخلعه. فضلاً عن ذلك، ثمة إشاعات واسعة الانتشار حول فساد العائلة الملكية، ذلك أن فهد وأشقائه يحصلون من تحت الطاولة على سمسرات من صفقات أسلحة المملكة[٤] إذ زعمت صحيفة «دي

أوبزورفر»، على سبيل المثال، أن ٣٠٠ مليون دولار من السمسرات دُفعت كجزء من بيع اثنتين وسبعين مقاتلة «تورنادو» للقوات الجوية السعودية الملكية في منتصف الثمانينيات[٥] كما اعتمد فهد على الجيش الأمريكي، أكثر فأكثر، بالنظر إلى التهديد الذي طرحته إيران، وبشكل أقل، النظام الذي دعمه السوفيات في جنوب اليمن.

كان على حكومة الملك فهد أن تستجيب لحاجات الفقهاء الوهابيين لكي تحتفظ باليد الطولى في الشؤون الخارجية. ومن ثم باشرت العربية السعودية حملة شاملة لنشر الإسلام الوهابي في العالم. ففي الفترة الممتدة بين ١٩٨٢ و٢٠٠٢ أقامت ١٥٠٠ مسجد و٢١٠ مراكز إسلامية وألفي مدرسة لتعليم أبناء المسلمين في البلدان غير المسلمة وحدها، وخصصت لذلك مبالغ مالية هائلة. وأنفق السعوديين، وفق ما ورد في وثائق داخلية لرابطة العالم الإسلامي، عشرة ملايين دولار على بناء المساجد في الولايات المتحدة في سنتين فقط خلال الثمانينيات[٦] ومنحت كراسي أكاديمية للدراسات الإسلامية في كلية هارفرد للحقوق، وفي جامعة كاليفورنيا- «سانتا بابارا». ودعم السعوديون معاهد البحوث الإسلامية في الجامعات الأمريكية (في واشنطن): جامعة «هوارد»، جامعة «ديوك»، جامعة «جونز هوبكينز». ودخلت الأكاديميات الإسلامية موسكو وواشنطن العاصمة[٧]

تمثل المؤسسات الخيرية والمنظمات الإسلامية جوهر حملة نشر الإسلام الوهابي هذه- ومن ثم التأثير السعودي. ففي حكم الملك فهد، واصلت العربية السعودية وقف المال على هذه المنظمات بسخاء. إذ وهب السعوديون الملايير لرابطة العالم الإسلامي التي تأسست في عهد الملك فيصل[٨] فضلاً عن ذلك، دشنت العائلة

الملكية السعودية حملات تبرع لفائدة مؤسسة الحرمين- وهي مؤسسة خيرية دولية غايتها المعلنة النهوض بـ«العقائد الصحيحة» في قلوب المسلمين- وكذلك هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية والندوة العالمية للشباب الإسلامي. وشكل لاجئو الإخوان المسلمين، الذين لجأوا إلى العربية السعودية، طاقة بشرية خطيرة في الجهود الدولية للعديد من هذه المنظمات وبخاصة رابطة العالم الإسلامي. كما حافظ الفقهاء السعوديون، بمن فيهم الشيخ عبد العزيز بن باز، على شبكات الدعم الإسلامية[٩]

سمحت هذه المنظمات الخيرية السعودية للمملكة بنشر أجندتها السياسية، والدينية خاصة، في العالم كله خلال الثمانينيات والتسعينيات. فعلى سبيل المثال، شكلت الخيريات قنوات محورية في دعم أغلب التنظيمات الفلسطينية المتطرفة، بما في ذلك حماس (حركة المقاومة الإسلامية)[١٠] إذ كانت حماس حليفاً سعودياً طبيعياً، نشأت من رحم فرع الإخوان المسلمين في غزة سنة ١٩٨٧ باختصار، كان السعوديون يهبون أموالاً طائلة. ومن شأن مساهمات على هذا المستوى الشامل أن تخلق انتظارات معيّنة، حيث قد يكيّف المتلقّي مواقفه تجاه المانح ليضمن استمرار تدفق الدعم. وبالفعل، ففي الثمانينيات، والتسعينيات، ضخ السعوديون الدعم في جامعة الأزهر المصرية. ونتيجة لذلك تبنّى ذلك المركز المتخصص في التعليم الإسلامي مقاربة أكثر محافظة من الناحية الدينية[١١] من هنا، سواء ارتبطت السلاسل علناً بالمساعدات السعودية أم لم تكن كذلك ربما كان الأثر هو ذاته بالنسبة إلى العربية السعودية. إذ برزت فرصة مناسبة لنشر عقائد الوهابية على مستوى عالمي غير مسبوق.

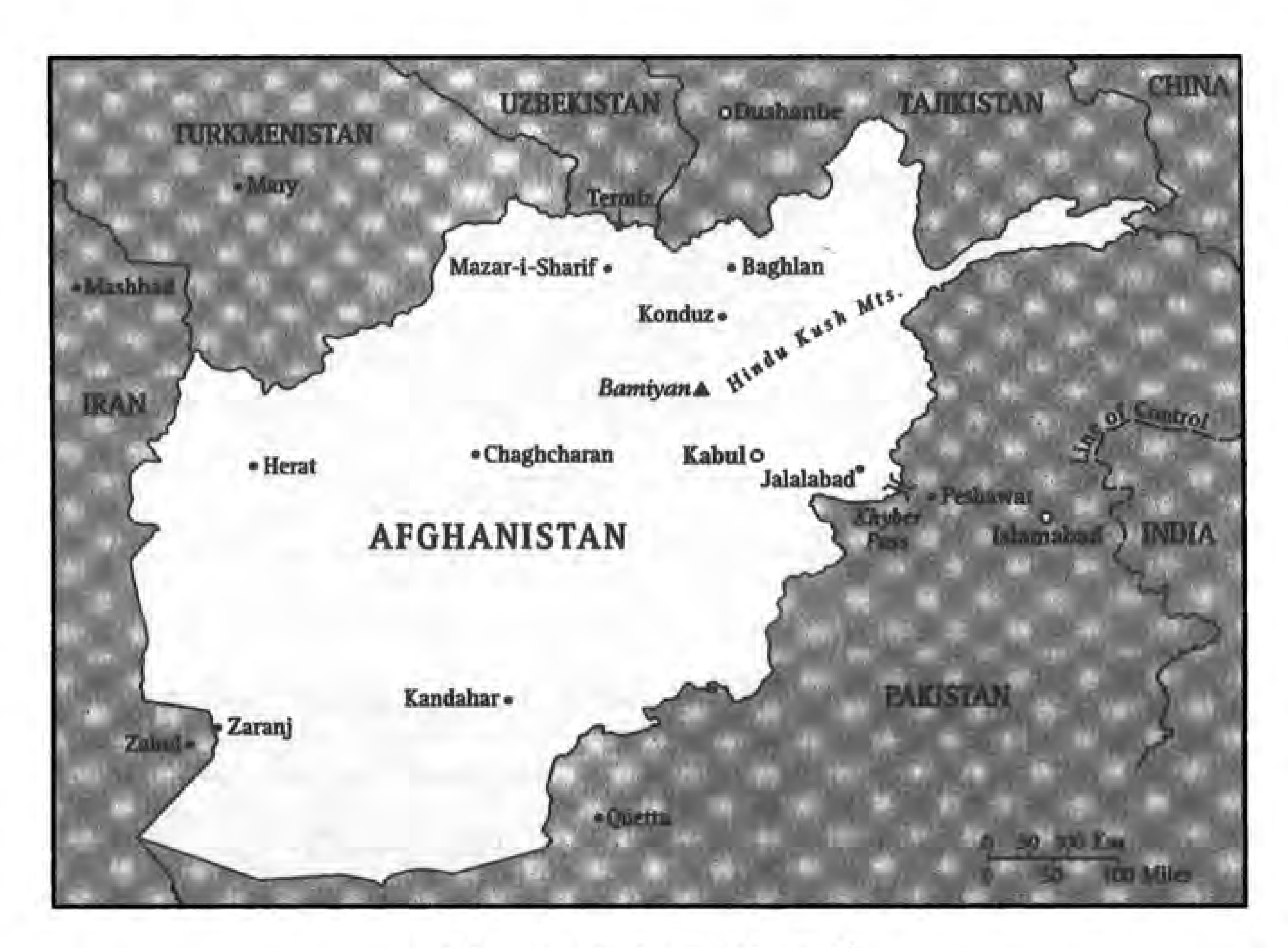
التدخل في أفغانستان وبروز طالبان

انساقت الروابط السعودية الأفغانية الأولى وراء اعتبارات دينية، بقدر ما انساقت وراء مصلحتها الاستراتيجية في هزم الاتحاد السوفياتي. إذ منح السعوديون قرابة أربعة ملايير دولار لمساعدة جماعات حرب العصابات الأفغانية خلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٨٠ إلى سنة ١٩٩٠- هذا عدا مِنح الخيريات وأموال الأمراء الخاصة. ففي مطلع الثمانينيات كان للسعوديين شريكان أفغانيان أساسيان. أحدهما عبد الرسول سيّاف، وهو دارس إسلامي أفغاني عاش عدة سنوات في العربية السعودية، وقد أُرسل إلى بيشاور، المدينة الحدودية الباكستانية قرب معبر خيبر إلى أفغانستان، قصد النهوض بالوهابية بين اللاجئين الأفغان. فأسس بالفعل حزباً وهابياً هو الاتحاد الإسلامي(١٢)

وفي أعقاب احتلال الاتحاد السوفياتي أفغانستان سنة ١٩٧٩ مباشرة، جاء عبد الرسول بمتطوعين عرب لمساعدة المقاومة الأفغانية، وتدويل الحرب ضد السوفيات في مراحلها الأولى. ويبدو أنه غيّر سلوكه لإرضاء المانحين الوهابيين، فإلى جانب العفو عن اللحية، غيّر اسمه الشخصي عبد الرسول ليصبح عبد الرب(*) ذلك أن المؤمن لا يمكن، وفق الحساسيات الوهابية، أن ينظر إلى نفسه إلا عبداً لله، لا عبد أي كائن بشري، بما في ذلك محمد. إن الارتقاء بأي فرد إلى صفة ترتبط عادة بالإله يقوّض التوحيد في الإسلام(١٣) ففي سنة ١٩٨٤(**)، منح السعوديون سيّاف جائزة الملك فيصل

(*) المراجع العربية تستعمل اسم «عبد رب الرسول» (المترجم).

(**) فاز عبد رب الرسول بهذه الجائزة سنة ١٩٨٥، وليس سنة ١٩٨٤ انظر أرشيف الفائزين في موقع مؤسسة الملك فيصل الخيرية (المترجم).



أفغانستان والدول المجاورة لها

لخدمة الإسلام، التي كانت تدلّ، بحسب رأي أحد الملاحظين، على «مقوّماته الوهابية المعصومة»[١٤]

الوجه الأفغاني الثاني الأساس هو قلب الدين حكمتيار، رئيس الحزب الإسلامي، الذي كان قريباً من الجماعة الإسلامية الباكستانية المتطرفة (حزب مولانا أبي الأعلى المودودي)، وقريباً من الإخوان المسلمين[١٥] فهاتان المنظمتان ستحصلان، كما لاحظ أحد خبراء الحركات الإسلامية، على «حصة الأسد» من المساعدات السعودية المقدمة لأفغانستان خلال الثمانينيات[١٦] ومما جعل هذا الأمر ملحوظاً أنهما لم تكونا أفضل القوات التي قاتلت السوفيات. ذلك أن نجاحات ساحة المعارك كانت من نصيب أحمد شاه مسعود، الذي قاد

قوات برهان الدين ربّاني. لكنّ حكمتيار وسياف كانا وفيين من الناحية الإيديولوجية. إلا أن عداء حكمتيار للأمريكيين لم يبدُ أنه أزعج السعوديين في أواخر الثمانينيات[١٧]

كما اعتمد السعوديون على غير الأفغان، وأبرزهم عبدالله عزّام وأُسامة بن لادن. إذ سيّر عزام مكاتب رابطة العالم الإسلامي والإخوان المسلمين في بيشاور الباكستانية[١٨] وأنشأ، كما سبق القول، مكتب الخدمات سنة ١٩٨٤ لإعداد المجنّدين الجدد للجهاد الأفغاني وتنسيق تدفق المساهمات. وتتباين التقييمات حول عدد العرب الذين التحقوا بالجهاد الأفغاني، لكن الواضح أن الفرقة الكبرى جاءت من العربية السعودية. فمما لا ريب أن السعوديين شجعوا شعبهم على الالتحاق بالقضية الأفغانية، حيث قدمت الخطوط الجوية السعودية تخفيضاً بنسبة ٧٥ في المئة بالنسبة للمتطوعين المتوجهين إلى أفغانستان[١٩] ووفق تقديرات مستقاة من مصادر المخابرات السعودية، تلقى نحو سبعة وعشرين ألف سعودي تدريباً في الخارج منذ بداية سنة ١٩٧٩، بما في ذلك خلال الحرب الأفغانية[٢٠]

كان دعم عزام لهؤلاء الآلاف من المتطوعين يأتي من المخابرات السعودية، والهلال الأحمر السعودي، ورابطة العالم الإسلامي؛ وبصورة شخصية، من الأمراء السعوديين[٢١] إذ كانت المصلحة الذاتية من الأسباب التي جعلت السعوديين يمنحون عزام دعماً كبيراً، حيث كان من الأفضل أن يتدفق المتطوعون العرب على الجهاد الأفغاني بدل أن ينجذبوا إلى التشيّع الثوري الإيراني في أماكن مثل لبنان.

وكان حجم الاستثمار السعودي في بيشاور ضخماً. ففي سنة ١٩٨٨ ادّعت رابطة العالم الإسلامي أنها افتتحت ١٥٠ مركزاً لدراسة

القرآن و٨٥ مدرسة إسلامية لتعليم الطلبة الأفغان[٢٢] وكان سعوديان من بين أهمّ مساعدي عزام. أحدهما وائل حمزة جليدان، الذي ترأس مكاتب عديدة في رابطة العالم الإسلامي والهلال الأحمر السعودي في باكستان. أما شريك عزام السعودي الثاني في بيشاور، فهو طالبه السابق أسامة بن لادن[٢٣] وبعد مقتل عبدالله عزام في هجوم بسيارة مفخخة سنة ١٩٨٩ تولّى بن لادن تدريجياً مكتب خدمات المجاهدين. وفي تلك السنة ذاتها غيّر اسم المكتب ليصبح تنظيم القاعدة.

وبعد انهزام السوفيات في أفغانستان بدأت القاعدة تتطور لتغدو في غضون سنوات قليلة نادياً عالمياً يضمّ جماعات إرهابية إسلامية. إذ قسّم تحليل جنسيات أعضاء القاعدة العرب كما يلي: ٥٠٠٠ سعودي، ٣٠٠٠ يمني، ٢٨٠٠ جزائري، ٢٠٠٠ مصري، ٤٠٠ تونسي، ٣٥٠ عراقي، ٢٠٠ ليبي، وعشرات الأردنيين[٢٤] ويتضح أن السعوديين كانوا المكوّن المتزعم من العرب الأفغان، عندما دشنوا انتقالهم من قتال السوفيات إلى الإرهاب الدولي.

برز أسامة بن لادن من رحم المؤسسة السعودية. كان والده محمد بن لادن، رغم أصوله اليمنية الفقيرة، رئيس أكبر شركة بناء في العربية السعودية، وكان في الواقع صديقاً مقرّباً من الملك فيصل. وحتى بعد وفاة محمد بن لادن سنة ١٩٦٨ حافظت العائلتان على لقاءات اجتماعية واسعة. ففي الواقع عرف أسامة بن لادن والأمير تركي الفيصل، ابن الملك فيصل، بعضهما البعض خلال أيام ابن لادن الجامعية. وسوف يستغل تركي صلته بابن لادن بعدما أصبح الأمير رئيس المخابرات السعودية في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٧ وبعد احتلال السوفيات أفغانستان كلّف ابن لادن بنقل المتطوعين العرب الذين

يرغبون في قتال السوفيات من العربية السعودية إلى بيشاور الباكستانية[٢٥] (كما كان للأمير تركي اتصال مباشر بعبدالله عزام، الذي التقاه في العربية السعودية، وفي مناسبتين على الأقل بباكستان)[٢٦] فضلاً عن ذلك، استخدم الأمير محمد بن فيصل، شقيق تركي الأكبر، عائلة ابن لادن كجبهة لتسريب المساعدات إلى القضية الأفغانية، وسيستعمل فيما بعد الصلة بابن لادن لنقل الدعم إلى المقاتلين الإسلاميين في الجزائر خلال التسعينيات[٢٧]

وفي الثمانينيات أضحى أسامة بن لادن وجهاً بارزاً في الجهاد الأفغاني الذي تدعمه السعودية. إذ وصف نفسه بـ«ممثل السعوديين في أفغانستان» في حوار غير منشور أدلى به لصحافي فرنسي من صحيفة «فرانس سوار» في نيسان/ أبريل ١٩٩٥[٢٨] فبعد أن حصل على الأمر من الأمير تركي، أقام بنيات تحتية لفائدة العرب الأفغان داخل المناطق الحدودية الباكستانية، لكنه انتقل سنة ١٩٨٥ إلى أفغانستان والتحق بقوات حكمتيار المناصرة للسعودية. وحتى بعد هزيمة السوفيات سنة ١٩٨٩ واصل إقامة القواعد في أفغانستان لتدريب المتطوعين العرب، ولم تكن الحرب ضد النظام القائم الداعم للسوفيات في كابول قد وضعت أوزارها. وقد استخدم ابن لادن ثروته وتبرعات السعوديين لنشر الوهابية بين الأفغان[٢٩] وفي الحالات كلها جاء أغلب المتطوعين العرب في أفغانستان من العربية السعودية، لذلك كانوا قد تشرّبوا الممارسات الوهابية من قبل. وكان الانتقال، بالنسبة إلى العديد من المتطوعين غير السعوديين، إلى بيئة دينية أكثر تشدداً طبيعياً تماماً؛ فعلى سبيل المثال، التحق رمزي يوسف- العقل المدبّر للهجوم على مركز التجارة العالمي سنة ١٩٩٣- بالجهاد الأفغاني سنة ١٩٨٦، لكن والده كان قد انجرف إلى الوهابية في الكويت[٣٠]

وبعد انسحاب السوفيات من أفغانستان سنة ١٩٨٩ تواصلت مساهمات السعوديين المالية. ففي آذار/مارس ١٩٩٠ حولوا مئة مليون دولار إلى حليفهم الأفغاني حكمتيار.[٣١] لكن حكومة نجيب الله الموالية للسوفيات في كابول سقطت سنة ١٩٩٢، حيث برزت معضلات جديدة فبدأت الفصائل الأفغانية المنتصرة تقاتل بعضها البعض. إذ يعتبر دعم الجهاد ضد الاحتلال السوفياتي في بلد مسلم أمراً بيّناً، لكن دعم الجهاد بين الجماعات الأفغانية المسلحة يشكل أمراً مختلفاً تماماً. ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت وقف تقديم المساعدات لحكمتيار وسياف، اللذين نظرت إليهما باعتبارهما متطرفين تعاطيا تجارة المخدرات. ومن وجهة نظر السعوديين، خانت هاتان الجماعتان الأفغانيتان العربية السعودية عندما دعمتا الرئيس العراقي صدّام حسين بعد احتلال الكويت في آب/أغسطس ١٩٩٠[٣٢] ومع ذلك، لم يتخلَّ السعوديون عن زبنائهم الأفغان نهائياً، حيث أبقى الأمير تركي، مدير المخابرات السعودية، على الحوار مع حكمتيار حتى تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١[٣٣] لكن العربية السعودية كانت منفتحة على فكرة بناء علاقات مع شركاء أفغان جدد.

لم تكن ميليشيا طالبان، التي أصبحت قوة سياسية في أفغانستان سنة ١٩٩٤، وهابية في أول الأمر. ذلك أن المسلمين السنّة مثلوا ٨٠ في المئة من سكان أفغانستان إلا أنهم كانوا ينتمون إلى المذهب الحنفي، بينما اتبع الوهابيون المذهب الحنبلي. ونشأت تقاليد طالبان عن مدارس «ديوباندي» التي ظهرت في الهند خلال القرن التاسع عشر، والتي لم تكن متطرفة على نحو بارز، ولم يكن الجهاد من أولوياتها[٣٤] لكن طالبان أصبحت، عقب الحرب الأفغانية، أكثر

راديكالية. وتدفق الدعم السعودي على جمعية علماء الإسلام، وحركة «ديوباندي» الدينية في باكستان، وكذلك منافستها الباكستانية الجماعة الإسلامية.

وفي الثمانينيات، انتشرت مدارس جمعية علماء الإسلام الراديكالية وأكاديميات دينية متقدمة أخرى قرب الحدود الأفغانية- الباكستانية، وأصبحت لطالبان مراكز تدريب. كانت هذه المدارس تُدعم، في أول الأمر، بأموال زكاة الباكستانيين، لكن المنظمات غير الحكومية بالعربية السعودية ودول خليجية أخرى أصبحت أهم الداعمين لها في ما بعد[٣٥] وقد سمّى زعيم أحد الأحزاب السنّية الطائفية المتشددة الباكستانية المدارس بـ«خط دعم الجهاد»[٣٦] وجاء ثمانية وزراء طالبان من مدرسة واحدة هي: دار العلوم حقانية[٣٧] ولاحظ «توماس فريدمان» من صحيفة «نيويورك تايمز»، عند زيارة دار حقانية، حجة صريحة تثبت الدعم السعودي، وهي عبارة عن إشارة على جدار الفصل تقول: «هبة من المملكة العربية السعودية»[٣٨] وبحسب بعض المحللين، باتت طالبان «هجينا» من حركة «ديوباندي» والسلفية، وهو هجين بات ممكناً بفضل الحضور الوهابي خلال الثمانينيات[٣٩]

لكن لماذا واصل السعوديون دعم طالبان بعد سنة ١٩٩٢، عندما سقطت حكومة نجيب الله الموالية للاتحاد السوفياتي؟ في الأحوال كلها، لم يعودوا أصحاب مصلحة استراتيجية في أفغانستان. صحيح أنه كانت هناك مصلحة اقتصادية محتملة، بالنظر إلى أن شركة «دلتا» النفطية والغازية كانت شريكاً في جهد شركة «يونوكال» الكاليفورنية (UNOCAl)، الرامي إلى مد أنابيب من بحر قزوين، عبر أفغانستان وباكستان، إلى المحيط الهندي. لكن هذا الاعتبار الاقتصادي وحده

لم يكن سبباً قاهراً وراء انخراط الناظم السعودي [في هذا الدعم]، خصوصاً أنه لم يتضح تماماً أن الرياض دعمت تطوير النفط والغاز في بحر قزوين، اللذين قد ينافسان موارد الطاقة التي تملكها السعودية في الخليج الفارسي. والأهم أنه مع دعم السعوديين الأحزاب السياسية في باكستان- التي راهنت، بخلاف العربية السعودية، رهانات حقيقية أن الحكومة التي حكمت جارتها أفغانستان-، امتلكت المملكة نفوذاً كبيراً على الباكستانيين ولم تكن في حاجة إلى الانخراط في أفغانستان بسبب المصالح الباكستانية وحدها. كلا، لا بد أن تتوفر للسعوديين دوافع خاصة بهم لدعم طالبان خلال التسعينيات.

والظاهر أن العلماء السعوديين دافعوا بقوة عن العلاقة بطالبان. فقد دفع الشيخ محمد بن جبير، الذي سُمّي بـ«مُصدّر العقيدة الوهابية إلى العالم الإسلامي» والذي ترأس هيئة كبار العلماء إلى جانب الشيخ عبد العزيز بن باز، بالفكرة القائلة إن السعوديين مطالبون بتقديم مزيد من الدعم. ومثلما كان الأمر في أيام الحرب ضد السوفيات، خضع تنسيق المساعدات السعودية العملي لمراقبة رئيس المخابرات السعودية الأمير تركي الفيصل[٤٠] لكن كان هناك مكوّن إسلامي قوي، إذ اصطحب الأمير تركي، في أول لقاء مع زعيم طالبان الملا عمر، عبد الله التركي الذي أصبح في ما بعد الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي[٤١]

وحافظت العائلة الملكية السعودية على العديد من العلاقات الأولية مع طالبان. ففي سنتي ١٩٩٤ و١٩٩٥ استضاف مولانا فضل الرحمان، زعيم جمعية علماء الإسلام، وهو حليف محلي مقرّب من الوزيرة الأولى بينظير بوتو، الأمراء السعوديين مراراً إلى قندهار الأفغانية لصيد الطيور. ومن أجل رحلات الصيد تلك كان السعوديون يصلون إلى المكان بطائرات نقل ضخمة على متنها عرباتهم الباذخة

الرباعية الدفع. وبعد الصيد كان السعوديون يتركون تلك العربات- والهبات- لفائدة مضيفيهم من الطالبان، حيث كان الطالبان يجيدون استعمال العربات السعودية في حملتهم العسكرية. كما زار الأمير تركي قندهار بانتظام خلال هذه المرحلة، مانحاً الدعم والعربات والنفط قبيل هجومهم الأخير على كابول في حزيران/ يونيو ١٩٩٦[٤٢]

بالنظر إلى الدعم السعودي الفعّال الممنوح لطالبان- والذي أيدته القيادة الدينية السعودية- لا عجب أن يقترب المتمردون الأفغان أكثر من الوهابية خلال التسعينيات. لكنْ ثمة سبب آخر جعل الوهابية تخترق طالبان. إنه أسامة بن لادن. فبعد أن استولى طالبان على كابول سنة ١٩٩٦ ازداد أثر بن لادن في طالبان، إذ نقل إقامته إلى قندهار، قرب بيت زعيم طالبان الملا عمر. فكان بن لادن يمضي الليل يحاور طالبان، حيث قدّم لهم دعماً مادياً. وأرسل قواته من العرب الأفغان إلى المعارك ليدعم طالبان ضد خصومها من الميليشيات الأفغانية. وسمح للتنظيمات الكشميرية الإرهابية، التي دعمها حليف طالبان الأساسي باكستان، باستخدام معسكراته التدريبية[٤٣]

وما أن ازداد أثر بن لادن حتى عكست أفعال طالبان أفكاراً وهابية متطرفة. فمن الناحية التاريخية، لم يهاجم المسلمون السنّة الأفغان الأقلية المسلمة الشيعية، لكن الهجمات ضد الشيعة بدأت حتى قبل غلبة طالبان، وصارت ممنهجة أكثر في ظل نظام طالبان. إذ ساعد مقاتلو بن لادن الوهابيون طالبان على ذبح «الهزار»، وهي جماعة شيعية تتحدث الفارسية وتعيش في شمال أفغانستان[٤٤] فوجدت الطوائف الشيعية الأفغانية كلها نفسها محاصرة، حيث انقطع عنها الولوج إلى المؤن، وأوحت مصادر تمثل تحالف الميليشيات في

الشمال، الذي صمد أمام طالبان، أن سياسة النظام الجديد ترمي إلى موت الهزار جوعاً.

ازدادت وضعية الشيعة سوءاً، ذلك أن طالبان أرادوا تطهير شمال أفغانستان من الساكنة الشيعية إذ عيّنوا الملا نيازي حاكماً على مدينة مزار شريف، حيث أعلن نيازي مخاطباً الشيعة: «العام الماضي، تمردتم ضدنا وقتلتمونا. وأطلقتم الرصاص علينا من بيوتكم. وها نحن هنا اليوم للتعامل معكم. فالهزار ليسوا مسلمين. والآن علينا قتل الهزار. فإما تقبلوا أن تكونوا مسلمين، وإما تغادروا أفغانستان»[٤٥]

منح طالبان الشيعة أساساً ثلاثة خيارات: اعتناق الإسلام السنّي، أو الانتقال إلى إيران، أو القتل. ففرّ عشرات الآلاف من سكان مزار شريف حفاظاً على حياتهم، وقتل طالبان العديد من هؤلاء اللاجئين رمياً بالرصاص من الجو. إذ قُتل ما بين خمسة آلاف وعشرة آلاف شيعي في هذه الحملة الطالبانية، بحسب مصادر منظمتي الأمم المتحدة والصليب الأحمر[٤٦] بالإضافة إلى ذلك، دخلت وحدة طالبانية القنصلية الإيرانية في مزار شريف وقتلت أحد عشر شخصاً. كما ألقى الطالبان القبض على خمسة وأربعين إيرانياً آخرين. ورداً على ذلك حشدت إيران قوات تعدادها مئتي ألف رجل على الحدود الإيرانية- الأفغانية خلال أكتوبر ١٩٩٨، وظل الأمر على حاله إلى أن أطلق سراح الإيرانيين المعتقلين واستعيدت جثامين الإيرانيين.

لم تكن هذه السياسة المعادية للشيعة، طبعاً، بالأمر المستجدّ في عالم الوهابية. ذلك أن الهجمات الوهابية سنة ١٨٠٢ على الأضرحة الشيعية في كربلاء خلّفت آلاف القتلى. أما فقهاء العربية السعودية الحديثة فقد اعتبروا السكان الشيعة السعوديين بالأقاليم الشرقية هراطقة، لا مسلمين حقيقيين. لقد أراد إخوان ابن سعود إبادتهم،

حيث أيّد العلماء إجبارهم بالقوة على اعتناق الإسلام السنّي. بل إن الدولة السعودية، وخلافاً للدول العربية الأخرى، لم تسمح للشيعة على امتداد التسعينيات ببناء المساجد أو بممارسة شعائرهم علناً بأي طريقة من الطرق. فسار الطالبان على نهج المقاربة الوهابية إزاء الشيعة بدل الممارسة المتبعة في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي.

وبرزت النزعات الوهابية في مناحي أخرى من سلوك طالبان. ففي أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨، احتل طالبان وادي باميان، وهي منطقة انتصبت فيها التماثيل البوذية الضخمة طيلة قرابة ألفي سنة. ومثلت هذه التماثيل كنزاً من أعظم الكنوز الأثرية في أفغانستان وقاومت غزاة البلاد الكثيرين. لكن طالبان فجّرت رأس تمثال ضخم، بينما تعرّض القسم الأوسط من تمثال ثان لهجوم صاروخي. كما كان تدمير التماثيل وأضرحة الأولياء شائعاً بين الوهابيين، وبهذا برّروا هجماتهم على الأضرحة في مكة والمدينة المنوّرة بعد غزوهم لهما خلال العشرينيات[٤٧].

ورغم أن نظام طالبان سيطر في نهاية المطاف على ٩٠ في المئة من أفغانستان فقد رفض المجتمع الدولي على العموم منحه الاعتراف الدبلوماسي، حيث شغل التحالف الشمالي مقعد أفغانستان في الأمم المتحدة. ولم تعترف بطالبان سوى ثلاث دول هي: باكستان، والإمارات العربية المتحدة، والعربية السعودية.

الوهابية في جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق والاتحاد الروسي

شرع انحلال الاتحاد السوفياتي وانهياره الأخير جبهة أخرى أمام الوهابية السعودية. ففي سنة ١٩٩٠، وبعد أن اضطهد النظام السوفياتي

الإسلام طيلة سنوات، بدأت تظهر المساجد في آسيا الوسطى إذ شُيّد خمسون مسجدا في قيرغيزستان حيث انتصب خمسة عشر فقط خلال السنة السابقة؛ ونشأ ثلاثون مسجداً في تركمنستان، بعدما كان فيه خمسة فقط خلال السنة السابقة(٤٨) وتكرر هذا النموذج في جمهوريات إسلامية أخرى.

وتمكن العديد من المسلمين السوفيات، بفضل البيريسترويكا، من السفر إلى العربية السعودية. بل إن بعضهم تلقّى تعليماً دينياً في المدارس السعودية. لكن الأهم هو أن هؤلاء المسلمين السوفيات اتصلوا بالخيريات السعودية التي ستمنحهم الدعم بعدما حصلت الجمهوريات السوفياتية في آسيا الوسطى على استقلالها. ومع تأسيس العلاقات الدبلوماسية بين العربية السعودية والاتحاد السوفياتي وافتتاح سفارة سعودية في موسكو ضاعفت الخيريات السعودية أنشطتها. ذلك أن رابطة العالم الإسلامي ضاعفت نشاطها في روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى مستعملة قسم الشؤون الإسلامية بالسفارة السعودية.

وقد تأثرت حركات كثيرة في آسيا الوسطى بالوهابية. ففي أوزبكستان، على سبيل المثال، برز جمعة نمنكاني وطاهر يولداشيف، اللذان تمكنا من ناصية اللغة العربية، واهتما بالعقيدة الوهابية، واستطاعا الولوج إلى المؤسسات السعودية، وشيّدا مسجداً ومدرسة سنة ١٩٩٠ في مدينتهما الأوزبكية. كما عملا على تشكيل تنظيمات ثورية إسلامية مثل «العدل»، واتهمتهما الحكومة الأوزبكية بالتورط في محاولة اغتيال رئيس أوزبكستان إسلام كريموف يوم ١٦ شباط/ فبراير ١٩٩٩ وقد استقر يولداشيف، الذي سافر إلى العربية السعودية وإيران وباكستان وتركيا، في أفغانستان سنة ١٩٩٨، حيث منحه طالبان إقامة في قندهار قرب بيتي الملا عمر وأسامة بن لادن. وبحسب

المسؤولين الروس، حصل يولداشيف على مساعدات وكالة الاستخبارات السعودية والخيريات السعودية.

لم يكن هذا الدعم استثنائيا، إذ يذكر الصحافي أحمد رشيد المقيم في باكستان كيف أن العديد من الأعضاء الشباب في الجماعات الإسلامية المقاتلة الجديدة في بدايات التسعينيات «كانوا فخورين بادّعاء أن دعمهم مصدره العربية السعودية»[٤٩] وفي طاجيكستان ارتبط بعض أعضاء حزب النهضة الإسلامية، خلال فترة الحكم السوفياتي، بقلب الدين حكمتيار المناصر للميليشيا السعودية الأفغانية[٥٠] ففي الحرب الأهلية التي احتدمت بين أيار/ مايو ١٩٩٢ ومنتصف سنة ١٩٩٣ بين الحكومة الطاجيكية والجماعات المتمردة الإسلامية المسلحة، التي أقام العديد من أعضائها في أفغانستان قتل نحو ٥٠ ألف شخص أغلبهم من المدنيين، ونزح ٦٠٠ ألف داخلياً[٥١] وقد التحق نمنكاني الأوزبكي بالمتمردين الإسلاميين، حيث شكلوا كتيبة من ٢٠٠ إلى ٣٥٠ مقاتلاً. واستعملت العربية السعودية، كما يفيد «روبرت باير» العميل السابق في وكالة «سي أي آي»، رابطة العالم الإسلامي لتقديم الدعم ونقل الأسلحة سرّاً إلى الزعيم الإسلامي التاجيكي عبد الله نوري[٥٢] بعد ذلك، أي في حزيران/ يونيو ١٩٩٦ توسط نوري في عقد لقاء بين أسامة بن لادن والمخابرات الإيرانية[٥٣]

لقد أرادت حركات إسلامية عديدة في جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق إنشاء جمهوريات إسلامية مستقلة. ففي آذار/ مارس ١٩٩٠، أكد سيد حسن مطهّر، وهو كاتب من كتاب رابطة العالم الإسلامي في صحيفة المنظمة الأسبوعية «أخبار العالم الإسلامي»، أن «قضية مسألة آسيا الوسطى وجمهورياتها ذات الأغلبية المسلمة اكتست أهمية خاصة، كما فلسطين وأفغانستان وكشمير وجنوب الفلبين».

وتابع قائلاً إن «"الثورات" الشعبية الحالية في أذربيجان وطاجيكستان الهادفة إلى تحقيق استقلال كامل، والمقاومة المتصاعدة في كازاخستان وقرغيزيا وتركمنستان وأوزبكستان، إلى جانب تزايد القمع الذي يمارسه أمراء الحرب في موسكو وسفاحو الحزب في تلك الأراضي، تشكل- من كل وجهات النظر- خلفيات كافية لالتماس مبدأ "حق الاستعادة" الذي يعالجه القرآن الكريم بوضوح»[٥٤] بعبارة أخرى، أتيحت للعالم الإسلامي فرصة حقيقية لاستعادة الأرض الإسلامية المفقودة بعد الهزيمة السوفياتية في أفغانستان، التي سمّاها مطهّر بـ«واترلو» الاتحاد السوفياتي.

بالطبع، راقت فكرة استعادة الأرض الإسلامية المفقودة أغلبَ الوهابيين المقاتلين. وبالفعل، دعم السعوديون بعض هذه التنظيمات الإصلاحية الإسلامية، خاصة حزب التحرير، الذي تأسس سنة ١٩٥٣ في العربية السعودية والأردن. إذ تملك الحركة بعض أوجه الشبه مع الوهابية، حيث اعترضت بقوة على التصوّف والعبادة في أضرحة الصوفية. كما اعترضت بشدة على الشيعة؛ ذلك أن حزب التحرير اعتزم طرد كل الشيعة من آسيا الوسطى إذا تولّى السلطة[٥٥] ونادى باستعادة الخلافة الإسلامية على آسيا الوسطى كلها، متوخياً إخضاع هذه المنطقة برمّتها لحكم زعيم واحد. فضلاً عن ذاك، آمن مؤسس حزب التحرير الفلسطيني الشيخ النبهاني أن استراتيجية نشر الإسلام ينبغي أن تضاهي المراحل التي اتبعها النبي محمد: أولاً، بنشر رسالة الإسلام سرّاً؛ ثانياً، بإعلان أهداف الدين؛ ثالثاً، بالدعوة إلى الجهاد. لكن هذا التأويل لم ينسجم مع الفهم الوهابي الأكثر تطرفاً للجهاد، كما روّجه شيخ العربية السعودية ابن باز، الذي أراد قلب المتوالية والبدء بالجهاد.

هكذا، أقرّ زعيم من آسيا الوسطى من قادة حزب التحرير أن التنظيم، الذي نشأ «في الحركة الوهابية الإحيائية بالعربية السعودية»، «سرعان ما أظهر اختلافات مع الوهابية وانشق عنها. إذ أراد حزب التحرير العمل مع الشعوب في كل بلد على حدة، وإرساء الشريعة بطريقة سلمية». لكن الوهابيين كانوا، في رأيه، متطرفين أرادوا خوض حرب العصابات وإنشاء جيش إسلامي[٥٦]

وأوجز أيمن الظواهري، نائب أسامة بن لادن، أهمية الجهاد الجيوسياسية في الجمهوريات السوفياتية السابقة بالقول:

> وتحرير القوقاز سيشكل بؤرة جهادية (أو أصولية كما تسمّيها أميركا) تؤوي آلاف المجاهدين المسلمين من أركان العالم الإسلامي وخاصة من العرب، مما يشكل تهديداً مباشراً لأميركا يتمثل في دعم وتقوية الحركة الجهادية على مستوى العالم الإسلامي. ووصول المجاهدين من الشيشان والقوقاز إلى سواحل بحر قزوين الغني بالبترول يجعل بينهم وبين أفغانستان جمهورية تركمنستان المحايدة فقط، مما سيشكل حزاماً إسلامياً مجاهداً جنوب روسيا متصلاً شرقاً مع باكستان- التي تموج بحركات الشباب المجاهد في كشمير.

ثمة غاية أخرى تكمن، بحسب الظواهري، في «تفتّت» الاتحاد الروسي نفسه. هذا الأمر «سيسقط حليفاً أساسياً لأميركا» في الحرب ضد «الصحوة الجهادية الإسلامية».

قد يصرف بعضهم النظر عن موقف الظواهري، باعتباره تصريحات شريك إسلامي متشدد لأسامة بن لادن. لكن يجب على المرء أن يتساءل، في الآن ذاته، عما إذا كانت للعربية السعودية

مصلحة وطنية ما في هذا النشاط المتشدد في آسيا الوسطى. لِمَ تدخل السعوديون حيث تدخلوا؟

طرح بروز حوض بحر قزوين، كمصدر طاقة جديد في نهاية الحرب الباردة، تحديات محتملة على السعوديين وباقي منتجي الطاقة التقليديين في الخليج الفارسي. صحيح أن احتياطات النفط والغاز في الخليج الفارسي ظلت تبدو أصغر من تلك الموجودة في قزوين. لكن احتياطات الطاقة في قزوين قد تهدد موقع العربية السعودية الفريد، باعتبارها البلد القادر على استعمال طاقتها الزائدة لسدّ أي نقص عالمي. باختصار، قد تقوّض الطاقة في روسيا وآسيا الوسطى العربية السعودية وبعض الدول الخليجية الأخرى المنتجة للنفط. من هذا المنظور، ستستفيد المصالح السعودية، بالتأكيد، من حالة غياب الاستقرار المتواصلة في القوقاز، التي أجلت تطوير موارد الطاقة وخطوط أنابيب النفط في آسيا الوسطى.

بالفعل، لم ينحصر تدخّل السعوديين في جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق الإسلامية فحسب، بل امتدّ إلى روسيا نفسها. فإذا نظر المرء في مخطط التدخل يرى أن المناطق المستهدفة في القوقاز الشمالي تبدو مناطق حساسة من الناحية الاستراتيجية.

كانت بلاد الشيشان أول منطقة ذاع صيتها في تاريخ المواجهة داخل الاتحاد الروسي. إذ اندلعت المرحلة الأولى من الحرب الروسية ضد الشيشان طيلة سنتين، من ١٩٩٤ حتى ١٩٩٦، حيث قاد التمرد الجنرال السوفياتي السابق شامل باساييف، الذي لم يكن نتاج «الوهابية الدولية»، ولم يظهر أنه تأثر بالممارسات الدينية السعودية بأي حال. لكن فرقة إسلامية في الشيشان معروفة باسم أنصار المجاهدين جاءت من أفغانستان، وكان يقودها ابن الخطاب، الذي يعتقد البعض أنه

أردني من منطقة قريبة من الحدود السعودية- الأردنية. وتدّعي مصادر أخرى أنه مواطن سعودي ولد سنة ١٩٧٠، ونسج علاقة حميمية مع أسامة بن لادن خلال الحرب الأفغانية(٥٧) وقد زعم رجال بن لادن أن ابن الخطاب كان سعودياً في واقع الأمر(٥٨) ففي حوار مع جريدة شيشانية، قال ابن الخطاب إنه جاء من «الجزيرة العربية»، لكن له روابط بالعربية السعودية، حيث أدرج موقع متخصص في جمع الدعم مؤسسة البر الدولية- وهي خيرية تستقر في السعودية- باعتبارها أداة لجمع المساهمات(٥٩) كما يظهر أن ابن الخطاب مارس نمطاً إسلامياً صارماً قريباً من الوهابية. ذلك أنه صوّر في شريط فيديو معاملته الوحشية للأسرى الروس بغية المساعدة على جهوده في جمع الدعم، جنباً إلى جنب مع المنظمات الإسلامية الدولية، خاصة في العربية السعودية(٦٠)

بل إن الحضور الوهابي في الشيشان أضحى أكثر وضوحاً. ففي شهر تموز/يوليو ١٩٩٨ اصطدمت مليشيا وهابية في مدينة «غودرميس» بالمسلمين الصوفية من القرى المجاورة، بعدما حاول الوهابيون الشيشان تدمير ضريح صوفي محلي(٦١) وكانت القوة الوهابية المتزعمة في «غودرميس» تتمثل في القائد اللواء عربي برايف، الذي سيبرز كأحد أقسى قواد الحرب في الشيشان. وسرعان ما تدهورت الوضعية الأمنية الداخلية في الشيشان ما أن أضحت المنطقة قاعدة للعمليات الإرهابية والاختطاف داخل المناطق المجاورة لروسيا، حيث وقع ١١٠٠ اختطاف على الأقل خلال الفترة التي تلت الاتفاق الروسي الشيشاني سنة ١٩٩٦(٦٢) ففي سنة ١٩٩٨، على سبيل المثال، اختطف برايف ثلاثة عمال اتصالات بريطانيين، ثم ضرب أعناقهم، مشدداً على أن تنفيذ الإعدام فيهم قد يكسبه مالاً من «أصدقائه العرب»

أكبر مما قد يجنيه من قبوله بالفدية[٦٣] وفي حزيران/ يونيو ٢٠٠١ قتلت القوات الفيدرالية الروسية برابيف ليتولّى ابن أخيه موفسار برابيف قيادة ميليشيته. وفي أواخر تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢ شنّ القائد الجديد هجوماً على مسرح موسكو حيث اختطف تسعة رهائن مدنيين.

ومع مطلع سنة ١٩٩٩ قوّضت المعارضة الإسلامية المقاتلة سيطرة الرئيس أصلان مسخادوف على الحكومة الشيشانية. وفي آذار/ مارس من السنة ذاتها اختُطف مبعوث وزير الداخلية الروسي إلى الشيشان من مطار غروزني. وقد انتقد الرئيس مسخادوف الحضور الوهابية في الشيشان، مذكراً رفاقه الشيشان أنه ينتمي إلى التعاليم الإسلامية الصوفية التقليدية: «نحن نقشبنديون [أعضاء جماعة صوفية تعود إلى القرن الرابع عشر] وقادريون [أعضاء جماعة صوفية تعود إلى القرن الحادي عشر] وسُنّة، ولا مكان لأي طائفة إسلامية أخرى في الشيشان»[٦٤] واتهم بالخصوص العربية السعودية لتمويلها المعارضة الوهابية. وقد اكتست حجج مسخادوف ضد الوهابية طابعاً دينياً وسياسياً في الآن ذاته، حيث رفض المحاولة الوهابية لتطهير الإسلام في آسيا الوسطى من بعض التقاليد كتمجيد الأولياء بالقول: «لا يمكن أن نسمح بوضعية يدوس فيها أعداء الإسلام تقاليد الشعب الشيشاني القديمة، ويدنّسون أسماء الأولياء، ويختطفون الناس ويقتلونهم. لقد أتاح لنا التاريخ خلال القرون الأربعة الماضية فرصة بناء دولتنا الحرة. لكن الذين باعوا أرواحهم بالدولار يقفون في طريقنا»[٦٥] على أن الروس الذين وثقوا أول الأمر بمسخادوف وقدرته على الوقوف في وجه القوات الإسلامية، رأوا في نهاية المطاف أنه شريك سلام لا يعوّل عليه بل شكوا في تآمره مع المتطرفين الذين انتقدهم.

واشتعلت الحرب في الشيشان مجدداً خلال آب/ أغسطس ١٩٩٩



التمدّد الإسلامي في الشيشان وداغستان

عندما نظم الشيشان انتفاضة في جمهورية داغستان المجاورة(٦٦) وقد ازدادت التحديات في داغستان لأن الجمهورية كانت تراقب ٧٠ في المئة من الأنبوب الساحلي الروسي الواقع على بحر قزوين الغني بالنفط، بينما كانت أنابيب النفط تنطلق من أذربيجان لتعبر داغستان، قبل أن تخترق الشيشان وباقي الأراضي الروسية إلى البحر الأسود(٦٧) ثم وسّع زعيم التمرّد الشيشاني شامل باساييف أهداف الحرب معلناً الجهاد لتحرير المناطق المجاورة ذات الأغلبية المسلمة من الطغيان الروسي(٦٨) وفي يوم ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩ أعلن عبدالله بن صالح العبيد، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، أن من حق داغستان أن تكون دولة مستقلة شأنها شأن الشيشان. وأدان الغارات الروسية على «الأراضي الإسلامية،» معلناً أن من حق كل

المناطق الإسلامية في الاتحاد السوفياتي السابق أن تستقل كجمهوريات يوغوسلافيا السابقة[٦٩] ومن حيث الجوهر وافقت منظمة دولية تديرها السعودية على استراتيجية تمزيق أوصال الاتحاد الروسي. وعندما فجّرت سلسلة من بنايات الشقق الروسية في «فولغودونسك» وفي «بويناكسك» وموسكو في آب/ أغسطس ١٩٩٩، مما خلّف نحو ثلاثمئة قتيل من المدنيين، بدا أن الشيشان تبنوا استراتيجية جديدة تتمثل في نقل الحرب إلى قلب روسيا[٧٠]

كانت داغستان مكشوفة أمام اختراق القوات المتطرفة الخارجية على الخصوص. فبحسب إحدى التقديرات، جاء ٨٠ في المئة من حجاج الاتحاد الروسي إلى العربية السعودية من داغستان. وقد اشترك العديد من مسلمي داغستان، خلال الفترة الممتدة من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٦، في الحرب الشيشانية ضد الروس، فوقعوا تحت تأثير الوهابية[٧١] والأهم أن داغستان كانت فقيرة، شأنها شأن أفغانستان في مطلع الثمانينيات، وكان يسهل اختراق الدول الفاشلة اقتصادياً. وكان تجنيد العاطلين أمراً سهلاً حيث كان للمساعدات المالية أثر سياسي أكبر بالأحرى. وحققت الوهابية نجاحات أكيدة في داغستان خلال هذه الفترة. ووصف الزعيم الوهابي «البراء ماغوميدوف» رحلته من الشيشان إلى داغستان سنة ١٩٩٧ بـ«الهجرة»، راسماً بوضوح مقارنة مع هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة. فقدأقام «ماغوميدوف» في مدينتين «جمهورية وهابية» صغيرة، عبارة عن مجتمع جد منضبط انخرط في صلاة الجماعة والدراسة، حيث درست مجموعة «ماغوميدوف» أعمال سيد قطب ومولانا أبي الأعلى المودودي وحسن البنا ومحمد بن عبدالوهاب. وفي حزيران/ يونيو ١٩٩٨ قال وزير الداخلية الروسي «سيرجي ستيفانين» خلال مؤتمر

«كومونويلث» الدول المستقلة المنعقد في طشقند أن «عبارات الأصولية. أو الوهابية. باتت موضوعاً جدياً في «كومونويلث» الدول المستقلة». وأعلن أن روسيا وأذربيجان كانتا تباشران دراسة مشتركة حول عبارات الوهابية في داغستان(٧٢)

واتهمت الأجهزة الأمنية الفيدرالية الروسية المتمردين الشيشان في داغستان بتلقي مساعدات مالية من منظمة الحرمين السعودية(٧٣) ففي سنة ١٩٩٧ دعمت هذه المنظمة جماعات متطرفة في داغستان؛ وفي سنة ١٩٩٩ شرعت في العمل داخل أذربيجان. وفي أيار/مايو ٢٠٠٠، أغلقت أذربيجان مكاتب المنظمات الخيرية السعودية وقال مسؤول في وزارة العدل إن أنشطة منظمة الحرمين «مثلت تهديداً أمام دولة أذربيجان». بل بدا الوهابيون السعوديون مشتركين في القتال؛ ذلك أن القوات الفيدرالية الروسية أعلنت أن الوهابي السعودي المولد أبا عمر محمد السيف، الذي ورد أنه عضو في منظمة الحرمين، قُتل في صراع بين وحدتهم ومقاتلين في الشيشان(٧٤)

وهوجمت جمهوريتان قوقازيتان روسيتان أخريان في الشمال سنة ٢٠٠١ هما: كاراشاي- شيركيسيا وكباردينو-بلكاريا. وأعلن «فلاديمير أوستينوف»، المدعي العام في روسيا، أن السلطات الروسية اعتقلت أحد عشر وهابياً حاولوا الإطاحة بالحكومتين الشرعيتين في هاتين الجمهوريتين، وإقامة «نظام وهابي». واكتشفت الشرطة الروسية مخابئ أسلحة و«أدبيات وهابية» أيضاً، كما قال «أوستينوف». فبحسب هذا الأخير ثمة ١٥٠٠ تنظيم ديني إسلامي في مقاطعة «فولغا» الفيدرالية، مشيراً إلى أن «الوهابيين- المسلمين الأكثر تطرفاً- يوسعون تدريجياً مجال تأثيرهم في هذه التنظيمات بدعم مباشر وغير مباشر من الخارج»(٧٥)

لقد واجهت روسيا صعوبة كبرى في إيقاف تسلل المتطرفين الوهابيين. إذ أقامت بعض هذه الجماعات قواعد خارج الأراضي الروسية. ففي منطقة «بانكيسي جورج» المأهولة بالشيشان الواقعة داخل الشيشان قدّم خمسة آلاف وهابي مساعدات للاجئين الشيشان وسكان محليين آخرين، محاولين إحداث حركة وهابية، كما قال ممثل حكومي جورجي. في الواقع، سجّل ملاحظ أمريكي زار منطقة «بانكيسي جورج» خلال آب/ أغسطس ٢٠٠٠ أن هذه الوهابية كانت ميّالة إلى التحريض على العنف: «سمحت نسخة «الوهابية» التي انتشرت في القوقاز، وهي أشبه بوهابية أسامة بن لادن، باعتبار المسلمين الآخرين مشركين يمكن أن يسلبوا ويقتلوا»[٧٦] كما نهضت الخيريات السعودية بالوهابية، حيث نشطت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية السعودية داخل «بانكيسي جورج»، مسرّبة الأموال إلى الأنصار المجاهدين، بقيادة ابن الخطاب، خلال سنتي ١٩٩٩ و٢٠٠٠[٧٧] وفي الآن ذاته، واجهت أذربيجان تسلل الوهابية، حيث قال نائب وزير الشؤون الأمنية القومية في أذربيجان إن «٣٠٠ مواطن أذربيجاني تدرّبوا خلال السنوات الماضية في المراكز «الوهابية» بداغستان». وبالنسبة لروسيا بات هذا الأمر مشكلةً مطروحة على صعيد دولي[٧٨]

وقد حذر «سيرجي كيريينكو»، مبعوث الرئيس «فلاديمير بوتين» إلى مقاطعة «فولغا» الفيدرالية، من عودة آلاف الزعماء المسلمين من التدريب في العربية السعودية، وكذا في الدول الإسلامية الأخرى، ومن نشرهم الوهابية بين مسلمي روسيا. وقال إن الإسلام التقليدي في حاجة إلى أن يتعزز داخل روسيا. لكن روسيا لم توفر المال الكافي لدعم الإسلام الأكثر اعتدالا وأشكاله الروسية المحلية. من هنا تمتعت أشكال الإسلام التي دعمها السعوديون هناك بأفضلية كبيرة[٧٩]

وموّلت الخيريات الوهابية في العربية السعودية المراكز والمدارس الدينية في تارتارستان بجمهورية باشقورتوستان، وجمهوريات أخرى على امتداد روسيا المركزية. فانشغلت القيادة الروسية بالوحدة الترابية المستقبلية لروسيا نفسها. ومهما يكن من أمر، فإن عدد المسلمين يصل إلى ٢٠ مليوناً من بين ١٤٣ مليون روسي؛ بينما تتكون سبع جمهوريات، من بين إحدى وعشرين جمهورية في الاتحاد الروسي، من أغلبيات مسلمة. وخلص الرئيس بوتين سنة ٢٠٠١ إلى أنه «إذا استطاعت القوات المتطرفة إحكام السيطرة على القوقاز فإن هذه العدوى قد تنتشر في نهر فولغا، وتنتقل إلى الجمهوريات الأخرى، فإما سنواجه أسلمة روسيا بشكل كامل، وإما سنجبر على الموافقة على تقسيم روسيا إلى عدة دول»[٨٠]

ثمة مكان أخير دمغته الوهابية السعودية ببصمتها. فمع مطلع سنة ٢٠٠٠ أصبحت التفجيرات الانتحارية، التي ارتكبها المسلمون السنّة، طاغية في صراعين- خاصة في فلسطين حيث هاجم الانتحاريون من حماس والجهاد الإسلامي إسرائيل، وهاجم الانتحاريون الشيشان الجيش الروسي[٨١] وقد بارك الفقهاء الوهابيون السعوديون- الشيخ حمود الشعيبي، والشيخ حميد بن عبدالعلي، والشيخ سليمان بن ناصر العلوان- هذه الهجمات. ورغم أن هؤلاء الفقهاء لم يكونوا في مرتبة العلماء السعوديين فإن آراءهم الدينية انتشرت على نطاق واسع، بل نشرتها حماس على موقعها الإلكتروني. وقد بدأ الشيخ بن باز في شرعنة الإرهاب الفلسطيني سنة ١٩٨٩، عندما اعتبر الكفاح الفلسطيني جهاداً. وفي منتصف التسعينيات بارك أحد زملاء ابن باز، وهو المحترم جداً الشيخ محمد بن صالح العثيمين، بالفعل تفجيرات حماس الانتحارية[٨٢]

الحرب من أجل البوسنة والبلقان

في آذار/ مارس سنة ١٩٩٢، أي قبل شهر من سقوط آخر بقايا النظام المؤيد للاتحاد السوفياتي في أفغانستان، أعلنت البوسنة- الهرسك استقلالها عن يوغوسلافيا، فعمدت ميليشيا صربية إلى قصف عاصمتها سراييفو، فانتقل نحو أربعة آلاف من المقاتلين الإسلاميين العرب في الحرب الأفغانية إلى البوسنة، وأغلبهم من العربية السعودية وبلدان أخرى من شبه الجزيرة العربية[(٨٣)]

ويبرز من بين هؤلاء الأفغان السعوديين اسم أبي عبدالعزيز- عُرف أيضاً باسمه الحربي «بارباروس» - الذي تأثر في العربية السعودية، شأنه شأن أسامة بن لادن، بعبدالله عزام الذي درّس في أواخر السبعينيات بجامعة الملك عبدالعزيز في جدة. والتحق «بارباروس» بعزام في بيشاور سنة ١٩٨٤ وقبل ذهابه إلى البوسنة سنة ١٩٩٢ استشار عدداً من كبار العلماء الوهابيين في العربية السعودية بمن فيهم الشيخ ابن باز الذي ساند انخراطه في الصراع البلقاني ضد الصرب[(٨٤)] إذ دعا ابن باز، بصفته القيادية في رابطة العالم الإسلامي، جميع المنظمات الإسلامية إلى مساعدة المسلمين البوسنيين في حربهم ضد «أعداء الله»[(٨٥)]

ومع نهاية سنة ١٩٩٢ كان نحو أربعمئة متطوع سعودي يقاتلون مع القوات المسلمة في البوسنة، حيث التحق هؤلاء بالمقاتلين الأفغان من مصر وباكستان والسودان والجزائر. ونظراً للاختلافات الإيديولوجية والدينية بين الجنود العرب وأبناء البوسنة تشكل فوج مجاهدين منفصل سنة ١٩٩٣ فقاد «بارباروس» هذه الوحدة، التي تفككت بعد توقيع اتفاقيات «دايتون» سنة ١٩٩٥[(٨٦)] كانت هذه الوحدة ذات قيمة عسكرية مشكوك فيها، حيث لم تشكل سوى ٢ إلى ٣ في المئة من

الجيش الحكومي البوسني. وما أن تحسنت المنشآت البوسنية حتى تراجع شأن الوحدة[٨٧] فضلاً عن ذلك، التحق العديد من السعوديين بالقتال لفترات تمتد شهراً أو شهرين ثم عادوا إلى العربية السعودية. لكن القوات العربية اكتسبت سمعة المقاتلين الأشداء حيث عُرفوا بضرب أعناق «الصرب المسيحيين» والتمثيل بجثث أعدائهم[٨٨] غير أن هذه الأفعال غالباً ما قوّضت قضية مسلمي البوسنة الذين قدموا أنفسهم كضحايا الهمجية الصربية.

كان للمال السعودي أثر أكبر في الصراع البوسني، وقد جُمِع المال على مستويات عليا في العربية السعودية حيث ترأس سلمان بن عبدالعزيز شقيق الملك فهد الهيئة العليا لجمع التبرعات لمسلمي البوسنة. ففي ١١ آب/أغسطس ١٩٩٥ موّل الملك فهد نفسه حفلاً خيرياً داخل العربية السعودية لجمع أكثر من مئة مليون دولار[٨٩] وقد ساعدت هذه الأعمال الخيرية على نقل المتطوعين، والمؤن خاصة، إلى الجبهة البوسنية. وأرسلت الندوة العالمية للشباب الإسلامي الفرق الإسلامية بغية قتال الصرب ونقل الجرحى من المتطوعين السعوديين إلى ألمانيا قصد تلقي العلاج[٩٠] ونقلت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، التي تتخذ من السعودية مقراً لها، المساعدات المالية (وأغلبها مصدره الأفراد والشركات السعودية) وعمال الإغاثة إلى البوسنة. وأكد المسؤولون السعوديون أن الأعمال الخيرية أتاحت أيضاً الأسلحة والدعم للمتطوعين العرب[٩١]

وقد سمحت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية لأنصار الأفغان باختراق أجزاء أخرى من البلقان أيضاً. فعلى سبيل المثال، وصل محمد الظواهري، شقيق أيمن الظواهري زعيم القاعدة، إلى «تيرانا» عاصمة ألبانيا سنة ١٩٩٢، وعمل مهندساً لدى هيئة الإغاثة الإسلامية

العالمية. لكن الظواهري كان يعمل في الواقع لصالح منظمة شقيقه الجهادية المصرية لما كانت بصدد الاندماج مع قاعدة بن لادن. وفي سنة ١٩٩٣ عيّن أسامة بن لادن أيمن الظواهري لإدارة عمليات القاعدة في البلقان[٩٢].

ثمة هيئة خيرية سعودية أخرى فتحت مكاتبها في ألبانيا هي منظمة الحرمين. وقد أُبعد أحد موظفيها، وهو أحمد إبراهيم النجار، سنة ١٩٩٩ من ألبانيا إلى مصر حيث حكم عليه في ما بعد بالإعدام بتهمة الإرهاب وكان شريكاً للقاعدة. وفي سنة ٢٠٠٢ جمّد وزير الخزانة الأمريكية «بول هـ. أونيل» الحسابات البنكية لفرع الحرمين في البوسنة لأنها حوّلت الأموال إلى الإرهابيين، بما في ذلك القاعدة. واتخذت الولايات المتحدة الأمريكية الإجراءات ذاتها ضد فرع الحرمين في الصومال. واعتقل عمال الحرمين في ألبانيا بسبب ارتباطاتهم بجماعات إرهابية مصرية[٩٣].

وقد نشر كل من المتطوعين السعوديين والخيريات السعودية الوهابية بين مسلمي البوسنة. إذ خاب أملهم من نمط الإسلام الذي صادفوه في البوسنة، لأن «مسلمي البوسنة أوروبيون»، كما لاحظ مسؤول أممي. «بعضهم متدينون، لكن أغلبهم ليسوا كذلك. بل إن العديد منهم لم يعرفوا كيفية الصلاة بعد خمسين عاماً من الشيوعية، حيث كانوا يشربون الخمر، ويدخنون، ويرقصون، ويأكلون لحم الخنزير، ويعيشون كما يفعل جيرانهم الصرب والكروات»[٩٤] وقد ارتأى الوهابيون تطهير الشرك الإسلامي الأوروبي السائد في البوسنة والاقتراب به إلى ما عرفوه في الشرق الأوسط، فخرّب المتطوعون العرب في البوسنة المقاهي، وحثوا النساء البوسنيات على ارتداء الحجاب، وشجعوا الرجال على ترك اللحى[٩٥].

وظلت الخيريات السعودية تنشط في البلقان حتى عندما بدأت جهود إعادة الإعمار بعد الحرب. لكن الصدام بين وهابية المتبرعين السعوديين وشكل الإسلام الذي زاوله المتلقون البلقان بات متأججاً أكثر. فعلى سبيل المثال، كانت المساجد البلقانية تزيّن وفق التقاليد العثمانية القديمة، بزخارف وخصائص معمارية فريدة لم تستعمل في مساجد شبه الجزيرة العربية. وعندما موّل قادة الخيريات السعودية، الذين أحسوا أن من مهمتهم نشر الوهابية، إعادة بناء المساجد المتضررة جرّاء الحرب كانوا متأكدين أنهم سينزعون الزخارف التزيينية. فعند إعادة بناء مسجد غازي خسرو بك في سراييفو- الذي يعتبر أعظم البنايات الإسلامية في جنوب شرق أوروبا- دكّت الوكالة السعودية، التي أشرفت على المشروع، الجداريات القديمة والقرميد الخزفي. بل إن السعوديين دمّروا المساجد في كوسوفو، حيث يعود بعضها إلى خمسمئة سنة كانت خلالها الإمبراطورية العثمانية تحكم كوسوفو. وفي حالتين بارزتين أزيلت المساجد القديمة، وحلّت محلها مساجد أكبر افتقدت إلى زخارف معبّرة[٩٦]

هكذا، ومثلما خرّب الطالبان المتأثرون بالوهابية التماثيل البوذية في وادي باميان الأفغاني، لم يجد الوهابيون في البلقان غضاضة في اقتلاع رموز الثقافات الأخرى، مهما كانت قيمتها الأثرية والثقافية. لكنهم كانوا، في هذه الحالة، يخرّبون الثقافة *الإسلامية*. إذ سعت الوهابية السعودية إلى استعادة إسلام القرن السابع الطاهر، متخطية قرون الحضارة الإسلامية في عهد الإمبراطورية العثمانية.

كان ثمة صدام ثقافي يتهيأ، حيث لاحظ رئيس المهمة الأممية في البوسنة أن «هناك صراعاً بين التأويل الوهابي للإسلام، الذي تموّله السعودية، والفهم العثماني»[٩٧] وبالفعل، اعترف مسؤول بوسني

بذلك قائلاً: «نعاني مشكلة عويصة مع السعوديين؛ فهم يوزعون أموالاً طائلة للمساعدة على إعادة بناء البوسنة. لكنهم يبنون أيضاً المساجد وينشرون إسلاماً غريباً عن إسلامنا البوسني»[٩٨] وفي ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٩ أعلنت وكالة الأنباء في كوسوفو، الذراع الإعلامية لجيش تحرير كوسوفو السابق ما يلي:

> لأزيد من قرن، فصلت البلدان المتحضرة الدين عن الدولة. وها نحن نرى اليوم، ليس في كوسوفو فقط، بل حيث يعيش الألبان، إدماج الدين في المدارس العمومية.
> إذ أحدثت منظمات إسلامية أجنبية تتخفى وراء برامج الدعم دروساً تكميلية للأطفال. وتبث بعض المحطات الإذاعية. اليوم برامج ليلية بالعربية، التي لا يفهمها أحد، والتي قد تقود إلى التساؤل: هل نحن في بلد عربي؟ *لقد آن الأوان لفصل المساجد الألبانية عن الارتباطات العربية، ولتطوير الإسلام بناء على الثقافة والعادات الألبانية* [إبراز الحروف من إضافة الكاتب][٩٩]

وفي الآن ذاته، باتت الصلات بين الخيريات السعودية في البلقان والإرهاب الدولي مثار اهتمام. ففي تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١ أغارت قوة تابعة لحلف شمال الأطلسي (الناتو) على مكاتب الهيئة السعودية العليا لمساعدة مسلمي البوسنة في سراييفو. إذ كان يفترض من الهيئة، التي أسسها الأمير سلمان بن عبدالعزيز سنة ١٩٩٣، مساعدة يتامى الحرب البوسنة، حيث جمعت ٦٠٠ مليون دولار. لكن غارة حلف الناتو أماطت اللثام عن خرائط واشنطن دي. سي، حيث ظهر التركيز على بنايات الحكومة الأمريكية، عبر برنامج حاسوبي

يشرح كيفية استعمال طائرات رش المبيدات (وهي منهجية لنشر الأسلحة الكيماوية)، وصور الأهداف الأمريكية السابقة من الهجمات الإرهابية. وقد اعتقلت الولايات المتحدة الأمريكية المشتبه في ارتباطاتهم بالوكالة السعودية، وأودعتهم سجن «غوانتانامو»، إلى جانب المشتبه بهم من القاعدة المعتقلين أثناء الحرب الأمريكية في أفغانستان[١٠٠]

وفي الآن ذاته، أغارت الشرطة البوسنية على مكاتب هيئة البر في سراييفو وزينيكا التي اشتبه في صلاتها بالقاعدة[١٠١] إذ كانت هذه الخيرية فرعاً من هيئة البر الإسلامية، التي كان مقرها جدة بالعربية السعودية حتى سنة ١٩٩٣ ثم أغلقت الحكومة السعودية مكتب جدة، بعد شكاوى من الجزائر ومصر مفادها أن الهيئة كانت تموّل معارضتهما الإسلامية[١٠٢] لكن فروعها الأخرى ظلت سليمة.

في نهاية المطاف، بدأ مسؤولو المخابرات البوسنية ينظرون عن كثب إلى أنشطة منظمة الحرمين السعودية. إذ لاحظ تقرير للمخابرات البوسنية أن الحرمين «افتقدت بوضوح إلى مشاريع إنسانية ملموسة» في البوسنة. ووفق هذا التقرير، كان من المرجح أن الحرمين «غطاء زائف». وخلص التقرير إلى أن الحرمين «تصرفت كقناة لتمويل أنشطة التنظيمات الإرهابية»، مشيراً أيضاً إلى أن مكاتب الحرمين في الصومال وظفت أعضاء تنظيمات أسامة بن لادن الإرهابية، وموّلت عملياتهم[١٠٣]

الوهابية في أمريكا

منذ منتصف الستينيات ظلت التنظيمات الوهابية بقيادة سعودية نشيطة في الولايات المتحدة الأمريكية. ذلك أن جمعية الطلبة

المسلمين (MSA)، التي تأسست سنة ١٩٦٣ بجامعة «إلينوي»، ظلت تنشر منشورات الندوة العالمية للشباب الإسلامي على موقعها الإلكتروني. كما ظهرت أعمال الوهابية الأساسية، بما في ذلك الترجمة الإنجليزية لمؤلف محمد بن عبدالوهاب *«كتاب التوحيد»*، في الفصل الخاص بجمعية الطلبة المسلمين على موقع جامعة كاليفورنيا الجنوبية.

وقد تعمّق البروفيسور سليمان نيانغ، وهو مسلم صوفي ينتقد «وهبنة الحركة الإسلامية» في أمريكا، في التاريخ الاجتماعي والفكري لجمعية الطلبة المسلمين وحركات إسلامية أخرى خلال الستينيات. ففي نظر نيانغ، تأسست جمعية الطلبة المسلمين على يد مسلمين من شبه القارة الهندية، كانوا من أتباع مولانا أبي الأعلى المودودي، وعلى يد طلبة عرب كانوا يتماهون مع الإخوان المسلمين وأفكار سيد قطب. وكما لاحظ ملاحظ، «لم يسمح بأي انتقاد للعربية السعودية خلال اجتماعات جمعية الطلبة المسلمين السنوية» خلال الستينيات والسبعينيات، لأن «الموافقة الرسمية للوهابية بقيت قوية»، خلال هذه الفترة[١٠٤]

وبالعودة إلى الشرق الأوسط خلال السبعينيات، استفاد المودودي والإخوان المسلمون من دعم مالي سعودي متزايد. فضلاً عن ذلك، راكم العديد من الإخوان المسلمين، الذي فروا من عبدالناصر خلال الستينيات، ثروات في العربية السعودية وقطر قبل الانتقال إلى كاليفورنيا الجنوبية. لكنهم باتوا وهابيين، وهم لاجئون في الخليج. وكما سبق القول، حصل العديد من الإخوان المسلمين على مواقع في النظام التربوي السعودي، خاصة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة. وفي الولايات المتحدة الأمريكية صاروا ينشطون في تنظيمات

إسلامية. وقد تمثل أول مؤشر على التزامهم بالوهابية في اعتراضهم على ممارسات إسلامية حرّمها الفقهاء الوهابيون، مثل الاحتفال بعيد المولد النبوي.

وفي أواخر السبعينيات صار المسلمون، بعد العودة إلى دينهم، ينشطون في الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية (ISNA) التي تأسست سنة ١٩٨١ وفي الآن ذاته، كتب نيانغ أن مسلمي الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية رفضوا التصوّف وكان ذلك طبعاً نتيجة التأثير الوهابي. هذه المواقف داخل الجمعية كانت شبيهة جداً بمواقف المسلمين الأمريكيين الذي أسّسوا جمعية الطلبة المسلمين. إذ كانت القيادة العليا في الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية نشيطة في جمعية الطلبة المسلمين، أو جمعتها روابط برابطة العالم الإسلامي، حيث كان سيد محمد سيد رئيس جمعية الطلبة المسلمين من سنة ١٩٨٠ إلى سنة ١٩٨٣، و«كان رائداً في تحوّلها إلى الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية»، وفق ما جاء في سيرته الرسمية على موقع الجمعية[١٠٥]

وتولّى مزمل ح. الصديقي، الذي حصل على البكالوريوس في الدراسات الإسلامية والعربية بالجامعة الإسلامية في المدينة سنة ١٩٦٥، رئاسة الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية من سنة ١٩٩٦ إلى سنة ٢٠٠٠ وكان في السابق رئيس جمعية الطلبة المسلمين، وعمل مع رابطة العالم الإسلامي[١٠٦] وقد عُرف بتصريحاته المتطرفة التي دعا فيها إلى دولة إسلامية تحل محل إسرائيل، وحذّر الأمريكيين في تجمّع حاشد في نيويورك من أن «غضب الله آت»، رداً على السياسات الأمريكية في الشرق الأوسط[١٠٧] ووصل خليفة الصديقي الشيخ محمد نور عبدالله إلى الولايات المتحدة الأمريكية قادماً من السودان، لكنه تلقى تعليمه في العربية السعودية حيث حصل على البكالوريوس

في الشريعة بالجامعة الإسلامية في المدينة، وعلى الماجستير بجامعة أم القرى في مكة[١٠٨] وكانت الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية منظمة مظلة تمثل عدة جماعات إسلامية مختلفة، ولكن قيادتها بدت، مع ذلك، كأنها آتية من أرضية مشتركة، ومن ثم قد تتعاطف مع المنظور الديني السعودي.

وقد تسرّب توجّه الجمعية الديني الموالي للسعودية إلى سياستها. فبينما وافقت بعض المنظمات العربية- الأمريكية البارزة مبدئياً على اتفاقات أوسلو لسنة ١٩٩٣ بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية شجبت الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية وجمعية الطلبة المسلمين أي اتفاق سلام مع إسرائيل[١٠٩]

ولنشر الوهابية في الولايات المتحدة الأمريكية استعمل السعوديون أداة أثبتت أنها فعّالة في مناطق أخرى من العالم. إنها المال. إذ ضمنت مؤسسة الوقف الإسلامي في أمريكا الشمالية (NAIT) أصول الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية وجمعية الطلبة المسلمين معاً. كما ساعدت مؤسسة الوقف الإسلامي في أمريكا الشمالية المجتمعات الإسلامية على بناء المساجد، وباتت المؤسسة تعوّل في هذه المنطقة على الدعم السعودي. وقدّر مصدر مطلع على العلاقات السعودية في أمريكا أن نصف المساجد والمدارس الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية شُيّد بالمال السعودي[١١٠]

إن السؤال الجوهري، الذي ينشأ من هذه المساهمات، هو مدى شعور أولئك الذين يقبلون الأموال السعودية بأنهم مكرهون على اعتناق الوهابية. وقد أنكرت السفارة السعودية في واشنطن ارتباط هذه الحلقات بالتبرعات السعودية. غير أن المسلمين الأمريكيين توصلوا إلى خلاصات مختلفة. فالإمام حسن القزويني، الذي يترأس المركز

الإسلامي في أمريكا بديترويت بولاية ميتشيغان، والذي رفض القبول بالدعم السعودي، صرّح قائلاً إن «التوقع يفيد أن المجتمعات التي تتلقى المال ينبغي أن تنظر إلى الوهابية بمزيد من الاحترام»(١١١) في المقابل، تمتلك مؤسسة الوقف الإسلامي في أمريكا الشمالية منظوراً دينياً محدداً، حيث يظهر دليلها بعضاً من توجهها؛ ذلك أنه ينهض بكتابات مؤسس الوهابية محمد بن عبدالوهاب(١١٢) كما توزع أعمال سيد قطب ومولانا أبي الأعلى المودودي.

وتعرض بعض التنظيمات الأخرى، الأكثر تطرفاً، في أمريكا أجندة تتعاطف مع الوهابية السعودية. إذ أكد رئيس التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية الذي يتخذ من ميتشيغان مقراً له، والذي تأسس سنة ١٩٩٣، لصحيفة *«نيويورك تايمز»* سنة ٢٠٠١ أن نصف أموال التجمع مصدره حكومة العربية السعودية، والباقي مصدره مانحون سعوديون خواص(١١٣) وفي أيار/مايو ٢٠٠١- بعد أربعة أشهر على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر الإرهابية- نشر موقع التجمع الإسلامي تبريرات لـ«عمليات الشهادة،» بما في ذلك تحطيم طائرة «على هدف حاسم تابع للعدو»(١١٤) وغالباً ما نظم التجمع الإسلامي ندوات تقدّم متحدثين أمثال بلال فيليبس، وهو جامايكي اعتنق الإسلام وأنجز عمل تخرّجه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وتابع دراسات عليا في الفلسفة الإسلامية بجامعة الملك سعود في الرياض حيث عاش بضع سنوات وعكس منظوراً سعودياً على نحو واضح. فضلاً عن ذلك، يوفر التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية، شأنه شان رابطة العالم الإسلامي، برامج دعوية وهابية حيوية موجهة إلى سكان السجون في أمريكا، حيث اعتبرت رابطة العالم الإسلامي أن عدد السجناء الأمريكيين الذين يعتنقون الإسلام كانوا في تزايد مستمر(١١٥)

وحافظ التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية على علاقات عمل حميمية مع مجلة *الصراط* المستقيم، التي اتخذت من «بيتسبورغ» مقراً لها، وشرعت في الصدور سنة ١٩٩١، والتي ظلت مقالاتها تدين الأمريكيين واليهود وباقي المسلمين باعتبارهم «كفاراً» أو «مرتدين». كما استعمل مصطلح «الصليبيين- الصهاينة». وقامت الرسالة الدينية في المجلة على امتداح فضيلة الجهاد: «كل من يعتقد أن الجهاد ليس واجباً أو يسعى إلى إنكاره فهو كافر أو مرتد». ففي سنة ١٩٩٨ بكت المجلة المجاهدين التسعة عشر الذي قتلوا في ضربة صاروخية انتقامية أمريكية ضد أفغانستان بعد تفجير سفارتين أمريكيتين شرق أفريقيا[١١٦] هذا المنظور الجذري عكس بنية مكتب *الصراط* الاستشاري، حيث تشكل المكتب من فقهاء ينتمون إلى بلدين شرق أوسطيين هما: العربية السعودية واليمن. وقد عاد ناشر *الصراط* بندر البُشَري، في نهاية المطاف، إلى العربية السعودية للتدريس في جامعة الملك فهد. كما عاد محسن المحسن، رئيس التحرير من ١٩٩٦ إلى ٢٠٠٠، إلى العربية السعودية للتدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وقد ساعد الرجلان على إنشاء مؤسسة التوحيد، وهي منظمة طلابية في «بيتسبورغ» دافع متحدثها الرسمي بقوة عن محتوى *الصراط*.

وقد أضحت الولايات المتحدة الأمريكية، خلال الحرب ضد الاحتلال السوفياتي في أفغانستان، مركزاً مهماً لحملات جمع المال لفائدة العرب الأفغان، الذين كانوا يحظون بالدعم السعودي. ففي الفترة الممتدة بين ١٩٨٥ و١٩٨٩ أقام عبدالله عزام، خلال عمله في باكستان، شبكة دعم في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث زار عشرات المدن الأمريكية شارحاً فلسفته في الجهاد. وأنشأ مكاتب رئيسية لجمع الأموال، تُدعى مراكز الكفاح، في أتلانتا، وشيكاغو،

وبروكلين، وجيرسي سيتي، وبيتسبورغ، وتوكسون، ومكاتب فرعية في ثلاثين مدينة أمريكية أخرى[١١٧]

ومن أهم محميي عزام في الولايات المتحدة الأمريكية وائل حمزة جليدان، وهو مواطن سعودي ينتمي إلى عائلة ذات علاقات واسعة في المدينة المنورة. ترأس فرع جمعية الطلبة المسلمين بجامعة أريزونا أثناء دراسته هناك، كما ترأس المركز الإسلامي في توكسون (Tucson) بين سنتي ١٩٨٣ و١٩٨٤[١١٨] وسرعان ما انجذب نحو الالتحاق بالكفاح الأفغاني وغادر الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٨٥ وفي النصف الثاني من الثمانينيات قدّم خدمات للمجاهدين الأفغان كواحد من رؤساء جمعية الهلال الأحمر في باكستان حيث عمل مباشرة مع عبدالله عزام وأسامة بن لادن[١١٩]

وفي أوائل التسعينيات انتقل المركز الإسلامي في توكسون إلى التطرف الإسلامي، حيث حرّضت البلاغة المتسللة إلى خطب الجمعة أعضاءه على الدفاع عن الإسلام من «الكفار». وثمة مؤشرات مفادها أنه تحول إلى مركز تجنيد تابع للقاعدة. فبعد أن غادر وائل حمزة جليدان إلى باكستان التحق وديع الحاج، وهو مواطن أمريكي الجنسية من أصول مسيحية لبنانية (اعتنق الإسلام)، بمسجد توكسون. وسيصبح وديع الحاج في ما بعد السكرتير الشخصي لأسامة بن لادن في السودان، وسيتهم بتدبير التفجيرات المتزامنة في السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا سنة ١٩٩٨ كما التحق هاني حنجور، وهو مواطن سعودي من الطائف درس بجامعة أريزونا، بالمركز الإسلامي في توكسون سنة ١٩٩١، حيث انجرف خلال هذه الفترة إلى الإسلام الحركي، وعاد إلى العربية السعودية بعد أن قضى نحو خمسة عشر شهراً في أريزونا، لكنه رجع إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة

١٩٩٦، وتسجل في مدرسة للطيران بـ«سكوتسدايل» بأريزونا. بعد خمس سنوات، وعقب زيارة قصيرة إلى العربية السعودية سنة ١٩٩٩، قاد طائرة الخطوط الجوية الأمريكية في رحلتها رقم ٧٧، يوم ١١ أيلول/ سبتمبر، ليصدم بها مبنى البنتاغون ويقتل ١٨٤ أمريكياً[١٢٠]

ثمة منظمة خيرية سعودية أخرى، هي لجنة البرّ الإسلامي، التي أنشأت مكاتبها في الولايات المتحدة الأمريكية خلال التسعينيات. وقد تأسست اللجنة، التي يوجد مقرها في مدينة جدّة، في البداية لتقديم الدعم الإنساني للمدنيين الأفغان خلال الحرب ضد السوفيات. لكن اللجنة أنشأت أول مكاتبها في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٩٢ بعد نهاية الجهاد الأفغاني وتنوّعت أنشطتها. غير أن الحكومة السعودية أغلقت مقرها في جدة في شباط/ فبراير ١٩٩٣، بعيد افتتاح مكاتبها الفرعية الأمريكية، وذلك بعد أن اشتكت الجزائر ومصر من أن لجنة البر كانت تدعم معارضيهما الإسلاميين[١٢١] ومع ذلك، ظل مكتب شيكاغو عاملاً حتى سنة ٢٠٠١ ولم يكتف موظفوه بجمع المال فحسب، خلال الفترة الممتدة بين ١٩٩٥ إلى ١٩٩٨، بل إن أحد موظفيها ألقى خطابات متطرفة عبر الولايات المتحدة الأمريكية، داعما الجهاد في أفغانستان والشيشان[١٢٢] وعندما اقتحمت السلطات الأمريكية في نهاية المطاف مكتب شيكاغو عثرت على أشرطة فيديو وأدبيات تمجد الشهادة؛ وبحسب نشرة لجنة البر الإخبارية قُتل سبعة من موظفيها في البوسنة والشيشان سنة قبل ذلك[١٢٣]

وسرعان ما اتضح أن إنعام محمد أرناؤوط (المعروف أيضا باسم أبي محمود)، الذي عُيّن في مطلع التسعينيات لتسيير مكتب البر في شيكاغو، كانت تربطه علاقة شخصية مع أسامة بن لادن لأكثر من عقد. إذ احتفظ أرناؤوط بشقة في باكستان، استخدمتها إحدى زوجات

بن لادن. فضلاً عن ذلك، سمح لممدوح سليم، عميل بن لادن، باستغلال لجنة البرّ كغطاء لوثائق أسفاره. إذ ارتبط اسم سليم بهجمات القاعدة سنة ١٩٩٨ على السفارتين الأمريكيتين في شرق أفريقيا. واستعمل عميل آخر من عملاء بن لادن، وهو محمد بايزيد، الذي انخرط في جهد القاعدة الرامي إلى الحصول على أسلحة الدمار الشامل، عنوان مكتب لجنة البر بشيكاغو في طلبه الحصول على رخصة سياقة.[١٢٤]

وفي مطلع شهر تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢ اتهمت السلطات الفيدرالية الأمريكية إنعام أرناؤوط بالتآمر والابتزاز في سبع حالات.[١٢٥] وفي وقت مبكر من السنة ذاتها جمدت وزارة الخزانة الأمريكية حسابات لجنة البر البنكية. وبحسب صك اتهامه، طلب عادل بترجي، مؤسس لجنة البر في السعودية، من أرناؤوط في محادثات هاتفية مغادرة الولايات المتحدة الأمريكية، وترحيل أسرته إلى العربية السعودية؛ إذ يبدو أنه افترض أن العربية السعودية ستكون ملجأ آمناً لشخص تحقق الحكومة الأمريكية في تورطه في الإرهاب.[١٢٦]

ومع ذلك استقرت منظمات سعودية أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية. إذ اشتغلت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية (IIRO)، الذراع العملية لرابطة العالم الإسلامي، من خلال منظمتين مختلفتين في أمريكا هما: هيئة الإغاثة العالمية (IRO)، ومؤسسة النجاح. وقد تورطت هيئة الإغاثة العالمية في الإرهاب، شأنها شأن فروع هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في كل مكان، إذ قدمت خلال الفترة الممتدة من ١٩٩٦ إلى ١٩٩٨ تبرعات لمؤسسة الأرض المقدسة للإغاثة والتنمية، التي ستجمّد الحكومة الأمريكية أصولها بعد سنوات، لأنها ظلت تحوّل الأموال إلى حماس[١٢٧]

ونشرت هذه المؤسسات السعودية المستقرة في أمريكا بعض أسوأ أدبيات الكراهية الوهابية في الولايات المتحدة الأمريكية. فعلى سبيل المثال، وزعت الندوة العالمية للشباب الإسلامي كتاباً موسوماً بحقيقية *الخلاف بين علماء الشيعة وجمهور علماء المسلمين*، الذي يواصل الممارسة الوهابية الرامية إلى نزع الشرعية عن الإسلام الشيعي: «إن حجر الزاوية في العقيدة الشيعية، وكذا بعدها وبرهانها، زائف ولا أساس له». فهي تعزز الأطروحة القائلة إن الشيعة نتاج مؤامرة يهودية. فضلا عن ذلك، أصدر معهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا (IIASA)، وهو فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي تدرب أكثر من أربعمئة طالب ليقودوا المساجد الأمريكية، نصوصاً سعودية مثل كتاب دين *الحق*. إذ يزعم ذاك الكتاب، الذي طبعته وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، أن «اليهودية والمسيحية ديانتان محرّفتان»، ويصرّح أن صحبة «الكفار» تناقض الإسلام. ويصف كتاب آخر، نشره معهد العلوم الإسلامية والعربية في الولايات المتحدة الأمريكية، بعنوان علاقة *المسلم بسواه من غير المسلمين*، أولئك الذين يدعون إلى الأخوة والمساواة بين الأديان بـ«الطفيليات»، ويؤكد أن القرآن يحرّم اتخاذ «اليهود والنصارى أولياء»[١٢٨]

نماذج عالمية للنشاط الوهابي

عندما ينظر المرء إلى كيفية اشتغال النشاط الإسلامي السعودي في مناطق مختلفة من العالم يجد عدة نماذج منه تتكرر.

أولاً، تمثلت الوسائل الأساسية لهذا النشاط في المنظمات الخيرية الإسلامية السعودية الضخمة- رابطة العالم الإسلامي وذراعها العملية

هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، ومؤسسة الحرمين، والندوة العالمية للشباب الإسلامي. إذ ترأس هذه المنظمات، منذ ميلادها، أفراد ينتمون إلى قمة بنية السلطة العربية السعودية- بما في ذلك وزراء الحكومة وأعضاء في هيئة علماء السعودية.

ثانياً، لم تتمثل المصالح الجيوسياسية للدولة السعودية في العوامل التي تتحكم في النشاط الإسلامي السعودي فقط. ففي أفغانستان، دعم السعوديون الجماعات القريبة إيديولوجيا من الوهابية، وليس بالضرورة الميليشيات صاحبة أفضل سجل حربي ضد الجيش الأحمر. وبالفعل، كان علماء العربية السعودية المفتاح الأساس في إقناع القيادة السعودية بدعم طالبان. وفي البلقان، قادت الإيديولوجيا السعوديين إلى الانخراط دينياً، وليس مالياً وعسكرياً فحسب، لأن السعوديين مكثوا هناك بعد انتهاء النزاع للتأثير في طابع المساجد البلقانية وتصميمها، ونشر إسلامهم الطهراني. باختصار، تمثل عمل هذه الخيريات الأساسي في نشر رسالة العربية السعودية الدينية. وكانت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، مثلاً، الوسيلة المختارة لنشر الوهابية في شمال العراق[١٢٩] وأصدر موقع مؤسسة الحرمين رسالة إخبارية إلكترونية تتضمن أدبيات وهابية: مقالات حول *التوحيد* و*الشرك*، وكذا مواد سيرية حول محمد بن عبدالوهاب.

ثالثاً، شجعت الخيريات السعودية في العالم كله على الإرهاب، حيث دعمت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية والندوة العالمية للشباب الإسلامي جماعة حماس الفلسطينية. وترأس محمد جمال خليفة، زوج أخت أسامة بن لادن، مكتب هيئة الإغاثة في الفلبين، الذي دعم من خلاله تنظيم أبو سياف الإرهابي. وعمل محمد الظواهري، شقيق أيمن الظاهري، لصالح الهيئة ذاتها في «تيرانا» بألبانيا- لكنه كان يعمل

من وراء الستار لفائدة تنظيم مصري متطرف يرتبط بالقاعدة. وفي أواخر التسعينيات أدرجت الحكومة الكينية هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في اللائحة السوداء بسبب ارتباطاتها بالإرهابيين[١٣٠] وأخيراً، كانت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في «بانكيسي جورج» تنقل المال إلى فرقة الأنصار المجاهدين، التي قادها الخطاب أثناء قتال الروس في الشيشان وداغستان.

كما يبدو أن منظمة الحرمين دعمت الجماعات الإرهابية، حيث رصدت المصالح الأمنية الفيدرالية الروسية، عن قرب، دعم الحرمين الجماعات الإسلامية المتطرفة في الشيشان وداغستان. وأغلقت أذربيجان مكاتب الحرمين بسبب روابطها المشبوهة بهذه الجماعات. وفي البلقان أغلقت الحكومة البوسنية أيضاً مكتب الحرمين، لأن المنظمة تصرفت، حسب خلاصة مذكرة مخابراتية بوسنية، «كقناة لتمويل أنشطة تنظيمات إرهابية». إذ أوحت المذكرة البوسنية أن مكتب الحرمين في الصومال وظف أعضاء في تنظيمات أسامة بن لادن الإرهابية وموّل عملياتهم. كما اعتقل موظفو الحرمين في ألبانيا بسبب علاقاتهم الإرهابية. واشتبهت السلطات القضائية في كينيا في تورّط الحرمين في التهديدات الموجهة ضد السفارة الأمريكية في نيروبي[١٣١] فضلاً عن ذلك، يبدو أن دعم الحرمين الإرهاب امتد إلى الشرق الأقصى، حيث قال ممثل القاعدة الأعلى في جنوب شرق آسيا لوكالة المخابرات «سي أي آي» إن الحرمين موّلت عمليات تنظيمه، بحسب نسخة من سجل استنطاقه[١٣٢]

بالإضافة إلى ذلك، ارتبطت لجنة البر العالمية، التي مقرها في السعودية، بالجماعات المقاتلة في الجزائر ومصر، واشتبه في دعم مكاتبها في سراييفو الأنشطة الإرهابية. وقد عثرت قوة تابعة لحلف

الشمال الأطلسي على صور أهداف إرهابية محتملة في واشنطن دي. سي، عندما أغارت على مكاتب اللجنة العليا السعودية من أجل مساعدة البوسنة في سراييفو سنة ٢٠٠١

ثمة طريقتان لتأويل انخراط الخيريات السعودية في الإرهاب على الصعيد العالمي: أولاً، أن هذه المنظمات نفسها راحت ضحية جماعات إرهابية محددة اخترقت الخيريات، واستخدمتها واجهة؛ أو أن الخيريات كانت تدير، على نحو بديل، عمليات مارقة. فإذا كانت الخيريات مرتبطة بالجماعات الإرهابية في موقع واحد أو حتى في موقعين فإن الحجة الأولى قد تكون حينها مقبولة. لكن ما دامت الخيريات السعودية مرتبطة بالجماعات الإرهابية في العالم كله، فالأرجح أن التنظيمات السعودية اتخذت قراراً واعياً بدعم الإرهاب العالمي.

غير أن هذه الشبكة المالية العالمية لم تكن، بالنسبة إلى العربية السعودية، تتمحور حول الإرهاب، بل حول الجهاد. فما بدأ في أفغانستان- بدعم المسلمين المتمردين ضد الطغاة السوفيات- تطور خلال التسعينيات إلى صراع عالمي أوسع شمل البلقان، وطاجيكستان، وأوزبكستان، وكشمير، وأنحاء من روسيا. وقد انبثق تنظيم القاعدة الإرهابي المتعدد الجنسيات من هذه الصراعات. ولأن السعوديين لم يقدموا المال فحسب في هذه الصراعات، وإنما القوة البشرية أيضاً، فلا غرابة أن يمثل المواطنون السعوديون، في نهاية المطاف، المكوّن الأكبر في شبكة القاعدة.

وفي النهاية، سيصبح الغرب نفسه هدفاً للجهاد الجديد. إذ إن إضافة الولايات المتحدة الأمريكية إلى لائحة الخصوم هي نتيجة مباشرة لحرب الخليج سنة ١٩٩١

الفصل التاسع

العدّ التنازلي إلى ١١ أيلول/سبتمبر

حرب الخليج وانفجار الوهابية الجديد خلال التسعينيات

لم يكن لأي حدث تأثير أكبر على التطورات الداخلية في العربية السعودية خلال الربع الأخير من القرن الماضي مثلما كان لحرب الخليج سنة ١٩٩١ ففي أغلب سنوات الثمانينيات كان خصم السعوديين الأول هو إيران الثورية، حيث عبر الطيران الإيراني الخليج الفارسي، وحاول أن يهاجم منشآت النفط السعودية، بينما طبعت السكان الشيعة على طول الساحل العربي من الخليج، بما في ذلك الشيعة المستائين في الإقليم الشرقي من العربية السعودية الغني بالنفط، بطابعها الشيعي الثوري. وتحدّت طهران مشروعية النظام السعودي نفسها. لذلك دعم الملك فهد والقيادة السعودية، خلال الحرب العراقية- الإيرانية التي ظل فتيلها مشتعلاً من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨ جهد الحرب العراقية بمبالغ مالية ضخمة بغية إبقاء إيران في موقع المدافع عن نفسه. وبالفعل، يعتقد أن إجمالي الدعم السعودي والكويتي المقدم لعراق صدّام حسين، خلال الحرب العراقية- الإيرانية، بلغ أربعين مليار دولار[١]

بيد أنه مع احتلال العراق الكويت يوم ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠

تغير كل شيء. ذلك أن حليف العربية السعودية خلال الثمانينيات بات، بين عشية وضحاها، عدوّها اللدود. إذ هدد احتلال الكويت العربية السعودية خصوصاً، لأن جيش صدام حسين كان أكبر، على نحو واضح، مما يتطلبه احتلال الكويت، حيث استولت ثلاث فرق من الحرس الجمهوري، تدعمها وحدات القوات العراقية الخاصة، على الكويت خلال ساعات. وفي يوم ٦ آب/أغسطس، التحقت ثمان فرق أخرى بقوات الاحتلال الأولى[٢] كما امتلك العراق العديد من قوات الاحتياط الإضافية. فالجيش العراقي، الذي كان يضم في مجمله عشر فرق خلال الثمانينيات عندما شن حرب السنوات الثماني ضد إيران، ارتفع عدده منذ ذلك الحين ليصبح حوالي أربعين فرقة، اكتسب العديد منها الخبرة في المعركة. باختصار، كان بإمكان الجيش العراقي التحرك إلى شرق العربية السعودية بإشعار صغير[٣]

كان هذا التقرير الذي وجهه مدير «سي أي آي» «وليام ويبستر» في مطلع آب/أغسطس ١٩٩٠ إلى الرئيس «جورج بوش». وقدّم وزير الدفاع «رتشارد تشيني» والجنرال «نورمان شوارزكوف»، القائد العام للقيادة المركزية الأمريكية، مخابرة رهيبة بالأحرى للملك فهد وولي العهد عبدالله وباقي أمراء السعودية الكبار، مفادها أن صور المراقبة أظهرت أن المصفحات العراقية كانت قد اجتازت الحدود إلى العربية السعودية[٤] واقتضت نظريات المؤامرة المتطرفة، التي انتشرت في الشرق الأوسط آنذاك، أن شكّل الهجوم العراقي مكوّناً من مخطط أوسع لتقطيع أوصال العربية السعودية، حيث سيتولى العراق الإقليم الشرقي الغني بالنفط، وسيحصل اليمن، الذي استضاف مؤخراً ضباطاً عراقيين، على إقليم عسير التابع للعربية السعودية، وسيستعيد الأردن

التراث الهاشمي في الحجاز، مستعيداً السيطرة على مكة والمدينة بعد خمس وستين سنة.

وقد عرض الرئيس «بوش» على الملك فهد القوات الأمريكية للدفاع عن العربية السعودية: «نحن مستعدون لنشر هذه القوات للدفاع عن المملكة العربية السعودية. سنأتي إذا طلبتمونا. ولن نسعى وراء أي قواعد دائمة. وسنغادر عندما تطلبون منا العودة إلى الديار»(٥) وقد التزم الأمراء الحاضرون الحذر تجاه العرض الأمريكي، مدركين مضامينه المتعددة، حيث تحدثوا فيما بينهم قائلين إنه «يجب أن نحذر استعجال اتخاذ القرار». ظاهرياً، أدرك الملك مكامن الخطر من صور المخابرات الأمريكية المنحوسة. فردّ على حذرهم بالقول: «لم يستعجل الكويتيون اتخاذ القرار، وها هم يحلّون كلهم ضيوفاً على فنادقنا»(٦) لقد وجب أن تتخذ القرارات الصعبة بسرعة.

وعاد الملك فهد إلى القيادة العليا السعودية. وسرعان ما اتضح أن العربية السعودية غير قادرة على الدفاع عن نفسها، حيث أورد الجيش السعودي أنه عانى من «غياب كبير في رجال الزي الموحد»(٧) ففي الثمانينيات، كانت العربية السعودية تتوفر على عشرة آلاف جندي باكستاني، بعضهم انخرط في مناوشات حدودية مع اليمن، لكن أغلب الجنود الباكستانيين أعيدوا إلى ديارهم سنة ١٩٨٩ فضلاً عن ذلك، كانت صيانة عرباتها المصفحة الثقيلة «ضعيفة جداً». فلم تكن التقارير المقدمة للملك فهد من القوات الجوية السعودية المجهزة مشجعة بقدر أكبر؛ ذلك أن قائدها انتهى إلى أن الدفاع عن العربية السعودية من الجو كان «عديم الجدوى»(٨)

لم يستطع الملك فهد أن يتخذ قراراً بشأن انتشار عسكري أمريكي ضخم داخل المملكة السعودية بنفسه، أو بمعية الأعضاء الكبار في

العائلة الملكية. إذ كان في حاجة إلى مشورة المؤسسة الدينية في العربية السعودية، أي العلماء. هكذا، استدعى فهد ٣٥٠ عالماً إلى مكة، كان العديد منهم قلقاً من كون العربية السعودية ظلت تعوّل على الحماية الخارجية بعد إنفاق ٢٠٠ مليار دولار على الدفاع منذ ١٩٧٠[٩].

تُرك أمر إصدار فتوى توافق على مجيء القوات الأمريكية بيد الشيخ عبدالعزيز بن باز، أقوى سلطة دينية في المملكة السعودية، حيث قال: «رغم أن الأمريكيين هم، في الرأي الديني المحافظ، مساوون للكفار ما داموا ليسوا مسلمين، فإنهم يستحقون الدعم لأنهم هنا للدفاع عن الإسلام»[١٠] وخطا ابن باز خطوة إلى الأمام معتبراً الحرب ضد العراق جهاداً[١١] وعلى هذا الأساس جاءت القوات الأمريكية إلى العربية السعودية بمستوى غير مسبوق- بلغ عددها، في آخر المطاف، نصف مليون جندي أمريكي.

انتصر التحالف، الذي قادته أمريكا، في حرب الخليج، فأُخرج العراق من الكويت. واعتقد مخططو الدفاع الأمريكي أن مشاركة وحدات عسكرية من دول عربية- بما في ذلك مصر، وخصوصاً سوريا، التي تعتبر معقل القومية العربية التاريخي- في التحالف ضد العراق ربما سيسكّن الحساسيات السعودية حول الانتشار الأمريكي الضخم داخل العربية السعودية. إذ لم يكن، مع ذلك، حضوراً أمريكياً محضاً في العربية السعودية، بل كان بالأحرى تحالفاً دولياً صادق عليه مجلس الأمن في الأمم المتحدة. طبعاً، شكك العديد من السعوديين في مشروعية الرئيس السوري حافظ الأسد، باعتباره علوياً؛ ذلك أن العلويين يشكلون أقلية سورية انشقت عن الشيعة في العصور الوسطى، وأضفت على عليّ صهر الرسول صفة خارقة. صحيح أن

الشيعة اعترفوا في بداية السبعينيات أن العلويين مسلمون حقيقيون، لكن هذا الأمر لم يزد أسهمهم لدى فقهاء العربية السعودية الوهابيين.

لقد قبلت بعض مناطق العربية السعودية في الماضي بوجود الأجانب. فعلى سبيل المثال، كانت الظهران قاعدة جوية أمريكية من ١٩٤٦ إلى غاية ١٩٦٢ وساعدت القوات الجوية الأمريكية السعوديين بعد سقوط شاه إيران سنة ١٩٧٩ بنشر مقاتلات «إف-١٥» وطائرات «أواكس» للإنذار المبكر.

لكن اليوم تصول آلاف الكتائب الأمريكية وتجول في المدن السعودية، مثل الرياض. ويذهب الأمريكيون إلى الأسواق السعودية الممتازة. ويحلّق الربابنة الحربيون الأمريكيون من القواعد الجوية السعودية في كل زاوية من المملكة- تبوك في الشمال الغربي، والطائف في الجنوب الغربي، والظهران في الشمال الشرقي. بل أسست الولايات المتحدة الأمريكية محطة إذاعية عسكرية أمكن التقاطها عبر المملكة برمّتها[١٢] غير أن القوات الغربية غير المسلمة لم تغامر بالدخول إلى منطقة الحجاز حيث توجد المدينتان المقدستان مكة والمدينة المنورة. ومع ذلك لعبت دعاية الإذاعة العراقية على مخاوف السعوديين المتشددين الدينيين من كون الأمريكيين احتلوا بلادهم.

وقد غذّى الحضور الأمريكي الواسع التوترات الداخلية في العربية السعودية. وحتى قبل وصول الجنود كان ثمة صراع يعتمل داخل المجتمع السعودي. فمن جهة أولى هناك التكنوقراط المتشبعون بالقيم الغربية، وهم أقلية صغيرة، لكن مؤثرة، تتكون من السعوديين الذين درسوا في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا؛ ومن جهة ثانية، هناك الإسلاميون الكُثر، الذين سعوا إلى إحكام قبضة الفقهاء الوهابيين على المجتمع السعودي. وبالفعل، ففي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٠،

عندما كانت الدعاية العسكرية الأمريكية في بدايتها، شرعت سبع وأربعون امرأة سعودية في قيادة سياراتهن، حيث تحدّين علناً القانون السعودي الصارم الذي منع النساء من قيادة السيارات(١٣) وشعر المحافظون الإسلاميون السعوديون أن خصومهم الليبراليين اكتسبوا سلطة أكبر عبر مراقبة منابر الإعلام الرئيسية(١٤)، واليوم، شعر الإسلاميون، مع الدعاية العسكرية الأمريكية، أنهم تراجعوا إلى موقف دفاعي. وأحس الليبراليون أنهم اكتسبوا جرأة وشجاعة. وفي الواقع، وبعد مضي شهر على احتجاج النساء بالقيادة، سلّم ثلاثة وأربعون حداثي عريضة إلى الحكومة السعودية تدعو إلى إجراء إصلاحات سياسية(١٥).

أينعت النزعة السعودية المعادية لأمريكا، حيث كانت العربية السعودية، طيلة الحرب الباردة، تعارض الشيوعية بشدة، لكن ليس للأسباب ذاتها التي حفزت السياسة الأمريكية على احتواء الاتحاد السوفياتي. إذ لم يكن التهديد الحقيقي للعربية السعودية يتجلى في الشيوعية في حد ذاتها، وإنما في أن السوفياتيين دعموا الاشتراكية العربية العلمانية، بزعامة الناصرية المصرية، داخل الشرق الأوسط. ومن هنا دفعت القوة السوفياتية بالإلحاد الماركسي في صفوف العرب إلى الأمام، وفي هذا تحدٍّ للمؤسسة الدينية الوهابية. فضلاً عن ذاك، كانت موسكو تدعم أنظمة عسكرية عربية جديدة أطاحت بالملكيات العربية التقليدية المناصرة للغرب. لكن الناصرية فقدت قوتها بعد الهزيمة أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧، وبدت القومية العربية أضعف مما كانت عليه من قبل، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. أما اليوم فقد أضحت الولايات المتحدة الأمريكية هي القوة الأقدر على استمالة التيارات العلمانية في العربية السعودية، وتقويض اتجاهها الديني

الوهابي. وهكذا رأى المحافظون الوهابيون السعوديون في الوجود العسكري الأمريكي الشامل تهديداً مباشراً.

الارتداد على أمريكا

ظلت الوهابية تعارض الغرب بقوة حتى في السنوات الأولى من عمر المملكة السعودية. إذ كان على الملك ابن سعود التعامل مع الفقهاء الذين اتهموه بالتقرب إلى البريطانيين أو الإفراط في الاعتماد على غير المسلمين لاستخراج النفط. لكن الشعور بمعاداة الغرب بات أقوى مع مرور السنوات. ذلك أنه منذ السبعينيات وظفت الجامعات السعودية، الخاضعة لتأثير إسلاموي قوي، نصوصاً تتضمن تيمات متشددة في معاداة الغرب. ففي سنة ١٩٧٣ ضغط العلماء الوهابيون على الملك فيصل بغية فرض حصار نفطي على الولايات المتحدة الأمريكية. وفي أعقاب الانتشار الأمريكي خلال حرب الخليج بات هذا الرأي المتشدد، الذي وسم الغرب المسيحي بميسم «الصليبيين» واعتبر الولايات المتحدة الأمريكية خصماً، رأياً سائداً.

غادرت الأغلبية الساحقة من القوات الأمريكية العربية السعودية عندما انتهت حرب الخليج سنة ١٩٩١ لكن ارتداداً دينياً نشأ مع ذلك ابتداءً من أيار/مايو ١٩٩١ مع «خطاب مطالب» موجّه إلى الملك فهد، وقّعه أربعة آلاف عالم وأستاذ من الجامعات السعودية[١٦] إذ طالب هؤلاء الزعماء الدينيون بإلغاء القوانين السعودية التي تتعارض مع الإسلام، وبإعادة توزيع الثروة، وبسياسة خارجية لا تعتمد على التحالفات وتتبنى القضايا الإسلامية. ورغم أن الشيخ عبدالعزيز بن باز ورفيقه الشيخ محمد بن صالح العثيمين لم يوقعا «الخطاب»، فقد دعما مضامينه في رسالة سرية إلى الملك[١٧]

وأرسلت «مذكرة نصيحة»، وقّعها ١٠٩ علماء إسلاميين، إلى الملك فهد في منتصف سنة ١٩٩٢ وتحدثت عن استياء العلماء من مظاهر عديدة في النظام السعودي، بدءاً بالنظام القضائي وانتهاء بالسياسة الخارجية. وزعمت المذكرة على وجه التحديد أن دور العلماء في الحكومة والمجتمع السعوديين بات مهمشاً جداً، وشددت على اقتسام أكبر للسلطة مع القيادة الدينية السعودية(١٨).

ورفض الملك فهد هذه الوثيقة الثانية رفضاً قاطعاً، داعياً إلى انعقاد هيئة كبار العلماء، وهي أعلى جهاز ديني في العربية السعودية، قصد شجبها في بيان رسمي. وقد وقّع الشيخ بن باز البيان، لكنه كان واحداً فقط من عشرة استنكروا «مذكرة النصيحة». وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٢ أقال فهد سبعة من كبار القادة الدينيين بسبب رفضهم التعبير عن الشجب ذاته.

كان الشيخ سفر الحوالي أحد أبرز المتدينين الذين دعموا «خطاب المطالب» و«مذكرة النصيحة». تخرّج الحوالي، الذي ولد سنة ١٩٥٠ في منطقة عسير جنوب مدينة الطائف السعودية، من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ذاك المرتع البارز للإخوان المسلمين والفكر الوهابي السعودي. وبعد حصوله على الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة أم القرى في مكة سنة ١٩٨٦ شرع في التدريس بشعبة الفقه في الجامعة، ليرتقي في نهاية المطاف إلى رئيس الشعبة. كما أضحى الحوالي متحدثاً أساسياً يعلن المواقف الوهابية الصارمة. ففي سنة ١٩٩٠، وبعيد احتلال العراق الكويت، خاطب جماعة كبرى في مسجد شمال الرياض متسائلاً عن الرأي الرسمي الذي مفاده أن العراق مثّل خطراً حقيقياً. إذ اعتقد أن التهديد الحقيقي للعربية السعودية مصدره الولايات المتحدة الأمريكية، التي استغلت الأزمة

العراقية كذريعة للاستحواذ على الموارد النفطية. ذلك أنه قال إن «العدو الحقيقي ليس العراق. بل الغرب. وإذا كان العراق هو عدو الساعة فإن أمريكا والغرب هم الأعداء حتى قيام الساعة».

وقد وزعت ملايين النسخ من شريط خطاب الحوالي في كل أرجاء العربية السعودية، وفي الخارج. إذ كانت شرائط التسجيل طريقة ناجعة في الالتفاف على رقابة الدولة على الإعلام، وكان لها تأثير شمل أرجاء البلاد كلها؛ وبهذه الطريقة تواصل آية الله الخميني مع الجماهير الإيرانية في أيام الشاه. ذلك أن تسجيل الحوالي هذه الخطبة، وخطب أخرى، سيكون له أثر عميق في الرأي العام السعودي خلال السنوات القادمة، خاصة في صفوف أتباع الحوالي زمن الفترة الطلابية جنوب غرب العربية السعودية حيث وِلد.

وفي سنة ٢٠٠٢، زار صحافي من صحيفة «بوستن غلوب» جامعة الملك خالد في أبها السعودية، الواقعة في المنطقة التي جاء منها اثنا عشر رجلاً من السعوديين الخمسة عشر الذين نفذوا هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، حيث درس العديد من هؤلاء المنفذين بجامعة الملك خالد. وجد الصحافي الطلبة في شعبة الشريعة الإسلامية مصطفين لشراء شرائط فقهاء إسلاميين حركيين. ومن أبرز الخطب المسجلة، التي أحكمت قبضتها على الطلبة، بما في ذلك مختطفي الطائرات عندما درسوا هناك، الخطب التي ألقاها الشيخ سفر الحوالي[١٩]

هكذا، يكتسي محتوى رسالة الحوالي أهمية خاصة، حيث صرّح، في خطبة مسجلة أخرى، أن صراع الحضارات بين الإسلام والغرب كان حتمياً، وأن العولمة ستسرّع علمنة المجتمعات الإسلامية، لكن الصراع الناشئ كان مجرد صراع أفكار، مضيفاً على نحو خاص أنه «لا مفر من سفك الدماء». وفي نظر الحوالي، تمثل

المعركة المقبلة مع الغرب «مرحلة جديدة من الحرب الصليبية»[٢٠] فقد تصور دوراً حاسماً للشباب المسلم في هذا الصراع. ذلك أن الشيخ الحوالي- الحريص عمّا قاله بخصوص العربية السعودية- لم يسائل سلطة الزعامة السعودية، لكنه قال إن المملكة السعودية باتت تابعة لـ«عدوها» الولايات المتحدة الأمريكية[٢١] كما انتقد الحوالي إسرائيل بشدة، وأبدى اهتماماً كبيراً بالدعم الذي تلقته من الأصوليين المسيحيين في الولايات المتحدة الأمريكية.

وكان الشيخ سلمان العودة وجها دينياً نافذاً آخر ذاع صيته وطنياً بعد حرب الخليج. إذ وقّع، هو الآخر، «الخطاب» و«المذكرة» اللذين سُلّما للملك فهد، لكن الأهم أن خطبه المسجلة الشهيرة جعلت منه واحداً من وجوه المعارضة السعودية، و«داعية أكثر تأثيراً داخل العربية السعودية»[٢٢] ترعرع العودة، الذي ولد سنة ١٩٥٥[*]، في إقليم القصيم، الواقع وسط البلاد على مقربة من مدينة بريدة، معقل الوهابية التقليدي في نجد. وعلى غرار الحوالي، كان العودة نتاج نظام التربية الأعلى السعودي الذي يراقبه الوهابيون، حيث أَتَمَّ دراسات تخرجه في الشريعة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، التي أصبح عميدها عبدالله بن عبدالمحسن التركي، على رأس وزارة الشؤون الإسلامية المستحدثة بعد حرب الخليج، مكملاً دراساته في فرع جامعة القصيم.

ثمة تيمة غالبة في أعمال العودة هي انهيار الولايات المتحدة الأمريكية- في الواقع، حملت إحدى خطبه الشهيرة والواسعة الانتشار

(*) تشير موسوعة «ويكيبيديا» إلى أن سلمان بن فهد العودة ولد يوم ١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٥، وليس سنة ١٩٥٥ (المترجم).

عنوان «سقوط أمريكا»[٢٣] لكنه لم يركز على العربية السعودية، حيث عالج كتابه *نهاية التاريخ*، الصادر منتصف التسعينيات، كيفية قتال العالم الإسلامي الغرب. إذ لاحظ أن الغرب بلغ حالة متقدمة من الانحطاط: «يجتاز الغرب، لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية، والثقافة الغربية عموماً، سيرورة تاريخية حاسمة. هذه السيرورة تقود إلى انهياره الشامل، عاجلاً أو آجلاً»[٢٤] وتمثلت استراتيجيته المقترحة في أن ينأى المسلمون بأنفسهم عن الغرب، «وأن يسرّعوا الانهيار»[٢٥]، وأن يباشروا «أفعالاً تيسّر انهيار الاقتصاد الأمريكي». كما ذكّر القرّاء بأن «الجهاد هو أسمى غاية إسلامية»[٢٦]، وأن الضرورة اقتضت «التسبّب في الانهيار الأكيد للغرب»[٢٧]

تضمّن مفهومه حول الجهاد استعمال كل الوسائل الممكنة: «مناحي الحياة جميعها ساحة معركة»[٢٨] ففي نظره، البندقية، والطائرة، والإيديولوجيا، والاقتصاد كلها أسلحة، حيث تصور الصراع الذي يؤدي إلى انتشار العقيدة الإسلامية على الصعيد العالمي كما يلي: «يملك الإسلام القوة والقدرة على إرساء نظام عالمي على أسس العدالة الإسلامية»[٢٩] كما تمنّى أن يشهد هذا الانتصار:

> أطلب من الله أن يمنحنا السلوى بأن يهبنا شرف رؤية تحقق قدر الدول الغربية الكافرة المهيمنة، وأن يدخل السرور على قلوبنا، وقلوب أحفادنا، بأن نشهد انهيار هذه الكيانات التي تهيمن على المسلمين. وأتضرع إليه أن ينتقم منها. إن الله سينتقم من الطغاة بسيفه في هذه الدنيا وفي اليوم الآخر[٣٠]

بالطبع، كان للعودة تصوّر خاص ينتصر الإسلام بموجبه: إنه

الوهابية. وشرح أن ما جنّب العربية السعودية الارتداد إلى الجاهلية هو حركة محمد بن عبدالوهاب خلال القرن الثامن عشر. وقال إن الدولة السعودية مطالبة بصون استمرار هذه الحركة، وأن تنشر الإسلام- أي مذهبها الوهابي[٣١]، داعياً الحكومة السعودية، مثلما فعل وهابي قديم، إلى طرد سكان المملكة الشيعة[٣٢]

وفي هذا السياق كرر العودة ما قاله الحوالي، حيث حثّ الشيخين العربية السعودية وعلماءها على نقل رسالة التوحيد إلى العالم[٣٣] إذ وجب أن تنقل دعوة الوهابية خارج حدود المملكة السعودية[٣٤]

ومما لا يمكن إنكاره أن آراء العودة والحوالي انتشرت انتشاراً واسعاً، لكن يبقى السؤال: هل تمثل هذه الآراء فكرَ المؤسسة الدينية الوهابية الأساسية في العربية السعودية؟ أم أنها آراء منحرفة أساساً وحديث صاخب يصدر عن عناصر هامشية؟

الواضح أن الشيخين جاءا معاً من المؤسسة السعودية، حيث هما نتاج النظام الجامعي في المملكة. بل إن الوزارات السعودية الرسمية وزعت كتيبات الشيخ العودة عبر المملكة السعودية[٣٥] فضلاً عن ذلك، لم يرفض علماء المؤسسة البتة المزاعم بأن الشيخين قدّما «خطاب المطالب» سنة ١٩٩١ وكما هو ملاحظ، ظهر أن كبار الفقهاء السعوديين- بمن في ذلك أقواهم الشيخ عبدالعزيز بن باز- دعموا العريضة في رسالة منفصلة إلى الملك فهد، وإن لم يكونوا في الواقع قد وقعوا عليها. ورغم أن الملك فهد اعترض بشدة على «مذكرة» سنة ١٩٩٢، فإن عشرة علماء رفضوا التنكر للناشطين. ولم ينجرف الشيخان العودة والحوالي، بأي حال، إلى هوامش المجتمع.

غير أن النظام السعودي سرعان ما عجز عن احتمال خطب الفقيهين المتشددين. ففي يوم ٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٤ اعتقلت

السلطات السعودية الحوالي، والعودة بعد أربعة أيام. لكن النظام السعودي بدا، إلى ذلك الحين، مهتماً بالمراقبة أكثر من المحتوى. إذ لم يرد أن ينال وعاظ دينيون مشهورون منزلة وطنية عبر وسائل، مثل شرائط مسجلة، لم تقو الحكومة السعودية على ضبطها ومراقبتها. فضلاً عن ذلك، من المهم الإشارة إلى أن ما حرّض على الاعتقالات هو شكاوى الفقهاء من دعم الحكومة السعودية جنوب اليمن في الحرب الأهلية اليمنية، حيث ذكروا النظام بأن اليمنيين الجنوبيين «شيوعيون». وزعموا أن الضرورة اقتضت هزم الشرك، الذي يعتبر أكبر خصوم الوهابية. إذ كانوا يقولون ضمنا إن المملكة السعودية كانت تدعم نظاماً عربياً مشركاً. بعبارة أخرى، بات الفقيهان يشكلان خطراً حقيقياً على النظام عندما هاجما سياسات المملكة. ولم يكن اعتقال الحوالي والعودة سوى حالتين من مئات الاعتقالات التي حدثت آنذاك.

وبالعودة إلى سنة ١٩٩٣، طلب الملك فهد من هيئة كبار العلماء إصدار فتوى حول نشاطات الحوالي والعودة. وطلب العلماء، في رسالة سرية، من الفقيهين الناشطين وقف ممارساتهما- لكنهم لم يحددوا على وجه الدقة الممارسات التي ينبغي وقفها، مثلما لم تحدد الدولة الدينية الحاكمة ما إذا كان الرجلان سيمنعان من إلقاء المحاضرات أو حضور الاجتماعات المغلقة. ولم يصدر العلماء سنة ١٩٩٤ أي فتوى جديدة تتغاضى عن اعتقال الحوالي والعودة أو تدين مواقفهما الدينية[٣٦] وزعمت لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية، وهي مجموعة أصولية سعودية مقرّها لندن، أنها حصلت على فتوى للشيخ ابن باز مفادها أنه تعاطف مع الحوالي والعودة.

لكن لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية كانت مجموعة منشقة

ترأسها أفراد قريبون من المؤسسة السعودية. إذ كان الشيخ عبدالله المسعري، الذي وقّع بالحروف الأولى على تأسيس لجنة الدفاع، طالباً تتلمذ على يد الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، المفتي العام في العربية السعودية. وكان الشيخ ابن باز طالباً زميلاً له(٣٧) وأخيراً، أضحى ابن المسعري، محمد المسعري، القوة المتزعمة في لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية، حيث أسس مكتباً في لندن بعث منه نشرات منتظمة عبر الفاكس إلى العربية السعودية. لكن لجنة الدفاع لم تؤيد الإطاحة بالعائلة الملكية السعودية بالعنف. بل ظهر أن للمنظمة متعاطفين داخل الدوائر الرسمية، ذلك أنها امتلكت الولوج إلى المعلومات الداخلية، واستطاعت الحصول على أرقام الفاكس الخاصة بكبار أعضاء العائلة الملكية. وفي الأحوال كلها، كان لهؤلاء المنشقين الدينيين خلفيات تربوية ودينية مماثلة للقيادة الدينية في العربية السعودية.

بل اتضح، سنة ١٩٩٤، أن القيادة السعودية كانت منشغلة أكثر بالهجمات على النظام نفسه. إذ شجب الشيخ ابن باز- الذي رقّاه الملك فهد إلى المفتي العام في العربية السعودية، وهو منصب ظل شاغراً منذ سنة ١٩٦٩- خصوصاً «تسجيل الادعاءات المسمومة على الأشرطة وتوزيعها على الشعب»(٣٨) وكان أكثر العناصر تشدداً في العلماء يبدون ملاحظات تحط من قدر الأميرات. فاتبع رئيس المخابرات السعودية الأمير تركي الفيصل تصريحات ابن باز حول الفقهاء، حيث نادراً ما ظهر علناً في مسجد تحدث فيه خصوصاً حول جهود افترائهم على أقاربه. إذ تحدى الفقهاء إثبات اتهاماتهم(٣٩) غير أن هذا الأمر لم يُظهر، مجدداً، أن الفقهاء المتشددين الشباب، أمثال الحوالي والعودة، اخترقوا أي خطوط إيديولوجية حمراء. وظلت

أسس النظام السعودي الوهابية سليمة، بل حدث ببساطة أن قوّض الفقهاء السلطة السياسية للعائلة الملكية.

في الواقع، بدا أن الحكومة السعودية تبنت، عقب النقد الذي صدر عن الفقهاء المتشددين، مقاربة أكثر محافظة. ففي غضون شهر إلى ستة أسابيع أطلقت سراح سبعة وعشرين معتقلاً، من بينهم الحوالي والعودة. فأمكن للزوار الغربيين القادمين إلى العربية السعودية أن يتبينوا مناخاً بالغ التشدد من الناحية الدينية، خاصة في معقل الوهابية بريدة (التي برز المتشدد العودة من إحدى مدنها المجاورة). وعلّق مواطن سعودي بالقول إن الشرطة الدينية تعززت مؤخراً قصد تنفيذ التقاليد الوهابية تنفيذاً صارماً: «انتهى الازدهار الاقتصادي في زمن الحرب. وصارت العائلة معرّضة للهجوم. لذلك فهم يطلقون العنان للمتعصبين، حيث منح رئيس المتطوعين الجديد ١٨ مليون دولار ليدرّب ثلاثة آلاف معتوه، وأغلبهم من الطبقة الدنيا منعوا من ولوج مدارسنا الجيدة، ولا يستطيعون الحصول على وظائف جيدة في أي مكان آخر»[٤٠] واستعمل هذا السعودي المتشبث برأيه بقوة كلمة «حرام» لوصف الوضع الناشئ في بريدة وباقي أنحاء نجد، التي أصبحت «حرامستان»[٤١] خلال هذه الفترة، أبان النظام السعودي عن عزمه تنفيذ أكثر العقوبات الإسلامية تزمّتاً: ضرب الأعناق. إذ ارتفع عددها في العربية السعودية ثلاثة أضعاف من ٥٩ سنة ١٩٩٤ إلى ١٩١ سنة ١٩٩٥[٤٢] هذه العقوبات لم تنفذ في حالات القتل والسرقة المسلحة فحسب، بل أيضاً في الجرائم الدينية، مثل «السحر».

إذا كان هذا هو المناخ السائد فعلاً فمما لا ريب أن الفقهاء الوهابيين الأكثر تطرفاً دفعوا الحكومة السعودية إلى تبني سياسات داخلية أكثر تشدداً. إذ كان نموذج من الماضي السعودي يتكرر؛ أي

أنه عندما واجهت الحكومة السعودية انشقاقاً دينياً داخلياً قاده العلماء أو حتى العناصر الدينية المتشددة التي لم تكن رسمياً جزءاً من المؤسسة، قدمت تنازلات عززت قبضة الإسلام الوهابي على المجتمع برمّته.

كما تأثرت بهذا السياسة الخارجية، حيث لم يكن ممكناً أن يرجع الوجود الأمريكي في العربية السعودية إلى مستواه قبل الحرب، حتى بعد انتصار تحالف الأمم المتحدة في حرب الخليج. إذ قام وقف إطلاق النار بين العراق والتحالف على قرار مجلس الأمن بالأمم المتحدة رقم ٦٨٧، الذي أمر العراق بتفكيك منشآت أسلحته البيولوجية، والكيماوية، والنووية. كما حرم العراق من صناعة صواريخ يكون مداها أطول من ١٥٠ كيلومتراً. وكانت لجنة الأمم المتحدة الخاصة (الأنسكوم) في حاجة إلى التأكد من أن الأسلحة دمرت فعلاً، وكان الضغط العسكري الأمريكي، إلى جانب العقوبات الاقتصادية السارية المفعول، الوسيلة التي أجبرت العراق على الإذعان للقرار ٦٨٧ فضلاً عن ذلك، أنشأ التحالف منطقتين منع فيها الطيران العراقي من التحليق، قصد حماية الأقلية الشيعية العراقية في الجنوب وأقليته الكردية في الشمال، وكان التحالف- وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية- في حاجة إلى الحفاظ على وجوده الجوي لفرض مناطق حظر الطيران. هكذا كان على الولايات المتحدة الأمريكية الاستمرار في استعمال القواعد الجوية السعودية. وأصبحت السياسة الخارجية والسياسة الدفاعية للسعودية ما بعد حرب الخليج على محك حقيقي في خريف سنة ١٩٩٤ ففي يوم ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر نشر العراق عشرين ألف رجل من نخبة فرقتين في الحرس الجمهوري على بعد حوالي عشرين كيلومتراً من الحدود الكويتية، بينما كانت تنتظر قوات احتياط من خمسين ألف رجل في منطقة البصرة[٤٣] وبدا الأمر أشبه

باستعادة لأزمة سنة ١٩٩٠، التي أدت إلى حرب الخليج، حيث كان التحالف في حاجة إلى رد فعّال لردع احتلال عراقي ثان للكويت.

لكن في سنة ١٩٩٤ كان تحالف حرب الخليج ضد العراق ينهار. وكانت البحرين والإمارات العربية المتحدة الدولتين الوحيدتين، من بين أعضاء مجلس التعاون الخليجي الذي تقوده السعودية، اللتين نشرتا قوات جوية وبرية وبحرية دفاعاً عن الكويت. ولم تتخذ السعودية أي خطوة مماثلة. كما التزمت قطر وعمان ومصر وسوريا الحياد. وفي يوم ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر نشرت الولايات المتحدة الأمريكية تسعين ألف رجل من البحرية الأمريكية وسبعين ألف رجل من القوات الأمريكية الإضافية في الكويت ومنطقة الخليج[٤٤].

والتمست إدارة «كلينتون» من السعودية الموافقة على استضافة لواء المدرعات الأمريكي، حيث ظهر الرئيس «بيل كلينتون» في موقع قوي للحصول على الدعم السعودي. إذ كرّست إدارته، منذ سنة ١٩٩٣، موارد سياسية ضخمة لصناعة السلام بين العرب وإسرائيل. وكان من الصعب اتهامه بتجاهل الشرق الأوسط. ففي ظل سياسة إدارته الرامية إلى «الاحتواء المزدوج»- أي احتواء إيران والعراق- كان يفترض أن تساعد سيرورة السلام العربي- الإسرائيلي الولايات المتحدة الأمريكية على تشكيل تحالف ضد العراق يتكوّن أساساً من العربية السعودية ودول الخليج العربية. وزار «كلينتون» شخصياً المملكة لضمان الدعم السعودي، لكن هذه الأخيرة رفضت ذلك[٤٥] لقد تغيرت السياسة السعودية تغيراً واضحاً[٤٦] ذلك أن هذه القرارات لم تتخذ بهدوء، وكان الجمهور الكويتي غاضباً من غياب دعم حلفاء الكويت الإقليميين[٤٧].

فما سبب التغير في السياسة السعودية إزاء الولايات المتحدة

الأمريكية؟ لم يتجلّ السبب في مأزق عملية السلام العربي- الإسرائيلي، كما زعم في ما بعد بعض المحبطين من مسؤولي إدارة «كلينتون». قبل عام من ذلك وقّعت إسرائيل اتفاقية أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية في واشنطن. ومع حلول خريف سنة ١٩٩٤، كانت عملية السلام تسير بوتيرة عالية، حيث أكملت إسرائيل اتفاق أوسلو الأول، الذي سمّي بـ«اتفاق غزة- أريحا»، فدخل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات قطاع غزة، ما أن وقّعت إسرائيل معاهدة سلام مع الأردن. وبالفعل، عندما حصلت الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٩٠ على رخصة نشر قواتها لم يوجد أي اتفاق سلام عربي- إسرائيلي البتة. ولم يكن هناك أي ارتباط بين شرط عملية السلام العربي- الإسرائيلي ودخول أمريكا إلى القواعد السعودية.

يتضح أن تردد السعودية في قبول قوات أمريكية جديدة كان نتاج المناخ السياسي الذي ساد داخل العربية السعودية بعد حرب الخايج. ذلك أن الانبعاث الوهابي، ونزعة معاداة أمريكا التي أطلقت العنان للفقهاء المحافظين زادا من صعوبة الحفاظ على شراكة حرب الخليج. فلمّا كان التهديد الأول ضد العربية السعودية تهديداً خارجياً مثلت القوات الأمريكية الضخمة مصدر قوة، لكن لما واجهت العربية السعودية تهديدات داخلية باتت أي قوات أمريكية جديدة عائقاً.

أسامة بن لادن والفقهاء السعوديون

لم يُنه رفض العربية السعودية السماح بوجود عسكري أمريكي موسّع أنشطة الفقهاء المتطرفين الجدد. إذ كان ثمة أيضاً لاعب جديد في هذا الصراع. فقد عاد أسامة بن لادن إلى العربية السعودية بعد الانسحاب السوفياتي من أفغانستان، واقترح على السلطات السعودية،

مباشرة بعد احتلال العراق الكويت، أن تستخدم أتباعه من العرب الأفغان للدفاع عن المملكة السعودية. لكن اقتراحه لم يؤخذ بشكل جدي، وسرعان ما بدأ يجري نشر القوات الأمريكية الشامل. وفي هذه النقطة بدأ يبتعد عن النظام السعودي.

كان وصوله إلى أفغانستان خلال نيسان/ أبريل ١٩٩١ علامة بداية هذا الانفصال. ففي الفترة الممتدة من ٢٥ إلى ٢٨ نيسان/ أبريل اجتمعت الجماعات الإسلامية المتشددة، التي تعاطفت مع العراق خلال حرب الخليج، في الخرطوم بدعوة من الزعيم الإسلامي السوداني حسن الترابي. وكان خمسة وخمسون بلداً ممثلاً في هذا الاجتماع، بما في ذلك بلدان الشرق الأوسط. وتلقى العديد من الجماعات الإسلامية المتشددة الدعم المالي السعودي، من حركة حماس الفلسطينية، إلى حزب النهضة بقيادة راشد الغنوشي في تونس، وفصيل قلب الدين حكمتيار الأفغاني. كما حضر الاجتماعَ فتحي الشقاقي، مؤسس حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية المناصرة لإيران. بل التحق به نشطاء علمانيون، بمن في ذلك ناصريون مصريون وياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية. واجتمع الحاضرون على معاداتهم أمريكا[٤٨]

وقد سعى المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي، الذي انبثق عن هذا الاجتماع، إلى نسج علاقات بين أعضائه. ففي كانون الثاني/ يناير ١٩٩٣ أصدر بيان التعاون بين حركة فتح برئاسة عرفات وحماس الذي وقعه الترابي[٤٩] ومما لا شك فيه أن أسامة بن لادن استخدم المؤتمر لتطوير علاقات جديدة، حيث نسج علاقة قريبة مع الترابي. فضلاً عن ذلك، يرجّح أن تكون ارتباطات بن لادن العملية بتنظيمات أصولية مصرية، مثل الجهاد الإسلامي المصري بزعامة أيمن الظواهري، قد

نشأت خلال هذه الفترة (رغم أنه عرف الظواهري في أفغانستان). وطورت جماعات إرهابية علاقات دعم متبادل في اللوجيستيك، وتزوير الوثائق، والمتفجرات. وجاء هذا التشبيك ليطبع نمو القاعدة.

وحضر مؤتمر متابعة، انعقد من ٣٠ آذار/ مارس إلى ٢ نيسان/ أبريل ١٩٩٥، الجبهةُ الإسلامية للإنقاذ الجزائرية، وحماس، والجهاد الإسلامي الفلسطيني، ولأول مرة حضر حزب الله، الميليشيا الشيعية اللبنانية الموالية لإيران التي تشكلت سنة ١٩٨٢[٥٠] هناك التقى بن لادن بعماد مغنية، الذي كان مسؤولاً عن عمليات حزب الله في الخارج[٥١] إذ ارتقى مغنية، الذي بدأ عمله الإرهابي لدى ياسر عرفات ضمن القوة ١٧ المعروفة باسم «الحرس الرئاسي» في بيروت، بسرعة بعد التحاقه بحزب الله، حيث دبّر سنة ١٩٨٣ تفجير ثكنة فيلق البحرية الأمريكية في بيروت الذي أودى بحياة ٢٤١ أمريكياً، والذي انسحبت بعده الولايات المتحدة الأمريكية من لبنان.

ولابد أن تجربة مغنية أعجبت بن لادن، الذي أمل في إخراج الولايات المتحدة الأمريكية من شبه الجزيرة العربية. إذ كشفت تصريحات بن لادن أنه كان لا يزال نصيراً قوياً للإسلام الوهابي. غير أنه تجاوز تحفظاته الإيديولوجية حول الإسلام الشيعي لنسج علاقة تعاون مع حزب الله، والحصول على دعم النظام الثوري الشيعي في إيران[٥٢] وكانت حماس قد كسرت الحاجز الأصولي بين السنّة والشيعة في لبنان سنة ١٩٩٢، حيث عمل الإيرانيون على ترسيخ جماعتهم السنّية المتشددة بين الفلسطينيين وهي الجهاد الإسلامي الفلسطيني.

حلّ أسامة بن لادن في السودان، وربما انخرط في نقاشات حول انتشار الحركات الإسلامية على الصعيد العالمي، لكنه لم يزل متأثراً

بالخطاب الداخلي في العربية السعودية. فرغم سنواته في الجامعة في جدة لم يكن عالماً إسلامياً. ومن هنا كان ميّالاً إلى الاستشهاد بفقهاء سعوديين أمثال الحوالي والعودة[٥٣] واستعمل السودان قاعدة بديلة جديدة لقواته العربية حيث التحق حوالي خمسة آلاف منهم به في مقراته الأفريقية الجديدة.

في هذه الفترة أصبحت نزعة بن لادن المعادية لأمريكا عملية، إذ أرسل بعضا من الأفغان العرب إلى الصومال حيث انتشرت القوات الأمريكية آنذاك. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٣، عندما أسقط الصوماليون ثلاث طائرات هيلوكوبتر من نوع «بلاك هاوك» في مقديشيو، أظهروا مهارات قتالية اكتسبوها ربما من الأجانب، وربما من قوات أسامة بن لادن. ذلك أن إسقاط طائرات الهيلوكوبتر السوفياتية في أفغانستان أضحى تخصصاً من تخصصات المجاهدين الأفغان، وكان عاملاً حاسماً في هزم السوفياتيين. وتدهورت الوضعية في مقديشيو، بعد مقتل ثمانية عشر جندياً أمريكياً، واقتنعت الولايات المتحدة الأمريكية بالانسحاب من الصومال. وفي سنتي ١٩٩٨- ١٩٩٩ تفاخر بن لادن بأن رجاله انخرطوا في القتال في الصومال[٥٤]

ثمة سِمة طبعت فترة سنتي ١٩٩٣- ١٩٩٤ تجلت في جهد الجماعات الإسلامية المقاتلة لتحويل أجرأ أنشطتها الإرهابية من الشرق الأوسط إلى قلب أوروبا، إن لم نقل إلى أمريكا الشمالية. ففي شباط/ فبراير ١٩٩٣ وضعت جماعة انتسبت إلى بن لادن عربة مفخخة في مركز التجارة العالمي بمدينة نيويورك. وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤ اختطفت الجماعة الإسلامية المسلحة الجزائرية، التي تشكلت من العديد من العرب الأفغان، طائرة الخطوط الجوية الفرنسية، قصد الارتطام بها على برج «إيفل». لكن نظراً إلى عدم قدرة أي من

الإرهابيين التحليق بالطائرة فقد اتفقوا على السماح للربّان بالنزول بها في مرسيليا حيث اقتحمتها الشرطة الفرنسية(٥٥) وبينما عملت الجماعة الإسلامية المسلحة، أحياناً، كتابع للقاعدة، يبقى من الصعب إثبات أن أسامة بن لادن انخرط في هذه المهمة.

بدأ بن لادن إصدار تصريحاته عبر مكاتب هيئة النصيحة والإصلاح في لندن، وهو تنظيم ضم تحت سقفه العديد من الجماعات السعودية المتشددة. إذ هاجم النظام السعودي علناً، إلى درجة أن الرياض ألغت جنسيته السعودية سنة ١٩٩٤ وفي يوم ٣ آب/أغسطس ١٩٩٥ أصدر «رسالة مفتوحة إلى الملك فهد»، وهي وثيقة تقع في عشر صفحات برهن فيها أن نظام فهد لم يكن مخلصاً لـ«تعاليم الإسلام السني»، كما أوّلها محمد بن عبدالوهاب(٥٦) بعبارة أخرى، لم تكن العربية السعودية ملتزمة بالوهابية على نحو كاف.

هاجم أسامة بن لادن سياسة دفاع السعوديين، وتبديدهم مداخيل نفط المملكة، واعتمادهم على غير المسلمين في حماية أنفسهم. ودعم حججه باقتباسات من كتابات محمد بن عبدالوهاب(٥٧) وقال إن فهد ربط السياسة السعودية الخارجية بـ«الصليبية والأنظمة الطاغوتية في البلاد الإسلامية». وحتى بعد رفض السعوديين القبول بقوات أمريكية جديدة سنة ١٩٩٤، واصل الهجوم على «استجلاب القوات الصليبية واليهودية لتدنّس الأماكن المقدسة»(٥٨)

وخلص بن لادن إلى أن نظام فهد لم يكن إسلامياً، داعياً الملك إلى الاستقالة. لكن الأهم أنه لم يدعُ إلى الإطاحة بالعائلة الملكية كلها بالعنف. بل وصف «مصدر الوباء» في العربية السعودية بالقول: «أنت ووزير دفاعك ووزير داخليتك»- أي فهد وشقيقيه الأميرين سلطان بن عبدالعزيز ونايف بن عبدالعزيز السديري، فيما امتنع بن لادن بشكل

ملحوظ عن انتقاد ولي العهد الأمير عبدالله. واستحضر عزل الملك سعود وتعويضه بالملك فيصل. وذكّر فهد بسعيه إلى عزل سعود في مطلع الستينيات، مشدداً على أن سعود كان «دون ما أنت عليه من الفساد بعشرات المرات»[٥٩] إذ كان بن لادن يحاول، على نحو واضح، تسخير توترات القصر لصالحه، إمّا بكسب دعم عبدالله، وإمّا بإجبار سلطان ونايف على كتمان موقفهما السابق من نشاطاته- بل ربما سعياً وراء دعمهما السياسي والمالي.

في ١٣ تشرين الأول/ نوفمبر ١٩٩٥، انفجرت سيارة مفخخة خارج بناية الحرس الوطني السعودي في الرياض. وقتل الانفجار خمسة أمريكيين، إلى جانب مواطنين هنديين، وخلّف سبعة وستين جريحاً- ليس بينهم أي سعودي[٦٠] والظاهر أن الانفجار حدث عند الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا، عندما كان أغلب السعوديين يؤدون صلاة الظهر[٦١] وبعد شهور أعلنت السلطات السعودية أنها اعتقلت أربعة مشتبهين، صرّح ثلاثة منهم أنهم كانوا جنوداً في الحرب الأفغانية ضد السوفياتيين. واعترف الأربعة جميعهم علانية في بث تلفزيوني أنهم استلهموا أسامة بن لادن، حيث صرّح أحدهم أن الوجود الأمريكي في العربية السعودية أجاز الجهاد. وأُعدم الأربعة في أيار/ مايو ١٩٩٦[٦٢]

ولم ينسب بن لادن هجوم الرياض إلى نفسه. لكن التنظيمات، التي ادّعت المسؤولية عن التفجير، أيدته في أجندته السياسية التي نصّت على سحب القوات الأمريكية كلها من العربية السعودية، أو إطلاق سراح الشيخ عمر عبد الرحمان، وهو متآمر في تفجير مركز التجارة العالمي سنة ١٩٩٣، وموسى أبي مرزوق، زعيم حماس الذي التقى بن لادن في الخرطوم. وفي سنة ١٩٩٧ قال بن لادن لدورية

«الحقوق» العربية إن الأهم في التفجير تجلّى في أن «أي سعودي لم يصب، ووحدهم الأمريكيون قتلوا»[٦٣] وكان التبرير الإديولوجي الذي قدمه بن لادن لمعاداته أمريكا يرمي بوضوح إلى الاستهلاك السعودي. ذلك أنه ركّز، في «إعلانه الحرب ضد الأمريكان الذين يحتلون أرض الحرمين»، بشكل مباشر على الوجود العسكري الأمريكي في العربية السعودية، قائلاً إنه «أذن للصليبيين بالدخول إلى أرض الحرمين». وقد حملت وثيقته عنواناً فرعياً هو «إخراج الكفار من شبه الجزيرة العربية»؛ وفي نسخة أخرى عنونت بـ«إخراج المشركين من شبه الجزيرة العربية»[٦٤] وفي كلتا الحالتين، فإن كلمتي «كفار» و«مشركين» صنّفتا الولايات المتحدة الأمريكية ضمن فئة دينية جعل منها هدفاً مشروعاً للجهاد: «يعرف أبناء أرض الحرمين ويؤمنون بقوة أن الجهاد ضد الكفار في كل مكان أساسي على نحو جازم». واستبق بن لادن الأمر بالقول إن حماسة المسلم للقيام بهذه الحملة ستكون غير مسبوقة، ما دام المسلمون «يدافعون عن أكبر مقدساتهم».

وتوقع أن يستشهد الشباب المسلم في هذا الصراع ضد الأمريكيين: «هؤلاء الشباب يعلمون أن أجرهم في قتالكم مضاعف عن أجرهم في قتال غيركم من غير أهل الكتاب». ففي فقه بن لادن، شكل الأمريكيون بالأحرى هدفاً مناسباً أكثر من الشعوب التي لم تتمتع أبداً بالحماية في ظل الإسلام. وربط إسرائيل بانتقاده أمريكا، معتقداً أن سيطرة إسرائيل على القدس المحتلة هي نتاج الدعم الأمريكي. ولهذا السبب تحدث عن «الحلف الصليبي الصهيوني والمسيحي». لكن سيتضح من إعلاناته المتتالية، في هذه الفترة الممتدة من ١٩٩٦ إلى ١٩٩٨، أن إسرائيل شكلت، في أحسن الأحوال، انشغالاً ثالثاً؛

ذلك أن بن لادن ركز اهتمامه على إخراج الولايات المتحدة الأمريكية من شبه الجزيرة العربية.

كما أنحى بن لادن باللائمة على واشنطن عن القرار السعودي القاضي باعتقال الشيخين الحوالي والعودة. وانتقد الحكومة السعودية لأنها لم تباشر بجدية الإصلاحات الدينية المطروحة في «مذكرة النصيحة» الصادرة سنة ١٩٩٢ والواضح أنه كان لايزال يعتبر نفسه جزءاً من الخطاب السعودي الداخلي. لكنه كشف، في الآن ذاته، أن الحكومة السعودية كانت على وشك الدخول في الشرك: «مناصرة الكافر على المسلم معدودة في نواقض الإسلام العشرة». ومثلما جاء في «خطابه المفتوح» الموجّه إلى فهد سنة ١٩٩٥ هاجم آل السديري، وهم فرع من العائلة الملكية: الملك فهد، والأمير سلطان، والأمير نايف. ولنزع الشرعية عن الملك فهد، اتهمه قائلاً إن «الملك نفسه علق الصليب على صدره»، جاعلاً إياه واحداً من «الصليبيين». لكنه لم ينبس، مجدداً، ببنت شفة عن ولي العهد الأمير عبدالله.

بعد مضي سنتين، أصدر بن لادن يوم ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٩٨ ثالث إعلان مهم في جريدة «القدس العربي»، تضمّن نقطة توضيحية مهمة. إذ فسّر تصريح سنة ١٩٩٨، الصادر باسم «الجبهة الإسلامية العالمية» الحديثة العهد، التي دعت إلى «الجهاد ضد اليهود والصليبيين»، المظالم الأساسية الباعثة على تحرك بن لادن، ووضعت نظاماً واضحاً من الأولويات(٦٥) ففي المقام الأول أعلن أن «الولايات المتحدة الأمريكية ظلت طيلة أكثر من سبع سنوات تحتل أراضي الإسلام بالأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية». ثانياً، لفت بن لادن الانتباه إلى «الحدث الجلل الذي أصاب شعب العراق». ثالثاً، أثار «احتلال» القدس، ربما قصد الربط بين اليهود و«الصليبيين». غير

أن بن لادن لم ينتقد، هذه المرة، العائلة الملكية السعودية.

إن السؤال الحقيقي يتمحور حول ما إذا كان للتوجه البلاغي والإيديولوجي لدى بن لادن أثر فعلي في العربية السعودية. هل حشد أتباعاً جدداً، أم أن أفكاره لقيت آذاناً صمّاء؟

مما لا شك فيه أن معاداته أمريكا ستلقى آذاناً صاغية داخل العربية السعودية. ذلك أن الفكرة التي مفادها أن الولايات المتحدة الأمريكية عدو شكلت موضوعاً في خطب العودة الشهيرة بالطبع. كما عبّر فقهاء سعوديون آخرون عن انشغالات بالوجود العسكري الأمريكي المتواصل داخل المملكة. وخلال العقدين السابقين كان من المألوف أن تشير الدوائر الدينية السعودية إلى العالم المسيحي والغرب باعتباره «مملكة الصليبيين».

ففي أواخر التسعينيات، استطاع بن لادن بالتأكيد أن يصل إلى الزعماء الدينيين السعوديين الذين تقاسموا معه الرأي، حيث طغت تيمات تعادي المسيحية بقوة داخل الدوائر الدينية السعودية. ففي سنة ١٩٩٧ ألقى الشيخ عبدالمحسن القاضي خطبة صرّح فيها أن المسيحية «دين محرّف ومشوّه». وحذر المؤمنين من أن «قلوب الصليبيين، الذين استخفوا بنا، ما زالت تنبض في صدورهم، والأسلحة التي قاتلونا بها ما زالت بأيديهم»[٦٦]

وفي مساجد مكة المركزية لم تختلف رسائل الزعماء الدينيين كثيراً. فقد هاجم الشيخ علي محمد باروم، في مسجد منار الإسلام، فكرة التفاهم بين الأديان، قائلاً إن «فكرة الربط بين الديانات والادعاء القائل إن اليهود والمسيحيين يؤمنون بدين الحق. هما حجّتان آثمتان وفكرتان مضللتان لا تُقبلان في دين [الإسلام]. حرام على الرجل أن يجمع بين الإسلام والتجديف، والتوحيد والشرك وصراط

الله المستقيم وطريق الهرطقة الشيطاني»[٦٧] وكأن الشيخ يريد بذلك إضفاء المصداقية على الحجة التي مفادها أن اليهود والمسيحيين انخرطوا في الشرك، الذي تعتقد الوهابية أنه عقيدة لا تستحق أي تعايش سلمي معها.

وفي أقل من سنة برز هذا التعصب الوهابي القوي تجاه أي حوار بين الأديان في خطبة أخرى بمكة. إذ أعلن الشيخ عدنان أحمد السيامي، في حديثه عن زيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى مسجد الأمويين في دمشق:

> إن هذا البابا، رئيس الكنيسة الكاثوليكية، ومن ورائه أولئك الذين يدعون إلى توحيد الديانات، هم سلالة أعضاء محاكم التفتيش الإسبان، الذين ساموا المسلمين سوء العذاب.
> إنهم أسلاف أولئك الذين قادوا الحروب الصليبية إلى الشرق الإسلامي التي قتلوا فيها آلاف المسلمين، وسبوا زوجاتهم في أعداد لا تحصى. إنهم مرتكبو المذابح الجماعية في البوسنة والهرسيك. في كوسوفو، وإندونيسيا، والشيشان. فهل نتوقع الرحمة من هذه الذئاب القاتلة؟

كما كانت خطب المساجد، في هذه الفترة، تمتلئ بتيمات قوية تعادي اليهود. فزعم الفقهاء أن اليهود يكررون الأفعال ذاتها في كل جيل، مثل قتل الأنبياء وخرق الاتفاقيات مع النبي محمد. إذ أكدت خطبة ألقيت بمسجد الطائف أن «التصرف الراهن لإخوة الخنازير والقردة، وخيانتهم وخرقهم الاتفاقيات، ونجاستهم التي يأتون بها إلى أماكن العبادة. ترتبط بأعمال آباء أبائهم الذين عاشوا في بداية الإسلام»[٦٨] وذهبت خطبة أخرى، ألقيت في مسجد ثان بالطائف،

بهذه التيمات المعادية لليهود شأواً آخر: «إن اجتماع [اليهود] من كل أركان الأرض إلى أرض فلسطين علامة من علامات يوم الحساب. فالغاية من هذا الاجتماع هو أنه أصبح من الممكن تعذيبهم وقتلهم عن آخرهم، إلى جانب المسيح الدجال»(٦٩)

كان الشيوخ الذين ألقوا هذه الخطب المتشددة في أواخر التسعينيات يعون تمام الوعي أن اليهود والمسيحيين هم «أهل الكتاب»، وفق الإسلام؛ ومن ثم، فهم محميون. إذ عالج الشيخ مرزوق بن سالم الغامدي هذه النقطة في حديثه بمسجد الرحمان بمكة: «أن يعيش الكفار بين المسلمين وفق الشروط التي أرساها النبي فذلك أمر مختلف». ثم فصّل تلك الشروط: أن يؤدي الكفار الجزية إلى الخزينة الإسلامية، وألا تصلح كنائسهم وأديرتهم، وأن تبقى غير مسلحة، وألا تدق نواقيسها أبداً، وغير ذلك. واختتم بالملاحظة أنه لا حماية لهم في حالة خرق تلك الشروط الممنوحة لغير المسلمين. غير أن المستمعين يعرفون أن هذه الشروط الصارمة لم تلق استجابة في أي مكان، ما يعني أن المسيحيين واليهود لم يتمتعوا بالحماية(٧٠)

باختصار، يكشف قسم متداخل من الخطب السعودية، التي أُلقيت في هذه الفترة، أن الديانتين غير الإسلاميتين- المسيحية واليهودية- محرّفتان، في نظر فقهاء المساجد. وكلتاهما اعتبرتا عدوين ما زالا يرميان إلى إيذاء الشعوب المسلمة. وفي أفضل الحالات، وُصف المؤمنون بهما بالكفار، رغم أن الوعاظ السعوديين صنفوهما أحياناً في أسوأ خانات المشركين.

وقد عزز النظام المدرسي السعودي الرسالة الآتية من المساجد. ففي سنة ٢٠٠٠ درس تلاميذ المستويين التاسع والعاشر نصاً نشرته وزارة التربية، يقول إن «اليهود والنصارى أعداء المؤمنين، ولن يرضوا

أبداً عن المسلمين، فاحذروهم»[٧١] وصرّح جامع مدرسي آخر مخصص للفئة ذاتها أنه «يجوز هدم معاقل الكفر، أو حرقها، أو تدميرها- وكل ما يشكل درعاً من المسلمين- إذا كان ذلك من أجل انتصار المسلمين وهزيمة الكفار»[٧٢] وامتلأ كتاب الشيخ صالح الفوزان، *التوحيد*، المخصص لتلاميذ المستوى العاشر، بالتعصب تجاه المسيحيين واليهود، حيث صرّح النص أن «المسلمين سيقتلون كل اليهود»[٧٣] قبل يوم الحساب. وكان الشيخ الفوزان جزءاً من النخبة الإسلامية في العربية السعودية، طالباً لدى الشيخ ابن باز، كما كان عضواً في هيئة كبار العلماء والمجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي[٧٤] بل إنه امتلك برنامجه الإذاعي الخاص، وكان كاتباً غزيراً[٧٥].

من هنا، لم تكن الوثبة إلى ما كان يقوله بن لادن آنذاك كبيرة جداً، بالنسبة إلى أولئك الذين قبلوا واستبطنوا الرسائل المقدمة في المناهج السعودية.

السعوديون يفشلون في وقف الكراهية والرعب

ما الذي قامت به الحكومة السعودية لمواجهة هذه التيارات الخطيرة في مساجدها ومحاربة أفعال الإرهاب المتزايدة الموجهة ضد الأمريكيين وغيرهم من الأجانب داخل المملكة السعودية؟ في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤ أعلن الملك فهد تأسيس مجلس أعلى للشؤون الإسلامية، حيث أشرف وزير الدفاع الأمير سلطان بن عبدالعزيز- لا الفقهاء السعوديون- على تسيير المجلس الجديد. بعيد ذلك عيّن فهد وزيراً جديداً للشؤون الإسلامية للإشراف على الإرشاد الديني والأوقاف.

رامت الأجهزة الجديدة مساعدة النظام السعودي على تنظيم ما يجري في مساجد المملكة(٧٦) لكن عندما يفحص المرء مستوى القدح الاستثنائي المتواصل في الخطب يتضح أن النظام السعودي فشل في كبح فقهائها- لو ارتأت الأجهزة في الواقع القيام بذلك في المقام الأول.

وفي ما يتعلق بالسياسة السعودية حول المساجد رسخ استثناء واحد القاعدة. ففي ١٣ آذار/مارس ١٩٩٨، ألقى الشيخ عبدالرحمان الحذيفي، الإمام الأكبر في المسجد النبوي بالمدينة المنورة، خطبة الجمعة وردد فيها التصريحات الدينية السعودية المألوفة آنذاك. في البداية هاجم المسيحية بالقول إنه «لا وجود لأي تشابه بين المسيحية والإسلام. فالإسلام دين خالص وطاهر يؤمن بوحدة الله. بينما المسيحية انحراف عن الصراط المستقيم». وصرّح في ما يخص اليهودية أن التلمود كان «كتاباً مقدساً لليهود الشياطين». ثم، هاجم الحذيفي الشيعة، بتعبير وهابي قديم، واصفاً إياهم بأنهم أولئك الذين «يحاولون تخريب الإسلام». وفي نظره لا يمكن أن تكون هناك أي مصالحة بين السنة والشيعة(٧٧)

ثمة مشكلة خاصة في خطبة الشيخ عبدالرحمان الحذيفي اللاذعة، وخاصة في خطاباته المعادية للشيعة. وصادف أن كان من بين الملتحقين بصلاة الجمعة بالمدينة المنورة هاشمي رفسنجاني، رئيس إيران السابق، الذي حلّ ضيفاً رسمياً على العربية السعودية. وكان ولي العهد الأمير عبدالله قد عمل جاهداً طيلة سنتين على تحقيق التقارب بين السعودية وإيران. فذهب عمل عبدالله سدى نتيجة الأوصاف الواردة في الخطبة المعادية للشيعة. وبُعيد ذلك أصدرت طهران رد فعلها المعادي للوهابية. وفي هذه الحالة قرر السعوديون طرد

الحذيفي[٧٨]، بسبب خطبته المعادية للشيعة، لا بسبب كرهه المسيحيين أو اليهود. ومما لا شك فيه أن الحذيفي كان سيبقى حراً تقريباً لمواصلة خطبه المليئة بالكراهية- مثلما كان يفعل كل الفقهاء السعوديين المتعصبين آنذاك- لولا حضور رفسنجاني في ذلك اليوم بعينه.

ولعل مما له مغزى أن خطبة الشيخ الحذيفي سنة ١٩٩٨ حملت كذلك رسالة مهمة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بقوله إن «قوى العالم هم أعداء. للمملكة العربية السعودية»، مقترحاً أن يتعلم الأمريكيون الدرس من أفغانستان، حيث أتى جهاد المسلمين «على تدمير قوة العصر العظمى تدميراً شاملاً». فكانت الرسالة الضمنية واضحة: الدور على أمريكا.

كان فشل العربية السعودية في معالجة الإرهاب ملحوظاً بالأحرى، وخطيراً إلى أبعد الحدود. إذ برز أول مؤشر حول كيفية معالجة العربية السعودية، في الواقع، التحدي الإرهابي في نيسان/ أبريل ١٩٩٥، حيث تلقت الولايات المتحدة الأمريكية معلومات مفادها أن طائرة خاصة من الخطوط الوطنية اللبنانية، خطوط الشرق الأوسط، ستقل عماد مغنية، عضو حزب الله والعقل المدبر لتفجير سنة ١٩٨٣ ببيروت، الذي أودى بحياة ٢٤١ جندياً من البحرية الأمريكية. وكان من المقرر أن تتوقف الرحلة القادمة من الخرطوم إلى بيروت في جدة بالعربية السعودية[٧٩] إذ أرسلت وكالة الاستخبارات «إف. بي. أي» عملاء بهدف اعتقال مغنية، ونسّق «أنتوني لايك»، مستشار الرئيس «كلينتون» في الأمن القومي، العملية مع الأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي في واشنطن[٨٠] غير أن الحكومة السعودية حالت، في آخر دقيقة، دون نزول الطائرة، ليفر مغنية. فاحتجت إدارة «كلينتون» بشدة

على الحادث حيث برر وزير الخارجية «وارين كريستوفر»، بطريقته الدبلوماسية الضعيفة، الأمر بالقول: «عبّرنا عن انشغالنا من أننا لم يكن لدينا التعاون الذي كنا نأمله»[٨١]

فما هي دوافع القيادة السعودية إلى ذلك؟ وكيف كانت تأمل الحكومة السعودية التعامل مع تهديد الإرهاب؟

في سنة ١٩٩٥ تعرّض الملك فهد لسكتة دماغية فباشر ولي العهد الأمير عبدالله عملياً تدبير شؤون العربية السعودية. وفي عهده تغيرت السياسة الخارجية السعودية، حيث شدد على الحاجة إلى تحسين علاقات العربية السعودية الإقليمية لتفادي الاعتماد على الجيش الأمريكي[٨٢] فيما كانت إدارة «كلينتون» تأمل بوضوح أن يدعم حلفاؤها في الشرق الأوسط سياسة الاحتواء المزدوج لإيران والعراق. لكن هذه السياسة لم تعمر طويلاً، ذلك أن عبدالله باشر الحوار مع القيادة الإيرانية، بعد انتخاب محمد خاتمي رئيساً لإيران سنة ١٩٩٧ ففي الستينيات، عندما واجهت العربية السعودية صعود الإرهاب الفلسطيني في الشرق الأوسط، دفعت الأموال لحركة فتح، ومنظمة التحرير الفلسطينية فيما بعد، بدل مواجهة هذين التنظيمين. وسواء أكان هذا هو مخطط عبدالله للتعامل مع الإرهاب أم لا فإن النتيجة النهائية كانت الشيء نفسه: بل إن العربية السعودية جازفت بعلاقاتها مع واشنطن لتفادي اتخاذ إجراءات صارمة ضد حزب الله أو أي جماعة مماثلة. وفي زيارة لولي العهد الأمير عبدالله إلى بيروت يوم ٣ آذار/ مارس ٢٠٠٠ جاهر بالتقائه وفداً من حزب الله، الذي ينتمي إليه مغنية.

كان هذا اللقاء مربكاً، إذ جاء بعد تفجير برجي الخُبَر في العربية السعودية يوم ٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٩٦ إذ أسفر الانفجار الناتج عن

سيارة مفخخة عن مقتل ١٩ جندياً أمريكياً وجرح ٣٧٣ شخصاً. ولم يصب أي سعودي بالأذى في الهجوم. وبيّن العديد من المؤشرات أن هذا لم يكن عملاً من أعمال قوات بن لادن. ذلك أن التنظيم الذي نسب لنفسه هذا العمل هو تنظيم شيعي أطلق على نفسه اسم «حزب الله الخليجي». وقبل ثلاثة أشهر من ذلك أوقف مسؤولو الحدود السعودية، يوم ٢٩ آذار/مارس ١٩٩٦، سيارة قادمة من الأردن، بعد أن عبرت التراب الأردني، قادمة من سوريا، ويعود مصدرها إلى وادي البقاع اللبناني حيث قاعدة حزب الله الأساسية. وفي السيارة ثمانية وثلاثون كيلوغراماً من المتفجرات. وسائقها شيعي سعودي[٨٣]

لقد عززت الحجة الأولية فرضية حزب الله؛ ذلك أن السيارة المستعملة في التفجير تعود إلى شخص ورد التأكيد أنه تدرب على يد الحرس الثوري الإيراني. كانت العادة أن تملك وكالة «إف. بي. أي» الاستخباراتية الأمريكية اختصاص التحقيق في مقتل الأمريكيين في البلدان الأجنبية، لكن الأمر استغرق سنتين ونصف السنة على الأقل قبل أن تتعاون السلطات السعودية مع السلطات الأمريكية، خاصة عندما تعلق الأمر باستجواب المشتبهين[٨٤] وعلى نحو مماثل، وبعد تفجير مقر الحرس الوطني سنة ١٩٩٥، سارعت المملكة إلى إعدام المشتبهين قبل أن تتمكن «إف. بي. أي» من التحدث إليهم.

ربما لم ترغب الحكومة السعودية في أن يفتح المحققون الأمريكيون تحقيقاً حول الجماعات الإسلامية داخل العربية السعودية. فمهما يكن الدعم التقني الذي قد تقدمه الولايات المتحدة الأمريكية مبدئياً فإن التحقيق قد يفضح روابط محرجة بين العائلات المتزعمة في المؤسسة السعودية وبعض الجماعات المنشقة الأكثر تشدداً. ومع ذلك، وإلى حدود التسعينيات، كانت لأسامة بن لادن روابط وثيقة مع

الأمير تركي الفيصل مدير المخابرات السعودية.

لقد أدرك السعوديون بالفعل أنهم خاضعون لمراقبة شديدة بسبب مساهمات مالية مقدمة لجماعات إسلامية منخرطة في الإرهاب الدولي. ففي سنة ١٩٩٣، على سبيل المثال، التقى «شارل باسكوا»، وزير الداخلية الفرنسي، بنظيره السعودي الأمير نايف بن عبدالعزيز، لإرغامه على الحد من الدعم المالي الذي كان يمنحه رجال الأعمال السعوديين الخواص إلى جبهة الإنقاذ الإسلامية الجزائرية وتنظيمات مسلحة أخرى[٨٥] وفي سنة ١٩٩٤ توقف الرئيس «بيل كلينتون» لوقت قصير في العربية السعودية بغية الاحتجاج على تقديم الدعم السعودي لحركة حماس[٨٦] لكن ملتمس «كلينتون» كان ضعيف الأثر.

وفي تحقيقات الخُبر، ربما كان السعوديون يخشون ألاّ يقبل الأمريكيون تورّط حزب الله، وسيحققون عوضاً عن ذلك في الجماعات المتطرفة السعودية، بما في ذلك تلك التي دعمها مواطنون سعوديون. ورغم أن الولايات المتحدة الأمريكية قبلت بنظرية حزب الله فربّما تساءلت عن وضع المسلمين الشيعة في الإقليم السعودي الشرقي. كما كان ثمة أيضاً سياق دولي، حيث صرّح الرئيس الأمريكي أنه سيتأكد من أن «أولئك المسؤولين سيقدمون إلى العدالة». وبعد سنوات كشفت التحقيقات أن المفجرين تدربوا في لبنان وسوريا وإيران. ففي يوم ٢١ حزيران/ يونيو ٢٠٠١ أدان قاض فيدرالي أمريكي كبير في ألكسندريا بولاية فرجينيا ثلاثة عشر مقاتلاً إسلامياً سعودياً اشتبه في تورّطهم في الهجوم؛ ذلك أن صك الاتهام أوضح أن المقاتلين كانوا جزءاً من جماعة أطلقت على نفسها اسم حزب الله السعودي، مبيّناً أن «تنظيمات حزب الله هذه ألهمتها الحكومة الإيرانية

ودعمتها وأدارتها عناصر منها»[٨٧] ومن شأن ضربة انتقام أمريكية ضد إيران، بعد ربطها بتفجير الخبر، أن تجر العربية السعودية إلى صراع فضّلت تفاديه- خاصة لأن العمليات الأمريكية ضد إيران قد تقتضي أن تستعمل القوات الجوية الأمريكية القواعد الجوية السعودية.

فدية ليترك في حاله؟

ما أن عززت الحجة فكرة أن فرضية إيران- حزب الله هي التفسير الأجدر بالتصديق فيما يخص تفجير الخُبر سنة ١٩٩٦ حتى اتضح أن العربية السعودية لم تعد ضمن لائحة أهداف أسامة بن لادن أو التنظيمات التي دعمته مثلما كانت خلال سنة ١٩٩٥ إذ كانت جماعات إسلامية متشددة عديدة تنسحب آنذاك من مواجهة حكومات بلدانها لأنها استشعرت أنها منخرطة في فتنة محرّمة[٨٨] لقد تغيّر شيء ما. وربما أكثر النقاط إيحاءً في إعلان بن لادن الحرب سنة ١٩٩٦ تكمن في كونه حث أتباعه من المسلمين على عدم شن حرب أهلية في العربية السعودية[٨٩]، معلناً صراحة أنه «يجب على المسلمين ألا ينخرطوا في حرب داخلية فيما بينهم، ما دام هذا الأمر يؤدي إلى عواقب وخيمة». وحذر من أن هذا الصنف من الصراع الداخلي قد يخرّب الصناعات السعودية النفطية وهي أكبر أصول المملكة.

وقد أدرك بن لادن قيمة البنية التحتية النفطية الواسعة في شبه الجزيرة العربية: «سأنبه إخوتي المجاهدين، أبناء الوطن، إلى حماية هذه الثروة [النفط]، وألا يدرجوها في المعركة باعتبارها ثروة إسلامية عظيمة وقوة اقتصادية كبرى أساسية للدولة الإسلامية التي ستتأسس قريباً». ورغم أنه أشار إلى هذا الكيان الإسلامي المستقبلي فإنه لم يحرّض على حرب العصابات لإزاحة فرع السديري في العائلة الملكية

السعودية من الحكم. لنتذكر أيضاً أن خطابه الصادر في شباط/ فبراير ١٩٩٨ بعنوان «الجهاد ضد اليهود والصليبيين» أسقط ملاحظاته التي تذم الملك فهد، وآل السديري، والعائلة الملكية السعودية عموماً. لقد تغيرت نبرة بن لادن تماما. فبات يرغب اليوم في مواصلة الجهاد ضد الولايات المتحدة الأمريكية دون إلحاق الأذى بالداخل السعودي. ومن حيث الممارسة كان المفهوم من هذا الأمر أن بن لادن نقل صراعه مع الولايات المتحدة الأمريكية خارج التراب السعودي، إلى أفريقيا، واليمن، وأخيراً الولايات المتحدة الأمريكية.

ففي بداية سنة ١٩٩٦ واجه السودان ضغطاً رهيباً من واشنطن فيما يتعلق ببروزه كقاعدة مهمة جديدة من قواعد الإرهاب الدولي. إذ آوى السودان الإرهابيين الذين حاولوا اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في إثيوبيا. فضلاً عن ذلك، أشرفت حماس وحزب الله على تسيير منشآت تدريب قرب الخرطوم. لكن السودانيين بدوا مستعدين لقلب مجرى الأحداث. ذلك أنهم كانوا قد سلّموا فرنسا الإرهابي الرئيسي «كارلوس»، وباتوا الآن يناقشون مع الولايات المتحدة الأمريكية مسألة تسليم أسامة بن لادن[٩٠]، فيما فضّلت الحكومتان أن يطرد إلى العربية السعودية قصد الإعدام؛ وفي الواقع، أكد تركي الفيصل، رئيس قسم الاستخبارات السعودية العامة، في وقت لاحق، أن الرئيس السوداني الجنرال عمر البشير عرَض، بشكل شروط، تسليم بن لادن للسعوديين سنة ١٩٩٦[٩١] فأدركت إدارة «كلينتون»، التي أبقت على اتصالات مكثفة مع الرياض حول قضية ابن لادن، أن السعوديين لن يوافقوا على ذلك خشية رد فعل عناصر إسلامية داخل المملكة، وفضّلوا أن يبقى أسامة بن لادن خارج العربية السعودية. وفي نهاية المطاف طرده السودان إلى أفغانستان يوم ١٨ آذار/ مارس ١٩٩٦

وأضحى مسؤولون استخباراتيون أمريكيون سامون مقتنعين أن العربية السعودية أبرمت صفقة مع بن لادن. إذ لاحظ «ديك غانون»، الذي كان مدير عمليات في مكتب مكافحة الإرهاب بوزارة الخارجية، في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨، أي في أقل من ثلاثة أشهر بعد مغادرة منصبه، قائلاً: «حصلنا على معلومات حول من يدعم بن لادن، وفي حالات عديدة يعود ذلك إلى العائلة الملكية»[٩٢] وأكدت مصادر استخباراتية أمريكية أن أميرين سعوديين كانا يسرّبان الدعم إلى بن لادن. ذلك أن مصدراً سامياً في إدارة «كلينتون» اعتقد أن السعوديين شرعوا في تقديم رواتب منتظمة خلال سنة ١٩٩٥- وهي سنة الهجوم على مقر الحرس الوطني[٩٣] وقال المصدر إنه «لا جدال في أنهم اشتروا الحماية من بن لادن، حيث قضت الصفقة أن يغضوا الطرف عما يفعله في أي مكان. «لا تنفّذ أي عمليات هنا، ولن نعطّلها في أي مكان آخر»». وزعم تقرير آخر أن المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين تعرفوا فعلاً على الأميرين السعوديين اللذين دعما بن لادن[٩٤]

وكشفت تسجيلات استخباراتية أمريكية، بحسب تقرير مختلف تماماً، أن مسؤولين سعوديين بدؤوا دعم بن لادن وشبكته الإرهابية القاعدة خلال سنة ١٩٩٦ في تلك السنة كان النظام السعودي قد «انحاز إلى الجانب المظلم»[٩٥] إذ كان المال السعودي يدعم الجماعات المتطرفة في أفغانستان، ولبنان، واليمن، وآسيا الوسطى، والخليج الفارسي.[٩٦]

وبغضّ النظر عن التفاصيل كانت هذه التحليلات واضحة فيما يخص هذه النقطة؛ أي أن العربية السعودية كانت تؤدي الفدية لتترك في حالها. فقبل أن يغادر بن لادن السودان إلى أفغانستان اقترب منه

ثلاثة سعوديون على الأقل طالبين منه عدم ضرب أهداف سعودية، وبرروا الأمر بالقول إن «قتالك موجه ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وليس ضدنا»[٩٧] في نهاية المطاف، أمكن للسعوديين احتمال المتطرفين الإسلاميين، ما داموا منخرطين في الإرهاب خارج المملكة، حتى إذا وُجِّه ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد كشف حدثان اثنان مقاربة بن لادن الجديدة. أولهما أن القاعدة فجّرت سفارتين أمريكيتين في كينيا وتنزانيا سنة ١٩٩٨، وخلّف الحادث أكثر من ٢٤٠ قتيلاً و٤٥٠٠ جريح. وأثبت تقرير استخباراتي بريطاني أن عميلي القاعدة، اللذين قادا عربة «تويوتا» ضد السفارة الأمريكية في نيروبي، كانا مواطنين سعوديين[٩٨]، فيما ساعد مواطن سعودي آخر، هو خالد المحضار، على تخطيط التفجيرات[٩٩] ثانيهما أن القاعدة استعملت، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠، زورقاً صغيراً لتفجير البارجة «يو إس إس كول»، وهي راسية في ميناء عدن اليمنية، حيث قتل سبعة عشر بحاراً أمريكياً. إذ أكد الرئيس اليمني علي عبدالله صالح أن الزورق المطاطي، الذي أحدث ثقباً في «يو إس إس كول»، جاء من العربية السعودية[١٠٠] وأكد مسؤولون أمريكيون أن الزورق بيع في ميناء جازان وهُرّب إلى اليمن[١٠١] كما تلقوا معلومات تفيد أن عائلة تاجر سعودي موّلت تفجير «كول»[١٠٢] ويبدو أن أولئك الذين خططوا للهجوم على «كول» فروا من اليمن ولجؤوا إلى العربية السعودية[١٠٣] وكان اختيارهم ذا معنى، إذ أن قائد العملية ضد «يو إس إس كول» عبدالرحمن الناشري كان مواطناً سعودياً أسس خلية القاعدة في العربية السعودية[١٠٤] وقد تورط أيضاً في تخطيط الهجمات على السفارتين في أفريقيا الشرقية سنة ١٩٩٨

كانت القاعدة ترسّخ وجوداً مرعباً داخل العربية السعودية لمّا اشتدت الحملة ضد الأهداف الأمريكية. إذ حصل «روبرت باير»، مسؤول مصالح «سي أي آي» السرية، على مخابرة موجعة من مصدر في قطر، دققت أسماء نحو ٦٠٠ متطرف إسلامي في العربية السعودية واليمن ممن لهم صلة ببن لادن[١٠٥] باختصار، نجح بن لادن مع مطلع سنة ١٩٩٨ في استعمال المملكة السعودية قاعدة عمليات ضد أهداف أمريكية، لكن لم يعد يهاجم العربية السعودية نفسها.

ولم تتضح حجة إضافية تدين العربية السعودية إلا باستعادة الأحداث، بعد هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية. إذ اجتاز ستة من السعوديين الخمسة عشر الذين تورطوا في الهجمات مسار تجنيد ديني عندما كانوا في العربية السعودية حيث اندمج بعضهم في القاعدة عبر مساجد خميس مشيط، الواقعة جنوب العربية السعودية، قرب الحدود اليمنية[١٠٦] بل ثمة شك كبير فيما إذا كان أي من المختطفين السعوديين الخمسة عشر قد وطئت قدماه أفغانستان من قبل، باستثناء واحد أو اثنين[١٠٧] من هنا يتبيّن أن معظم مرحلة التدريب استعدادا للهجمات الانتحارية النهائية تم في العربية السعودية نفسها. وبالفعل، سجلت المخابرات الأمريكية، كما كشف نواب عامون فيدراليون أمريكيون، مكالمات في تموز/ يوليو ٢٠٠١ من اليمني- الأمريكي مختار البكري، الذي تدرب في معسكرات القاعدة بأفغانستان ومكث في العربية السعودية مدة شهرين. إذ قال البكري، في رسالة إلكترونية بعثها من مقهى إنترنت بجدة إلى متلق قرب «بوفالو»/ نيويورك، إن بعض الأشخاص *داخل العربية السعودية*، يفترض أنه كان على صلة بهم، امتلكوا «رؤى» حول «وليمة» يستعصي تحمّلها على الجميع إلا على المؤمنين[١٠٨] واعترف محققون

أمريكيون، فيما بعد، أن فحوى البريد الإلكتروني عبارة عن رسالة مشفرة من أجل هجوم إرهابي وشيك جاءت من العربية السعودية، لا من أفغانستان أو السودان، قبل نحو شهرين من ضرب مركز التجارة العالمي والبنتاغون.

جذور الإرهاب الجديد الإيديولوجية

في سنة ١٩٩٩ توفي الشيخ عبدالعزيز بن باز، وهو أهم وجه ديني امتلك سلطة إضفاء الشرعية على قبول العربية السعودية التكتيكي بالغرب، بما في ذلك انتشار القوات الأمريكية خلال حرب الخليج. ورغم أن خليفته الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ سليل محمد بن عبدالوهاب فإنه لم يتمتع، مع ذلك، بمكانة ابن باز لدى الفقهاء الوهابيين الأكثر تشدداً، ومن ثم لم يستطع مراقبتهم مثلما فعل ابن باز أحياناً.

لكن حتى قبل وفاة ابن باز، خاصة عقب حرب الخليج، انتعش مجدداً التوجه القوي المعادي للغرب الذي عبّر عنه فقهاء وهابيون في الماضي. ذلك أن المواقف الدينية السائدة في العربية السعودية تنزع الشرعية عن أتباع ديانات أخرى، خاصة المسيحيين واليهود، مصنّفة إياهم ضمن فئات دينية جعلتهم جديرين بأقسى المعاملات، بما في ذلك التصفية الجسدية. في الواقع، ظلت العناصر الدينية والتربوية في المؤسسة السعودية، خلال التسعينيات، متشبثة بتقديم مقوّمات أساسية من تبرير أسامة بن لادن الديني للهجوم على أمريكا:

١ لا وجود لأي أساس للحوار بين الأديان مع ديانات قائمة على التجديف، أو الشرك، أو الهرطقة. إذ كان العالم المسيحي لا يزال منخرطاً في حروب صليبية ضد الإسلام.

٢ المسيحيون واليهود كفار، أو مشركون، ومن ثم ليسوا شعوباً محمية، بل هم في صراع أبدي مع الإسلام.

٣ من الجائز (بحسب تعبير كتاب مدرسي رسمي لوزارة التربية السعودي) «هدم معاقل الكفار، أو حرقها، أو تدميرها».

هكذا، لم يكن أسامة بن لادن يبشر بأي شيء جديد. ذلك أن هذه الكراهية غسلت أدمغة جيل كامل من السعوديين؛ فشرع بن لادن- ببساطة- في حشد المسلمين الوهابيين المستعدين مسبقاً لشن حرب ضد الغرب.

كما استعمل السعوديون شبكاتهم الخيرية الدولية لدعم التنظيمات الإسلامية الأكثر تطرفاً التي قبلت بالآراء الوهابية المتشددة. إذ ثمة حجة مادية مفادها أن هذا الأمر تضمّن دعماً لأسامة بن لادن. طبعاً، استطاعت الحكومة السعودية، بتوظيف خيرياتها الإسلامية الدولية وبالاعتماد على مساهمات خاصة مقدمة لجماعات إسلامية متشددة، أن تنأى بنفسها عن التنظيمات الإرهابية- حتى عندما أدّت «أموال الحماية» لأولئك الذين قد يضرون بالسعوديين.

ولم يُعرف أغلب هذه المعلومات إلا بعد استعادة الأحداث. ذلك أن العربية السعودية غالباً ما أنكرت الأمر بطريقة معقولة طيلة التسعينيات. من هنا استطاع وزير الخارجية السعودية أن يحضر، في آذار/ مارس ١٩٩٦، «قمة صناع سلام» دولية، انعقدت في مصر، عقب أربعة تفجيرات انتحارية متتالية في إسرائيل نفذها متطرفون إسلاميون من حماس والجهاد الإسلامي. فانضمت المملكة السعودية إلى الحاضرين الآخرين- بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية،

وبريطانيا العظمى، وفرنسا، وروسيا- في التعبير عن «إدانتها القوية للرعب بكل أشكاله المقيتة». لكن عمل العربية السعودية كان، في الواقع، يسير في اتجاه مختلف تماماً- اتجاه لن يتضح إلا بعد ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١

الفصل العاشر

الكراهية تتواصل

بدت القيادة السياسية السعودية، في غضون أسابيع عقب الهجمات على مركز التجارة العالمي والبنتاغون، كأنها في حالة إنكار تورّط مواطنين سعوديين واحتمال أي مسؤولية سعودية. من ذلك مثلاً أن الشيخ صالح آل الشيخ، وزير العربية السعودية للشؤون الإسلامية، أكّد في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١ أنه «ليس هناك أي إثبات أو حجة تفيد أن السعوديين نفذوا الهجمات»[١]- رغم أن الولايات المتحدة الأمريكية حددت، بالطبع، خمسة عشر من بين تسعة عشر مختطفاً باعتبارهم مواطنين سعوديين. ثم إن السعوديين حاولوا ربط أسامة بن لادن ببلدان أخرى. فعلى سبيل المثال، قال وزير الدفاع السعودي الأمير سلطان ليومية *السياسة* الكويتية إنه شكَّ فيما إذا كان «بن لادن وأتباعه وحدهم وراء ما حدث»، إذ لا بد أن «قوة أخرى امتلكت خبرة تقنية متقدمة» وقفت وراء الهجوم[٢] وقال شقيقه وزير الداخلية الأمير نايف بن عبدالعزيز إن بن لادن بدا «وسيلة» في يد آخرين، بدل أن يكون العقل الذي دبر هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، خاصة أنه لم يبدُ أن السعوديين الذين زعمت الولايات المتحدة الأمريكية تورطهم في الهجمات «امتلكوا القدرة على الفعل بطريقة محترفة»[٣] وبالنظر إلى

تاريخ روابط العربية السعودية الرسمية ببن لادن فإن هذه التصريحات اتخذت شكل غطاء للتستر.

مما لا شك فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية توقعت أن يردّ حلفاؤها عبر العالم بالضرورة على ما حدث يوم ١١ أيلول/ سبتمبر. إذ أعلن الرئيس «جورج و. بوش»، وهو يتحدث أمام لجنة الكونغرس المشتركة يوم ٢٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، أن الواقفين وراء الهجوم هم: «مجموعة تنظيمات إرهابية ذات نسيج مهلهل تعرف باسم القاعدة». وأشار إلى زعيمها أسامة بن لادن بالاسم. ثم خاطب المجتمع الدولي، وهو يصف حملة أمريكا العسكرية المقبلة، قائلاً «إننا سنلاحق البلدان التي توفر المساعدة أو الملاذ الآمن للإرهاب، حيث على كل بلد، في كل منطقة، أن يتخذ قراراً اليوم. فإما أن تكون معنا، أو تكون مع الإرهابيين»[٤] وتحدث «بوش» عن الحاجة إلى «حملة طويلة»، بما في ذلك «العمليات السرية» والجهود الرامية إلى «قطع الدعم عن الإرهابيين». ولم يوضح الرئيس مصادر الإرهاب الإيديولوجية توضيحاً كافياً، حيث أقر فقط أن «الأمريكيين يتساءلون لماذا يكرهوننا؟»

ومع ذلك، كانت رسالة «بوش» قوية. فبالنظر إلى أن خمسة عشر من تسعة عشر مختطفاً كانوا مواطنين سعوديين، لربما تطلع المرء إلى أن تدفع كلمات الرئيس الأمريكي بالسعوديين إلى تغيير المسار. ورغم ذلك، فمن السهل أن تبعث مواعظ أعضاء المؤسسة الدينية السعودية في المساجد السعودية رسالة مفادها أن السعوديين كانوا «مع الإرهابيين»، بتعبير «بوش».

لكن وجوهاً دينية سعودية مهمة أبقت على ذات التيمات المعادية للغرب التي كانت جزءاً من توجّه المملكة الديني خلال العقدين الماضيين، مما جعل الأمور تأخذ مجرى عادياً كأن شيئاً لم يقع.

الحرب ضد الغرب:
السعوديون يبررون ١١ أيلول/سبتمبر

يعتبر الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي وجهاً دينياً سعودياً بارزاً من الوجوه التي واصلت قدح أمريكا والغرب. إذ بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، اعترض الشعيبي على المشاركة السعودية في حرب أمريكا ضد الإرهاب في أفغانستان، مُعلّلاً ذلك في قوله: «أمّا مظاهرة الكفار على المسلمين ومعاونتهم عليهم فهي كفر». فضلاً عن ذلك، أقر أنه «من الواجب جهاد كل من يدعم الهجوم على أفغانستان في أفغانستان». إذ شكل هذا الأمر أساساً دعوة إلى شن الجهاد على الولايات المتحدة الأمريكية نفسها[٥]

وينظر الشعيبي في فتواه إلى الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها دولة كفر؛ أي أنها دولة تعيش التجديف. والمسيحيون واليهود معاً هم كفار. وكل من ساعد أمريكا مرتدّ. إذ وصف الشيخ الشعيبي الرئيس «بوش» والوزير الأول «توني بلير» بأنهما مجرمان، وعرّف حربهما ضد الإرهاب بأنها «حرب صليبية». ودعا كل المسلمين إلى نصرة إخوانهم في أفغانستان ضد القوات الإنجليزية- الأمريكية[٦] ونبّههم إلى أن «ترك الجهاد كفر».

لم تكن هذه الفتوى المتشددة المؤشر الوحيد في موقف الشيخ الشعيبي. ذلك أنه أصبح، فعلاً، أول زعيم ديني سعودي بارز يتغاضى عن تدمير مركز التجارة العالمي والبنتاغون. إذ لم يمض وقت طويل على الهجوم على الولايات المتحدة الأمريكية، حتى ظهر كتاب على الإنترنت بعنوان *التأصيل لمشروعية ما جرى لأمريكا من تدمير*.[٧] وجدير بالذكر أن الشعيبي كتب مقدّمة هذا النص المعادي لأمريكا الذي برّر قتل آلاف الأبرياء- كتاب أكد فيه مؤلفه الفقيه السعودي

الشيخ عبدالعزيز بن صالح الجربوع أن «أسامة بن لادن امتداد طبيعي من محمد بن عبدالوهاب»[٨]

كشف الشيخ الشعيبي، في هذه المقدمة، توجهاً مناصراً لطالبان بوضوح- «لأنهم أنشأوا دولة إسلامية كاملة، وأقاموا الشريعة، وحجتها تدمير تماثيل بوذا، وإزالة الأضرحة، وتحريم عبادة القبور». وقد اعتُبرت هذه الأمور مقاييس وهابية كلاسيكية، حيث شرح الشيخ الشعيبي، في فتوى سابقة، سبب اعتبار نظام طالبان الحكومة الشرعية في أفغانستان. ذلك أنه امتدح طالبان لمساعدة المجاهدين، ولعدم اتخاذ مواقف تتنازع مع الشريعة، ولاتباع تعاليم الإسلام، بدل الميل نحو العلمانية، مثلما فعلت عدة بلدان إسلامية أخرى[٩]

وبالنظر إلى نزوعات الشعيبي لم تكن بقية مواقفه التي رسمها في هذه المقدمة مفاجئة تماماً. إذ وصف الكتاب بأنه «مفيد ونافع ننصح بقراءته ويعتبر سلاحاً يتمسك به المسلم لمقاومة التيارات الحديثة الفاسدة». وختم الشيخ الشعيبي قائلاً: «نسأل الله أن ينصر المجاهدين في كل مكان، وأن يخذل أمريكا ومن ظاهرها ووالاها، ويزيدهم تدميراً إلى تدميرهم». ها هنا فقيه سعودي لم يدافع عن الهجمات ضد مركز التجارة العالمي والبنتاغون فحسب، بل دعا أيضاً إلى مزيد من تدمير الولايات المتحدة الأمريكية.

لم يكتف الشيخ الشعيبي بتبرير أفعال شنيعة بعد الواقعة- بل ربما ألهمت آراؤه طالبان وأنصارهم من القاعدة. إذ وجدت الإحالات على كتاباته، إلى جانب كتابات الشيخ الجربوع، في كتاب بعنوان *الكتاب الجامع للفتاوى*، عثر عليه في مكتب طالباني بكابول عند انتصار قوات تحالف الشمال[١٠] وفي الواقع، استشهد أسامة بن لادن، في حوار بثته قناة *الجزيرة* في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١، بالشيخ الشعيبي،

عندما أجاب عن سؤال حول كيفية تبرير قتل «يهودي، أو مسيحي، أو كاثوليكي»[١١] فضلاً عن هذا، أصدر الشيخ الشعيبي، قبل الهجمات ضد الولايات المتحدة الأمريكية، فتوى تدعم الهجمات الانتحارية، التي تبنّاها أنصار حماس والمتمردون الشيشان. فإذا كان من الممكن تبرير الهجمات الانتحارية ضد إسرائيل وروسيا من الناحية الدينية فإنه من السهل تبرير الهجمات الانتحارية على نيويورك وواشنطن تبريراً دينياً.

وقد لفتت كتابات الشيخ الشعيبي المحرّضة على القتال الانتباه إلى مسألة صفته الحقيقية كزعيم ديني سعودي. والملاحظ أن السلطات السعودية لم تمنع موقعه الإلكتروني، مثلما فعلت مع خصوم آخرين. ففي الواقع، بذلت الحكومة السعودية جهوداً واسعة لمنع مواقع إلكترونية عالجت الإباحية، وحقوق النساء، والمثليين أو السحاقيات، والديانات غير الإسلامية، والنقد السياسي[١٢] ولم يكن ثمة جهد مماثل لمواجهة التطرف الإسلامي، حيث استُنسِخت كتابات الشيخ الشعيبي، ووزعت خارج مساجد سعودية عديدة[١٣] ورفض الشيخ صالح السدلان، وهو أستاذ جامعي كان مستشاراً للعائلة الملكية السعودية، إدانة الشيخ الشعيبي عندما سأله صحافي من جريدة *نيويورك تايمز* حول أحكام الشعيبي. بالأحرى، اقتصر زعيم المؤسسة الدينية على أبسط نقد ممكن: «ارتكب خطأ، لكنه ليس خطأً فادحاً، ولا يحط من قدره»[١٤]

كانت للشيخ الشعيبي أوراق اعتماد دينية قوية. فقد رأى النور سنة ١٩٢٥ قرب بريدة، معقل الوهابية التقليدية. أصابه العمى في سن السابعة بسبب الحصبة، غير أنه ارتقى الدرجات باعتباره عالماً وهابياً، حيث درس الإسلام على يد أحفاد محمد بن عبدالوهاب. وبعد مجيئه

إلى الرياض تتلمذ على يدي مفتي الملك فيصل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ. إذ بدت قائمة طلبة الشيخ الشعيبي كـ«لائحة فاعلين» في الشؤون الدينية السعودية، بما في ذلك المفتي الأكبر الحالي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ، وعبدالله التركي وزير الشؤون الإسلامية السابق والأمين العام لرابطة العالم الإسلامي. باختصار، جاء الشعيبي من الاتجاه السعودي السائد.

غير أن مواقف الشيخ الشعيبي أحرجت العائلة الملكية السعودية حرجاً كبيراً عندما أضحت معروفة على الصعيد الدولي. ذلك أنه واصل التصريح أن «من واجب كل مسلم الوقوف مع الشعب الأفغاني وقتال أمريكا»(١٥) ففي ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١ أنكر الأمير نايف، وزير الداخلية وشقيق الملك فهد، شرعية الفتوى الواردة على الصفحة الأولى من جريدة *الحياة* اللندنية التي تملكها السعودية. لكن رغم هذا التصريح كانت العربية السعودية الرسمية، في الواقع، تتباطأ فيما يخص التعاون مع أمريكا حول أهم خصائص الحرب ضد الإرهاب. إذ لاحظ المسؤولون في إدارة «بوش» أن الحكومة السعودية كانت لا تزال، بعد شهر من هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، ترفض تجميد أصول أسامة بن لادن وشركائه(١٦) ذلك أن قطع العلاقات الدبلوماسية مع طالبان استغرق من العربية السعودية- وهي واحدة من ثلاث دول فقط اعترفت بهذا النظام الأفغاني، إلى جانب باكستان والإمارات العربية المتحدة- أسبوعين كاملين بعد ضرب مركز التجارة العالمي والبنتاغون. وبالفعل، انتظرت الحكومة السعودية ثلاثة أيام بعد قطع الإمارات العربية المتحدة علاقاتها مع طالبان لتتصرف أخيراً يوم ٢٢ أيلول/ سبتمبر(١٧)

وحتى عندما حاول البعض في المؤسسة السعودية نزع المشروعية

عن الشيخ الشعيبي العجوز فإن القيادة الدينية الوهابية رفعت مكانته. إذ أوردت يومية *عكاظ* السعودية أن كتابة هيئة كبار العلماء زعمت أن الشيخ الشعيبي لم يشتغل بالإفتاء. وأكدت اليومية أن مواقفه الدينية لم تشكل أساس الممارسة الدينية. والأنكى من ذلك هو تصريح اليومية أن هيئة كبار العلماء حددت أن ذلك مجرد «اجتهادات لا يعتد بها» فوضعت المقالة بوضوح آراء الشيخ الشعيبي الراديكالية وراء حدود الإسلام المقبول في العربية السعودية.

لكن القصة لم تنته هنا. ذلك أن رئيس تحرير يومية *عكاظ* اتصل بمكتب المفتي العام في العربية السعودية وطلب رأيه في الشيخ الشعيبي. فأكد مكتب المفتي أنه «ليس عضو إفتاء في الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء»[١٨] لكنه لم يعترض على وضعه كسلطة إسلامية، أو يضع مستواه العلمي موضع شك، أو يدينه أو يتبرأ منه. هكذا، وبعد التعليق على القضية الضيقة التي تتمحور حول ما إذا كان الشيخ الشعيبي عضواً رسمياً في جهاز الإفتاء، أوضح مكتب المفتي العام أن «ما نسب إلى الأمانة ونشر في سياق خبري هو مجرد إضافات وتخمينات من محرر هذا الخبر عبدالله العريفج، ونسبته إلى أمانة هيئة كبار العلماء كذب وبهتان»[١٩] وشدد مكتب المفتي العام على أن ينشر هذا التوضيح *القوي* في *عكاظ*- في الصفحة ذاتها، وبالحجم ذاته، الذي نشرت به المقالة الأصلية، سعياً إلى التصحيح.

لقد أبان هذا الرد القوي الصادر عن أعلى سلطة دينية سعودية أن الشيخ الشعيبي لم يكن مجرد حاشية، بل هو جزء من المؤسسة الدينية الوهابية في العربية السعودية.

والحال أن مواقف الشيخ الشعيبي المتشددة المعادية للغرب وجدت لنفسها موطئ قدم داخل العربية السعودية لما بعد ١١ أيلول/

سبتمبر. ذلك أن الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن جبرين برر أيضاً الهجوم على مركز التجارة العالمي، ورفض استعمال أية لغة ندم حول الوفيات من الضحايا الأبرياء[٢٠] وحده الشيخ كان بالفعل عضواً في الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد- وهي فرع رسمي من الحكومة السعودية[٢١]

هذه المواقف معروفة في المساجد السعودية أيضاً. إذ لم يُبْدِ الشيخ وجدي حمزة الغزاوي، وهو يخطب في أحد أهم مساجد مكة يوم ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١ أي علامة ندم حول الهجوم على أمريكا، حيث دافع أيضاً بقوة عن مصطلح «الإرهاب»:

> الإرهاب المسموح به في الإسلام هو ضد المتخاذلين والمنافقين والعلمانيين، عقاباً لهم كما تأمر شريعة الله.
> فمعنى كلمة «إرهاب» الذي يستعمله الإعلام. هو الجهاد في سبيل الله. الجهاد هو قمة الإسلام. فضلاً عن ذلك، هناك من العلماء من يرى فيه الركن السادس للإسلام.

كان هذا تصريحاً لافتاً للنظر، من حيث إن الحركة الدينية الوحيدة التي عرّفت الجهاد كركن سادس من الإسلام هي فرقة الخوارج، التي خرجت عن المجتمع الإسلامي في القرن السابع.

وقد واصل الشيخ خطبته على النحو الآتي: «الجهاد الذي يدافع عن المسلمين وأرض الإسلام، أو الذي يوسع رقعة الدين هو إرهاب في نظر أعداء الله»[٢٢]

لم يمكن صرف النظر عن هذه الخطب باعتبارها حديث رجال دين هامشيين. في الواقع، أطلقت الحكومة الأمريكية، يوم ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١ شريط فيديو لأسامة بن لادن، كشف تأثير

الفقهاء السعوديين القوي في منفذي هجمات ١١ أيلول/سبتمبر. في الفيديو، نرى بن لادن يسأل الجالسين حوله عن «موقف المساجد»، لأنه اعترف يقيناً أن بإمكانه الاعتماد على تعاطف قادة دين سعوديين فيما فعله بالولايات المتحدة الأمريكية. وأطلع سعودي في الفيديو، هو خالد الحرب، الذي قاتل في أفغانستان والبوسنة والشيشان، بن لادن على رأي الشيخ الشعيبي حول الهجوم على مركز التجارة العالمي[٢٣] وأضاف أنه تلقى للتو «فتوى جميلة» من الشيخ سليمان بن ناصر العلوان من العربية السعودية، حيث صرحت تلك الفتوى، بحسب الفيديو، أن الهجمات على مركز التجارة العالمي هي فعل جهاد[٢٤] ولم تتغير نبرة الوعاظ السعوديين حتى سنة ٢٠٠٢ ففي يوم ٢٢ كانون الثاني/يناير ظهر الشيخ عبدالله بن متروك الحداد، وهو داعية سعودي من وزارة الشؤون الإسلامية، في برنامج *الاتجاه المعاكس* الشهير على قناة «الجزيرة»، وهو يقول إن «العالم الغربي يركز على أسامة بن لادن والجهاد، ويتجاهل عقيدة المسلمين ومبادئهم وقيمهم. فالرجال أمثال بن لادن لن يسمحوا للعالم الإسلامي بالخضوع لجبروت الأعداء الكفار في الولايات المتحدة الأمريكية»[٢٥] كما وصف اليهود الأمريكيين بأنهم «إخوة القردة والخنازير»، قائلاً إنهم أفسدوا الولايات المتحدة الأمريكية[٢٦]

ووسّع الشيخ عبدالرحمن السديس، إمام المسجد الأعظم في مكة، هذا الهجوم الديني بالحديث عن مؤامرة عالمية بين الهندوس والمسيحيين واليهود والعلمانيين. إذ أعلن السديس، المقرب من الحكومة السعودية[٢٧]، أن «الهندوس الوثنيين يمعنون في حقدهم السافر ضد إخواننا ومشاعر المسلمين في كشمير المسلمة، مما ينذر بخطر داهم وحرب ضروس في القارة الهندية برمّتها». وهاجم «دعاة

التثليث وعبدة الصليب»، وذكّر المنصتين إليه أن اليهود تحولوا إلى «خنازير وقردة»، وقد بُثت الخطبة على القناة الوطنية السعودية الأولى[٢٨].

بعد مضي شهور على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر اعترف ولي العهد الأمير عبدالله في نهاية المطاف أن هذه اللغة الملهبة لبعض الدعاة المسلمين ربما أضرت بالمصالح السعودية في المناخ الجديد ما بعد الهجوم. ففي تشرين الثاني/نوفمبر دعا عبدالله جميع فقهاء المملكة البارزين لإطلاعهم على محادثاته مع إدارة «بوش» وحذرهم في هذه المناسبة قائلاً: «تعرفون أننا نعيش أيام عصيبة. عليكم أن تتصرفوا باعتدال، وتزنوا كل كلمة تقولونها، فأنتم مسؤولون أمام الله والأمة الإسلامية»[٢٩] وتأكد من أن تنشر ملاحظاته في يومية *الوطن* السعودية. فهل أدرك عبدالله أن ثمة علاقة بين الإرهاب والتحريض الديني في المساجد؟ أم أنه كان منشغلاً بأن العربية السعودية باتت تحت مجهر المراقبة منذ ١١ أيلول/سبتمبر، وعليها أن تسير بحذر نتيجة لذلك؟

في أواخر كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ حاول ولي العهد الأمير عبدالله وصف بن لادن وأنصاره كظاهرة هامشية في العربية السعودية. إذ قال في حوار مشترك بين *نيويورك تايمز* و*واشنطن بوست*: «وأنتم في بلادكم أمريكيون ارتكبوا أعمالاً إرهابية أمثال «تيموثي ماكفاي»، في أوكلاهوما. فالمنحرف منحرف بغضّ النظر عن جنسيته». غير أن المقارنة بـ«ماكفاي» غير ملائمة؛ ذلك أن الإديولوجيا التي ساقت إرهابيي ١١ أيلول/سبتمبر إلى فعلتهم لم توجد على حواشي المجتمع السعودي، مثلما كان «ماكفاي» على الهامش في أمريكا. في الواقع، رفض عبدالله الاعتراف بأي مسؤولية سعودية عن الهجوم ضد أمريكا،

مفسراً أن المأساة «ليست غلطة أي من الحكومتين [السعودية أو الأمريكية]، ولكنها جريمة ارتكبها شخص شرير»[٣٠] فمن حيث الجوهر، كان عبدالله يقول إن أسامة بن لادن أو المختطفين السعودية الخمسة عشر لم يستلهموا أي شيء من العربية السعودية للهجوم على أمريكا. ومما لم يثر الغرابة بتاتاً، حينها، أن الدعاة السعوديين لم يستجيبوا لدعوته استعمال لغة دينية أكثر اعتدالاً ولم تكن هناك جهود أخرى لاتخاذ إجراءات صارمة ضد التحريض الديني المتشدد، رغم أنه كان يفترض من الحكومة السعودية، منذ سنة ١٩٩٤، وخاصة بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، أن تراقب دعاة المساجد وخطبهم عن كثب.

أما جهد وصف أسامة بن لادن بـ«تيموثي ماكفاي» السعودي، فلم يفلح في رسم انطباع قوي داخل الولايات المتحدة الأمريكية. صحيح أن عناصر من الحكومة الأمريكية كانت في البداية مستعدة لتصديق العربية السعودية؛ فبعد أسبوع من ١١ أيلول/ سبتمبر حذرت «إف. بي. أي» أعضاء في أسرة بن لادن بالولايات المتحدة الأمريكية من أنهم معرضون للخطر، ومن ثم سهّلت مغادرتهم على متن طائرة «بوينغ ٧٢٧» خاصة من مطار «لوغان» في بوسطن إلى العربية السعودية[٣١] لكن العربية السعودية لم تتحمل المسؤولية فيما انشغل به الجمهور الأمريكي. إذ أفادت قصة خبرية موحية، نشرتها *واشنطن بوست* يوم ٢٦ شباط/ فبراير ٢٠٠٢ أن ٥٤ في المئة من الأمريكيين رأوا في العربية السعودية دولة تدعم الإرهاب، بينما أعرب ٣٥ في المئة فقط عن التصور ذاته عن سوريا- وهي الدولة التي ظلت ترد طيلة سنوات على «لائحة الإرهاب» في وزارة الخارجية. إذ سرعان ما سيتخذ السعوديون المبادرة حتى لا تنحدر مكانتهم لدى جمهور الولايات المتحدة الأمريكية.

بُعيد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر أدرك السعوديون أنهم يواجهون تحدياً صعباً على صعيد العلاقات العامة. إذ أدت الحكومة السعودية لشركة الإشهار الأمريكية «بورسن- مارتيلر» ٢,٧ مليون دولار قصد نشر إعلانات في الصحافة الأمريكية تُصور العربية السعودية حليفاً أمريكياً وفيّاً[٣٢] ثم ضاعفت جهود العلاقات العامة في واشنطن، مستأجرة شركة «اتصالات كورفيس» بمبلغ مئتي ألف دولار لكل محام شهرياً. إذ تلقى «فريديريك داتن»، الذي كان في السابق مساعداً خاصاً للرئيس «جون ف. كينيدي»، ٥٣٦ ألف دولار للمساعدة على تدبير العلاقات العامة السعودية[٣٣] كما أدى السعوديون لشركة أخرى، هي «باتن بوغز»، مئة ألف دولار لإطلاع نواب الكونغرس الأمريكي وأطقمهم على قضايا تهم المملكة السعودية[٣٤]

في البداية، حاول القادة السعوديون صرف الأنظار عن تورط مواطنين سعوديين في الهجوم، وإلقاء اللوم على السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل لتحريضها على الرعب. هذا الأمر تبدّى بقوة يوم ١١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، عندما زار الأمير الوليد بن طلال «غراوند زيرو» رفقة عمدة مدينة نيويورك «رودي جولياني». إذ منح الوليد «جولياني» شيكاً بقيمة عشرة ملايين دولار مقدمة لصندوق البرجين التوأمين. وبينما صرّح أنه شعر بالأسى إزاء ضحايا الهجوم، ظهر الوليد غير مبال بما رأى، حيث كتب «جولياني» فيما بعد أنه تبيّن بالأحرى ابتسامة على مُحيّا الوليد، وعلى وجوه المحيطين به. وفي بيان صحافي لاحق أكد الوليد أنه «يجب أن نعالج بعض القضايا التي أدت إلى هذا الهجوم الإجرامي»، مضيفاً: «أعتقد أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ينبغي أن تفحص من جديد سياساتها في الشرق

الأوسط وتتبنى موقفاً أكثر اعتدالاً من القضية الفلسطينية»[٣٥] غير أن استراتيجية الوليد أعطت نتائج عكسية، إذ أرجع «جولياني» الشيك السعودي لاحقاً، رافضاً القبول بأي تبرير للخراب الذي حصل يوم ١١ أيلول/ سبتمبر.

وفي مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١ بعث السعوديون عادل الجُبير إلى واشنطن. كان الجبير قد عمل مساعداً سياسياً للأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي في واشنطن، لكنه رقي منذ ذاك الوقت إلى مستشار في الشؤون الخارجية لولي العهد الأمير عبدالله. فكان على الجبير أن يساعد على تنسيق حملة علاقات السعوديين العامة، وأن يظهر في تلفزيون الشبكة الأمريكية. إذ صرّح أن الحكومة السعودية كانت في حاجة إلى تملّك تقنيات حملة سياسية أمريكية، وأضحت أكثر ولوجاً إلى الصحافة، مطلعة الجمهور على الجلسات الافتتاحية على نحو متكرر[٣٦] غير أنه اتضح، مع حلول شباط/ فبراير ٢٠٠٢ أن السعوديين ما زالوا يعانون الحرج في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث سرعان ما سيبرر تقرير «واشنطن بوست» انشغالات السعوديين. ذلك أنه كان من الضروري اتباع خطوة جذرية.

في هذا الوقت بالضبط دعي «توماس فريدمان»، محرر الشؤون الخارجية في صحيفة «نيويورك تايمز»، خلال زيارته الرياض، إلى مأدبة عشاء رفقة ولي العهد الأمير عبدالله. وقد اقترح عبدالله، وفق ما جاء في عمود «فريدمان» في «نيويورك تايمز» يوم ١٧ شباط/ فبراير ٢٠٠٢ طريقة لتجاوز المأزق الحاصل في المفاوضات العربية- الإسرائيلية، التي تعطلت بعد قمة «كامب ديفيد» الفاشلة في تموز/ يوليو ٢٠٠٠ فتحدث ولي العهد عن «انسحاب إسرائيلي كامل» من الأراضي التي شكلت جوهر النزاع العربي- الإسرائيلي منذ سنة

١٩٦٧، في مقابل «تطبيع كامل» للعلاقات مع العالم العربي برمّته. وبدل طرح هذا الأمر كقنبلة دبلوماسية جديدة في القمة العربية التي كانت مرتقبة في بيروت خلال آذار/ مارس من السنة ذاتها سمح عبدالله لـ«فريدمان» بإدراج الاقتراح السعودي في صحيفته.

أدرك «فريدمان» دلالة الاقتراح السعودي المضمرة، حيث استهل عموده بالاعتراف أن فكرة مماثلة راودته. غير أنه حاذر عدم المبالغة في الأهمية الدبلوماسية لصيغة عبدالله الجديدة، التي سمّاها «مؤشراً مخادعاً». إذ المحور الفعلي في مخطط عبدالله هو مصطلح «التطبيع الكامل». فذاك هو جوهر السلام بالضبط الذي ظل يسعى إليه الدبلوماسيون الإسرائيليون مع العالم العربي خلال العقد الماضي من الدبلوماسية الإسرائيلية- العربية. ذلك أن «التطبيع» تضمن نوع العلاقات السياسية التي يتعذر إلغاؤها، والتي جمعت بين أعداء سابقين مثل فرنسا وألمانيا، اللتين تعتبران أنه لا مجال للتفكير في العودة إلى العلاقات العدائية. فإذا بادلت إسرائيل أرضا استراتيجية مقابل السلام فإنها أرادت حينها سلاماً يمنحها الحماية، وكان «التطبيع الكامل» طريقة للقول إن العربية السعودية كانت مستعدة لسلام دائم.

لقد ظل الزعماء العرب، حتى حديث عبدالله مع «فريدمان»، شديدي الحذر ألا يتبنوا مصطلح «التطبيع»، حيث كان المصطلح المفضل هو «علاقات طبيعية»، التي كانت عبارة عن علاقات دبلوماسية مقلّصة بالنسبة لنوع السلام البارد الذي أقامته مصر مع إسرائيل منذ اتفاقية السلام سنة ١٩٧٩، منها: إقامة السفارات وتبادل السفراء- وذاك كل شيء[٣٧] وفي الواقع سحبت مصر سفيرها من إسرائيل سنة ٢٠٠١، مظهرة ما كانت عليه «العلاقات الطبيعية» من غموض[٣٨] هكذا بدا للحظة كأن عبدالله تمرّد على التوافق العربي.

كان كل هذا مفاجئاً على الخصوص، بالنظر إلى سجلّ مسار العربية السعودية الأخير. إذ بات السعوديون، منذ فشل مخطط فهد سنة ١٩٨١، يحاذرون كثيراً المبادرات الدبلوماسية العائمة، ويترددون في الانخراط في صنع السلام. فعلى سبيل المثال، كانوا يرغبون، في مؤتمر السلام بمدريد سنة ١٩٩١، في إرسال «ملاحظ»، بل إن ذلك الملاحظ كان ممثل مجلس التعاون الخليجي المتكوّن من ست دول، لا العربية السعودية نفسها[٣٩] وخطوا هذه الخطوة المحدودة بعدما اتفق السوريون المتشددون أن يصبحوا مشاركاً كاملاً. وقتداءً بالسعوديين التحقوا بدول مجلس التعاون الخليجي في محادثات الشرق الأوسط المتعددة الأطراف التي تلت مؤتمر مدريد- حول الماء، ومراقبة الأسلحة، والبيئة- لكن العربية السعودية لم تحتضن المحادثات في الواقع أبداً، عكس البحرين وقطر وعمان. وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤، وبعدما دعا السلطان قابوس إسحاق رابين إلى عُمان- ليجعل من ذلك أول زيارة لوزير أول إسرائيلي إلى الخليج الفارسي- التحق الملك فهد بزعيمي سوريا ومصر في قمة ثلاثية بالإسكندرية بغية عرقلة مزيد من التطبيع بين إسرائيل والعالم العربي[٤٠].

وفي صميم الموضوع أيضاً، من شأن مخطط سلام سعودي جديد أن يبدو مخالفاً لالتزام المملكة بجذورها الوهابية. ففي سنة ١٩٩٤ ورد مبدئياً أن المفتي السعودي العام الشيخ عبد العزيز بن باز سيقدم تبريراً محدوداً لسيرورة السلام الإسرائيلي، لكنه أوضح لاحقاً أن أي هدنة كانت مؤقتة فقط:

> الصلح بين ولي أمر المسلمين في فلسطين واليهود لا يقتضي تمليك اليهود لما تحت أيديهم تمليكاً أبدياً، وإنما يقتضي

ذلك تمليكهم تمليكاً مؤقتاً حتى تنتهي الهدنة المؤقتة أو يقوى المسلمون على إبعادهم عن ديار المسلمين بالقوة في الهدنة المطلقة[٤١].

وقد توفي ابن باز حينها، ولم يترك لخلفائه وصية مرنة جداً حتى يسيروا نحو «التطبيع الكامل».

فضلاً عن ذلك، عُرِف ولي العهد الأمير عبدالله، الذي تحمّل عدداً من المسؤوليات عن أخيه العاجز، بتبنّيه خطاً أشد من أخيه. ففي سنة ١٩٩٨ سُلّم الشيخ أحمد ياسين زعيم حماس، التي كانت قد شنت سلسلة من التفجيرات الانتحارية القاتلة داخل مدن إسرائيلية، إلى العربية السعودية قصد العلاج الطبي بعد إطلاق سراحه من سجن إسرائيلي في عملية تبادل سجناء معقدة مع الأردن. وقد زار ولي العهد الأمير عبدالله الشيخ ياسين حيث ظهر علناً إلى جانب سريره في المستشفى[٤٢] فاكتست الزيارة، التي وردت في الصحافة السعودية على نحو جلي، رمزية سياسية كبيرة، حيث اتهمت العربية السعودية من قبل بدعم إرهاب حماس مالياً، على الأقل منذ سنة ١٩٩٦ فضلاً عن ذلك، تبنّى أسامة بن لادن حماس في «إعلانه الحرب» سنة ١٩٩٦، الذي دعا فيه إلى إطلاق سراح الشيخ ياسين من السجن. إذ كان بن لادن وياسين معاً جزءاً من الشبكة الإسلامية ذاتها التي اجتمعت ونسّقت مراراً في السودان من سنة ١٩٩١ إلى ١٩٩٥، ويُفترض أن يكون عبدالله عارفاً بهذه الأمور كلها.

ورغم أن مخطط سلام سعودي جديد بدا غير مرجح، بالنظر إلى نزعات عبدالله السابقة، فإن أفكاره واصلت اكتساب الزخم. ففي مقالة افتتاحية نُشرت في صحيفة «نيويورك تايمز»، زعم «هنري

سيغمان»، الذي أشرف على «مشروع الشرق الأوسط» في مجلس العلاقات الخارجية، أن «مسؤولين سعوديين» قالوا إن عبدالله سينظر في نقل «مناطق صغيرة من الضفة الغربية إلى إسرائيل». إذ من الوارد أن يتضمن هذا الأمر مرونة سعودية حول مسألة القدس. فمن الناحية التاريخية، اعترضت العربية السعودية ودول عربية أخرى على هذه المرونة الترابية، معتقدة أن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧، اقتضى انسحاباً إسرائيلياً من أراضٍ احتلتها قوات إسرائيل في حرب الأيام الستة خلال حزيران/ يونيو ١٩٦٧ لكن البريطانيين والأمريكيين، الذين حرروا بند الانسحاب في مسودة القرار، تخلوا عن قصد عن حرفي التعريف «الـ» قبل كلمة «أراضي» حتى لا يُتوقّع أن تنسحب إسرائيل من المناطق الكاملة التي باتت تحت سيطرتها؛ فدعّمَ أغلب وزراء الخارجية الأمريكيين التأويل الإسرائيلي منذ ذلك الحين، مؤكدين حقها في «حدود ممكن الدفاع عنها». وليس واضحاً ما إذا كانت لـ«سيغمان» مصادر مباشرة ربطته بعبدالله، لكن الأكيد أن له روابط مع عادل الجبير، مستشار ولي العهد في السياسة الخارجية، الذي نسق جهد العلاقات العامة للعربية السعودية في واشنطن، والذي شارك في «مشروع الشرق الأوسط في مجلس العلاقات الخارجية».

كانت العربية السعودية تلفت الأنظار في الولايات المتحدة الأمريكية- ونجحت في الانتقال بنفسها من خانة الدول التي تدعم الإرهاب إلى دائرة صناع السلام. ففي ٢١ شباط/ فبراير هللت افتتاحية «نيويورك تايمز» الأساسية، التي تبنت افتتاحية «سيغمان»، لتفكير عبدالله بالقول إنه «حافز جدير بالمتابعة». وبعد ستة أيام قال البيت الأبيض، دون أن يكون مستعداً لوصف دبلوماسية العربية السعودية

باعتبارها اختراقاً، إن «الرئيس أثنى على أفكار ولي العهد فيما يتعلق بالتطبيع العربي- الإسرائيلي الكامل ما أن يُبرم اتفاق سلام عربي- إسرائيلي كامل»[٤٣] ووصف وزير الخارجية «كولين باول» أفكار عبدالله بكونها «خطوة مهمة».

وعلى الصعيد الدولي أثارت فكرة عبدالله فورة دبلوماسية، فأسرع «خافيير سولانا»، رئيس السياسة الخارجية والأمنية في الاتحاد الأوربي، إلى العربية السعودية قصد لقاء عبدالله في أواخر شباط/ فبراير. وفي ١٢ آذار/ مارس ٢٠٠٢ تبنى مجلس الأمن في الأمم المتحدة القرار رقم ١٣٩٧، الذي دعا إلى إنهاء العنف بين الإسرائيليين والفلسطينيين. وجدير بالذكر أنه اعترف في ديباجته بـ«مساهمة الأمير عبد الله ولي عهد المملكة العربية السعودية»[٤٤] فكان اقتراحه يتحول إلى واقع دبلوماسي. طبعاً، لم يقدم عبدالله بعدُ مبادرة سعودية جديدة، بل وصف فقط بعض أفكاره لأمريكي يكتب عموداً مؤثراً في صحيفة «نيويورك تايمز». وقد نجح عبدالله في لفت انتباه دولي هائل- وثقة دولية- دون أن يعرض أي شيء ملموس على الطاولة. ذلك أن الاختبار الحقيقي سيطرح في القمة العربية في بيروت أواخر شهر آذار/ مارس.

كان هناك تفسيران ممكنان لما كان يقوم به الأمير عبدالله. أولاً، ربما قرر أن يجري تغييراً شاملاً في سياسة العربية السعودية حول السلام مع إسرائيل. بعبارة أخرى، سيقبل «التطبيع»، ويرحب بالسياحة الإسرائيلية، والأعمال التجارية، والروابط الثقافية، رغم الاعتراض السعودي الصريح على الاختراق الثقافي الغربي للعربية السعودية. وعلى نحو بديل، قد يشكل مخطط عبدالله برمّته عملاً ذكياً في العلاقات العامة. ومع ذلك، لم يجازف عبدالله كثيراً في نقل فكرة

إلى كاتب عمود أمريكي مؤثر، حيث لم يقدم أبداً مخططاً حقيقياً لـ «تطبيع» العلاقات مع إسرائيل.

في الواقع، عندما خاطب ولي العهد الأمير عبدالله أخيراً القمة العربية في بيروت خلال آذار/ مارس تبيّن أن أفكاره مختلفة جداً عن الأفكار التي أعلنها في البداية على صفحات «نيويورك تايمز»، فمثّل ذلك تغيّراً سعودياً في الموقف. إذ لم يلمح عبدالله إلى أي مرونة ترابية، حيث توقّع «انسحاب إسرائيل الكامل من جميع الأراضي العربية المحتلة». فجأة، ضمّن «عودة اللاجئين» كجزء من أي حل للنزاع، رغم أنه لم يرد ذكر اللاجئين في عمود «فريدمان» الأصلي. والأهم من ذلك أن كلمة «تطبيع» لم توجد في الخطاب النهائي. بل إن ولي العهد ارتد إلى مصطلح «العلاقات الطبيعية» القديم. ومما زاد الطين بلّة أن عبدالله احتضن، أمام شاشات الكاميرا، عزت إبراهيم، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في العراق، الذي ترأسه صدام حسين.

ومما لا غرابة فيه أنه عندما صاغت القمة العربية في نهاية المطاف ما سمّته بـ«مبادرة السلام العربية» يوم ٢٨ آذار/ مارس ٢٠٠٢، استعملت المبادرة أيضاً مصطلح «علاقات طبيعية»[٤٥] إذ اختفى محور «التطبيع» في فكرة عبدالله الجريئة حول السلام، التي أثارت نشاطاً دبلوماسياً عالمياً.

أثر مكتوب

حتى عندما كان يُفترض أن يقدّم ولي العهد الأمير عبدالله اقتراحاً جريئاً جديداً لإرساء السلام مع إسرائيل، ظل وعّاظ المساجد السعودية يواصلون تحريضهم ضد اليهود، والمسيحيين، وحتى الهندوس- رغم أنه كان يفترض أن تراقب الحكومة السعودية خطب المساجد عن

كثب. إلا أن أكثر ما دمّر حقيقة مخطط عبدالله حول السلام هي تلك الاكتشافات القادمة من إسرائيل حول الارتباطات السعودية بموجة الإرهاب الفلسطيني الجديدة، من خلال حماس خصوصاً.

لقد صيغ اتفاق أوسلو الأول سنة ١٩٩٣ بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية مع افتراض الإسرائيليين والأمريكيين أن ياسر عرفات سيحارب خلايا حماس والجهاد الإسلامي المقاتلة في صفوف فلسطينيي الضفة الغربية وقطاع غزة، مثلما حاربت مصر والجزائر معارضتها الإسلامية. لكن عرفات تآمر مع هذه الجماعات، ففشل في تفكيك تنظيماتها. إذ ظهرت منشآتها العسكرية في الواقع داخل المناطق التي وضعتها إسرائيل تحت تصرف عرفات. ففي سنة ١٩٩٤-١٩٩٥ شنت حركتا حماس والجهاد الإسلامي حملة تفجيرات انتحارية في مدن إسرائيلية. وقُتل إسرائيليون في هجمات إرهابية فلسطينية خلال السنوات الثلاث الأولى من تنفيذ اتفاق أوسلو أكثر مما قُتل في العقد السابق.

ومع انفجار الانتفاضة الفلسطينية الثانية خلال أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠، عقب فشل قمة «كامب ديفيد» في تموز/ يوليو من السنة ذاتها، التحقت قوات عرفات بحماس والجهاد الإسلامي. وفي أواخر آذار/ مارس ٢٠٠٢، أي بعد ثمانية عشر شهراً، قُتل ٤٢٩ إسرائيلياً في هجمات إرهابية- ١٣٢ منهم خلال شهر آذار/ مارس وحده. وخلّف تفجير انتحاري في نتانيا يوم ٢٧ آذار/ مارس ٢٩ قتيلا و١٤٠ جريحا، مما دفع إسرائيل إلى شن عملية الترس الدفاعي لتفكيك البنى التحتية الإرهابية في مدن الضفة الغربية التي يراقبها الفلسطينيون والتي كانت مصدر الهجمات الإرهابية السابقة. إذ اكتشفت إسرائيل، خلال هذه الحملة العسكرية، آلاف الوثائق العربية الأصلية التي أماطت اللثام عن

نظام الدعم المالي لدعم أولئك المنخرطين في هجمات التفجيرات الانتحارية داخل إسرائيل. وعلى نحو غير متوقع ظهرت العربية السعودية بشكل جلي في هذه الوثائق.

وعلى سبيل المثال، دخلت القوات الإسرائيلية مكاتب الهيئة الخيرية في طولكرم خلال نيسان/ أبريل ٢٠٠٢ وعثرت على جدول مفصل لأداءات خيرية تعلل كيفية صرف ٥٤٥ ألف دولار على ١٠٢ أسرة فلسطينية. وبحسب الجدول، يتعلق الأمر بالحلقة العاشرة من صرف الأموال، ما يعني أنه سبق أن تم تحويل مبالغ مالية أكبر. لكن هذا الجدول لم يكن وثيقة فلسطينية. ذلك أن الشعار الوارد في أعلى الجدول بالعربية هو: «المملكة العربية السعودية، اللجنة السعودية لدعم انتفاضة القدس». وقد تأسست هذه اللجنة في خريف سنة ٢٠٠٠ على يد الأمير نايف، وزير الداخلية النافذ في العربية السعودية.

وقتئذ، اتهمت لجنة الأمير نايف بدعم الإرهاب، لأنها موّلت برنامجاً تلفزيونياً طويلاً يوم ١١ نيسان/ أبريل انتهى إلى جمع ١٠٩ ملايين دولار لفائدة «الشهداء الفلسطينيين». وبالنسبة لأولئك ممن اعتادوا هذه المصطلحات بدا الأمر كأن السعوديين يجمعون حصيلة نفايات(*) لدعم المفجرين الانتحاريين. وفي رد المتحدث باسم البيت الأبيض «أري فلايشر» على سيل الأسئلة حول البرنامج التلفزيوني السعودي، أجاب بناء على ما قاله السعوديون لإدارة «بوش»: «كما قلت، تلقينا عهوداً من الحكومة العربية السعودية بأن المال سينفق على الشعب الفلسطيني لا على دعم الإرهاب». وكرر عادل الجبير نفسه،

(*) تطلق عبارة slush fund في اللغة الإنجليزية على المال الذي يجنى من بيع النفايات وينفق في الترفيه على ملاحي السفن، وأحياناً يراد بها المال الذي يفرد لرشوة الموظفين الحكوميين (المترجم).

عبر التلفزيون الأمريكي، رداً على أسئلة حازمة حول البرنامج، هذا الجواب، مشدداً على أن العربية السعودية انخرطت فقط في «دعم إنساني موجّه للأسر التي تعاني نتيجة الاحتلال الإسرائيلي والعدوان الإسرائيلي الأخير». كما قال «إننا لا ندعم المفجرين الانتحاريين. غايتنا أن نضع الطعام على موائد الناس، والدواء في صيدلياتهم»[٤٦]

إن المشكلة في حجة الجبير تكمن في أن الجدول السعودي، الذي عثر عليه في طولكرم، لم يشر إلى دعم إنساني كلّي، ولم يقدّم مخططاً عاماً لتوزيع الغذاء والدواء على المحتاجين إليه. بالأحرى أُفرد الدعم السعودي في الواقع لعائلات «الشهداء». إذ وصف كاتب عمود «العملية الاستشهادية» وصفاً خاصاً وذكر الموقع في إسرائيل الذي شهد العملية. فلا مجال للشك في الأنشطة التي انخرط فيها أولئك المسجلون ضمن القائمة. في الواقع، كان ولي العهد الأمير عبدالله هو أول من اقترح فكرة دعم انتفاضة الأقصى، خلال القمة العربية الطارئة يومي ٢١ و٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠ حيث صرّح أن الدعم سيكون عبارة عن مساهمات لـ«أبناء الشهداء الفلسطينيين»[٤٧] ورغم اعتراض الجبير ومسؤولين سعوديين آخرين اطلع مسؤولو السعودية السامون على وجهة المال على وجه التحديد.

أما بالنسبة لأولئك العارفين بالسياسة الفلسطينية فإن بعض أسماء «الشهداء» الواردة ضمن الجدول هي أسماء مألوفة، مثل صاحب الرقم الثامن والستين ضمن اللائحة محمود أبو هنود، قائد حماس في الضفة الغربية. كما أفرد المال السعودي لأسر مفجرين انتحاريين بارزين، بما في ذلك صاحب الرقم الرابع عشر عبد الرحمن حمد، الذي عمل في القيادة العليا لحماس، والذي كان وراء تفجير «ديسكو الدولفين» في تل أبيب، يوم الفاتح من حزيران/ يونيو ٢٠٠١، الذي أودى بحياة

ثلاثة وعشرين مراهقاً إسرائيلياً وجرح أكثر من مئة. ولم يكن الإسرائيليون القتلى هم الوحيدين في تلك الهجمات: ذلك أن لائحة أخرى تضمنت اسم سفيان جبارين، وهو مجند حماس الذي فجّر نفسه في حافلة بمدينة القدس خلال آب/ أغسطس ١٩٩٥ حيث قُتل، إلى جانب آخرين، «جوان دافني»، الأستاذ الذي يتحدر من «كونيكتيكات» الأمريكية، والذي يبلغ من العمر ٤٧ سنة[٤٨] ولأن إرهابيين أمثال جبارين أدركوا أن أسرهم ستتلقى شيكاً بعد ارتكابهم الهجمات الانتحارية فإن دعم السعوديين شكل بوضوح حافزاً لهم على اقتراف القتل والتضحية بحياتهم. ففي أواخر حزيران/ يونيو أقر وزير الخارجية «كولين باول» على قناة «فوكس نيوز سانداي» قائلاً: «أظن أنها مشكلة حقيقية عندما تحفز التفجيرات الانتحارية بأي طريقة»[٤٩] فكانت حوافز الإرهابيين تأتي من العربية السعودية.

وما زاد الطين بلّة بالنسبة إلى المدافعين عن السعوديين ما كشفته إسرائيل حول ما سُمّي بـ«لجنة طولكرم الخيرية» حيث عثر على الوثائق. إذ كان مسيّر الخيرية المفترضة هو حسني حواجة، وهو عضو بارز في حماس بطولكرم. فعندما اقتحم الجنود الإسرائيليون مكاتب اللجنة عثروا على ملصق كبير يظهر صورة الانتحاري الذي كان مسؤولاً عن تفجير نتانيا. كما كانت هناك عدة صور صغرى لـ«شهداء» فلسطينيين سابقين. واكتشف الإسرائيليون كرّاسات بينها واحدة تقتبس كلام عبدالله عزام، معلم أسامة بن لادن، وبطاقات تدعو الشباب الفلسطيني إلى القيام بعمليات انتحارية. وعثر الجنود الإسرائيليون على سجلات تبيّن أن لجنة طولكرم الخيرية تلقت دعماً من مؤسسة الأرض المقدسة التي تتخذ من تكساس مقراً لها، والتي جمّدت أصولها في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١، حسب الرئيس «بوش»، لأنها سرّبت

أموالاً إلى حماس[٥٠] فاتضح وضوح الشمس كون لجنة طولكرم الخيرية لم تكن سوى جبهة من جبهات حركة حماس.

جدير بالذكر أن القوات الإسرائيلية عثرت أيضاً على شيكين مخصصين للجنة طولكرم الخيرية، الأول بقيمة ١٥٩٧,٦٠ دولاراً والثاني بقيمة ٤٢٤٧,٧٣ دولاراً، وموقّعين من حساب بنك «تشايس مانهاتن» التابع لشركة مصرف الراجحي للاستثمار التي يوجد مكتبها الرئيس في الرياض بالعربية السعودية. وكان العثور على شيكي شركة الراجحي أمراً مهماً بالنسبة إلى أولئك المعنيين بالحرب على الإرهاب على جبهات أخرى. ذلك أن سليمان عبد العزيز الراجحي، رئيس مجلس إدارة الشركة، تصدّر إحدى أغنى وأبرز العائلات في العربية السعودية. وتدير هذه العائلة مؤسسة سليمان بن عبدالعزيز الراجحي الخيرية في «هيرندن» بولاية فرجينيا[٥١] (حروفها الأولى باللاتينية تظهر كالآتي: SAAR)، التي أغار على مكاتبها عملاء فيدراليون أمريكيون خلال تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢، لأن المؤسسة نقلت أموالاً إلى مؤسستين وراء البحار في بهاماس لهما روابط بالقاعدة[٥٢] كما ورد أن واحداً على الأقل من منفذي هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، وهو عبد العزيز العمري، امتلك حساباً في فرع بنك الراجحي بجدة. فضلاً عن ذلك، دوّن وديع الحاج، اللبناني مساعد بن لادن الذي أدين لارتباط اسمه بتفجيرات السفارتين الأمريكيتين شرق أفريقيا سنة ١٩٩٨، اسم صالح الراجحي، شقيق سليمان الراجحي، في مذكرته الخاصة بالأرقام الهاتفية[٥٣] من هنا كان ثمة أساس شرعي للتحقيق فيما إذا كانت كيانات سعودية مرتبطة بمؤسسة الراجحي اشتبه في مساعدتها القاعدة كانت هي أيضاً تنقل الأموال السعودية إلى حماس، أو تبيّض على الأقل الدعم الخاص الموجه إلى حماس، لأن شركة مصرف

الراجحي للاستثمار سمحت بتحويل أموال عبر ارتباطاتها البنكية الأمريكية قصد استعمالها لأغراض حماس الخيرية.

بل إن إسرائيل اكتشفت مزيداً من الارتباطات السعودية بالإرهاب الفلسطيني، خاصة فيما يتعلق بالخيريات الإسلامية. فعلى سبيل المثال، عثرت إسرائيل على تقرير منظمة الإغاثة الإسلامية العالمية بجدة، التي شكلت مسلك الأموال الموجهة إلى القاعدة، والتي يزعم أنها ساعدت حماس في أواسط التسعينيات. إذ تضمّن هذا التقرير الخاص توزيع ٢٨٠ ألف دولار على أربع عشرة هيئة إسلامية مختلفة تماهت جميعها مع حماس. وكانت السلطات الفلسطينية في عهد ياسر عرفات قد أغلقت سابقاً أبواب أحد المستفيدين من هذا المال، وهو المركز الإسلامي في قطاع غزة بسبب ارتباطه بحماس. كما حصلت الهيئة الخيرية الإسلامية في الخليل على المال من لجنة الأمير نايف السعودية لمساعدة انتفاضة الأقصى. وأخيراً ضمّت هيئةُ الإغاثة الإسلامية العالمية الهيئةَ الخيرية كلية الوجود في طولكرم باعتبارها أحد متلقي حماس الأربعة عشر.

ومن بين الوثائق المحجوزة أيضاً مذكرة بخط يد أبي مازن، نائب ياسر عرفات الأساسي، يشتكي فيها إلى حاكم الرياض الأمير سلمان بن عبد العزيز من أن أموال لجنة الأمير نايف كانت تصل إلى حماس والتنظيمات الحليفة. وبحسب أبي مازن، كان المال السعودي ينقل إلى الجمعية الإسلامية في قطاع غزة، وهي منظمة «تنتمي إلى حماس»، كما كتب. وفي الواقع، تحققت إسرائيل على نحو مستقل من أن حفلات التخرج، التي نظمتها الجمعية لفائدة شبكة رياض الأطفال التابعة للجمعية الإسلامية، شهدت أطفالاً فلسطينيين يمثلون دور هجمات انتحارية؛ ذلك أن أطفالاً ارتدوا أزياء عسكرية وأحزمة

ناسفة مقلدة. بل إن الشيخ أحمد بخار، رئيس الجمعية الإسلامية، حث الأمهات الفلسطينيات عِلى تربية أبنائهم على حب الجهاد. هكذا كان المال السعودي يدعم جيل الإرهاب الجديد أيضاً.

أخيرا، أضافت التقارير المحجوزة من وكالات الاستخبارات الفلسطينية أن السعوديين كانوا لا ينقلون الأموال بطريقة مباشرة إلى حماس فحسب، بل إلى منظمة الجهاد الإسلامي المناصرة لإيران[٥٤] فعلى سبيل المثال، ورّط تقرير وارد من مكتب بيت لحم لمنظمة الأمن الوقائي الفلسطيني السعوديين عندما اقتفى أثر مصادر تمويل الجهاد الإسلامي. وحددت وثيقة يعود تاريخها إلى الفاتح من أيار/مايو ٢٠٠٠ مسلكي تمويل منفصلين: «يبدأ الأول في دمشق [و] يذهب عبر الأردن إلى بنك القاهرة-عمّان، ويبدأ الثاني في *العربية السعودية*، ويذهب عبر مصر، ويصل إلى فلسطين عبر البنك ذاته [التشديد إضافة الكاتب]». لقد كان السعوديون غارقين حتى العنق في تمويل الإرهاب.

سياسة حافة الهاوية

كانت هذه الوثائق صادمة، لكن الاكتشافات لم توقف جهد السعوديين في نقل أنظار العالم بعيداً عن تورطهم في الإرهاب، بالعودة إلى النزاع بين إسرائيل والفلسطينيين. إذ قال الأمير بندر، السفير السعودي في الولايات متحدة الأمريكية، إن «هذه المزاعم هي ستار دخاني يراد به صرف الانتباه عن سيرورة السلام، حيث تريد إسرائيل تشويه سمعة العربية السعودية، التي كانت صوتاً رائداً من أجل السلام»[٥٥] ذلك أن السعوديين أرادوا أن يبقوا في دائرة «صنّاع السلام»، وألاّ يسقطوا في خانة الدول داعمة الإرهاب.

جاءت فرصة تجديد جهودهم الدبلوماسية عندما قرر ولي العهد الأمير عبدالله زيارة الرئيس «بوش» في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر نيسان/ أبريل ٢٠٠٢ إذ جمع بين الزعيمين تاريخ متوتر إلى حد ما. فقبل شهرين من ذلك كشفت مصادر سعودية لصحيفة «واشنطن بوست» أن عبدالله كتب، في أواخر آب/ أغسطس ٢٠٠١، رسالة غاضبة من خمس وعشرين صفحة إلى «بوش»، مشتكياً من السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل. ووفق هذه المصادر السعودية، انتزع عبدالله آنذاك من «بوش» «رؤية سلام أمريكية مقبولة لدى السعوديين، وهي مختلفة عن أي مخطط إسرائيلي»[٥٦] فكيف جذب السعوديون الإدارة إلى صفّهم؟ يبدو أن عبدالله هدد «بوش» بالعودة إلى «صيف ١٩٧٣»، في إشارة ربما إلى مراحل تخطيط هجوم مصري-سوري مشترك على إسرائيل، لكن من المرجح أنها تلميح إلى أن السعوديين قد يستعملون سلاح النفط ضد الولايات المتحدة الأمريكية[٥٧] كما شاطر ولي العهد السعودي جواب «بوش» مع زعماء مصر واليمن والأردن وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية[٥٨] وبدا السعوديون، خلال عرض هذه المراسلة الحساسة، منشغلين بلفت الانتباه إلى استعراض عضلاتهم الدبلوماسية ضد الرئيس الأمريكي أكثر من الحفاظ على سرية الاتصالات.

وفي نيسان/ أبريل ٢٠٠٢، وقبل قمة الأمير عبدالله مع الرئيس «بوش»، ورد أن ولي العهد السعودي كان منزعجاً جداً لأن القوات الإسرائيلية طوّقت مجمع ياسر عرفات في رام الله، فحاولت العربية السعودية كسب النفوذ مع الولايات المتحدة الأمريكية، لكنها عجزت مبدئياً عن تغيير وضعية عرفات. ربما حدث هذا لأن عرفات بات زبوناً يصعب الدفاع عنه، حيث أظهرت وثائق عثر عليها في مجمعه أنه

موّل تمويلاً مباشراً تفجيرات انتحارية ارتكبتها ميليشيا حركته فتح. إذ عُثر على توقيعه بالعربية في رسائل ترخص بأداء تعويضات لعملاء التنظيم. فضلاً عن ذلك، أميط اللثام عن روابط عرفات بإيران في شباط/فبراير ٢٠٠٢، عندما اعترضت كومندوهات بحرية إسرائيلية سفينة بضائع متجهة إلى قطاع غزة وكانت محملة بأكثر من خمسين طناً من الذخيرة الإيرانية. ومع ذلك حاول السعوديون، الذين امتلكوا أجندة دبلوماسية مختلفة عن التركيز الأمريكي على الإرهاب، ممارسة تكتيكات ضاغطة مرة أخرى.

واستباقاً للقاء القمة بين الزعيمين، أطلع الدبلوماسيون السعوديون أهم منابر الإعلام الأمريكية على الخبر. وقد واجه السعوديون مشكلة إضافية مفادها أن أعضاء في سلك الصحافة الدبلوماسية كانوا واعين بالتحريض المتواصل الذي صدر عن دوائر دينية سعودية. وفي الواقع أطلق ١٢٦ علاّمة في العربية السعودية تصريحاً يصف إدارة «بوش» بأنها «المموّل الأول للإرهاب الدولي»، ويفيد أن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل «يشكلان محور الإرهاب والشر في العالم». لذلك أنحت العربية السعودية وقتئذ باللائمة على إسرائيل فيما يخص بلاغة دعاتها الوهابية، حيث أوردت «واشنطن بوست» أن «فهم الولايات المتحدة الأمريكية [باعتبارها] غير راغبة أو عاجزة عن السيطرة على إسرائيل يُعتبر ، في نظر السعوديين، مسؤولاً على نطاق واسع عن الموجة الجديدة من التصريحات المتطرفة الصادرة عن الفقهاء الإسلاميين»(٥٩)

بل إن الأخبار الخلفية السعودية، التي مهدت السبيل لقمة «بوش» وعبدالله، هددت بصراحة الرئيس باستعمال سلاح النفط السعودي للمرة الأولى منذ سنة ١٩٧٣ إذ أورد «باتريك إ. تايلر»، مراسل

«نيويورك تايمز» من وزارة الخارجية، أن «شخصاً عارفاً بتفكير السعودي [ولي العهد الأمير عبدالله]» قال إن «ثمة حديثاً داخل العائلة الملكية السعودية، وفي العواصم العربية، عن استعمال «سلاح النفط» ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وعن مطالبتها بمغادرة القواعد العسكرية الاستراتيجية في المنطقة»[٦٠] وأضاف المصدر السعودي الذي لم يكشف عن هويته أنه «من الخطأ الاعتقاد أن شعبنا لن يقوم بما هو ضروري من أجل البقاء. وإذا كان ذلك يقتضي أن ننتقل إلى يمين بن لادن، فليكن؛ إلى يسار القذافي، فليكن؛ أو أن نحلّق إلى بغداد ونعانق صدّام كأخ، فيلكن». والسبب وراء هذا التهديد بالانحياز إلى أعداء أمريكا، كما شرح المصدر، كامن في أن الحكومة السعودية لم تعد قادرة على الدفاع عن العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية أمام الشعب السعودي[٦١] ذلك أن السعوديين كانوا، كما كتب «تايلر» في مقالته بـ«نيويورك تايمز»، يستعملون «سياسة حافة هاوية لا ريب فيها» مع البيت الأبيض.

غير أن استعمال سياسة حافة الهاوية السعودية مع الولايات المتحدة الأمريكية فشلت في نهاية المطاف. إذ صرّح الرئيس «بوش»، بعد لقاء القمة يوم ٢٥ نيسان/ أبريل مع ولي العهد الأمير عبدالله في مزرعة الرئيس بـ«كراوفرد» في تكساس، أن «العربية السعودية أوضحت وأعلنت أنها لن تستعمل النفط سلاحاً»[٦٢] فضلاً عن ذلك، قدّم ولي العهد، في مزرعة «كراوفرد»، مخططاً من ثمان نقاط لم يتضمّن، مجدداً، أي إشارة إلى «التطبيع»، ودعا إسرائيل إلى استئناف المفاوضات السياسية مع الفلسطينيين، حتى دون المطالبة بوقف العنف[٦٣] غير أن «بوش» لم يتبنَّ هذه المقاربة السعودية. صحيح أن الضغط السعودي بدا، في المدى القصير، ذا مفعول من

بعض النواحي، ذلك أن إسرائيل أنهت فجأة حصارها مجمع ياسر عرفات في رام الله، بعد قمة «كراوفرد». بل إن «إفرايم هاليفي»، رئيس الموساد الإسرائيلي المنتهية ولايته، كشف أن السعوديين منحوا دعما من وراء ستار قصد إنهاء أزمة مجمع عرفات، ضاغطين على الزعيم الفلسطيني من أجل قبول الشروط الإسرائيلية قصد الانسحاب[٦٤] ظاهرياً، كان من المهم بالنسبة للسعوديين إبراز أنهم قد يفيدون، وأنهم لا يهددون فحسب. لكن العربية السعودية لن تقوى، في المدى الطويل، على إكراه الولايات المتحدة الأمريكية على القبول بعرفات، ومهما كانت الثقة بإمكان كسب دعمها التكتيكي لواشنطن، لأن الرئيس «بوش» دعا فعلاً، خلال حزيران/ يونيو، إلى تغيير عرفات.

لماذا لجأ السعوديون إلى سياسة حافة الهاوية مع واشنطن، رغم أنهم كانوا يحاولون تركيز الأنظار على القضية الإسرائيلية- الفلسطينية؟ تجلّى عامل من العوامل في موقف ولي العهد الأمير عبدالله نفسه، الذي أظهر من قبل أنه أكثر تشدداً من الملك فهد. فبينما لم ينذر فهد، الذي كان واعياً بأن العربية السعودية عوّلت على الحماية العسكرية الأمريكية، إدارة «ريغان» خلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٠، لم يُبْدِ عبدالله، خلال الانتفاضة الثانية التي بدأت في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ الانشغال ذاته من أجل إزعاج الأمريكيين. في الواقع، لام إدارة «كلينتون»، أثناء القمة العربية الطارئة في القاهرة خلال تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠، عن فشل «كامب ديفيد»، وصدرت إنذارات قوية معادية لأمريكا، إذ بثت قنوات فضائية، في الواقع، الانتفاضة الثانية إلى البيوت السعودية.

ثانياً، مهّد السعوديون، بتجريب العلاقات الأمريكية- السعودية

الشاملة على سيرورة السلام الإسرائيلي- الفلسطيني، السبيل للرد على المعارضة المتصاعدة في العربية السعودية ضد الوجود العسكري الأمريكي. ففي سنتي ١٩٩٨ و١٩٩٩ قيّد السعوديون الولوج الأمريكي إلى قواعدهم الجوية خلال العمليات الأمريكية ضد العراق(٦٥) وفي وقت متأخر حاولت إدارة «بوش»، كجزء من حرب أمريكا الجوية ضد أفغانستان، تعزيز الولوج إلى القواعد الجوية السعودية. لكن سلطان بن عبدالعزيز، وزير الدفاع السعودي، أخبر جريدة «عكاظ»، قبيل الحملة الأفغانية: «لا نقبل وجود جندي واحد في بلادنا خلال الحرب ضد المسلمين أو العرب»(٦٦) وكبديل عن القواعد السعودية خلال المرحلة الأولى من الحملة الأفغانية بدأت الولايات المتحدة الأمريكية، يوم ٢٩ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ استعمال قاعدة العُدَيْد الجوية القطرية(٦٧)

ومع إصدار الفقهاء السعوديين فتاوى مفادها أن العربية السعودية مطالبة بدعم إخوانها من المسلمين ضد الأمريكيين، لم يعد من السهل توسيع الوجود الجوي الأمريكي على الأراضي السعودية من الناحية السياسية بالنسبة للعائلة الملكية- خاصة منذ أن توفي الشيخ ابن باز الذي كان قد أصدر فتوى أباحت الانتشار الأمريكي خلال حرب الخليج سنة ١٩٩١ وفي الحالات كلها، ورد أن ولي العهد الأمير عبدالله أراد تقليص الوجود العسكري الأمريكي في العربية السعودية، رغم أن الولايات المتحدة الأمريكية استعملت قاعدة الأمير سلطان الجوية، الواقعة خارج الرياض، استعمالاً محدوداً(٦٨)

وقد استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تتوقع، مع اقتراب نهاية الحملة الأفغانية، التماس استعمال القواعد الجوية السعودية خلال العملية العسكرية الضخمة المرتقبة ضد العراق. فبدل أن يرفض

السعوديون ملتمس الإدارة رفضاً قاطعاً مجدداً أمكن لهم أن يخبروا المسؤولين الأمريكيين خلال لقاءاتهم الخاصة أنهم لن يسمحوا للأمريكيين باستعمال القواعد الجوية السعودية، لأن الولايات المتحدة الأمريكية عجزت عن احترام نداءات العربية السعودية الداعية إلى إرساء السلام في فلسطين. بعبارة أخرى، سيتاح للسعوديين عذر مناسب لتقليص الوجود العسكري الأمريكي، عذر سيسمح لهم بالتهرب من أي مسؤولية عن كون المملكة حليفاً أمريكياً لا يعوّل عليه.

الوهابية الجذرية تتقوى في العربية السعودية

ثمة عامل ثالث وراء «سياسة حافة الهاوية» السعودية، وهو كامن في الصراع الجاري داخل العربية السعودية. إذ كان على ولي العهد الأمير عبدالله، شأنه شأن القادة السعوديين من قبل، أن يحترم دائماً سلطة النخبة الوهابية الحاكمة- بل إن هذا الأمر بدا، بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، أنه هاجس لجوج بالنسبة إليه.

ففي تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١ ورد أن وكالة المخابرات الداخلية السعودية أمرت بإجراء استطلاع سري في صفوف الرجال السعوديين الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والحادية والأربعين حيث تبيّن أن ٩٥ في المئة منهم استحسنوا قضية أسامة بن لادن[٦٩] ورغم أن الاستطلاع شابته بعض الأخطاء فقد أظهر دعماً غامراً لابن لادن، وهو الأمر الذي أعطى الفقهاء الوهابيين الأكثر تشدداً أسباب التمكين. وبالفعل، بات العلماء السعوديون أكثر حضوراً في هذا الوسط الجديد. ففي الوقت الذي كان ينبه فيه عبدالله العلماء إلى الاحتراس من كلامهم علّق الشيخ عبدالله التركي، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي وعضو هيئة كبار العلماء، تعليقاً موحياً. إذ أكد

أن الجهاز الحاكم في العربية السعودية تشكل من قادتها المدنيين (العائلة الملكية) وعلمائها[٧٠].

أما من الناحية التاريخية، فقد كان عبدالله التركي محقاً - في هذه النقطة. ذلك أن العربية السعودية هي، بالطبع، نتاج شراكة تعود إلى القرن الثامن عشر بين محمد بن عبدالوهاب، زعيم الوهابية الروحي، ومحمد بن سعود، أمير العشيرة السعودية، أو حاكمها. لكن من المهم استحضار أن محمد بن سعود كان كذلك، بموجب تحالفهما السياسي، إمام المجتمع الوهابي الناشئ. بعبارة أخرى، اعترفت العهدة السياسية الأصلية بين الوهابية والسعوديين بسيادة الزعامة السعودية، بل وبسيادتها الدينية. بيد أن عبدالله التركي كان يلمّح إلى الرغبة في اقتسام العائلة الملكية والمؤسسة الدينية السلطةَ بالتساوي.

وقد ردّ الأمير تركي الفيصل، رئيس المخابرات الداخلية السعودية السابق ونجل الراحل الملك فيصل، على الشيخ عبدالله في مقالة نشرت في جريدة «الشرق الأوسط» يوم ٢٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢ إذ أثبت أن «ولاة الأمر هم الحكام». و«العلماء هم مستشارون لولاة الأمر». وانتقد تعريف الشيخ عبدالله الجديد للعلاقة بين الحكام والعلماء باعتبارها تتعارض مع تأويل أغلب العلماء المسلمين[٧١].

بالطبع، قدّم الشيخ عبدالعزيز بن باز، المفتي العام السابق في العربية السعودية، أيضاً الرأي الذي مفاده أن النخبتين الحاكمتين في العربية السعودية كانتا متساويتين. لكن حتى في الوقت الذي رفع فيه من أهمية العلماء النظرية في الحكم فإنه ساند أيضاً العائلة الملكية السعودية، بل حماها في أوقات عصيبة، كما بيّنا آنفاً. بعبارة أخرى، حافظ ابن باز على شعلة الوهابية خلال عقدين، بل بدا كذلك مستعداً لأن يصدّ انفجاراتها العنيفة. وها هو قد رحل اليوم، ولا أحد استطاع

أداء ذلك الدور. فقد أصدر خلفه المفتي العام الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ فتوى مهمة تدين التفجيرات الانتحارية، لكن صوته كان صوت أقلية. إذ كان هناك فقهاء معروفون أكثر ممن كانت لهم منزلة رفيعة لدى الجمهور الديني السعودي، حيث ملأ هؤلاء الفقهاء- الشعيبي وآخرون- الفراغ الذي خلفته وفاة ابن باز[٧٢]

الواضح أن صراعاً بدأ يتمخض داخل العربية السعودية بعد ١١ أيلول/ سبتمبر. مثلاً، عندما أراد محمد الرشيد، وزير التربية السعودي، إصلاح المناهج التربوية، تلقى توبيخاً قاسياً من منتقد متدين. إذ عبّر الشيخ صالح الفوزان- المتشدد ومؤلف كتب تعادي المسيحيين واليهود والذي كان أيضاً عضواً في هيئة كبار العلماء- عن اشمئزازه من أي حديث عن هذا الإصلاح: «لا يرضيهم عنا إلا أن ننسلخ من ديننا ونترك قرآننا وسُنّة نبيّنا ونمشي على مخططاتهم، ولذلك هم يدعوننا إلى أن نغيّر مناهجنا الدراسية القائمة على الكتاب والسنّة»[٧٣] وحذر الشيخ الفوزان من أي شخص يتصرف مثل «الببغاء. يردد أقوال أعداء الإسلام»[٧٤]

ولم يزد هذا الصراع الداخلي إلا اشتداداً في صيف سنة ٢٠٠٢، عندما منعت الشرطة الدينية السعودية رجال الإطفاء من إنقاذ فتيات سعوديات حاصرتهن نيران حريق شب بمدرسة في مكة، لأن الفتيات لم يلبسن حجابهن، ومن ثم كانت وجوههن مكشوفة على نحو غير محتشم، ما أدّى إلى وفاة خمس عشرة فتاة، وإصابة أربعين بحروق. ورداً على ذلك نزعت الحكومة السعودية مسؤولية تربية البنات من مسؤول ديني لتضعه بين يدي أكاديمي علماني[٧٥] ولم يكن هذا الأمر سوى حالة واحدة من نزاع شائع جداً بين المؤسسة الدينية والحكومة السعودية.

وقد منح ضغط ولي العهد الأمير عبدالله على الولايات المتحدة الأمريكية أفضلية له في هذا الصراع الداخلي المتواصل. ذلك أن المهم بالنسبة له أن يواجه واشنطن بجرأة، رغم أن هذا تطلب بعض التهديدات الدبلوماسية غير اللبقة ضد الولايات المتحدة الأمريكية. كما كان على عبدالله، من أجل استرضاء السعوديين الذين يعارضون الغرب، معانقة العراقيين- وهو ما قام به حرفياً في القمة العربية ببيروت خلال آذار/مارس ٢٠٠٢، عندما عانق عزت إبراهيم، مبعوث صدام حسين. (كان عبدالله، بفعله ذاك، يحضن بين يديه أحد أهم المسؤولين عن هجوم العراق بأسلحة الإبادة الكيميائية على ساكنته الكردية سنة ١٩٨٨). فضلاً عن ذلك، كان من شأن النجاح الظاهر في الحصول على انسحاب إسرائيلي من الضفة الغربية وقطاع غزة أن يعزز بالتأكيد مكانة عبدالله في الدوائر الإسلامية، رغم أنها ترى أن التهديد الأول للإسلام هو الغرب برمّته لا إسرائيل وحدها. إذ كان في حاجة إلى تقديم نفسه كزعيم وَرِع، على طراز الملك فيصل الذي شجعه العلماء على فرض حصار نفطي على الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٧٣

لم يكن عبدالله يحتل أي موقع ليشنّ مواجهة شاملة مع الفقهاء الوهابيين، رغم أن البعض شدد على اقتسام أكبر للسلطة، حيث لاح صراع في الأفق حول خلافة العرش السعودي. إذ بات الملك فهد غير قادر على الحكم؛ فكان من المتوقع أن يصبح عبدالله ملكاً، وأن يعيّن سلطان وليّ عهده. وكان سلطان قد عبّر عن مواقف متشددة تجاه الولايات المتحدة الأمريكية. ففي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢ ذهب أبعد إلى حد القول إن العربية السعودية لن تخطو أي خطوة ضد العراق، حتى ولو اقتضى الأمر تحدي قرار الأمم المتحدة أو مجلس

الأمن: «لا نملك القدرة على معارضة قرار الأمم المتحدة أو مجلس الأمن. لكن لسنا ملزمين بتنفيذ ما يقوله. نحن نعطي الأولوية لمصالح بلدنا، ثم مصالح المسلمين والعرب»[٧٦] علاوة على ذلك، نفى سلطان حاجة العربية السعودية إلى تغيير كتبها المدرسية: «لا نخطط لتغيير سياستنا التربوية، ولا أحد طلب منا فعل ذلك»[٧٧]

لم تنته مسألة الخلافة مع سلطان. ذلك أن كلاً من فهد (الذي ولد سنة ١٩٢١)، وعبدالله (١٩٢٣)، وسلطان (١٩٢٤) تجاوزا سبعين عاماً من العمر. فهل يأتي الدور على أخوَي عبدالله من آل السديري الأمير نايف (الذي ولد سنة ١٩٣٣) وسلمان (١٩٣٦)؟ أم أن أبناء الجيل اللاحق سيستعدون للخلافة- أمثال الأمير سعود الفيصل، وزير الخارجية (الذي ولد سنة ١٩٤١)؟ لقد كان العلماء طرفاً مشاركاً في عملية صناعة القرار في خلافات العرش السعودي في الماضي، وكانوا طرفاً مشاركاً في خلع الملك سعود وتعويضه بالملك فيصل. لذلك لم يقدر عبدالله على استبعادهم.

في هذا الباب، لم تكن العربية السعودية في موقع قوي يسمح لها بمكافحة التشدد الإسلامي الذي نشأ خلال العقدين الماضيين من صُلب ترابها. فإلى جانب اعتماد العائلة الملكية المتواصل على العلماء بغية الحصول على الشرعية، امتلك النظام السعودي أموالاً أقل مما كان متوفراً في الماضي. إذ انخفضت الميزانية، وتراجع دخل الفرد المدني السعودي عن مستواه الأعلى، الذي تراوح بين ١٨ و٢٠ ألف دولار في بداية الثمانينيات إلى ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف دولار[٧٨]

في السابق تخلّص السعوديون من معارضتهم المحتملة، بمن في ذلك العلماء، بدفع المال. أما الآن فقد بات تنفيذ هذه السياسات أصعب بكثير. إذ فشل النظام السعودي، كما فصّلنا القول سابقاً في

مراقبة الفقهاء الوهابيين المتشددين بعد ١١ سبتمبر؛ ذلك أنهم واصلوا التبشير برسائل تعادي المسيحيين واليهود في المساجد دون عقاب. وقد اعترفت شابة سعودية لـ«توماس فريدمان»، الصحافي بجريدة «نيويورك تايمز» منتصف سنة ٢٠٠٢، قائلة إن «مدارسنا تدرّس التعصب الديني، وأغلب مساجدنا تدعو إلى كره غير المسلمين»[٧٩]

لم تكن المساجد والمدارس المشكلة الوحيدة. ففي أوائل أيار/ مايو ٢٠٠٢، وفي لقاء لوزراء الشؤون الخارجية في دول منظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد بكوالالمبور الماليزية، كان عضو بارز من العلماء السعوديين لا يزال يبرر التفجيرات الانتحارية. فبينما صرّح نائب الوزير الأول الماليزي عبدالله أحمد بدوي بوضوح أن الحرب المقدسة لا يمكن أن تحسم بالعنف والتفجيرات الانتحارية، عارض وزير الشؤون الإسلامية السعودية الشيخ صالح آل الشيخ، هذا القول تماماً، حيث أكد، وهو يعكس موقفاً دينياً متشدداً، أن «التفجيرات الانتحارية جائزة»، مضيفاً أن «موت الضحايا استشهادٌ»[٨٠]

جدير بالذكر أن الشيخ توفيق السديري، نائب الشيخ صالح، لفّق بعد شهور خبراً أوردته دونا أبو نصر في «أسوشيايتد بريس» مفاده أن المساجد في العربية السعودية لم تسمح بالدعوة إلى التشدد أو التجنيد لصالح أسامة بن لادن. إذ ظهر مقال «أسوشيايتد بريس» في العديد من الجرائد داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وهو الأمر الذي يبدو أنه لم يزعج أحداً من أجل التحقق من الدعم العمومي الأخير للتفجيرات الانتحارية، الوارد على لسان رئيس السديري[٨١] المؤسف أن المسؤولين السعوديين الذين يديرون العلاقات العامة نجحوا عموماً في تسويق الصورة التي أرادوا نقلها إلى الصحافة الغربية.

غير أن عدداً ضئيلاً من الصحافيين عقدوا العزم على فضح ما كان

يجري فعلاً داخل العربية السعودية. مثلاً، وجد صحافي أسترالي، زار منطقة خميس مشيط حيث جُنِّد خمسة من مختطفي الطائرات يوم ١١ أيلول/ سبتمبر، أن الزعيم الديني المتطرف الشيخ أحمد، الذي يشتبه في كونه مَن جنّد هؤلاء، ظل مكلّفاً بتسيير المسجد المحلي بعد سنة من الهجوم على نيويورك وواشنطن. وأخبر مصلح سعودي بالمنطقة الصحافي الأسترالي الزائر أن «ثمة العديد من الشيوخ المشتبه فيهم يعملون في هذه المنطقة. إنهم متشددون، وهم جزء من الحركة الأصولية. والجامعات هي ذاتها. لقد بتنا وهابيين أكثر مما كنا»[٨٢]

التهديدات باقية

باختصار، حتى بعد الهجوم المرعب على أمريكا، ظل الوسط الديني، الذي حرّض خمسة عشر مواطناً سعودياً على ارتكاب قتل جماعي، حيوياً في الدعوة إلى القتال. فتواصل التحريض، ومن ثم بقي التهديد قائماً. ففي سنة ٢٠٠٢ واصل المواطنون السعوديون القتال كطرف في شبكة القاعدة: في المغرب اعتقل ثلاثة سعوديين، حيث كانوا يخططون لضرب سفن أمريكية وبريطانية في مضيق جبل طارق؛ وفي لبنان اكتشف انتماء سعوديين إلى خلية للقاعدة؛ وفي منطقة الربع الخالي بالعربية السعودية قادت طائرات أمريكية غير مأهولة عمليات مراقبة وبحثت عن إرهابيين مشتبهين[٨٣] ورغم التأكيد المتواصل على تورط المواطنين السعوديين في الأنشطة الإرهابية وراء البحار، كان الأمير نايف واثقاً أن العربية السعودية نفسها لم تكن مهددة؛ ومن ثم أكد في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر عدم وجود خلايا نائمة تابعة للقاعدة داخل المملكة السعودية[٨٤]

لماذا تواصل التحريض؟ هل اعتقد السعوديون أنهم محصّنون من

هجمات مستقبلية؟ ألم تملك العائلة الملكية السعودية النفوذ السياسي لمراقبة الفقهاء الوهابيين؟ أم أن العائلة الملكية رفضت ببساطة ممارسة الضغوط الضرورية لتغيير الكراهية، وقدمت بالأحرى تصريحات شكلية حول الاعتدال من أجل الاستهلاك الغربي؟ في الأحوال كلّها، كانت النتيجة النهائية هي ذاتها: ما زالت العربية السعودية تشجع كراهية الغرب- وبفعلها ذاك، ساعدت على تغذية طاقة بشرية من أجل مزيد من الهجمات ضد أمريكا وحلفائها.

وقد مثّل دخول العربية السعودية إلى الدبلوماسية العربية- الإسرائيلية سنة ٢٠٠٢ عالماً صغيراً من السلوك السعودي عبر العالم كله. إذ أفصح السعوديون عن كل الأشياء الحقيقية، من خلال إقناعهم العديد من أعضاء المجتمع الدولي- بما في ذلك مجلس الأمن بالأمم المتحدة- بأنهم ارتأوا دفع عجلة السلام في الشرق الأوسط. بل إنهم منحوا واشنطن أحياناً الدعم الدبلوماسي من وراء ستار، عبر الضغط على ياسر عرفات وزعماء عرب آخرين ممن استفادوا من الدعم السعودي. لكن في الآن ذاته، كانت الخيريات السعودية تسرّب المال إلى حماس، التي كانت منخرطة في التفجيرات الانتحارية ضد أهداف مدنية إسرائيلية. و«حفزت» على تنفيذ الهجمات، بحسب تعبير وزير الخارجية «كولين باول»، عبر منح المال لعائلات الانتحاريين.

لم تكن هذه الخيريات جماعات هامشية لا صلة لها بالنظام السعودي، بل بالأحرى كشفت عن أهداف النظام السعودي الحقيقية. إذ دعمت العائلة الملكية السعودية فعلاً هذه الخيريات، حيث انتصبت رابطة العالم الإسلامي، وذراعها العملية المتمثلة في هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، أساساً كقنوات للحكومة السعودية، مع إتاحة الولوج إلى السفارات السعودية في الخارج، في غالب الأحيان. إذ

تربع على عرش مؤسسة الحرمين وزير الشؤون الإسلامية السعودية الشيخ صالح آل الشيخ، الذي ترأس مجلس المؤسسة الإداري وراقب أنشطتها العالمية[٨٥] وقد كانت الحكومة السعودية مطلعة على ما كانت تفعله هذه الخيرياث الوهابية الضخمة بالضبط.

كانت اللعبة التي لعبها السعوديون مع إسرائيل والفلسطينيين استعراضاً فعلاً، حيث صرفوا الأنظار عن الدور السعودي في أحداث ١١ أيلول/سبتمبر والعمليات الإرهابية المتواصلة. لكن بعد أن ظهر اختلاف مبادرة عبدالله أيّما اختلاف عمّا وعدت به في البداية- خاصة منذ إسقاط كلمة «التطبيع» السحرية- عاش السعوديون أياماً عصيبة، وهم يقدّمون أنفسهم كصنّاع سلام.

إذا كانت العربية السعودية تستعرض دعمها السلام الإسرائيلي- الفلسطيني، بينما دعمت في الآن ذاته انتحاريي حماس، فماذا إذن عن الأسئلة العريضة التي طرحها دور العربية السعودية في إرهاب القاعدة العالمي؟ ذلك أن الخيريات ذاتها التي دعمت حماس وُجِّهت إليها اتهامات خطيرة منها اتهامها بدعم الإرهاب في أمكنة أخرى: في البلقان، وأفريقيا الشرقية، والفلبين[٨٦] وقد شكّل استعداد السعوديين لمواصلة هذه اللعبة حتى بعد ١١ أيلول/سبتمبر أفضل مؤشر على أن زعماءهم لم يروا الحاجة إلى تغيير أساليبهم بعد الهجمات على أمريكا.

بعد ١١ أيلول/سبتمبر ظلت العربية السعودية على حالها رَحِماً يحتضن الإرهاب الإسلامي الأصولي. إذ لم تقدم العربية السعودية إيديولوجيتها الداعمة فحسب، بل أيضاً بنية دعمها المالية. للأسف، لم تبدأ الحملة الدبلوماسية ضد السلوك السعودي فعلاً، في الوقت الذي بدا فيه أن الحملة العسكرية حققت نجاحاً، خاصة في أفغانستان.

الفصل الحادي عشر

هل بدأت العربية السعودية تتغير أخيراً؟

أصبح الأثر الشامل للمؤسسات الوهابية السعودية في نشر الإرهاب الجديد في العالم كله أكثر جلاء خلال حرب العراق سنة ٢٠٠٣ وما تلاها مباشرة. ففي البلقان أعلن وزير داخلية بوسني سابق أن التعاليم الدينية السعودية كانت «تسمّم شبابنا»؛ حيث كان يعلّق على حالة معروفة قتل فيها شاب بوسني مسلم، ينتمي إلى تنظيم متشدد موّلته المساعدات السعودية، رجلاً مسيحياً كرواتياً وابنته عشية عيد الميلاد[١] وتبيّن أن جمال زوكام، المشتبه الرئيسي في تفجيرات القاعدة يوم ١١ آذارمارس ٢٠٠٤ في مدريد، حضر بانتظام دروساً بمسجد وهابي يقع جنوب مدينة طنجة، إلى جانب متآمرين آخرين في الهجوم ذاته[٢]

كما كان السعوديون يشنون غزوات جديدة في كوسوفو وأفريقيا، داعمين فروعاً إسلامية أصولية في نيجيريا وتنزانيا. وفي جنوب شرق آسيا تأسس مركز إسلامي باسم ابن باز في إندونيسيا حيث ارتبط بتعليم إسلامي متشدد[٣] ووصف تقرير استخباراتي فلبيني إنشاء منظمة إسلامية جديدة سنة ٢٠٠٢، تحمل اسم حركة راجح سليمان، بذراع عمليات خاصة غذّتها أموال مصدرها العربية السعودية، وكانت مرتبطة

بالتنظيم القديم: جماعة أبو سياف الإرهابية المناصرة لابن لادن. إذ سعى التنظيم الجديد إلى أسلمة الفلبينيين كلهم[٤]

وكان عدد من محللي أحداث الشرق الأوسط يصلون، عندما ينظرون إلى الخلف، إلى خلاصة مفادها أن بروز الإرهاب العالمي الجديد مرتبط بالعربية السعودية ارتباطاً مباشراً. وقد أكد وائل الأبراشي، نائب رئيس تحرير أسبوعية *روز اليوسف* (وهي صحيفة قاهرية مماثلة لـ«*نيوزويك*»)، في منتصف سنة ٢٠٠٣ أن السلطات السعودية مطالبة بالاعتراف بأن القاعدة «تنظيم سعودي محلي برز من تحت جُبّة الوهابية»[٥]، شأنه شأن التنظيمات التي تدور في فلكه. واتهم الأبراشي العربية السعودية بدعم التطرف الإسلامي الذي ابتليت به مصر طيلة أكثر من عقدين: «يمكنني الجزم في القول إنه بعد قراءة متأنية جداً لجميع وثائق ونصوص التحقيقات الرسمية المتصلة بكل أفعال الإرهاب التي جرت في مصر، من اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨١، إلى مذبحة الأقصر سنة ١٩٩٧، كانت العربية السعودية المحطة الأساسية التي مر بها أغلب المتطرفين المصريين»[٦]

حدث بروز الإرهاب الجديد، وفق تحليل الأبراشي، نتيجة تغيّر عقائدي مهم. فمنذ تأسيس الوهابية في القرن الثامن عشر انخرط المنتمون إليها في التكفير، خاصة تكفير الشيعة. لكن الحركات التي استلهمت هذه العقيدة انتقلت اليوم، كما أشار الأبراشي، إلى مرحلة جديدة في تفكيرها؛ ذلك أنها دعت إلى «محق وتدمير» أولئك الذين تتهمهم بالهرطقة. وقد أرسى هذا الانتقال الأرضية الفكرية والدينية لنزعة قتالية جديدة، صارت القاعدة دليلها الأبرز. وفي الآن ذاته بدأ الفقهاء الوهابيون السعوديون يتحدثون عن شرعية إبادة الكفار، حيث

هيّأ هذا الأمر الأرضية ليس فقط لتبرير هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠١١ على نيويورك وواشنطن، بل أيضاً للحرب المحتدة ضد الغرب.

فعلى سبيل المثال، أفتى الشيخ ناصر حمد الفهد، وهو فقيه إسلامي سعودي بارز، في أيار/ مايو ٢٠٠٣ بجواز استعمال أسلحة الدمار الشامل ضد الولايات المتحدة الأمريكية. ورأى أن استعمال هذه الأسلحة جائز ما دام موجّهاً ضد الكفار. فضلاً عن ذلك، اعتبر ضربة من هذا النوع شكلا من أشكال الثأر- ردا على ما فعلته الحكومة الأمريكية بالمسلمين. وأكد أن للمسلمين الحق في قتل عشرة ملايين أمريكي بسبب هذه الشرور[٧]

اخترقت هذه الأفكار دوريات القاعدة ومواقعها الإلكترونية. إذ قال سيف الدين الأنصاري (اسم حربي)، الذي كتب باستمرار في مجلة *الأنصار*، ما يلي حول إبادة الكفار: «وكما انطبقت سُنّة الإهلاك على القوى الكافرة من الأمم السابقة ولم يفلت منها أحد فإنها سوف تنطبق على القوى الكافرة في واقعنا المعاصر ولن يفلت منها أحد». وأشار إلى المشركين العربي الذين هلكوا، حسب التراث الإسلامي، بسبب رفضهم محمد. وخلص عبر المناظرة إلى أنه «سوف تهلك- ولا شك- دولة أمريكا ودولة اليهود، بل وكل الدول الكافرة»[٨]

كما ظهرت حجج أخرى، خلال سنتي ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، حول الدور السعودي في تمويل الإرهابيين خلال العقد السابق أو أكثر. إذ سجلت مذكرة مفصلة حول وثائق هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، التي اكتشفتها المخابرات البوسنية، لقاء بين شركاء بن لادن وممثلين عن المنظمة السعودية. ذلك أن هذه المذكرة غير المؤرخة (التي ربما حُرّرت حوالي ١٩٨٨ و١٩٨٩، بينما عثر إلى جانبها على وثائق

مؤرخة ذات صلة) تتضمّن اقتراحاً من مكاتب الهيئة في باكستان: «ثمة هجمات سينفذونها»[٩] وبالفعل، ففي سنة ١٩٩٩ سجّل تقرير استخباراتي مصنف صادر عن وكالة «إف. بي أي» هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية ومنظمتها الأم، رابطة العالم الإسلامي، كمصدرين مهمين بالنسبة إلى الجيل الجديد من الإرهابيين الإسلاميين السنّة[١٠] واتضح أن أبي طلال القاسمي، رئيس مكتب الهيئة في بيشاور، كان محمياً قريباً من أيمن الظواهري مساعد بن لادن. كما قاد القاسمي المجاهدين المصريين في البوسنة حتى اختفائه سنة ١٩٩٥[١١]

قادت هذه التقارير، إلى جانب تقارير أخرى حول ارتباطات الهيئة بالإرهاب في ألبانيا والشيشان والهند والفلبين والضفة الغربية وقطاع غزة، المحللين إلى خلاصة مفادها أن هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية كانت تتحول إلى وسيلة السعوديين المفضلة لتمويل الجهاد العالمي. وقد ارتبط هذا التمويل، بطريقة أو بأخرى، بقمة المؤسسة السعودية. إذ كان وزير الدفاع السعودي الأمير سلطان مساهماً منتظماً في الهيئة، بحسب الوثائق التي سلَّمها محاموه الأمريكيون للمحاكم الأمريكية، حيث منح المنظمة ٢٦٦ ألف دولار سنوياً على امتداد ست عشرة سنة[١٢] وقد أكد عميل «سي. أي. آي.» السابق «روبرت باير» أن الأمير سلمان، حاكم الرياض وشقيق الملك فهد، راقب توزيع أموال الهيئة «بيد من حديد»[١٣]

الوهابية في العراق

سيكون للحراك الإسلامي الجديد أثره الأهم من الناحية الاستراتيجية في العراق. فأثناء الاستعداد لحرب العراق، وعندما ارتأت إدارة «بوش» أن تجد خيطاً رابطاً بين القاعدة ونظام صدام

حسين، أضحت الأنظار مركزة، على نحو متزايد، على جماعة إسلامية كردية صغيرة تدعى «أنصار الإسلام». إذ كشف وزير الخارجية «كولين باول»، يوم ٥ شباط/ فبراير ٢٠٠٣، أن «لبغداد عميلاً في أعلى مستويات التنظيم الأصولي، هو أنصار الإسلام، الذي يراقب هذا الركن من العراق. ففي سنة ٢٠٠٠ منح هذا العميل القاعدة ملاذاً آمناً في المنطقة. وبعد أن أخرجنا القاعدة من أفغانستان قبل بعض أعضائها باللجوء إلى هذا الملاذ الآمن».

لكن من هم أنصار الإسلام؟ ومن أين أتوا؟

نشأت الجماعة عندما بلغ إسلاميون أكراد قيادة القاعدة في أفغانستان في آب/ أغسطس ٢٠٠١ إذ اجتاز العديد منهم تدريباً في معسكرات القاعدة، حيث أسسوا أنصار الإسلام بعيد ذلك. وكان رئيس الجماعة الملا كريكار، الذي تتلمذ على يدي عبدالله عزام، في باكستان، وكان عزام المعلم الإيديولوجي لأسامة بن لادن. وتدرّب مساعد كريكار أبو عبدالله الشافعي مع القاعدة في أفغانستان لمدة عشر سنوات[١٤] وأكدت مصادر أمريكية أن التنظيم تأسس بميزانية تتراوح بين ٣٠٠ ألف و٦٠٠ ألف دولار من الرأسمال مصدرها القاعدة، ونشأ في العربية السعودية، حيث زعم سجناء أنصار الإسلام أنهم تلقوا أموالاً من العربية السعودية، وكذلك من إيران، ومن نظام صدام حسين. وزعم الشيخ محمد محمد علي، أحد مؤسسي الكونغرس الوطني العراقي، أن التنظيم السابق على أنصار الإسلام، المعروف باسم «جند الإسلام»، تلقّى دعماً مالياً من بن لادن، وصدام حسين، و«المتطرفين الوهابيين»[١٥]

ثمة حجة قوية عن الأثر الديني الوهابي في أنصار الإسلام تكمن وراء هذه التقارير المتنوعة حول الدعم المالي السعودي. ذلك أنهم

تعصبوا ضد المسيحيين واليهود، وهي سمة الوهابيين. إذ عُثر، داخل نزل بكابول الأفغانية، على وثائق ذات صلة بالإسلاميين الأكراد الذين سيشكلون أنصار الإسلام، دعت إحداها إلى إنشاء جماعة على طريقة طالبان في كردستان، من شأنها أن تحتاج إلى أعضاء «لطرد أولئك اليهود والمسيحيين من كردستان، والانضمام إلى طريق الجهاد»[١٦] فضلاً عن ذلك، خرّب الإسلاميون الأكراد أضرحة قديمة لأولياء من العلماء المسلمين في كردستان، ممن ينتمون إلى الزاوية الصوفية النقشبندية، إذ لا تحبذ الوهابية تبجيل أولياء المسلمين، وتحرّم الصلاة في قبورهم. وظل تحطيم القبور والأضرحة سمة وهابية منذ القرن الثامن عشر. ففي بيان صحافي، صادر يوم ٢٨ تموز/ يوليو ٢٠٠٢، أجرى الحزب الوطني الكردستاني، الذي يقوده جلال طالباني، مقارنة بين هجوم على مكان يدعى «باخي كون»، يقع في جبال هورمان، وتدمير طالبان تماثيل بوذا في وادي باميان بأفغانستان. وبالنظر إلى تبني أنصار الإسلام هذه الممارسات الوهابية لا غرابة أن افتخر الملا كريكار ذات مرة وهو يصف نفسه بأنه مريد من مريدي محمد بن عبد الوهاب[١٧]

انسجاماً مع هذا، اعتبرت جماعة أنصار الإسلام قيادة الأكراد العلمانية- المتمثلة في الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي حكم شمال كردستان، والحزب الوطني الكردستاني في الجنوب- قيادة «كافرة». فحاولت اغتيال برهام صالح، الوزير الأول المنتمي إلى الحزب الوطني الكردستاني، في منتصف سنة ٢٠٠٢ وعاملت مقاتلي الحزب الوطني بوحشية كبيرة، حيث ذبحت ومثلت بثلاثة وأربعين من مقاتليه يوم ٢٣ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ كما جندت الجماعة مقاتلين أجانب غير أكراد وجاءت بهم إلى كردستان- خاصة عرب القاعدة

الذين يبحثون عن ملاذ جديد في مناطق جبلية معزولة جنوب شرق كردستان، على طول الحدود العراقية- الإيرانية. لكن أثرها الأساس في العراق تمثل في إدخال التفجيرات الانتحارية التي لم تستعملها من قبل حركات عراقية من أي توجه إيديولوجي. إذ حدث أول وأبرز هجوم من هذه الهجمات يوم ٢٦ آذار/ مارس ٢٠٠٣ وأسفر عن مقتل خمسة أشخاص، من بينهم «بول موران»، وهو صحافي يعمل لدى شركة الإذاعة الأسترالية. ولم يكن انتحاري أنصار الإسلام عبد العزيز سعود الغربي كردياً بل برز من صفوف متطوعيها الأجانب، وجدير بالذكر أنه من حائل الواقعة شمال العربية السعودية[١٨]

شكّل نموّ تنظيمات مؤيدة للوهابية في العراق عموماً، وكردستان خصوصاً، مشروعاً سعودياً قائماً منذ عقد على الأقل. وبحسب بيان صحافي صدر عن السفارة السعودية في واشنطن يوم ١٢ آذار/ مارس ٢٠٠١ أنفقت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية أكثر من ١٩ مليون دولار في كردستان وحده خلال السنوات التسع الماضية. وخُصص أغلب هذا الاستثمار للحزام الجغرافي الممتد من بلدة برزان إلى مدينة حلبجة وتحديداً في المنطقة ذاتها حيث كان يتكاثر أنصار الإسلام. فقد لاحظ الصحافيون الغربيون سنة ٢٠٠٢ بناء مساجد وهابية بيضاء جديدة هناك تحمل حروف طابع «الهيئة» على جدرانها الخارجية. وفي سنة ٢٠٠٢ اشتكى فقيه كردي سامٍ من أن «الوهابيين يسرقون أبناءنا»، مشيراً إلى آثار الاختراق السعودي في المنطقة[١٩] غير أن الهيئة لم تكن وحيدة؛ ذلك أن الندوة العالمية للشباب الإسلامي كانت، بحسب بيان صحافي آخر صدر يوم ٤ تموز/ يوليو ٢٠٠١، نشيطة في تنظيم ما سُمّي بالخدمات الطبية والتربوية في كردستان. كما كانت مؤسسة الحرمين، وهي خيرية تحمل شعار «قلبك النابض ويدك الرحيمة إلى

إخوتك المسلمين»، نشيطة في كردستان، حسب موقعها الإلكتروني. إذ يرجح أن تذهب هذه الخيريات السعودية أبعد من مجرد تقديم الدعم الديني والإنساني، نظراً إلى أن كل منظمة ارتبطت في الماضي بتمويل حماس، وجماعة أبي سياف، والجماعات الإسلامية الشيشانية المقاتلة، والقاعدة.

لقد أثّر تعاظم الوجود الوهابي بالعراق وبروز أنصار الإسلام في مصالح عدد من الأطراف. ففي الماضي كان صدام حسين ينظر نظرة كُرْهٍ إلى الإسلاميين العراقيين على العموم؛ ومع ذلك برز زعيماً للعراق من بين صفوف حزب البعث العراقي العلماني عموماً. لكن مع الانتصار الأمريكي في حرب الخليج سنة ١٩٩١ وفرض «منطقة حظر جوي» شمال العراق تغيرت حساباته بسرعة. فما أن أقامت جماعات كردية مؤسسات مستقلة جداً حتى صار صدام حسين في حاجة إلى وسيلة لزعزعة استقرار هذه المنطقة المناصرة لأمريكا التي تجاوزت هيمنة نظامه في بغداد. وسبق لحزب البعث السوري أن قام بهذه الخطوة الإيديولوجية بالتحالف مع حزب الله الشيعي المقاتل. ظاهرياً، عيّن صدام حسين الكولونيل سعدان محمود عبد اللطيف العاني، المعروف أيضاً باسم أبي وائل، من الشرطة السرية العراقية ضابطاً يصله بأنصار الإسلام. وبحسب أحد رجاله، المسجون حالياً، أمدّ أبو وائل الجماعة الإسلامية الكردية بمئات الآلاف من الدولارات، والأسلحة، من مدافع وقذائف الهاون. وجند أبو وائل، قبل زمن بعيد من حرب العراق سنة ٢٠٠٣، مقاتلين أجانب من خارج العراق- من بينهم أردنيون وأتراك وسوريون ويمنيون ومصريون ولبنانيون- قصد الالتحاق بأنصار الإسلام[٢٠] إذ سينخرط السعوديون في هذا العمل أيضاً.

إنه لمن الخطإ الاعتقاد أن هذه الحركة اقتصرت على جبال

كردستان. إذ أخبر أبو وائل «جوناثان شانزر»، من معهد واشنطن لسياسة الشرق الأوسط، أن القيادة العراقية أمرت أعضاء أنصار الإسلام باتخاذ مواقع جديدة في الموصل والمدن العربية السنّية الأساسية غرب العراق، مثل تكريت والفلّوجة، في حالة هجوم أمريكي على مراكز عملياتها الكردية[٢١] كما كشف عن أن المقاتلين الأجانب تدربوا في المدائن (سلمان باك)، التي تقع على بعد عشرين ميلاً جنوب شرق بغداد. وأكد هذا الأمر أنهم قد يشكلون قوة في المنطقة التي أصبحت تعرف باسم «المثلث السني»، إذا تلقوا تعليمات بمغادرة قاعدتهم الكردية.

ازداد قلق المسؤولين الأمريكيين حول جماعة أنصار الإسلام لأنها باتت تشكل حلقة الوصل بين أسلحة صدام حسين للدمار الشامل والإرهاب الدولي. فعلى سبيل المثال، تلقت إدارة «بوش» تقارير تفيد أن أنصار الإسلام تسلموا من العراقيين عامل غاز الأعصاب (المعروف باسم VX)، وتدبروا أمر نقله برّاً رفقة رسول إلى تركيا[٢٢] وجاء أن جماعة أنصار الإسلام اختبرت غاز الريسين ضد الحيوانات. وبحسب تقرير لجنة الأمم المتحدة للرصد والتحقق والتفتيش (UNMOVIC) الصادر في آذار/ مارس ٢٠٠٤ اعترف العراقيون بأنهم أنتجوا غاز الريسين. كما باع العراقيون، حسب اعتراف عميل تابع للقاعدة معتقل في إيطاليا، مواد سامة للشبكة الإرهابية التابعة لأبي مصعب الزرقاوي، الضابط الذي عمل على ربط القاعدة بنظام صدام حسين[٢٣] وزعم الوزير الأول الأردني علناً أن الزرقاوي كان يختفي في معسكر أنصار الإسلام[٢٤] فإذا كانت هناك جماعة إرهابية ذات روابط دولية ستختار استعمال أسلحة الدمار الشامل ضد الكفار- كما ارتأى الفقهاء الوهابيون السعوديون- فإنها أنصار الإسلام.

لكن مع تقدم التحالف الغربي السريع نحو بغداد والتخلص من نظام صدام حسين شكّل أنصار الإسلام وجماعة المقاتلين الأجانب حجر الزاوية في مهمة أخرى- شن هجمات إرهابية ضد الجيش الأمريكي في العراق بعد انتهاء العمليات العامة يوم الفاتح من أيار/ مايو ٢٠٠٣ وشرع ضباط الجيش الأمريكي في إخبار الصحافة العالمية أنهم بدؤوا تدريجيا يحددون المهاجمين كوهابيين، حيث اقتبست مجلة «نيوزويك» عن ضابط مخابراتي أمريكي، قوله في منتصف حزيران/ يونيو: «اليوم، بدأ هؤلاء الفتية الوهابيون يظهرون فجأة. نحن نسمع تلك الكلمة أكثر، إنها كلمة الوهابي»[٢٥] ثمة حجة مفادها أن المتطوعين السعوديين عبروا الحدود إلى العراق بغية القتال في المناطق السنّية. وروى موقع إلكتروني سعودي قصة موت سعوديين في ساحة المعركة في مدينة الفلوجة وهما يقاتلان الفيالق الأمريكية[٢٦] وسجلت مواقع المعارضة السعودية مقتل سعوديين آخرين كانوا يقاتلون الأمريكيين في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٣ وحذّر ممثل قبلي من المثلّث السنّي خلال زيارة إلى واشنطن في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣ قائلا: «منطقة الفلوجة مليئة بالوهابيين»[٢٧] وظهر أن الأمر يتعلق بأولئك الذين كانوا يرغبون في تشجيع المجاهدين السعوديين للالتحاق بالقتال، حيث حمل عدد «مستقبل الإسلام»، المنشور الشهري الذي تصدره الندوة العالمية للشباب الإسلامي، في غلافه حواراً مع الشيخ عائض القرني، وهو فقيه سعودي كان مستشاراً أيضاً لأصغر أبناء الملك فهد الأمير عبد العزيز بن فهد، حث فيه السعوديين على الالتحاق بالقتال في العراق أو المساهمة بالمال[٢٨]

وخلال يوليوز ٢٠٠٣، بدأت منظمة إسلامية مقاتلة جديدة في شن

هجمات ضد فيالق الأمريكيين عبر المثلث السني في العراق. إنها الجماعة السلفية المجاهدة.

لقد تبيّن أن هذه الجماعة مرتبطة بالقاعدة. ففي موقعها الإلكتروني، وصفت هجمات ١١ أيلول/سبتمبر على الولايات المتحدة الأمريكية بأنها أفعال «مباركة» ومهمة انهزم فيها «أعداء الله». وصرحت أن هذه الهجمات منحت الأمل والحيوية للقوى التي تسعى إلى صحوة الإسلام عبر العالم. وقدمت المنظمة لأنصارها أسامة بن لادن وعبدالله عزام معاً باعتبارهما نموذجين مثاليين في الجهاد ضد الغرب. ونسبت الجماعة إلى نفسها عمليات ضد الأمريكيين في المدن العراقية مثل الموصل والرمادي. واستعملت الجماعة السلفية مصطلحات وهابية قديمة في تعريف الديمقراطية بوصفها ديانة كافرة، واعتبرت المشاركة في الانتخابات البرلمانية بدعة من شأنها تشويه شكل الحكم الإسلامي الصحيح. ووصفت الجماعة أمريكا بالقوة الكافرة التي لم تكن تقود حرباً صليبية باسم المسيحية ضد الإسلام فحسب وإنما تسعى أيضاً إلى فرض هيمنة شاملة لصالح ديانتها الكافرة الجديدة- الديمقراطية. لكنها سعت أيضاً إلى استعداء الشيعة، الذين رأت فيهم كفاراً يحملون نسخة «شريرة» من الإسلام.

استلهمت الجماعة السلفية فكرها الديني من كتابات ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب. لكنها سلطت الضوء، في موقعها الإلكتروني، على الموافقة على الهجمات الانتحارية، بناء على أوامر دينية وكتابات العديد من الفقهاء السعوديين المهمين أمثال سليمان بن العلوان، وعلي الخضير، وحمود بن عقلاء الشعيبي[٢٩] وقد وصف هؤلاء الفقهاء أنفسهم باعتبارهم سلطات نافذة على مواقع حركات إسلامية مقاتلة في صفوف الشيشانيين، وعلى مواقع حماس أيضاً.

ذلك أن الجماعة السلفية لم تكن الحركة السنّية المقاتلة الوحيدة التي قتلت جنوداً أمريكيين غرب العراق؛ ففي الموصل أماطت جماعة وهابية مسلحة سمّيت بجماعة أبي عماش اللثام عن نفسها[٣٠] لكن بدا أن الجماعة السلفية برزت من الجذور ذاتها مثل باقي الجماعات التي انخرطت في إحياء الجهاد الشامل.

ومع أن الجماعة السلفية كانت متكتمة، على نحو مفهوم، حول مصادر التمويل، فقد كان من المتوقع أن تفتح أجندتها الوهابية الواضحة أبواباً في العربية السعودية- مثلما فعلت بالنسبة إلى مجاهدي أفغانستان، والبوسنة، والشيشان، والفلسطينيين. إذ أقرّ نائب وزير الخارجية الأمريكي «رتشارد أرميتاج»، دون ذكر هذا التنظيم على الخصوص، أن «أموال بعض الخيريات السعودية الخاصة موّلت مقاتلين في العراق»[٣١] كما تحدث مسؤولون سامون في التحالف العسكري عن المال الذي أُرسل من العربية السعودية إلى المساجد العراقية بغية تمويل نشر الوهابية[٣٢] وفي الوقت ذاته، ورغم جهود التنظيم في التكتم، كان ثمة رابط سعودي ملحوظ في جهود المقاتلين الجديدة داخل العراق، إذ جرت مقابلات مع مؤسّسي الجماعة السلفية في قناة «العربية» الفضائية السعودية. وما تبدى من الحوار هو أن زعماء الحركة تحدثوا لغة عربية بنبرة سعودية واضحة، الأمر الذي قاد بعض الملاحظين إلى استنتاج أن قيادة التنظيم تشكلت من مواطنين سعوديين[٣٣]

لماذا انخرط السعوديون في الجهاد ضد الجيش الأمريكي في غرب العراق؟

بعد تورّط مواطنين سعوديين في هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر لا يمكن لهذا النشاط إلا أن يمثل كارثة بالنسبة إلى الدولة السعودية، التي

كانت تحاول الحفاظ على روابطها التقليدية بواشنطن. بيد أن ثمة عددا من المصالح السعودية الموازية التي لا يمكن إلا أن تقيّم ببعض الحدس. على سبيل المثال، قد يتأرجح السعوديون حول الجهد الحربي الأمريكي برمّته ضد صدام حسين سنة ٢٠٠٣ فمن جهة أولى، شكل عراق صدام خصماً جيواستراتيجياً؛ ذلك أن فيالقه المصفحة احتلت الكويت سنة ١٩٩٠ وهددت بالانتقال إلى شمال العربية السعودية أيضاً. ومن جهة ثانية، مثّل جيش صدام، خلال الحرب العراقية- الإيرانية في الثمانينيات، حصناً ضد النزعة التوسعية الإيرانية وانتشار الإسلام الشيعي المقاتل داخل الدول العربية في الخليج الفارسي حيث شكل الشيعة نسباً مهمة من السكان- خاصة في البحرين، والكويت، والإمارات العربية المتحدة والإقليم الشرقي من العربية السعودية. إذ اعتبرت الوهابية، منذ زمن نشأتها، الشيعة خصماً إيديولوجياً.

هكذا كان من شأن انتصار أمريكي حاسم أن يفرز أثرين أساسيين اثنين. أولاً، ستتعافى الصناعة النفطية العراقية تماماً، مما سيخفض سعر النفط ويتيح للولايات المتحدة الأمريكية مصدراً نفطياً بديلاً جديداً باحتياطات عالية تنافس الاحتياطات السعودية. ثانياً، إذا سادت الديمقراطية في العراق فإن أي حكومة جديدة ستعكس البنية الديمغرافية الحقيقية في العراق حيث يشكل الشيعة نسبة ٦٥ في المئة على الأقل من السكان. ومن هنا، ستواجه المملكة الوهابية دولة شيعية جديدة على طول حدودها الشمالية، مما قد يستحث مشاعر انفصالية في صفوف شيعة الإقليم الشرقي من العربية السعودية الغني بالنفط. والنتيجة التي ستحمي المصالح السعودية أفضل حماية من العراق ستتمثل في التخلص من صدام حسين وتعويضه بنظام من شأنه

أن يحتفظ بهيمنة العرب السنّة العراقيين، مع الدعم المحتمل لفرقة مقاتلة من الأكراد العراقيين، ممن هم مسلمون سُنة أيضاً.

لم يكن على السعوديين، بالضرورة، أن يؤخذوا بالتأثير في شؤون العراق الداخلية. فالعدد الحالي من المتطوعين السعوديين الذين عبروا الحدود إلى التراب العراقي هو عدد متنازع فيه. والحدود السعودية-العراقية مراقبة جزئياً، مما أجبر المتطوعين السعوديين على دخول العراق عبر الكويت أو السفر إلى سوريا، ثم عبور الحدود إلى العراق[٣٤] وقدّرت عناصر المعارضة السعودية عدد المقاتلين السعوديين في منطقة بغداد بنحو خمسة آلاف. وتحدثت مصادر أمريكية عموماً عن مقاتلين أجانب يأتون من سوريا وإيران، ولم تُشِرْ إلى العربية السعودية إلا لِماماً. ولم يتردد شيعة العراق في أن ينحوا بلائمة الهجمات على أماكنهم المقدسة في النجف وكربلاء على الوهابيين. وفي الواقع لم يكن السعوديون في حاجة إلى أعداد كبرى من مواطنيهم للانخراط في القتال، بعد استثمار عقد من الزمن في نشر الوهابية في العراق. فهناك عدد من الوهابيين العراقيين المستعدين للقيام بعمليات مقاومة ضد الأمريكيين، حيث لاحظ صحافيون أجانب، خلال السنوات الأخيرة من حكم صدام حسين، زيادة في بناء المساجد داخل التجمعات السنّية في العراق، وأن حضور المسجد بدا في ارتفاع. وكان هذا الأمر مهماً لأن المساجد الوهابية استخدمت أيضاً كمراكز تجنيد المجاهدين عندما شنوا حملتهم ضد القوات الأمريكية.

وفي كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣ نشرت عناصر ذات صلة بالقاعدة تحليلاً مفصّلاً يقع في خمسين صفحة عن الوضعية في العراق ودور المجاهدين في الصراع ضد الأمريكيين وشركائهم في التحالف. وقُدِّم الكتاب كمتابعة لعمل سابق كتبه الشيخ يوسف العييري، وهو

عالم سعودي بارز كتب دعاية القاعدة على الإنترنت. وخُصصت ثمان صفحات من العمل الجديد للدور الإسباني في الحرب في العراق، مع اهتمام خاص بالانتخابات البرلمانية الإسبانية يوم ١٤ مارس ٢٠٠٤ وركز كتاب القاعدة على كيفية خلق تغيير في الحكومة الإسبانية التي ستفرض انسحاب القوات الإسبانية من العراق، حيث يصرّح الكاتب بهدف قوامه خلق «أثر دومينو»، من شأنه أن يستحث الاعتراض داخل إيطاليا وبولونيا، وأخيراً في المملكة المتحدة، على دعمها جهد الحرب الأمريكية في العراق. ودعا الكتاب «المقاومة» العراقية لضرب القوات الإسبانية في العراق بشكل متكرر، بغية تأمين النصر للحزب الاشتراكي الإسباني[٣٥] ولم يقترح توجيه ضربات إلى قلب مدريد، كما فعلت الجماعة المرتبطة بالقاعدة في آخر الأمر في آذار/ مارس ٢٠٠٤، مسببةً النتيجة ذاتها التي استشرفها الكتاب. لكنه أبرز الارتباط الوثيق بين استراتيجية القاعدة العالمية وجهد المجاهدين الحربي في العراق.

القاعدة تضرب العربية السعودية: الحملة السعودية الجديدة لمواجهة الإرهاب في الداخل والدعم المتواصل للإرهاب في الخارج

قال السعوديون إنهم عانوا نسختهم من هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر في التفجير الانتحاري الثلاثي يوم ١٢ أيار/ مايو ٢٠٠٣ الذي أدّى إلى مقتل خمسة وثلاثين شخصاً من بينهم تسعة أمريكيين. وما كان مثيراً في الهجوم ونتيجته المباشرة هو أن زعماء سعوديين، خاصة وزير الداخلية الأمير نايف، أنكروا بقوة، في وقت سابق، وجود القاعدة في المملكة، رغم كل الحجج التي تفيد العكس. ورغم كل علامات

التحذير، كان السعوديون راضين عن وضعيتهم الأمنية، حيث اكتشفوا، قبل ستة أيام من الهجوم الثلاثي، مخبأ أسلحة في الرياض اشتمل على مئات الأرطال من المتفجرات. وبالفعل، طلب المسؤولون الأمريكيون، خلال الشهور التي سبقت الهجوم، من الحكومة السعودية نشر الحرس المسلح ذي الزي الموحد حول الأهداف الغربية، لكن السعوديين لم يستجيبوا[٣٦] ربما شعروا أنهم ما زالوا يملكون درجة من المناعة؛ بل إن تفجيرات يوم ١٢ أيار/ مايو وجهت ضد ثلاثة مجمعات سكنية خاصة بأجانب يعملون في العربية السعودية، حيث لم يستهدف النظام السعودي على نحو خاص. بيد أن القيادة السعودية لم تحتمل، في نهاية المطاف، تحويل عاصمتها إلى ساحة معركة شاملة. ثم ما أن بدأت الأجهزة الأمنية السعودية في تطويق المشتبهين من القاعدة حتى انكشف حجم وجودهم داخل المملكة بشكل كامل.

لم تنحصر وحدات القاعدة في العربية السعودية على مدينة أو إقليم واحد فقط من مدن وأقاليم المملكة وإنما بدت منتشرة في كل مكان. ففي يوم ٢٠ أيار/ مايو ٢٠٠٣ اعتُقل ثلاثة مشتبهين من القاعدة في ميناء مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر. وفي أوائل حزيران/ يونيو قُتل مشتبه إرهابي آخر، إلى جانب أمنييْن سعودييْن في معركة بالسلاح في حائل الواقعة شمال وسط العربية السعودية. وفي يوم ١٤ حزيران/ يونيو انخرطت قوات أمنية سعودية في تبادل إطلاق للنار مع خلية للقاعدة بمكة. كما اعتقلت أربع نساء بتهم إرهابية. وشنت قوات الأمن السعودية حملة لفرض النظام على فقهاء متشددين سعوديين خلال حزيران/ يونيو في المدينة المنورة، بمن في ذلك الشيخان علي بن الخضير وناصر حمد الفهد، مؤلف فتوى سنة ٢٠٠٣ التي تجيز

استعمال أسلحة الدمار الشامل ضد الكفار. وصادرت من هؤلاء الفقهاء وشركائهم بنادق «كلاشنيكوف»، وصناديق ذخيرة، وقنابل يدوية، وبطاقات هوية مزورة. وفي يوم ٣ تموز/ يوليو ٢٠٠٣ قُتل هارب من القاعدة وثلاثة مشتبهين آخرين في تبادل لإطلاق النار في صوير، وهي بلدة سعودية تقع شمال منطقة الجوف، على مقربة من الحدود العراقية. ولم تكتشف قوات الأمن السعودية أسلحة فحسب بعد إطلاق النار بل أيضاً صناديق خيرية تحتوي على ٣٠٠ ألف ريال سعودي[٣٧] وللتمثيل على حملتها في فرض النظام، نشرت صور ستة وعشرين إرهابياً هارباً على الصفحة الأولى من اليومية السعودية «الوطن» يوم ٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣[٣٨] وكتبت في العنوان الرئيس الذي يعلو الصور كلمة: «مطلوبون».

تواصلت معارك الشوارع مع خلايا القاعدة خلال السنة التالية أيضاً. وفي إطلاق نار آخر وقع في الرياض يوم ١٢ نيسان/ أبريل ٢٠٠٤ استعمل عملاء القاعدة قنابل صاروخية ضد قوات الأمن السعودية. وفي الوقت ذاته اعترضت قوات الأمن السعودية كميات كبيرة من المواد المتفجرة، بما في ذلك خمسة آلاف كيلوغرام من الديناميت، في منطقة نجران الواقعة على الحدود اليمنية[٣٩] وفي مطلع سنة ٢٠٠٤ لخّص الأمير تركي الفيصل، السفير السعودي في واشنطن ورئيس المخابرات السابق، حملة محاربة الإرهاب السعودية كما يلي: اعتقال نحو ست مئة، سبعون إلى تسعين منهم أدينوا لتورطهم في الإرهاب، وما زال ما بين ٢٥٠ إلى ٣٠٠ يخضعون للتحقيق. وتتراوح أعمار أولئك الذين سجنوا بين خمسة عشر وخمسة وأربعين عاماً[٤٠] ولم يتدرّب أولئك الشباب، في الغالب، في معسكرات بن لادن التدريبية في أفغانستان- مما أكد مدى تأثير النظام

التربوي السعودي في الشباب من أجل المشاركة في العمليات القتالية.

غير أنه رغم هذه المعارك أوضح متحدثون باسم القاعدة أنهم لم يقرروا إعلان الحرب على القيادة السعودية. ففي تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣ أدلى أبو سالم الحجازي، قائد القاعدة في المنطقة القريبة من الفلوجة غرب العراق، بحوار لموقع القاعدة أعلن فيه أن القاعدة قصدت في تفجير الرياض الثاني يوم ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣ قتل الأمريكيين والمسيحيين اللبنانيين- لا المسلمين السعوديين. وشدد على أن القاعدة أمرت أعضاءها بعدم مواجهة حكومات البلدان الإسلامية ما دام التنظيم يستهدف أمريكا أساساً. لكنه أوضح أنه لم يرَ في السعوديين حكاماً مسلمين شرعيين، مبيّناً أن من شأن الأنظمة الهشة في الشرق الأوسط أن تنهار من تلقاء ذاتها مع زوال الولايات المتحدة الأمريكية.[٤١] وفي تحليل لاحق للقاعدة قدّم أبو هاجر (عبد العزيز المقرن)، الذي ورد اسمه على لائحة أكثر المطلوبين لدى العربية السعوديين، سبباً آخر حول الحذر تجاه الهجمات داخل المملكة: «صحيح أيضا أننا يجب أن نستفيد من هذا البلد [أي العربية السعودية] ***لأنه مصدر الأموال الأساس بالنسبة لأغلب حركات الجهاد***». (التشديد على الحروف من إضافة الكاتب).

وذكّر أبو هاجر أتباعه بمهمتهم الأساسية قائلاً: «أخذت على نفسي قسماً ووعداً وعهداً أن أطهر جزيرة العرب من المشركين [الصليبيين المسيحيين واليهود]». من هنا، لم يكن النظام السعودي وقواته المسلحة خصومهم المباشرين[٤٢] إذ أفسح هذا الأمر المجال أمام إمكانية متابعة «صفقة فاوست» المبرمة في التسعينيات، حيث ستترك القاعدة السعوديين وشأنهم، وتركز على العمليات في الخارج، إذا لم يتدخل المسؤولون السعوديون في أنشطة الجماعة. وشجعت

التصريحات حول المواقع التي توجهها القاعدة الأنصارَ على ترك السعودية وشأنها، ومتابعة الجهاد بالأحرى ضد أمريكا في العراق. لكن بدا خلال سنة ٢٠٠٣ أن القيادة السعودية لم تعد ترغب في تجاهل التهديد الذي طرحه وجود القاعدة الذي تنامى عبر السنوات فوق التراب السعودي. ذلك أنه ظهر أن سنوات نشأة الجهاد العالمي ارتدّت إلى شبه الجزيرة العربية، وهددت النظام السعودي، وأُجبر السعوديون على أن يتخذوا خيارات صعبة.

نتيجة لذلك، هل كانت العربية السعودية تنقلب ضد ماضيها الذي دعم الإرهاب؟ للأسف، بينما بدا السعوديون عازمين على التحرك ضد خلايا القاعدة *داخل* المملكة، كانت ثمة حجة مادية مفادها أن العربية السعودية ظلت تدعم الإرهاب *خارج* المملكة. فعلى سبيل المثال، مثل «ديفيد أوفهاوزر»، المستشار العام في وزارة المالية، يوم ٢٦ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، أي قبل ستة أسابيع من هجمات ١٢ أيار/ مايو، أمام اللجنة القضائية بمجلس الشيوخ، ووصف العربية السعودية بأنها «بؤرة» التمويل الإرهابي. بعد شهر، سُئل «جان بيستول»، مدير «إف. بي. أي» الفاعل في مجال محاربة الإرهاب، في جلسة أمام لجنة العمليات الحكومية بمجلس الشيوخ الأمريكي يوم ٣١ تموز/ يوليو عن الجهود السعودية لمنع تمويل الإرهاب، فلم يكن بإمكان «بيستول»، الذي وصف مستوى التعاون السعودي مع «إف. بي. أي» حول التحقيق في هجمات ١٢ أيار/ مايو بالرياض بأنه «غير مسبوق»، إلا أن يقول إن «هيئة المحلفين لم تطّلع بعد» على أعمال العربية السعودية فيما يتصل بتمويل الإرهاب. إذ كان ثمة فرق واضح بين كيفية معالجة العربية السعودية تهديدها الداخلي وكيفية تصرفها إزاء مشكلة الإرهاب العالمي.

تأكد هذا التميز بتمويل السعودية حماس في منتصف سنة ٢٠٠٣، حيث استنتجت المخابرات العسكرية الإسرائيلية أن العربية السعودية كانت توفر ٥٠ في المئة على الأقل من مداخيل حماس خلال حزيران/ يونيو ٢٠٠٣[٤٣] وبحسب استنتاج آخر، اعتبرت السعودية مصدر ما بين ٦٠ و٧٠ في المئة من أموال حماس[٤٤] ففي آب/ أغسطس ٢٠٠٣، بالغ الشيخ أحمد ياسين، الذي تخلصت منه إسرائيل في آذار/ مارس ٢٠٠٤، مبالغة واضحة خلال خطاب جماهيري بقطاع غزة، في شكر خيريتين سعوديتين معروفتين هما: هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية والندوة العالمية للشباب الإسلامي، على دعمهما. وسبق للشيخ ياسين أن مدح السعوديين في الحوارات التي أدلى بها للصحافة السعودية. ففي تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١ وصف دعم العربية السعودية المادي الممنوح للشعب الفلسطيني في صحيفة سعودية قائلاً إن «أغلب المساعدة المادية والاقتصادية التي تصل الشعب الفلسطيني، في قطاعاته كلها، تأتي من المملكة العربية السعودية، وبدعم من الملك فهد بن عبدالعزيز وولي العهد الأمير عبدالله»[٤٥] وتواصل هذا المديح العلني للهبات السعودية في تصريحات قيادة حماس أواخر سنة ٢٠٠٣ وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٣ واصل خالد مشعل، الذي تلقى اعتمادات الدعم السعودي المتواصل من ولي العهد الأمير عبدالله خلال زيارة إلى الرياض في أكتوبر ٢٠٠٣، إسباغ المديح على السعوديين وذلك في حوار مع يومية «الحياة» اللندنية، قال فيه: «عبر التاريخ، كان شعب المملكة السعودية من أكثر الدول العربية دعماً لشعبنا»[٤٦] لم يشكل هذا الحوار حجة تثبت أداء السعوديين اعتمادات لحماس لكن مشعل لم يبدُ شخصاً فقد الدعم المالي السعودي المقدم لتنظيمه.



July 10, 2003

الصفحة الرئيسية | من نحن؟ | للاتصال بنا | خريطة الموقع

في هذا القسم: فتاوى الفقهية | دراسات وبحوث | كتب وإصدارات

مواضيع خاصة بالعمليات الاستشهادية

- الإرهاب الإسرائيلي وشرعية المقاومة والعمليات الاستشهادية
- سنة الله الماضية في الكون والحياة...
- بيان رابطة علماء فلسطين يناشد الإخوة المزارعين إخراج زكاة الزيتون ، و المحافظة على أرضهم ، و الدفاع عنها
- التحالف مع أمريكا لضرب العراق أو أي قطر عربي أو إسلامي خيانة لله و رسوله و للمؤمنين و حرام شرعاً
- بيان من هيئة علماء السودان نصراً للمجاهدين على أرض فلسطين الجمعة 22 محرم 1423هـ الموافق 5 أبريل 2002م
- نداء للمسلمين لنجدة إخوانهم في فلسطين .. لم يبق للأمة من مخرج شرعي إلا الجهاد ودعم صمود شعبنا المسلم الشيخ سفر بن عبد الرحمن الحوالي
- فتوى فضيلة الشيخ سليمان بن ناصر العلوان في العمليات الاستشهادية
- فتوى العلامة الدكتور يوسف القرضاوي حول مشاركة النساء في العمليات الاستشهادية
- ملف خاص : شرعية العمليات الاستشهادية
- فتوى بشأن العمليات الفدائية الاستشهادية صادرة عن مجمع الفقه الإسلامي – السودان
- فتوى صادرة عن رابطة علماء فلسطين في حكم العمليات الاستشهادية
- فتوى الشيخ عبد الله بن منيع عضو هيئة كبار العلماء في السعودية : العمليات الاستشهادية في سبيل الله من أفضل أبواب الجهاد
- فتوى الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ مفتي السعودية الراحل
- فتوى شيخ الأزهر وعدد من علماء مجمع البحوث الإسلامية في مصر
- هل يُعتبر منتحراً من فجر نفسه بحزام ناسف وسط العدو؟ د. عجيل جاسم النشمي – الكويت
- العمليات الاستشهادية في ميزان الشرع , الكاتب: الشيخ سلمان العودة
- فتاوى العلماء :
  - الشيخ العلامة حمود العقلا الشعيبي .
  - الشيخ حامد بن عبدالله العلي .
  - الشيخ سليمان العلوان .
  - الشيخ محمد بن عبدالله السيف ــ مفتي المجاهدين في الشيشان ــ .

  ملف ورد
- الإصابة في طلب الشهادة , جابر بن عبد القيوم الساعدي الشامي أبو قتيبة

رجال دين سعوديون يفتون لحماس بشرعية العمليات «الانتحارية»

كما كانت الوهابية السعودية تحقق اختراقات إيديولوجية في صفوف الفلسطينيين عموماً، وحماس خصوصاً. إذ ظل الفقهاء السعوديون يشكلون، حسب موقع حماس، المصدر الديني الأساس لتبرير الهجمات الانتحارية.

وقد اكتشفت القوات الإسرائيلية العاملة في الضفة الغربية وقطاع غزة أشكالاً أخرى من الدعم الإيديولوجي الممنوح من العربية السعودية للتطرف الفلسطيني. مثلاً، كانت منظمة جمعية القرآن والسنّة بفلسطين، التي توجهها حماس، منظمة حديثة العهد تأسست سنة ١٩٩٦؛ ومع حلول سنة ٢٠٠٣، كانت لها فروع في بيت لحم وسلفيت وأبو ديس (القريبة من القدس) وجنين ومنطقة طولكرم. وقد وزعت نصوصاً سعودية تمدح الهجمات الانتحارية ضد «الكفار» وتدين أولئك الذين يتخلفون عن التزاماتهم بالالتحاق بـ«الجهاد». وكانت الندوة العالمية للشباب الإسلامي تدعم جمعية القرآن والسنّة.

وفي قطاع غزة كانت مدرسة دار الأرقم النموذجية بمنزلة مشروع خاص للشيخ أحمد ياسين. هنا كانت أموال الدعم السعودية أخف من انتشار الحراك الوهابي المتطرف، حيث استعملت المدرسة نصوصاً تحمل رسائل تعادي الغرب بقوة. إذ أكثرت من الاستشهاد بالشيخ سليمان بن ناصر العلوان، وهو فقيه سعودي دعم بتصريحاته الهجمات الانتحارية التي ظهرت على موقع حماس، وكان قريباً أيضاً من القاعدة من الناحية الإيديولوجية. وفي شريط فيديو للقاعدة صدر في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ أعاد فيه أسامة بن لادن تمثيل تحطم الطائرات المختطفة بيديه ضد مركز التجارة العالمي، بدا مجاهد سعودي كأنه يقول إنه جاء بـ«فتوى جميلة» من الشيخ العلوان في العربية السعودية إلى بن لادن. ذلك أن تصدير إيديولوجيا الجهاد الراديكالي إلى

الفلسطينيين كان يعيد إلى الأذهان الدعم السعودي المقدم للمدارس في غرب باكستان خلال الثمانينيات، مما أفرز ولادة طالبان. كما كانت الندوة العالمية للشباب الإسلامي تدعم جزئياً مدرسة دار الأرقم.

غير أن المتحدثين السعوديين حاولوا أن يثبتوا أنهم كانوا يتخذون إجراءات صارمة ضد تمويل الإرهاب. واعترفت دوائر الحكم السعودي أنها واجهت مشكلة جسيمة، حيث أكد معلّق أن العربية السعودية كانت متساهلة جداً مع الجماعات الإرهابية: «كنا بطيئين، حتى أصبح الريال أداة متفجرة»[٤٧] لكن الإجراءات السعودية لمحاربة الإرهاب بدت فاترة. وعقد عادل الجبير، مستشار الأمن الخارجي لدى ولي العهد الأمير عبدالله، ندوة صحافية في واشنطن يوم ١٢ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣ أعلن فيها أن مؤسسة الحرمين ستغلق كل مكاتبها الخارجية. بيد أن «جاين بيرليز» من صحيفة «نيويورك تايمز» أوردت بعد ثلاثة أسابيع من جاكارتا الإندونيسية أن الحرمين أجّرت مقرها الواسع في ضاحية جاكارتا، و«انتقلت إلى بيت صغير أسفل المجمع ذاته»[٤٨] وفي الآن ذاته كانت أبواب مكتب الحرمين في «أشلاند» بـ«أوريغون» مل زالت مفتوحة خلال أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٣ رغم أن محاميه أثبت أنه لم يتلق أموالاً من مكتبه الرئيس في الرياض[٤٩].

وأعلن ضيف الله بن سليم البلاوي، المشرف العام على عمليات المنظمات الخيرية في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، في مطلع سنة ٢٠٠٤ أن ضوابط جديدة للعمليات الخيرية ستنشر قريباً- بعد أن كان على العديد من الخيريات السعودية إغلاق مكاتبها في الخارج بسبب الاشتباه في تمويلها الإرهاب[٥٠] لكن البلاوي كشف أيضاً المدى الذي بلغته هذه الخيريات إلى أن تلقت مؤخراً دعماً حكومياً

مباشراً، حيث قدمت الحكومة السعودية الأرض لمكاتبها، وتكفلت بتكاليف البناء التي بلغت ٨٥ في المئة، وساعدت على أداء فواتير الكهرباء. كما شجع السعوديون تكاثر الخيريات الإسلامية تشجيعاً فعلياً: ففي سنة ٢٠٠١ كان هناك ٢٤٢ خيرية سعودية مسجلة؛ وفي سنة ١٩٨١، لم يكن هناك سوى تسع وأربعين فقط[٥١] هكذا، كان للحكومة السعودية نفوذ حاسم على الخيريات السعودية وهو نفوذ بدأت تستعمله[٥٢] غير أن وصف أغلب الخيريات السعودية باعتبارها منظمات غير حكومية محضة لم يكن صائباً على نحو واضح؛ ذلك أنها إما تلقت مساعدة غير مباشرة من الحكومة السعودية، وإما أن وزراء سعوديين ترأسوا مجالسها الإدارية كما في حالة خيرياتها الثلاث الضخمة (مؤسسة الحرمين، هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، الندوة العالمية للشباب الإسلامي). باختصار، تحملت الحكومة السعودية مسؤولية مشكلة تمويل الإرهاب بشكل مباشر، وأوقفت عملها سنة ٢٠٠٤

كما ظهر أن السعوديين لم يكونوا يعالجون موضوع التحريض الديني إلا جزئياً عقب تفجيرات ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٣ إذ كانوا يخطون خطوات لكبح الكراهية التي ولدت الإرهاب العالمي الجديد لكن الإجراءات المعتمدة بدت غير كافية عموماً لمعالجة جسامة المشكلة التي خلقوها. ذلك أن مزيجاً من الرسائل صدر عن الجهات السعودية الرسمية. ففي الندوة الصحافية ذاتها المنعقدة في واشنطن يوم ١٢ حزيران/يونيو أعلن الجبير بتبجح كبير أن العربية السعودية طردت المئات من الفقهاء، وأوقفت أكثر من ألف بسبب الدعوة إلى التعصب. ولكن، في غضون أسابيع، أنكر مساعد الوزير السعودي في الشؤون الإسلامية بشكل قاطع أن الخطوة المتخذة ضد الفقهاء لا

هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية	الندوة العالمية للشباب الإسلامي	مؤسسة الحرمين
الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ (المفتي العام، عضو الديوان السعودي) رئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي	الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ (وزير الشؤون الإسلامية) رئيس كتابة الندوة العالمية للشباب الإسلامي	الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ (وزير الشؤون الإسلامية) رئيس المجلس الإداري لمؤسسة الحرمين
هبات من العائلة الملكية السعودية	**هبات من العائلة الملكية السعودية**	**هبات من العائلة الملكية السعودية**
الارتباطات العالمية بالإرهاب		
ارتباط موثق بأسامة بن لادن سنة ١٩٨٩، عندما تأسست القاعدة، في وثائق هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية	خضوع مكتب الندوة العالمية للشباب الإسلامي في فرجينيا الشمالية للتحقيق (المدير السابق عبدالله بن لادن)	تمويل عمليات القاعدة جنوب شرق آسيا
زوج أخت بن لادن محمد جمال خليفة مشرف على تسيير مكاتب الفلبين- قناة أبي سياف	ارتباطات الندوة العالمية للشباب الإسلامي بحماس لوحظت سنة ١٩٩٦	الحكومة البوسنية تغلق الحرمين بسبب «تمويل أنشطة منظمات إرهابية»
محمد الظواهري، شقيق أيمن الظواهري (الرجل الثاني في القاعدة) اشتغل في مكتب ألبانيا	الندوة العالمية للشباب الإسلامي تدعم ائتلاف الخير للشيخ القرضاوي، التجمع الذي يوجه المال إلى حماس	أذربيجان تغلق مكتب الحرمين بسبب أنشطة إرهابية شيشانية
كينيا تدرج هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في اللائحة السوداء	الندوة العالمية للشباب الإسلامي تستضيف حماس في الرياض بالعربية السعودية خلال تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٢	اعتقال موظفي الحرمين في ألبانيا
تورط موظفي هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في هجوم إرهابي بالهند		إغلاق مكتب الحرمين في الصومال
هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في «بانكيسي جورج» قناة الأنصار في الشيشان		
توثيق دعم هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية لحماس على وثائق الهيئة		

تتصل بكبح التعصب. وبالفعل، فقد لاحظ «روبرت جوردن»، السفير الأمريكي في العربية السعودية خلال سنة ٢٠٠٣: «لاحظنا مؤخراً داخل مساجد مؤثرة أن الإمام يشجب الإرهاب ويدعو إلى التسامح، ثم يختم الخطبة بـ«اللهم دمّر اليهود والكفار وأعوانهم»»[٥٣] صحيح أن السعوديين استطاعوا إجبار الشيخ علي بن الخضير، في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣، على التراجع عن موقفه الجهادي المتشدد الذي أعلنه على التلفزيون السعودي في وقت الذروة،[٥٤] إلا أن الخضير توسع بالفعل في معالجة عقيدة التكفير- قائلاً بتكفير المسلمين. إذ من شأن تراجعه أن يوقف العنف الإسلامي الحركي ضد المسلمين الآخرين، لكنه لم يعالج ببساطة مشكلة العنف الجهادي ضد الأمريكيين أو الآخرين خارج العربية السعودية. فبدا تصريحه معدًّا أساساً قصد منع الهجمات ضد الحكومة السعودية والأجانب داخل العربية السعودية.

وكشفت المعركة السعودية ضد القاعدة تطوراً مزعجاً آخر داخل العربية السعودية. إذ تبيّن أحياناً، بعد معارك مسلحة متنوعة، أن أفراداً من أجهزة الأمن السعودية كانوا يقاتلون إلى جانب مقاتلي القاعدة. وهو ما طرح سؤال حول مدى اختراق القاعدة مؤسسة الدفاع السعودية. وقد عبر الفريق «موشي يعلون»، رئيس الأركان في وزارة الدفاع الإسرائيلية، في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣ عن القلق من محاولة القاعدة تجنيد ربابنة سعوديين للقيام بمهمات انتحارية ضد إسرائيل.[٥٥] هذا السيناريو طرحه عملاء القاعدة المعتقلون أثناء الاستجواب خارج إسرائيل. وخلال حرب العراق أعاد السعوديون نشر مقاتلاتهم «إف. ١٥ إس.» المتقدمة فنقلوها من مسرح العمليات العراقي إلى قاعدة تبوك القريبة من إسرائيل. ونتيجة لذلك كان ثمة

انشغال متزايد في إسرائيل بأن هذه الطائرات، التي قد تعبر إلى الفضاء الجوي الإسرائيلي بفترة تحذير قصيرة، قد تستعمل في هذه المهمة الانتحارية. وعبّر «شاؤول موفاز»، وزير الدفاع الإسرائيلي، عن انشغال أوسع شهوراً عديدة بعد أن حاولت القاعدة اختراق القوات المسلحة السعودية(٥٦).

وبغضّ النظر عن طريقة اختراق القاعدة المؤسسة العسكرية السعودية فإن الجماعة الإرهابية أظهرت أنها لم تكن ممثلة داخل العربية السعودية بخلايا قليلة فحسب، بل كشفت عن وجود واسع وشامل لم يقدره أحد قبل تفجيرات ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٣ إذ أبدت القاعدة، مع الهجوم الانتحاري يوم ٢١ نيسان/أبريل ٢٠٠٤ في الرياض ضد بناية الشرطة السعودية، استعداداً للهجوم على مؤسسات النظام السعودي، لا المركبات الأجنبية فقط. ذلك أن الجهاد العالمي الذي رعته أكثر من عقدين عاد ليهدد أسس المملكة السعودية ذاتها.

خاتمة

نهاية الكراهية

يشهد العالم الآن تهديداً جديداً ومدمراً: إنه الإرهاب العالمي الجديد. طبعاً، ليست الأفعال الإرهابية جديدة في حد ذاتها، لكن الإرهاب وسّع مجاله على نحو كبير خلال السنوات الأخيرة، وضاعف أهدافه. فلم تعد جماعات إرهابية مأخوذة بحماسة إيديولوجية تحصر نفسها في منطقة واحدة. وبالفعل، ضرب الإرهاب الجديد في كل مكان، من إندونيسيا إلى اليمن، وعملت خلايا إرهابية في قلب أوروبا، وبلغت شرق أفريقيا، ووسعت حملتها من جنوب روسيا إلى قلب موسكو. فضلاً عن ذلك، بات الإرهاب الجديد مُهْلِكا أكثر مما جاء قبله؛ ذلك أن ضربة واحدة قد تزهق، وقد أزهقت، حياة آلاف الضحايا. إنه ليس إرهاباً ذا أهداف محدودة، بل هو إرهاب يسعى إلى تحقيق انهيار خصومه انهياراً شاملاً. وربما كانت هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ حدثاً نابضاً يذكر بهذا الواقع الجديد.

لقد استحثت الهجمات الرهيبة على مركز التجارة العالمي والبنتاغون الولايات المتحدة الأمريكية على الفعل. فبعيد هذه الهجمات أعلن الرئيس «جورج و. بوش» الحرب ضد الرعب- لا على أمة أو أمم، ولا على تنظيم إرهابي أو تنظيمين، وإنما على

«جماعة إرهابية ذات امتداد عالمي»، وعد «بوش» بأن «يجدها، ويوقفها، ويهزمها»[1] وقد حققت الحرب ضد الإرهاب بعض النجاحات في مراحلها المبكرة، خاصة مع الانتصار العسكري في أفغانستان الذي أطاح بنظام طالبان. كما استهدفت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها مصادر أموال الإرهاب وأسلحته.

كانت هذه الأفعال ناجعة إلى حد ما، وهي أساسية على نحو بيّن لكل محاولة تروم الحيلولة دون وقوع هجمات إرهابية مستقبلاً. لكن الحملة الغربية تجاهلت، على العموم، مكوّناً خطيراً في الإرهاب- أي المصدر المضبوط للرعب، *والإيديولوجيا* التي حفزت الأفراد والجماعات على ذبح آلاف الأبرياء وإزهاق أرواحهم. صحيح أن الإيديولوجيا وحدها لا تكفي لشن هجوم إرهابي، إلا أنها شرط ضروري للرعب، لأن الإرهاب لا يعتبر أبداً عنفاً تلقائياً، أو نتاج فعل متهور- إنه لا ينشأ من فراغ.

بعبارة بسيطة، حفزت كراهية متأصلة على موجة الهجمات الإرهابية التي تعتبر هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر جزءاً منها. فمن أين أتى ذلك العداء؟ في الواقع، لإيديولوجيا الكراهية التي هي أساس هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ جذور تعود إلى أكثر من ٢٥٠ سنة. إذ كانت إيديولوجيا الكراهية هذه، كما رأينا، نتاج الوهابية العسكرية، حيث طور محمد بن عبد الوهاب هذه العقيدة الإسلامية المتشددة داخل الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر، وترعرعت وازدهرت على التعصب الأصولي تجاه أولئك الذين لم يعتنقوا معتقداتها.

لا تكمن المشكلة في الإسلام برمّته، لأن الحضارة الإسلامية جاءت لتكرم مساهمات الحضارات الأخرى، واعترفت بالمسيحيين

واليهود الذين حكمتهم باعتبارهم شعوباً تستحق الحماية لأنها من «أهل الكتاب». ففي سنة ٦٣٢ سمح خليفة الإسلام الثاني عمر بن الخطاب لليهود بالعودة إلى مدينتهم المقدسة القدس، بعد أن منعوا منها قروناً، أي منذ الغزوات الرومانية. واحترم عمر كنيسة القيامة، ولم يحوّلها إلى مقام إسلامي.

صحيح أن حياة المسيحيين واليهود في ظل الحكم الإسلامي نادراً ما كانت مثالية؛ إذ كان عليهم أن يؤدوا رسوماً تمييزية، باعتبارهم غير مسلمين. لكن كانت هناك فترات تاريخية مهمة أبدى فيها الحكام المسلمون درجة استثنائية من التسامح تجاه الأقليات بالنظر إلى العصر الذي عاشوه. فعلى سبيل المثال، سمح فاتح القدس صلاح الدين الأيوبي للشعب اليهودي بالاستقرار مجدداً في هذه المدينة المقدسة بعد أن طردهم الصليبيون. كما آوت الإمبراطورية العثمانية اللاجئين اليهود من محاكم التفتيش الإسبانية، وفي ظل الحكم العثماني، استعاد الشعب اليهودي غالبية القدس سنة ١٨٦٤ - قبل وقت طويل من مجيء البريطانيين.

كلا، لا يعتبر الإسلام ذاته مشكلة. ولا تعتبر الوهابية في حد ذاتها مشكلة، إذ لم يتورّط كل بلد تأثر بالوهابية بشكل آلي في الإرهاب العالمي. انظر مثلا إلى قطر، التي تبنت الوهابية أواخر القرن التاسع عشر: فرغم أن القطريين استضافوا بعض العناصر المتطرفة، بمن في ذلك الشيخ يوسف القرضاوي من الإخوان المسلمين، فإن هذه المشيخة الصغيرة لم تتبنّ السياسات المتطرفة ذاتها على الصعيد العالمي، مثلما فعلت جارتها من جهة الغرب العربية السعودية. وبالفعل، يلاحظ *التقرير الدولي للحريات الدينية* الصادر عن وزارة الخارجية الأمريكية سنة ٢٠٠٢ أنه بينما قدّمت العربية السعودية اعترافاً

واقعياً بالكنائس الكاثوليكية والأنجليكانية والأرثوذوكسية، فإن ممارسة المسيحية علناً ما زالت ممنوعة فيها، بل لم يرخص للشيعة ببناء مساجدهم داخل العربية السعودية.[٢]

بالأحرى، تكمن المشكلة في الوهابية كما تطورت في أوساط العربية السعودية. إذ يبقى هذا المنطلق المتطرف والعنيف من التقليد الإسلامي السائد هو العقيدة الدينية المهيمنة في العربية السعودية بعد أكثر من قرنين ونصف من تأسيسها. ويبقى النظام السعودي الداعمَ الأساس لشبكة الرعب الدولي الوهابية. في الواقع، برزت العربية السعودية، التي يفترض أنها حليفة الولايات المتحدة الأمريكية، كمفتاح للإرهاب العالمي الجديد، لأن المملكة السعودية لم تتح الإيديولوجيا التي حفزت الإرهابيين فحسب، بل قدمت قوة بشرية واعتمادات مالية طائلة لتمويل عمليات الرعب. وبقدر تطرّف العقيدة الوهابية فإن الخطر الحقيقي ينشأ عن دعم الدولة السعودية لإيدويولوجية كراهيتها وحملات الرعب المختومة بطابع الوهابية.

إرث الكراهية

لكن هل يمكن أن يرتبط إرهاب القرن الواحد والعشرين فعلاً بعقيدة نشأت في منتصف القرن الثامن عشر؟ للإجابة عن هذا السؤال لا ينبغي أن ينظر المرء في أثر الوهابية العميق في العربية السعودية فحسب، بل أيضاً في كيفية تحفيز الوهابية السعودية العنفَ عبر تاريخها. ذلك أن الإسلام الوهابي حفز، على نحو خاص، ثلاث موجات من العنف المتطرف، نتجت عنها مآسٍ فظيعة في الشرق الأوسط.

حدثت الموجة الأولى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن

التاسع عشر، عندما بعثت الوهابية الفكرة الإسلامية في الجهاد، باعتباره نزعة توسع عسكري- وهو مفهوم انتهى استحسانه في الإسلام التقليدي بعد الفتوحات الإسلامية المبكرة. كما قطعت الوهابية مع التقليد الإسلامي بإضفاء المشروعية على مجاهدة المسلمين الآخرين الذين لم يقبلوا بعقيدة ابن عبد الوهاب. وعززت الوهابية عقائدها، مسلحة نفسها بتحالف بين مؤسسها محمد بن عبد الوهاب ورئيس العشيرة السعودية محمد بن سعود سنة ١٧٤٤

وباسم الوهابية تميّز المنضوون تحت لوائها بوحشية استثنائية تجاه غير المقاتلين، بمن في ذلك النساء والأطفال، نازعين المشروعية عنهم باعتبارهم كفاراً لم يستحقوا أي حق في الحياة. والأجدر بالذكر أن الجيوش الوهابية ذبحت آلاف الشيعة سنة ١٨٠٢ داخل مدينتهم المقدسة كربلاء، الواقعة في العراق العثماني. كما دمّر المحاربون الوهابيون القبور وأضرحة الشيعة الأخرى. ففي الواقع، هذه الوحشية هي جوهر الإرهاب، لأن المحاربين الوهابيين الأوائل تصرفوا تحقيقاً لمطالب وهابية مفادها أن الجماعات الأخرى من الشعب لا تستحق الحياة، وهي جديرة بأن تذبح. ذلك أن نزع المشروعية عن الجماعات الدينية الأخرى ونعتها بالكافرة، بل أسوأ من ذلك- وهو ما تأسس غالباً على لعنات الفقهاء الوهابيين المهيمنين في العربية السعودية- يكشف بدقة كيف يعمل إرهاب أسامة بن لادن الشامل.

وحدثت الموجة الثانية من العنف الوهابي مع تشكل العربية السعودية الحديثة في مطلع القرن العشرين. إذ جدد ابن سعود، خليفة أمير العشيرة السعودية، تأسيس تحالف عائلته مع الحركة الوهابية، حيث شجع إنشاء جيش وهابي متطرف سُمّي بالإخوان. فشن هذا الجيش جهاداً ضد المسلمين الآخرين في جزيرة العرب، بمن في ذلك

الحسين شريف مكة مؤسس العرش الهاشمي، الذي حكم أولاً في جزيرة العرب، ثم في سوريا، والعراق، والأردن. وقُتل حوالي ٤٠٠ ألف عربي أو جُرحوا في هذه الحملات. ومثلما فعل المحاربون الوهابيون السعوديون في كربلاء قبل أكثر من قرن برّر جنود الوهابية هؤلاء فظاعاتهم بنعت ضحاياهم بالكفار. وقد راقبت القوات الجوية الملكية وباقي الوحدات العسكرية البريطانية جيش الإخوان في البداية، لكن كان ابن سعود نفسه هو من انقلب ضد المقاتلين الوهابيين في نهاية المطاف، حتى لا يفقد هيمنة دولته السعودية الناشئة.

وبدأت موجة الوهابية الثالثة خلال الخمسينيات واستمرت حتى السبعينيات، عندما أصبحت السعودية ملاذ المتطرفين الإسلاميين الفارّين من الإعدام على يد الحكام العلمانيين القوميين العسكريين العرب، خاصة عبد الناصر في مصر. وفي الواقع، وضعت هذه الموجة الثالثة أرضية الدعم السعودي الموجه للإرهاب العالمي الحديث. ففي هذه الفترة التمس آلاف الأعضاء في حركة الإخوان المسلمين المصرية الملجأ والعمل في العربية السعودية. وأقامت الحكومة السعودية جامعات لخدمة العالم الإسلامي، بما في ذلك الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وجامعة الملك عبد العزيز في جدة. وتشكلت هيئات التدريس في هذه الجامعات من الفقهاء الوهابيين والإخوان المسلمين معاً، حيث مُزجت إيديولوجيتا هاتين الحركتين، حتى نشأ هجين جديد، تجسدت أفضل صوره في محمد قطب، شقيق سيد قطب المنظّر المغتال في حركة الإخوان المسلمين، وخاصة في عبدالله عزّام، العضو السابق في فرع الإخوان المسلمين بالأردن. فقد درّسا معاً في جامعة الملك عبد العزيز، وكلاهما علّما طالباً اسمه أسامة بن لادن.

باتت إيديولوجيا الكراهية واضحة في هذه الفترة، بما أن الزعماء الدينيين الوهابيين قد جددوا الدعوة إلى الجهاد، ونزعوا المشروعية عن غير الوهابيين. وأصدر فقهاء وهابيون سعوديون نصوصاً انتهوا فيها إلى أن مسيحيي اليوم ليسوا «أهل الكتاب» الذين التزم الإسلام بحمايتهم، بل هم بالأحرى مشركون ممقوتون. إذ تحدثت هذه النصوص عن «نزعة صليبية» جديدة قبل أكثر من عشرين سنة من هدم رجال أسامة بن لادن مركز التجارة العالمي. وردد الوعاظ في المساجد السعودية هذه التيمات في خطبهم، التي غالباً ما بثّها تلفزيون الدولة السعودية. وحتى أواخر سنة ٢٠٠١ يشرح كتاب سعودي لتلاميذ المستوى الثامن في المدارس السعودية فكرة مفادها أن الله مسخ المسيحيين واليهود «قردة وخنازير»، لأنهم أشركوا به[٣]

كما أنشأت العربية السعودية منظماتها الخيرية الإسلامية الواسعة في هذه الفترة، مثل رابطة العالم الإسلامي، التي صدَّرت نسخة المملكة من الإسلام الوهابي إلى الخارج. ولم تكن هذه الخيريات كيانات غير حكومية أو منظمات دولية مثل الصليب الأحمر الدولي. ذلك أن الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي كان وزيراً في الحكومة السعودية، وترأس العلماء مجالسها الأساسية، فكانت الرابطة جزءاً من حصة العلماء في حصص تقسيم الصلاحيات والمصادر الحكومية مع العائلة الملكية السعودية. وكانت المنظمة بمثابة ذراع في الحكومة السعودية، حيث أدانت عبد الناصر في مصر، وعززت الروابط الاستراتيجية السعودية مع باكستان عبر دعم الحركات الإسلامية في تلك البلاد. وأتاح انفجار أسعار النفط سنة ١٩٧٣ للعربية السعودية موارد مالية واسعة فاقت حاجات ميزانية هذه المنظمات الخيرية شبه الرسمية.

وفي السنوات الأخيرة اتضحت العلاقة بين الحكومة السعودية وخيرياتها الوهابية بشكل حي في شهادة أمام محكمة بكندا قدّمها ممثل محلّي عن رابطة العالم الإسلامي، هو عرفات الصاحي:

> دعوني أخبركم أمراً ما. تعتبر رابطة العالم الإسلامي، التي هي أم هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية منظمة تدعمها الحكومة بالكامل. بعبارة أخرى، أنا أعمل لصالح حكومة العربية السعودية. ثانياً، تعتبر هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية فرع إغاثة من فروع تلك المنظمة، ما يعني أن حكومة العربية السعودية تراقبنا جميعاً في أنشطتنا ومخططاتنا كلها[٤]

وهذه الرابطة ذاتها هي التي أرسلت عبدالله عزام إلى باكستان حيث شجع متطوعين عرب على مساعدة أفغانستان في حملتها ضد الاحتلال السوفياتي. إذ التمس عزام مساعدة العلماء السعوديين بغية تطوير عقيدته بالجهاد المتجدد الذي لم يحصره على أفغانستان، بل جعل منه مهمة عالمية بالأحرى. فخطا بعقيدته في الجهاد خطوة إلى الأمام بتقديم التبرير الفقهي لقتل المدنيين الأبرياء: «العديد من المسلمين يعرفون الحديث الذي أمر فيه النبي صحابته ألا يقتلوا أي امرأة أو طفل، الخ، *لكن القليلين جداً يعرفون أن هناك استثناءات في هذه الحالة* [التشديد هنا من إضافة الكاتب]. وخلاصة القول، على المسلمين ألا يوقفوا هجوماً على المشركين لوجود نساء وأطفال غير مقاتلين»[٥]

لقد قدمت الخيريات السعودية إغاثة إنسانية مشروعة للسكان المسلمين الذين انخرطوا في الصراعات المسلحة مع القوى غير المسلمة: مثلاً، في أفغانستان، والبوسنة، والشيشان، وكوسوفو،

والفلبين. كما دعمت بناء المساجد في العالم قصد نشر الإسلام الوهابي، ودفعت الأجور لزعماء دينيين محليين. لكن الخيريات السعودية يسّرت أيضاً تطور الإسلام الحركي، حيث دعمت، مثلاً، تدفق الرجال والعدّة على مناطق النزاع. وبعد مقتل عبدالله عزام سنة ١٩٨٩ استعمل خليفته أسامة بن لادن الخيريات لدفع الأجور إلى عملاء قاعدته في العالم. وغالباً ما حُددت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، على الخصوص، باعتبارها قناة الدعم الموجّه لتنظيم أبي سيّاف الذي حارب الحكومة في الفلبين، ولحماس في الضفة الغربية وغزة، وميليشيا الخطّاب في جنوب روسيا، والشبكات الإرهابية في شرق أفريقيا. فإذا كانت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية قد تورطت في الإرهاب داخل كل هذه المناطق فإن ذلك يعني أن الحكومة السعودية تورطت فيه أيضاً.

باختصار، لم تكن المشكلة تكمن فقط في أن الزعماء الدينيين الوهابيين كانوا ينشرون كراهية الغرب، التي حفزت الجيل الجديد من الإرهابيين، بل في أن النظام السعودي نفسه كان يدعم التنظيمات الوهابية المتطرفة والعنيفة. فلماذا برز النظام السعودي كداعم لشبكة الرعب الدولية الوهابية؟ ربما تكمن الإجابة في حاجات الدولة السعودية الجيواستراتيجية. ففي الستينيات، كان على العربية السعودية أن تحارب منافسيها القوميين العلمانيين العرب؛ وفي الثمانينيات، واجهت خصماً تجسّد في النظام الشيعي الثوري في إيران. ونتيجة لذلك، تبنّت العربية السعودية قضية الإسلام الوهابي في سياستها الخارجية، وخلقت خيريات ذات امتداد عالمي. وفي وقت لاحق، عندما حاول السعوديون أن يوازنوا أثر إيران الثورية، باتت الخيريات وسيلة لتأمين التأثير في البلدان التي شكلت تهديداً على المصالح

الأمنية السعودية، خاصة مصر وباكستان. أخيراً، وابتداء من التسعينيات، عندما بدأت صحة الملك فهد تتدهور، شهد أعضاء بارزون في العائلة الملكية السعودية صراعاً متواصلاً على الخلافة- صراعاً سيكون فيه للفقهاء الوهابيين أثر كبير. هكذا، من شأن تضييق الخناق على الخيريات الوهابية في هذا الوقت أن يستلزم دفع ثمن سياسي باهظ.

وقد قدم «برنارد لويس»، المؤرخ المعروف المتخصص في الشرق الأوسط، تشبيهاً يلتقط على نحو حي كيف اكتسبت الإيديولوجيا الوهابية هذا الأثر:

> تصوّر لو سيطر «كو كلوكس كلان» أو «الشعب الآري» على تكساس، وباتت مداخيل النفط كلها في متناوله، واستعمل هذا المال قصد تأسيس شبكة من المدارس والكليات ذات أوقاف واسعة في العالم المسيحي كله، تروج علامتها المسيحية الخاصة. هذا ما فعله السعوديون مع الوهابية، حيث مكّنهم مال النفط من نشر هذا الشكل المتشدد والهدام من الإسلام عبر العالم الإسلامي كله، وفي صفوف المسلمين في الغرب. ولولا النفط وقيام المملكة السعودية لبقيت الوهابية جناحاً متطرفاً طائشاً[٦]

باختصار، ساعدت الوهابية السعودية على إنتاج كراهية فريدة تجاه الغرب، لكن الدولة السعودية أتاحت نظاماً لحمل تلك الكراهية إلى العالم كله.

لِمَ الكراهية؟

يكمن إخفاق من الإخفاقات الشائعة في تحليلات الإرهاب الحديث، حتى تلك التي تحاول التحقق من الحوافز الكامنة وراء العمليات الإرهابية، في أن التركيز قصير النظر. فهي تنظر إلى الأحداث الأخيرة لتفسر الهجمات على الولايات المتحدة الأمريكية، وتأبى البحث عن الأسباب التاريخية الأعمق. وتعتقد أن فعلاً ما من جانب الضَحية أدى بالمنفذين إلى الفعل. ونتيجة لذلك قدّم المعلقون عدداً من المفاهيم المضللة لما يكمن وراء الإرهاب العالمي الجديد.

يعتقد البعض أن الغضب الذي شكل جزءاً من أساس هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر- وكذلك تفجيرات «يو إس إس كول» والسفارتين الأمريكيتين في شرق أفريقيا، فضلا عن هجمات أخرى- يجب أن يرتبط بشيء ما في التاريخ الراهن الجامع بين الولايات المتحدة الأمريكية والعربية السعودية. لكن محمد بن عبد الوهاب بدأ يروّج نسخته الفريدة من الإسلام السنّي في وقت لم توجد فيه الولايات المتحدة الأمريكية بعد. بل لم يكن العنف الوهابي أبداً رد فعل على المحتلين الإمبرياليين. في الواقع، إن الانفجار الأول للنزعة التوسعية الوهابية سبق الاستعمار الأوروبي. بل إن الانفجار الثاني للوهابية الحركية، الذي أنشأ المملكة العربية السعودية الحديثة، لم يعترض على خلفية أي إرث استعماري حقيقي. بالفعل، بينما كانت مصر تخضع للاحتلال العسكري البريطاني، وسوريا والعراق لانتداب عصبة الأمم المتحدة تحت إدارة فرنسا وبريطانيا، لم تكن العربية السعودية أبداً مستعمَرة أو إقليماً منتدَباً.

وعندما اخترقت شركات النفط الأمريكية العربية السعودية لم تأت بالرزمة الإمبريالية الكاملة التي جاء بها البريطانيون إلى منتجي النفط

الآخرين في الشرق الأوسط؛ ولم تعتمد على وجود عسكري أمريكي أو وجود أساطيل واسعة في الجوار لاكتساب حقوقها النفطية. فعندما اكتشفت شركة «ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» النفط أول الأمر في العربية السعودية سنة ١٩٣٨ لم يكن لأمريكا المعزولة أي وجود عسكري مهما كان في الشرق الأوسط. ولم تكن هناك أي دبلوماسية حربية لاستغلال الموارد الاقتصادية السعودية. إذ سعت أمريكا فقط إلى حرية ولوج شركاتها الخارجية إلى النفط بموجب عقيدة «الباب المفتوح»، ولم ترَ أي حاجة إلى إمبراطورية أمريكية مماثلة.

بعد سنوات، أي في السبعينيات، لم تستعمل الولايات المتحدة الأمريكية تفوقها العسكري لمواجهة البلدان العربية المنتجة للنفط لما رفعت من جانب واحد سعر النفط وأممت المصالح النفطية الأمريكية في ليبيا والعراق. وفي العربية السعودية أجرت الشركات النفطية الأمريكية محادثات «تشاركية» هادئة زادت تدريجياً الملكية السعودية داخل شركة «أرامكو» إلى أن أصبحت المجموعة النفطية ملكية سعودية بالكامل. ورغم أن الأمريكيين تدخلوا في السياسات الإيرانية في أوائل الخمسينيات، بعد تأميم المصالح النفطية الغربية، فإن ردّهم على التحركات النفطية السعودية في السبعينيات لم يَرُم سوى ترتيب «إعادة» البترودولار إلى البنوك والصناعة الأمريكية. إذ آمن الأمريكيون بالتبادل، لا بالإمبريالية.

وخلال الحرب الباردة، ربما كان من المغري التشبث بالقواعد العسكرية في العربية السعودية قصد احتواء الاتحاد السوفياتي، لكن الولايات المتحدة الأمريكية تخلت عن قاعدتها الجوية في الظهران سنة ١٩٦٢ ولم تعد القوات الأمريكية إلى العربية السعودية إلا عندما باتت العربية السعودية تواجه تهديداً عسكرياً مباشراً- من مصر خلال

الستينيات، ومن إيران خلال الثمانينيات، ومن العراق خلال التسعينيات. وبقدر ما انتهى فقهاء وهابيون متشددون- وأسامة بن لادن وأتباعه- إلى استنكار الوجود الأمريكي في العربية السعودية كانت الولايات المتحدة الأمريكية شريكاً عسكرياً ثابتاً، لا غازياً إمبريالياً. إذ لم يكن هناك أي عجرفة في القوة الأمريكية، مثلما يحاول نقاد الولايات المتحدة الأمريكية التأكيد على ذلك. ذلك أن لائمة الكراهية الكامنة وراء هجمات ١١ أيلول/سبتمبر لا تلقى على بوابة أمريكا. بل إن التطور الداخلي في العربية السعودية يفسر، كما رأينا، كيف حدثت هذه الكراهية.

وفي أواخر سنة ٢٠٠٢ قدّم الشيخ محمد بن عبد الرحمن العريفي، إمام مسجد الملك فهد في أكاديمية الدفاع، خطابة محرّضة باتت معروفة بين الفقهاء السعوديين. إذ كتب، مستشرفاً إخضاع أوروبا: «سنحكم أرض الفاتيكان، سنحكم روما وندخل الإسلام إليها. نعم، إن المسيحيين، الذين ينقشون الصلبان على صدور المسلمين في كوسوفو- وقبل ذلك في البوسنة، وفي أماكن عديدة من العالم من قبل- سيدفعون الجزية صاغرين، أو يعتنقوا الإسلام»(٧) طبعاً، كل من يتذكر تاريخ التسعينيات سيعلن مباشرة أن حلف شمال الأطلسي خاض الحرب في البوسنة وكوسوفو دفاعاً على المسلمين من الجيوش الصربية. وفوق ذلك، لم تفعل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها الأوروبيون أي شيء حتى تستحق هذا الغضب من فقيه سعودي.

ويربط آخرون الكراهية تجاه أمريكا بالموضوع العربي- الإسرائيلي. لكن محاولة إثبات أن القاعدة تحمست لضرب الغرب بسبب الإحباط حول القضية الفلسطينية هي ببساطة محاولة غير

صحيحة. إذ بدأ أنصار أفغانستان العرب، والعديد منهم كانوا جزءاً من شبكات أسامة بن لادن، يوجهون ضرباتهم في مناطق خارج الشرق الأوسط- في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية- خلال سنتي ١٩٩٣ و١٩٩٤، وبالضبط عندما وقّعت إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية اتفاقيات أوسلو، وشرعتا في تنفيذها مبدئياً. ففككت إسرائيل حكومتها العسكرية المفروضة على الفلسطينيين، وأحلت محلها السلطة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات. وفي كل الأحوال، تبقى تظلمات القاعدة المعلنة من الغرب أوسع من الموضوع العربي- الإسرائيلي، فهي تتضمّن أساساً انهيار الخلافة العثمانية، والوجود العسكري الأمريكي في شبه الجزيرة العربية، والسياسة الأمريكية تجاه العراق، ثم بعد ذلك قضية القدس والفلسطينيين.

ومما لا يمكن إنكاره أن مشاعر قوية تنتاب العربية السعودية حول النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني خلال هذه السنوات كلها. غير أنه لم يكن للعربية السعودية، من حيث الممارسة، إلا دور عسكري هامشي في أغلب الحروب العربية- الإسرائيلية. إذ أوضح الزعماء السعوديون، من الملك ابن سعود إلى الملك فيصل، في حوارات خاصة مع مسؤولين أمريكيين أن التهديدات الأساسية، التي شغلت بالهم، صدرت عن خصومهم العرب- الهاشميين ولاحقاً عبد الناصر- لا عن إسرائيل. وفي نهاية المطاف، فما استحوذ فعلاً على مخيلة سعوديين شباب لتجديد فكرة الجهاد والتطوع لوضع أنفسهم موضع خطر ليس القضية الفلسطينية، وإنما الحرب في أفغانستان ضد الاتحاد السوفياتي. ولم يكن الحافز ذاته ملحوظاً خلال التسعينيات، عندما أضحى السعوديون يشكلون أكبر مكوّن وطني في شبكة القاعدة. وباتت الحرب ضد الغرب بالأحرى صرخة لحشد المتطوعين

السعوديين، أكثر منها صراعاً ضد إسرائيل وحدها. وبالفعل، لقد ركّز التحريض الديني، الذي تغذّى عليه الشباب السعودي طيلة سنوات عبر النظام التربوي وعدد من الوعاظ في المساجد السعودية، على العالم المسيحي أكثر من الشعب اليهودي. وفي السنوات الأخيرة بات هندوس الهند هدفاً أيضاً.

قطع الروابط السعودية بالإرهاب

سيحاول السعوديون إثبات عدم وجود أي علاقة تربطهم بالإرهاب، لكن السجل التاريخي يظهر أن هذا الأمر غير صحيح. وحتى إذا ترك المرء جانباً المكوّن الخطير في الحافز الإيديولوجي لحظة فإنه سيجد حجة دامغة تبرر الدعم السعودي للأنشطة الإرهابية. ذلك أن الروابط السعودية المبكرة بالإرهاب تجسدت في صلاتها خلال الستينيات بحركة فتح، التي ارتبطت قيادتها الأولى أيضاً بالإخوان المسلمين، حيث كان ياسر عرفات متعاطفاً مع هذه المنظمة، بينما كان أبو جهاد عضواً فعلياً فيها. وهددت حركة فتح إسرائيل والأردن معاً سنة ١٩٧٠ ويبدو أن العربية السعودية حاولت شراء ذمم الجماعات الإرهابية داخل المملكة، بخلاف مصر والأردن اللذين تصارعا عسكرياً مع التنظيمات الإرهابية الموجودة فوق ترابهما، والتي هددت أمنهما.

وفي التسعينيات، امتد الدعم السعودي للفلسطينيين، ليشمل حماس، التي خرجت مباشرة من رحم الإخوان المسلمين في قطاع غزة. إذ كانت العربية السعودية تدعم شفوياً سيرورة السلام الإسرائيلي- الفلسطيني، لكنها تدعم في الآن ذاته أولئك الذين قوضوها في الغالب بواسطة التفجيرات الانتحارية. خلال تلك

السنوات ذاتها اشتكت دول عربية، مثل الجزائر ومصر، من أن المال السعودي كان يدعم معارضتها الإسلامية. وثمة أيضاً حجة مادية مهمة مفادها أن السعوديين أبرموا صفقة فاوست مع أسامة بن لادن في وقت ما من سنتي ١٩٩٥ و١٩٩٦ بغية التأكد من أنه سيوقف كل الهجمات ضد المملكة السعودية نفسها.

وبالنظر إلى ثقل الحجة التي تدين العربية السعودية باعتبارها داعمة للإرهاب الدولي انبثق سؤال شائك: ماذا يفترض أن يفعل المجتمع الدولي إزاء دعم العربية السعودية الجماعات الإرهابية الدولية؟ لقد سبق للأمم المتحدة أن خطت خطوات في هذا الاتجاه. ففي شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ تبنّى مجلس الأمن بالأمم المتحدة القرار رقم ١٣٧٣، الذي جعل من أي دعم للإرهاب الدولي خرقاً للقانون الدولي. إذ اعتمد القرار بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، وهي أقسى فئة من القرارات الأممية المخصصة لتهديدات السلم والأمن الدوليين. فعلى سبيل المثال، كانت قرارات مجلس الأمن حول العراق الصادرة سنتي ١٩٩٠ و١٩٩١، التي بررت شن حرب الخليج، قرارات معتمدة بموجب الفصل السابع. من هنا، فإن دعم الإرهاب الدولي يعتبر خرقاً للقانون الدولي، شأنه شأن خروقات العراق لالتزاماته بالحد من الأسلحة، التي اعتبرتها إدارة «بوش» في خريف سنة ٢٠٠٢ سبباً مشروعاً يبيح شن الحرب. ثمة إذن أساس شرعي دولي راسخ يجبر العربية السعودية على وقف دعمها الجماعات الإرهابية الدولية.

كيف يمكن، إذاً، إجبار العربية السعودية على الامتثال للقانون الدولي؟ ليست العربية السعودية في حاجة إلى أن تهاجَم عسكرياً، لكن لا ينبغي أن تفترض الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها فقط

أن هذا الوطن، الذي يفترض أنه بلد صديق، لا يدعم الإرهاب. ذلك أن مستشاري العلاقات العامة المعقدة في واشنطن قد يبرّئون العربية السعودية، لكن يجب أن يراقب المجتمع الدولي السعوديين باهتمام، ليتأكد أنهم يتحللون من كل مظاهر دعمهم الإرهاب.

أولاً، يجب أن ينتهي دعم الدولة السعودية الإرهاب، خاصة استعمال خيرياتها العالمية قصد دعم التنظيمات الإرهابية الدولية. سيعترض السعوديون على ذلك بالقول إنهم قطعوا أشواطاً منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في مراقبة ما تفعله خيرياتهم[٨] فعلاً، أصدرت سفارة المملكة العربية السعودية في واشنطن، في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢ تقريراً من تسع صفحات يقف بتفصيل عند كل الإجراءات التي سبق أن اتخذها السعوديون. لكن ثمة سبباً بسيطاً يدعو إلى التأكد مجدداً من محتواها، بالنظر إلى التناقضات الظاهرة بين مطالبها وتصريحات وأفعال سعودية أخرى[٩]

وعلى سبيل المثال، تبجّح التقرير بـ«فعل مشترك لمحاربة الإرهاب» اتخذته المملكة السعودية والولايات المتحدة الأمريكية لتجميد أصول وائل حمزة جليدان، وهو واحد من مؤسسي القاعدة، وصفه التقرير بـ«هارب سعودي». لكن في الواقع، وبعد يوم واحد من تحرك وزارة المالية الأمريكية ضد جليدان في مطلع أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢ فيما وسمته واشنطن بخطوة سعودية- أمريكية مشتركة، نفى وزير الداخلية السعودي الأمير نايف ارتباط العربية السعودية بهذه الخطوة، بل انتقد واشنطن، قائلاً إن «على أولئك الذين يوجهون هذا الاتهام أن يقدموا حجة مقنعة»[١٠] فالحساسيات السعودية في حالة جليدان أمر مفهوم، لأنه ترأس منذ شباط/ فبراير ٢٠٠٠ وقف الرابطة، وهو فرع آخر تابع لرابطة العالم الإسلامي شبه الرسمية[١١]

كما أكد التقرير أنه، بحسب سياسة العربية السعودية ما بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، «روقبت مجموعات خيرية عن كثب وأجريت تدقيقات حسابية إضافية للتأكد من أنه ليس هناك أي روابط بجماعات مشبوهة». غير أن خالد مشعل، وهو من أبرز قادة حماس، حلّ ضيفاً، يوم ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢، على خيرية سعودية أخرى هي الندوة الإسلامية العالمية للشباب خلال مؤتمرها في الرياض. وبحسب مذكرة داخلية محجوزة لحماس يعود تاريخها إلى يوم ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٢ انعقد مؤتمر الندوة العالمية تحت رعاية ولي العهد الأمير عبدالله نفسه(١٢) وقد التقى مشعل، خلال الزيارة، بعبدالله على انفراد. ووعد المسؤولون السعوديون، وفق وثيقة حماس، بمواصلة دعمهم الانتفاضة الفلسطينية عبر «قنوات مدنية». وظهر أن العلاقة بين السعودية وحماس ما زالت قائمة قبل أسابيع من تقرير السفارة السعودية حول محاربة الإرهاب الذي صدر في واشنطن.

الوصول إلى المصدر

يُعتبر منع السعوديين من تمويل تنظيمات إرهابية أمراً جوهرياً، لكن تجاوز دواليب دعم الدولة للإرهاب إلى موضوع التهريب والكراهية هو تجاوز حاسم. فهذا تحدٍّ مختلف صعب جداً مطروح على المجتمع الدولي، لكن على العالم أن يباشر هذا التحدي إذا كان يأمل أن يضع حداً لكارثة الإرهاب. إذ يستطيع الأمريكيون وحلفاؤهم تحقيق النتائج العسكرية المذهلة في أفغانستان، وفي أي مكان آخر، بما في ذلك العراق. كما يستطيعون قطع حبال الحياة المالية الإرهابية بتجميد مئات الحسابات البنكية، لكن لن تكسب الحرب على

الإرهاب ما لم يعالج الحافز الإيديولوجي الكامن وراء الإرهاب، ومن ثم القضاء عليه. ذلك أن العربية السعودية هي الأرضية التي ولّدت الإرهاب؛ ومن هنا هي مصدر الكراهية التي تحمل تنظيمات دولية على الإرهاب.

لا يمكن استئصال الكراهية باتفاقية دولية أو عبر قرار آخر صادر عن مجلس الأمن بالأمم المتحدة. إذ سيستغرق ذلك عقوداً في التفاوض حول اتفاقية دولية ناجعة ضد التحريض، من شأنها أن تأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات الثقافية والدينية لكل الدول الأعضاء في الأمم المتحدة.

وفي كل الأحوال، يجب ألا يغرق المجتمع الدولي في مسألة تقييم الممارسات الدينية بموجب القانون الدولي. وليس من مهام مجتمع الأمم أن يخوض في النقاشات الفقهية الدائرة بين الإسلام الوهابي وباقي العالم الإسلامي حول مدى لزوم الاحتفال بعيد مولد النبي محمد، إذ الأمر جزء من خطابهم الداخلي. لكن يجب أن يهتم المجتمع الدولي بما إذا كانت أي حركة دينية تنشر أدبيات الكراهية بشكل منهجي، وتحرّض المنخرطين فيها على قتال أعضاء عقيدة أخرى.

هل ثمة سابقة في تغيير سلوك الأمم، ما عدا آلية الاتفاقيات الدولية الموقعة رسمياً؟

خلال عقد ونصف العقد من آخر عمر الحرب الباردة سعت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها إلى تغيير خصومهم في المعسكر الشرقي بوضع معايير السلوك الدولي. ففي اتفاق هلسنكي النهائي سنة ١٩٧٥ اتفق الاتحاد السوفياتي وحلفاؤه على احترام قاعدة من حقوق الإنسان الأساسية؛ وفي المقابل، استفادوا من تبادل تجاري متقدم بين

الشرق والغرب وإجراءات بناء ثقة عسكرية جديدة. إذ لم يكن اتفاق هلسنكي النهائي اتفاقاً دولياً ملزماً، بل كان مجرد إعلان مشترك حول نظام سلوكي متفق عليه. لكنه أوضح معايير سلوك دولي مقبول على الأقل، وكذلك معايير حقوق الإنسان. ذلك أنه مكّن الآلاف وراء الستار الحديدي من الكفاح من أجل الحرية. وأدى الانضمام إلى مبادئ هلسنكي بدول المعسكر الشرقي إلى الحصول على مكافآت ملموسة، وانتهى خرق هذه المبادئ إلى التهديد بفرض عقوبات سلبية.

يجب على المجتمع الدولي، لمعالجة الكراهية الممنهجة المنبعثة من العربية السعودية، أن يخضع السعوديين لمعايير دنيا من السلوك الدولي المطلوب في أمكنة أخرى من العالم. لكن إرساء هذه المعايير لا يشكل، في الواقع، تحدياً خاصاً بالعربية السعودية، بل ينطبق على الشرق الأوسط برمّته. ففي العقود الأخيرة، وعلى سبيل المثال، تخطت الدعوة إلى نشر الحرية والديمقراطية الشرق الأوسط، وهي تصل إلى أمريكا اللاتينية والشرق الأقصى وآسيا الوسطى. إذ يعتبر الشرق الأوسط، أولاً وقبل كل شيء، منطقة فرصة تجارية، بصرف النظر عن أي نتائج. هكذا، تدافع العديد من الدول الغربية، خلال الثمانينيات، من أجل الحصول على حصة في السوق المدنية والعسكرية العراقية، رغم البرهان المتنامي حول انتهاك بغداد الشامل لحقوق أقلياتها، الذي بلغ أوجه باستعمال الأسلحة الكيماوية ضد ساكنته الكردية سنة ١٩٨٨ فباعت فرنسا، لا الاتحاد السوفياتي، صدام حسين مفاعل تموز النووي الذي دمرته القوات الجوية الإسرائيلية سنة ١٩٨١ ووسعت شركات غربية نطاق صواريخ «سكود» العراقية ذات الصنع السوفياتي- وهي صواريخ أصابت طهران، والرياض، وتل أبيب في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات.

وحتى الولايات المتحدة الأمريكية رفضت، حتى الآن، إخضاع الشرق الأوسط لمعايير دنيا من السلوك. فعلى سبيل المثال، كرّست إدارة «كلينتون» موارد دبلوماسية هائلة قصد التوسط في إبرام اتفاقية سلام سورية- إسرائيلية في التسعينيات، لكنها لم تضع ضوابط صارمة تمنع سوريا من احتضان وانطلاق وحدات حزب الله، باعتبار ذلك جزءاً من المسار الدبلوماسي. واستنسخ الفلسطينيون النموذج السوري عندما لم يمنعوا انتحاريي حماس من ضرب المدن الإسرائيلية، أثناء مواصلة المفاوضات. ففي بيئة افتقدت إلى كثير من المحاسبة بات الشرق الأوسط ثغرة سوداء في جهد إرساء نظام عالمي آمن.

لم يعد بإمكان الشرق الأوسط عموماً، والعربية السعودية خصوصاً، الإفلات من المراقبة. ومما لا ريب فيه أن من شأن إرساء نظام سلوكي دولي، يجب أن تخضع له العربية السعودية ودول أخرى في الشرق الأوسط، أن يتطلب تعديلاً في كيفية ممارسة الدبلوماسية. فغالباً ما يتعامل الدبلوماسيون مع القانون الدولي أو مراقبة التسلح، لا مع التحريض والكراهية المنبعث من المساجد، والظاهر في الكتب المدرسية، أو على شاشات شبكات التلفزيون الوطني. لكن هذه المادة يجب أن تُراقب وتُجمع، لأن هذا التحريض يقود إلى عنف فظيع. ولا يقتصر هذا الأمر على الوهابية السعودية، لأن التحريض مهّد الطريق أمام نزاعات حديثة أخرى. إذ لاحظ «رتشارد هولبروك»، المهندس الرئيس لاتفاقات «دايتون» للسلام في البوسنة، أن الحرب في يوغوسلافيا اندلعت ليس بسبب «كراهيات قديمة»، بل لأن تلفزيون بلغراد غذى صرب البوسنة برسائل عنصرية على نحو متكرر في مطلع التسعينيات[١٣].

من الواضح أن مجال الدبلوماسية يجب أن يتسع لينذر مبكراً من

نشوء هذا النوع من البيئة العدائية. إذ لن يصدر الضغط الأكبر على العربية السعودية الرامي إلى خضوعها لمعايير راسخة ضد التحريض والكراهية عن المحاكم الدولية، وإنما عن محكمة أكبر هي محكمة الرأي الدولي. هكذا، يجب أن تُجمع الخطب والكتب المدرسية المشحونة بالكراهية وتذاع على نطاق واسع، لا أن تدفن في أقبية وزارات الخارجية. لقد أتاح هذا الكتاب عيّنة صغرى فقط من بلاغات متشددة معادية للغرب مصدرها التيار السائد في العربية السعودية؛ ولو عرضت هذه المادة بانتظام أمام الهيئات التشريعية الوطنية، بما في ذلك الكونغرس الأمريكي والبرلمانات الأوروبية، فإن العربية السعودية ستشعر بالضغط فيما يخص القيام بإصلاحات داخلية.

ثمة سعوديون جريئون ممن نظروا إلى ذواتهم واعترفوا بالحاجة إلى إحداث تغيير في العربية السعودية. إذ عزا العديد من كتاب الأعمدة تورط عدد من المواطنين السعوديين في هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر إلى «ثقافة العنف التي تسرّبت إلى التربية الدينية»، ومن ثم «سيّست الدعوة وعسكرتها»[١٤] فينبغي أن تُشجّع هذه الأصوات الداعية إلى التعايش، لا أن تُخنق.

قد تترتّب عواقب وخيمة على الفشل في الإصرار على معايير دنيا من السلوك الدولي داخل العربية السعودية، وعلى تشجيع إصلاح تربوي سعودي. ذلك أن القيادة السعودية تستشعر، في ظل الظروف الراهنة، أنها قادرة على التعايش مع تطرفها الداخلي، دون أن تواجه أي عقوبات سلبية. ففي شرق أوسط لا تحاسب فيه أي دولة عن معايير دنيا من السلوك تبقى لعبة المعايير المزدوجة حتمية. إذ يستعرض السعوديون مواصلة بعض السياسات من أجل الاستهلاك الخارجي في العواصم الغربية، لكنهم أحرار في الآن ذاته في اتباع

مصالحهم. هكذا، يمكنهم أن يدشنوا مبادرة سلام جديدة مثيرة، حتى عندما يدعمون تلك الجماعات الإرهابية التي تجعل من أي اتفاق سلام مستحيلاً. فالنظام السعودي قد يدفع المال إلى شركات العلاقات العامة الأمريكية لتظهر العربية السعودية باعتبارها شريك أمريكا المتسامح، بينما دعاة سعوديون ونصوص دينية تراقبها الدولة يذمّون الغرب، ويصنفون المسيحيين ضمن فئة المشركين. فقد يدين المسؤولون السعوديون هجمات ١١ أيلول/سبتمبر على الولايات المتحدة الأمريكية إدانة صورية، بينما يبررها زعماء دينيون سعوديون صراحة.

لا يمكن السماح باستمرار هذه الازدواجية لكسب الحرب على الإرهاب ويجب أن تجبر العربية السعودية على الاختيار بين الأمرين. إذ تساءل الرئيس «بوش»، بعد تدمير مركز التجارة العالمي والهجوم على البنتاغون، عما إذا كانت الأمم مع الولايات المتحدة الأمريكية أو مع الإرهابيين. ورغم إصرار العربية السعودية على العكس فإن السجل يوضح بشكل مخيف، بخصوص هذا السؤال، أنها تناصر الإرهاب. فالعربية السعودية هي بالفعل التي فرخت الإرهاب العالمي الجديد. وما لم يشعر النظام السعودي بالضغط من أجل التغيير فإن الكراهية التي حفزت على ارتكاب سلسلة مرعبة من الهجمات الإرهابية في العالم كله- بما في ذلك هجمات ١١ أيلول/سبتمبر- ستبقى متواصلة. وبقدر ما تتواصل الكراهية يستمر الرعب.

ملحق

حجة الدعم السعودي للإرهاب

المملكة العربية السعودية

ما يجب أن يعرفه المسلم

من حقائق النصرانية والتبشير

تأليف

إبراهيم سليمان الجبهان

الطبعة الأولى

١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

التحريض الذي تموّله الدولة: لم تكن كراهية الغرب والمسيحية، التي بدأت تصدر عن العربية السعودية في السبعينيات، عنصراً هامشياً. فعلى سبيل المثال، حاجج هذا الكتاب الصادر سنة ١٩٧٧ بعنوان «ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير» أن المسيحية «حرفت إلى وثنية وشرك وخرافات». إذ صدر الكتاب، الذي حمل خاتم المملكة العربية السعودية على غلافه، عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، وهي فرع من الحكومة السعودية.

Excerpt 1: Sheikh Abdul Aziz Qari, Qabaa mosque, Medina (undated)

فلما بعث خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد ﷺ قامت الحرب التي أعلنها معسكر الكفر على دعوته ورسالته ﷺ وكان مركزها ومدارها على هاتين الطائفتين وعلى اليهود منهم على وجه الخصوص.

وستظل هاتان الطائفتان هما قطبا رحى الصراع والحرب بين الإيمان والكفر إلى أن يأتي الأجل الذي ضربه الله عز وجل وحينئذ يكون انتهاء هذا الصراع وختامه بنزول عيسى بن مريم عليه السلام وكسر الصليب ومحوه من الأرض وقتل الأعور الدجال رئيس اليهود وطاغوتهم الأكبر ومسيحهم المنتظر....

المغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى. وعلمهم بذلك سيدنا رسول الله ﷺ في غير ما حديث ثبت عنه ﷺ وصف هاتين الطائفتين الكافرتين بهذين الوصفين، من تلك الأحاديث: حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه وفيه قال له النبي ﷺ: ((المغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى)). أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

والقرآن الكريم وصف اليهود بأنهم أمة لعنهم الله وغضب عليهم ومسخ بعضهم قردة وخنازير، وجعل منهم عبدة الطاغوت.

Excerpt 2: Sheikh Ali Muhammad al-Barum, Manar al-Islam mosque, Mecca (September 2, 2000)

فمن الأمور التي تبث بين الناس ولا يكاد يفقه تلبيسها كثير من الأكياس ما يزعم بالتقارب بين الحضارات ودعوى اندماج الديانات فكل من اليهود والنصارى – كما قالوا- على دين حق، ونحن نقول: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ كل هذه دعوى فاجرة والكفر ماكرة لا تقبل في الدين، بل هي مردودة مصفوع بها وجه قائلها ولو كان من كان، في أي مكان كان أو أي قائل....

عباد الله: لا يجوز للإنسان أن يقارب بين الإسلام والكفر، وبين التوحيد والشرك، بين الاستقامة، والإلحاد، وبين سبيل الله بين صراط الله المستقيم، وصراط الملاحدة الشياطين.

خطب الجمعة في المساجد: ظل التحريض داخل العربية السعودية متواصلاً، وكان يصدر داخل بعض أهم مساجد المملكة السعودية. إذ حملت مقتطفات من هذه الخطب من الموقع السعودي www.alminbar.net. أما ترجماتها باللغة الإنجليزية، فيوفرها معهد بحوث إعلام في الشرق الأوسط (MEMRI).

Excerpt 3: Sheikh Adnan Ahmad Siami, a mosque in Mecca (May 11, 2001)

قبل عدة سنوات قامت دعوة آثمة نصرها وللأسف بعض رجالات هذا الدين الإسلامي من علماء ومفكرين ودعاة، تلكم الدعوة الآثمة هي الدعوة إلى وحدة الأديان السماوية، ورفعوا لهذه الدعوة شعارات برّاقة خدّاعة، وهي (الإخاء الديني، الصداقة الإسلامية المسيحية، توحيد الأديان الثلاثة، الديانة العالمية)، ونشطت هذه الدعوة وامتدت امتدادًا مكّن البابا في سنة 1986م في السابع والعشرين من شهر أكتوبر في قرية أسيس بإيطاليا أن يقيم صلاة مشتركة من ممثلي الأديان الثلاثة، مسلمين ويهود ونصارى، وسميت هذه الصلاة بصلاة روح القدس، وهي أول مرة يؤم فيها كافر مسلمًا.

ليقدم البابا نفسه للعالم بهذه الصلاة بأنه القائد الروحي للأديان جميعًا، وأنه حامل رسالة (السلام العالمي) للبشرية، ويعلن بعدها أن يوم سبع وعشرين أكتوبر هو عيد لكل الأديان.

عباد الله - أتباع محمد ﷺ:

إن دعوة وحدة الأديان دعوة إلى إلغاء الفوارق الدينية بين الناس، فليس هناك مؤمن وكافر، الكل يدخل تحت وحدة الإخاء الإنساني، وينادي أصحاب هذه الدعوة إلى ضرورة طباعة التوراة والإنجيل والقرآن في غلاف واحد، وإلى بناء مسجد وكنيسة ومعبد في مكان واحد.

ولقد تسربت هذه الدعوة إلى ديار الإسلام، وطاشت بها أحلام، وصفت من أجلها أقلام، وفاهت بتأييدها أفواه، وانطلقت بالدعوة إليها ألسن من بعد أخرى، وعلت الدعوة بها منذ المؤتمرات الدولية، وردهات النوادي الرسمية والأهلية.

عباد الله - أتباع محمد ﷺ:

إن لهذه الدعوة المشؤومة آثارًا كفيلة بزعزعة الإسلام في قلوب أهله، لا تنتهي بهم إلا إلى الدرك الأسفل من النار، من تلكم الآثار:

1. هدم عقيدة الولاء والبراء عند المسلمين، بل وإزالة شيء اسمه دين من اعتقاد المرء.
2. تصحيح مذاهب الكافرين والسكوت عليها.
3. السماح بالدخول في اليهودية والنصرانية دون أي حرج.
4. إلغاء الفارق العظيم بين المسلمين وغيرهم، والذي عليه محور الصراع بين الحق والباطل.
5. جعل دين الإسلام كسائر الأديان المحرّفة من حيث اتباعه، وأنه لا ميزة له على سائر الأديان.
6. هدم الإسلام في قلوب أصحابه لأن الذي يرضى أو يدعو إلى وحدة الأديان، ينسلخ عن دينه، ولا يتنازل أولئك عن ديانتهم، لأنهم هم الذين يرعون الدعوة إلى وحدة الأديان.
7. هدم الدعوة إلى الإسلام، لأن المسلم إذا أراد أن يدعو إلى دينه فإنه مضطر لبيان حال الكافرين ضرورة شرعية وضرورة كونية، وإذا لم يفعل ذلك وأقر بجواز الدخول في أي دين فإنه لم يعد داعيًا إلى الإسلام بحقيقته التي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ.
8. تمهيد السبيل للتنصير أن ينتقل كيفما شاء في بلاد المسلمين.

عباد الله:

إن زيارة البابا الأخيرة لسوريا، البلد الذي ينبض بالتوحيد وتصدع منائره بالأذان، وزيارته للجامع الأموي الذي هو حصن من حصون الإسلام، يُعدّ مظهرًا من مظاهر هذه الدعوة ولا شك، بل إنّ دعوته - عليه من الله ما يستحق - أصحاب الأديان الموجودة الآن بالتسليم إلى ضرورة التعايش السلمي، ما هي إلا دعوة جريئة ووقحة إلى توحيد الأديان ومبدأ الإخاء الديني الإنساني.

ألا وإن كثيرًا من المسلمين البسطاء لينظرون إلى زيارة البابا (رمز السلام العالمي) المشؤومة أنها ستكون فرصة للفت أنظار العالم كله إلى ما يجري في فلسطين، ويرجو هؤلاء المساكين من البابا أن يتخذ موقفًا إيجابيًا تجاه ما يحدث للفلسطينيين من اليهود. ناسين أو متناسين أن هذا البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية، ودعاة توحيد الأديان من خلفه، هم أبناء أصحاب محاكم التفتيش في إسبانيا التي مارست مع المسلمين أفظع وأشنع سبل التعذيب، هم أبناء أصحاب المذابح المشهورة عبر التاريخ قديمًا وحديثًا، أبناء أصحاب مذبحة معرّة النعمان، هم أبناء الذين قادوا الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي التي قتل فيها الآلاف من المسلمين، وسبي فيها ما لا يحصى من نسائهم.

هم أصحاب المذابح الجماعية في البوسنة والهرسك، هم أصحاب الجرائم التي لا تجد لها وصفًا لائقًا في قواميس لغات العالم أجمعها. هم أصحاب مجازر كوسوفا وإندونيسيا، والشيشان، هم أبناء من باركوا أصحاب مذبحة صبرا وشاتيلا، هم من باركوا ودعموا أصحاب مذبحة الحرم الإبراهيمي، وقصف المخيمات الفلسطينية، هم من دعموا قتلة الأطفال، وباركوا قتل محمد الدرة والطفلة الفلسطينية الرضيعة: إيمان حجو.

أيرجى من هؤلاء الثعالب القتلة أن يكونوا سببًا في الرحمة، إن الذي حمل البابا على هذه الزيارة عدم قناعته بأن يُسلب المسلمون أرضهم، فأراد أن يسلبهم دينهم فيخسروا الدنيا والآخرة.

Excerpt 4: Sheikh Muhammad Saleh al-Munajjid, a mosque in al-Dammam (undated)

وهذا الذي نريده أيها الأخوة, أن يزيل المسلمون غبار النوم عنهم, أن يتركوا الانغماس في الشهوات, ويقوموا لتربية أولادهم على الجهاد, هذه هي الفائدة الكبيرة من الموضوع, تربية الأولاد على الجهاد وكره اليهود والنصارى والكفار, تربية الأولاد على الجهاد وإحياء جذوته في نفوسهم, هذا هو المطلوب الآن والاستعداد لما سيجد في المستقبل.

Excerpt 5: Sheikh Wajdi Hamzeh al-Ghazawi, al-Manshawi mosque, Mecca (October 6, 2001)

وأما الإرهاب الذي يستخدم - معاشر المؤمنين - الذي يستخدم في وسائل الإعلام ويردده الناس، فإنهم يتناقلون به أصولاً ثابتة، ويهاجمون به ثوابت تدور على محاور خمسة، فهذه الكلمة إذا استخدمت فإنها تدور - إشارة وتلميحًا بل وتصريحًا - حول محاور خمسة:
أولها: الجهاد في سبيل الله، فالجهاد - معاشر المؤمنين - ذروة سنام الإسلام، بل عده بعض أهل العلم - ولا مشاحة في الاصطلاح - الركن السادس من أركان الإسلام، الجهاد - معاشر المؤمنين - سواء كان جهاد دفع ومدافعة عن أراضي الإسلام والمسلمين كما هو الحال في الشيشان والفلبين وبلاد الأفغان، أو جهاد تبليغ ونشر لدين الله عز وجل، هو قمة الإرهاب عند أعداء الله عز وجل، والمجاهد الذي لم يركن لمال ولا لدنيا يصيبها، وإنما خرج يريد الشهادة أو النصر المؤزر ويرجع بالغنيمة هو إرهابي عند أعداء الله عز وجل، فينبغي أن يتفطن لهذا.

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب)

التأصيل
لمشروعية ما حصل لأمريكا من
تدمير

تقديم
الشيخ العلامة حمود العقلاء
و
الشيخ الفاضل علي الخضير

كتبه/عبدالعزيز بن صالح الجربوع

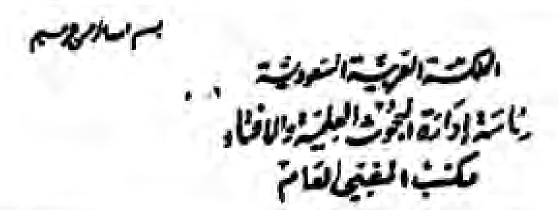


تقديم الشيخ العلامة حمود العقلاء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :
فقد اطلعت على ما كتبه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح الجربوع وفقه الله في
كتابه (التأصيل في مشروعية ما حصل لأمريكا من تدمير) حيث بنى كتابه وفقه
الله على أصول معينة ذكر فيها وجوب إعداد العدة المعنوية والحسية لقتال الكفار
وعدم جواز حمل الأمة على رأي واحد وإلزامها به إذا كان مخالفا للشريعة
خصوصا إذا كانت هذه الآراء مسيّسة تخدم جهات معينة وذكر أن الأصل مع
الكفار الحرب .
وتكلم عن مسائل عقد الهدنة وما يتعلق بها وتكلم عن الهدنة الباطلة المخالفة
للشريعة وذكر مسألة مظاهرة الكفار وحكمها في الشريعة وهي الكفر والردة ثم
تكلم عن ما أصاب أمريكا من أحداث الدمار لصرحها الاقتصادي والعسكري ثم بين
مشروعية هذا العمل لو قام به مسلمون وأنه من الجهاد في سبيل الله .
ثم ختم كتابه باستعراض مجموعة من الشبه الباطلة التي يروجها وينشرها بعض
المشبوهين والمنهزمين والصادين عن سبيل الجهاد .
وقد أحسن في استعراض الشبهة والرد عليها
فهو كتاب مفيد ونافع أنصح بقراءته ويعتبر سلاحا يتمسك به المسلم لمقاومة
التيارات الحديثة الفاسدة .
والشيخ عبد العزيز وفقه الله أبلى بلاءً حسنا في مقاومة هذه التيارات والأقاويل
الباطلة المنهزمة وتصدى لها وبذل جهده ونصحه للإسلام والمسلمين .
وهكذا ينبغي أن يكون العلماء والمشايخ في هذه الفترة أن يكونوا يدا واحدة قوية
في النصح والصدع بالحق لا يخافون في الله لومة لائم ولا يُجاملون أو يداهنون
أو يتنازلون أو يتميعون .
والله غالب على أمره ولا تزال طائفة من الأمة على الحق منصورة لا يضرها من
خالفها .
نسأل الله أن ينصر المجاهدين في سبيله في كل مكان وأن يخذل أمريكا ومن
ظاهرها ووالاها ، ويزيدهم تدميرا إلى تدميرهم إنه ولي ذلك والقادر عليه .
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أملاه
أ. حمود بن عقلاء الشعيبي
1422/9/1هـ

تبرير الرعب: بعيد هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ظهر كتاب سعودي يبرر الرعب على الإنترنت. إذ تضمن الكتاب، الموسوم بالتأصيل لمشروعية ما حصل لأمريكا من تدمير (انظر الغلاف أعلاه)، مقدمة لزعيم ديني سعودي بارز هو الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي، الذي درّس عدداً من الزعماء الدينيين السعوديين المهمين، من بينهم المفتى العام الحالي. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١، استشهد أسامة بن لادن بالشيخ الشعيبي عندما تحدث عن تبريره قتل اليهود والمسيحيين.


بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء
مكتب المفتي العام

سعادة رئيس تحرير جريدة عكاظ　　　　وفقه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فإشارة إلى مانشر في الصفحة السادسة من جريدتكم في عددها رقم ١٢٨٣٣ والصادر بتاريخ ١٤٢٢/٧/٢٨هـ بعنوان ((إمانة كبار العلماء لـ عكاظ الأسبوعية (حمود العقلا الشعيبي لم يشتغل بالإفتاء واجتهاداته لايعتد بها))

وبعد عرض هذا الخبر على الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء أفادة الأمانة أن ما صدر من الأمانة هو أن فضيلة الشيخ حمود العقلا ليس عضو إفتاء في رئاسة البحوث العلمية والإفتاء وسبق له التدريس في المعاهد العلميه وفي كلية الشريعه فقط وذلك إجابه لسؤال من محرر الجريده عبر الهاتف عن الشيخ أما ماعدا ذلك مما نسب إلى الأمانة ونشر في ثنايا الخبر فكله إضافات وتخرصات من محرر هذا الخبر عبدالله العريفج ونسبه إلى أمانة هيئة كبار العلماء كذب وافتئات.

نرجو من سعادتكم نشر هذا التعقيب والتوضيح في نفس الصفحه التي نشر فيها هذا الخبر من دون قص وان يكتب عنوانه بنفس الخط الذي كتب به خط الخبر المنشور.

كما نرجو التأكيد على محرر هذا الخبر بعدم إختلاق وإضافة أية معلومات لم يصرح بها وذلك لتحقيق المصداقيه في نقل الأخبار لقراء الجريده وفق الله الجميع لكل خير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته....

مدير إدارة العلاقات العامه والاعلام برئاسة
إدارة البحوث العلمية والإفتاء
١٤٢٢/٨/١
سليمان بن أحمد أبو عباه



الرقم :　　　　التاريخ :　　　　المشفوعات :

تأييد المتطرفين: بعدما أثارت تصريحات الشيخ الشعيبي حول هجمات ١١ أيلول/سبتمبر أنظار العالم على نحو ملحوظ، لم تدنه السلطات الدينية السعودية. وبالفعل، عندما أوردت جريدة سعودية أن كبير العلماء اعتبر أن «حكم الشيخ الشعيبي المستقل لا يعتمد عليه»، استبعد مكتب المفتي العام- وهو أعلى سلطة دينية في العربية السعودية- ادعاء الصحيفة، واصفاً ما نُسب إلى العلماء الكبار بكونه «كذباً وتلفيقاً». ورفض المكتب مساءلة مقام الشعيبي باعتباره سلطة إسلامية، أو التشكيك في مستواه العلمي.

(انظر www.saaid.net/warathah/hmood/2/oqla.jpg)



[FILE_NUMBER]
[CLASSIFICATION_TERM]

التاريخ:

السلطة الوطنية الأمن الوقائي
دائرة بيت لحم
صادر
الرقم: ٥/٢٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخ العقيد علي دخل الله مدير العمليات المركزيه حفظه الله

تحية الوطن وبعد ،

الموضوع :مصادر اموال الجهاد الاسلامي في بيت لحم

افاد المصدر رقم ٧٧/ب بناءا على معلومات حصل عليها من اسرة تجمعه في القدس المفتوحه ان مصادر تمويل الجهاد الاسلامي في منطقة بيت لحم تأتي من مصدرين . الأول دمشق ويمر عبر الأردن ثم الى بلاد القاهره عمان ، والمصدر الثاني السعوديه ويمر عبر مصر ثم الى فلسطين وعلى نفس الخط (القاهره عمان).

***وافادت ايضا علما ان الاموال تأتي باسماء اشخاص مختلفين و مؤسسات حسب الظروف واكدت انها تصل بشكل مستمر وشهري

***سوف تحاول المصدر معرفة اسماء اشخاص معينين تأتي الاموال باسمائهم ولكن المصدر تحاول التشديد على الموضوع في تلك المرحله حتى لا تثير الشك .

للعلم سيادتكم

مسؤول الاجراء/ابتسام عليان

مدير وحدة العمليات نقيب/ماجد خليل | نائب المدير المحلي رائد/خالد الطيطي | مدير مديرية بيت لحم مقدم/ابراهيم رمضان

أثر المال: هذه الوثيقة الاستخباراتية الفلسطينية، التي صادرتها القوات الإسرائيلية من مكتب ببيت لحم التابع لمنظمة الأمن الوقائي الفلسطيني سنة ٢٠٠٢، تثبت أن العربية السعودية هي مصدر الدعم بالنسبة إلى منظمة الجهاد الإسلامي. إذ تفيد الوثيقة أن مسار الدعم «يبدأ في العربية السعودية، ويمر عبر مصر، ليصل إلى فلسطين».



المراقبة: اكتشفت القوات الإسرائيلية أن السعوديين ألغوا شيكات في مكاتب اللجنة الخيرية في طولكرم، وهي جبهة معروفة بالنسبة إلى منظمة حماس. ومصدر هذه الشيكات حساب بنك «تشايس مانهاتن» التابع لشركة الراجحي المصرفية للاستثمار، التي يوجد مقرها في الرياض بالعربية السعودية. إذ ارتبطت عائلة الراجحي، وهي من أغنى وأبرز العائلات السعودية، مراراً بدعم الإرهاب. ففي تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢ مثلاً، اقتحم عملاء فيدراليون أمريكيون مكاتب مؤسسة سليمان عبد العزيز الراجحي، لأن المؤسسة نقلت أموالاً إلى مؤسستين في بهاماس ارتبطتا بالقاعدة.

اللائحة: كما عثرت القوات الإسرائيلية، داخل مكاتب اللجنة الخيرية في طولكرم، على هذا اللائحة التي توضح كيفية توزيع ٥٤٥ ألف دولار على ١٠٢ أسرة فلسطينية «استشهد» أبناؤها خلال الانتفاضة؛ أي أن المال وزع على أسر انتحاريين وعملاء آخرين في حركة حماس. فعلى سبيل المثال، كان عبد الرحمن حمد، الذي يحمل رقم ١٤ على اللائحة، مسؤولاً عن تفجير سنة ٢٠٠١، الذي خلف ٢٣ قتيلاً وأكثر من مئة جريح إسرائيلي. وما مصدر المال؟ يوضح الشعار الوارد أعلى اللائحة (بالعربية): «المملكة العربية السعودية، اللجنة السعودية لدعم انتفاضة القدس»، هكذا يقول الشعار. تأسست هذه اللجنة في خريف ٢٠٠٠ على يد وزير الداخلية السعودي القوي الأمير نايف بن عبدالعزيز.

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

م	اسم اللجنة أو الجمعية	المبلغ	الهاتف	ملاحظات
١	[illegible]	٦٥٠٠٠$	[illegible]	[illegible]
٢	[illegible]	٦٠٧٥٠$	[illegible]	[illegible]
٣	[illegible]	٦٦,٠٠٠$	[illegible]	[illegible]
٤	[illegible]	٦٦,٠٠٠$	[illegible]	[illegible]
٥	[illegible]	٤٩٥٠٠$	[illegible]	[illegible]

الدعم يتواصل: هذا التقرير الصادر عن هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية يسجل مبلغ ٢٨٠ ألف دولار مؤدى لأربع عشرة خيرية فلسطينية عرفت بأنها تشكل منظمات جبهة حماس. وترد في هذا التقرير اللجنة الخيرية في طولكرم. كما كشف المحققون أن هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية لها صلات مادية بشبكة القاعدة التابعة لأسامة بن لادن في ألبانيا والشيشان والفلبين وتنزانيا. وقال رئيس الهيئة أمام المحكمة في كندا إن «رابطة العالم الإسلامي، التي هي أم الهيئة، هي منظمة ذات تمويل حكومي كامل. بعبارة أخرى، أنا أعمل لفائدة الحكومة في العربية السعودية».



السعوديون يرسلون «أموالاً طائلة إلى الراديكاليين»: في هذه الرسالة المكتوبة بخط اليد، يشتكي أحد نواب ياسر عرفات في منظمة التحرير الفلسطينية للأمير سلمان بن عبد العزيز، حاكم الرياض وشقيق فهد ملك العربية السعودية، من التبرعات السعودية للجماعة الإسلامية في الضفة الغربية. إذ صرح نائب عرفات أبو مازن أن الجماعة الإسلامية «تنتمي إلى حماس».





تعليم الكراهية: كما كشف أبو مازن أن السعوديين كانوا يدعمون الجماعة الإسلامية الموالية لحركة حماس؛ وبفعلهم ذاك، كانوا أيضاً يُعِدّون الجيل اللاحق من الإرهابيين. بالفعل، حث الشيخ أحمد بخار، رئيس الجماعة الإسلامية، الأمهات الفلسطينيات على تربية أولادهن على حب الجهاد. وفي حفلات التخرج التي نظمتها شبكات رياض الأطفال التابعة للجماعة الإسلامية، أدى الأطفال الفلسطينيون أدوار هجمات الانتحاريين. إذ ارتدى الأطفال أزياء عسكرية وأحزمة ناسفة مقلدة، واستخدموا رشاشات الكلاشنيكوف، وأحرقوا العلم الإسرائيلي (الصورة فوق). بينما ظهرت فتاة (صورة أسفل) كأنها تغمس يديها في دماء إسرائيلي ميت.

الحقيقة تبرز: في مطلع ديسمبر ٢٠٠٢، أعلنت السفارة السعودية في واشنطن أنه مع آليات المراقبة الجديدة، لم تعد للخيريات السعودية أي صلة بالجماعات الإرهابية المشبوهة منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لكن هذه الوثيقة الداخلية لحركة حماسة، المؤرخة يوم ١١ نوفمبر ٢٠٠٢، تكشف أن ادعاء السفارة زائف. وفي أواخر أكتوبر ٢٠٠٢، سافر قيادي حماس خالد مشعل إلى الرياض بالعربية السعودية لحضور مؤتمر دعا إليه ولي العهد الأمير عبدالله نفسه للندوة العالمية للشباب الإسلامي، وهي إحدى أكبر الخيريات الوهابية السعودية. وبحسب هذه الوثيقة، التي صادرتها القوات الإسرائيلية، طمأن المسؤولون السعوديون مشعل بأنهم سيواصلون الدعم للانتفاضة الفلسطينية.

S/RES/1373 (2001)

الأمـم المتحدة



مجلس الأمن

Distr.: General
28 September 2001

القرار ١٣٧٣ (٢٠٠١)

الذي اتخذه مجلس الأمن في جلسته ٤٣٨٥، المعقودة في ٢٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

إن مجلس الأمن،

إذ يعيد تأكيد قراريه ١٢٦٩ (١٩٩٩) المؤرخ ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩ و ١٣٦٨ (٢٠٠١) المؤرخ ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١،

وإذ يعيد أيضا تأكيد إدانته الكاملة للهجمات الإرهابية التي وقعت في نيويورك وواشنطن العاصمة وبنسلفانيا في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وإذ يعرب عن تصميمه على منع جميع هذه الأعمال،

وإذ يعيد كذلك تأكيد أن هذه الأعمال، شأنها في ذلك شأن أي عمل إرهابي دولي، تشكل تهديدا للسلام والأمن الدوليين،

وإذ يعيد تأكيد الحق الراسخ للفرد أو الجماعة في الدفاع عن النفس، كما هو معترف به في ميثاق الأمم المتحدة وكما هو مؤكد في القرار ١٣٦٨ (٢٠٠١)،

280901 280901 01-55741 (A)
0155741

من أجل وقف الدعم السعودي للإرهاب: جعل قرار مجلس الأمن بالأمم المتحدة رقم ١٣٧٣ من أي دعم للإرهاب الدولي خرقاً للقانون الدولي. إذ اعتُمد القرار بموجب الفصل السابق لميثاق الأمم المتحدة، حيث يدخل ضمن أقسى فئة من القرارات التي تصدر عن الأمم المتحدة، وهي مخصصة لتهديدات السلام والأمن الدوليين. من هنا، يعتبر دعم الإرهاب العالمي خرقاً للقانون الدولي يوازي انتهاكات العراق التزاماته بالحد من الأسلحة، التي اعتبرتها إدارة «بوش» في خريف ٢٠٠٢ سبباً كافياً لخوض الحرب. ثمة إذن أساس واضح لجعل العربية السعودية تُوقف دعمها الجماعات الإرهابية.

وإذ يعيد تأكيد ضرورة التصدي، بجميع الوسائل، وفقا لميثاق الأمم المتحدة، للتهديدات التي توجهها الأعمال الإرهابية للسلام والأمن الدوليين،

وإذ يعرب عن بالغ القلق إزاء تزايد الأعمال الإرهابية بدافع من التعصب أو التطرف، في مناطق مختلفة من العالم،

وإذ يهيب بجميع الدول العمل معا على نحو عاجل على منع الأعمال الإرهابية والقضاء عليها، بما في ذلك من خلال التعاون المتزايد والتنفيذ الكامل للاتفاقيات الدولية ذات الصلة بالإرهاب،

وإذ يسلم بضرورة إكمال التعاون الدولي بتدابير إضافية تتخذها الدول لمنع ووقف تمويل أي أعمال إرهابية أو الإعداد لها، في أراضيها بجميع الوسائل القانونية،

وإذ يعيد تأكيد المبدأ الذي أرسته الجمعية العامة في إعلانها الصادر في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٠ (القرار ٢٦٢٥ (د-٢٥)) وكرر تأكيده مجلس الأمن في قراره ١١٨٩ (١٩٩٨) المؤرخ ١٣ آب/أغسطس ١٩٩٨، ومفاده أنه من واجب كل دولة عضو أن تمتنع عن تنظيم أي أعمال إرهابية في دولة أخرى أو التحريض عليها أو المساعدة أو المشاركة فيها أو قبول أنشطة منظمة في أراضيها بهدف ارتكاب تلك الأعمال،

وإذ يتصرف بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة،

١ - **يقرر** أن على جميع الدول:

(أ) منع ووقف تمويل الأعمال الإرهابية؛

(ب) تجريم قيام رعايا هذه الدول عمدا بتوفير الأموال أو جمعها، بأي وسيلة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، أو في أراضيها لكي تستخدم في أعمال إرهابية، أو في حالة معرفة أنها سوف تستخدم في أعمال إرهابية؛

(ج) القيام بدون تأخير بتجميد الأموال وأي أصول مالية أو موارد اقتصادية لأشخاص يرتكبون أعمالا إرهابية، أو يحاولون ارتكابها، أو يشاركون في ارتكابها أو يسهلون ارتكابها؛ أو لكيانات يمتلكها أو يتحكم فيها بصورة مباشرة أو غير مباشرة هؤلاء الأشخاص؛ أو لأشخاص وكيانات تعمل لحساب هؤلاء الأشخاص والكيانات، أو بتوجيه منهم، بما في ذلك الأموال المستمدة من الممتلكات التي يمتلكها هؤلاء الإرهابيون ومن يرتبط بهم من أشخاص وكيانات أو الأموال التي تدرها هذه الممتلكات؛

(د) تحظر على رعايا هذه الدول أو على أي أشخاص أو كيانات داخل أراضيها إتاحة أي أموال أو أصول مالية أو موارد اقتصادية أو خدمات مالية أو غيرها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، للأشخاص الذين يرتكبون أعمالا إرهابية أو يحاولون ارتكابها أو يسهلون أو يشاركون في ارتكابها، أو للكيانات التي يمتلكها أو يتحكم فيها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة هؤلاء الأشخاص، أو للأشخاص والكيانات التي تعمل باسم هؤلاء الأشخاص أو بتوجيه منهم؛

٢ - **يقرر أيضا** أن على جميع الدول:

(أ) الامتناع عن تقديم أي شكل من أشكال الدعم، الصريح أو الضمني، إلى الكيانات أو الأشخاص الضالعين في الأعمال الإرهابية، ويشمل ذلك وضع حد لعملية تجنيد أعضاء الجماعات الإرهابية ومنع تزويد الإرهابيين بالسلاح؛

(ب) اتخاذ الخطوات اللازمة لمنع ارتكاب الأعمال الإرهابية ويشمل ذلك الإنذار المبكر للدول الأخرى عن طريق تبادل المعلومات؛

(ج) عدم توفير الملاذ الآمن لمن يمولون الأعمال الإرهابية أو يدبرونها أو يدعمونها أو يرتكبونها، ولمن يوفرون الملاذ الآمن للإرهابيين؛

(د) منع من يمولون أو يدبرون أو ييسرون أو يرتكبون الأعمال الإرهابية من استخدام أراضيها في تنفيذ تلك المآرب ضد دول أخرى أو ضد مواطني تلك الدول؛

(هـ) كفالة تقديم أي شخص يشارك في تمويل أعمال إرهابية أو تدبيرها أو الإعداد لها أو ارتكابها أو دعمها إلى العدالة وكفالة إدراج الأعمال الإرهابية في القوانين والتشريعات المحلية بوصفها جرائم خطيرة وكفالة أن تعكس العقوبات على النحو الواجب جسامة تلك الأعمال الإرهابية، وذلك بالإضافة إلى أي تدابير أخرى قد تتخذ في هذا الصدد؛

(و) تزويد كل منها الأخرى بأقصى قدر من المساعدة فيما يتصل بالتحقيقات أو الإجراءات الجنائية المتعلقة بتمويل أو دعم الأعمال الإرهابية، ويشمل ذلك المساعدة على حصول كل منها على ما لدى الأخرى من أدلة لازمة للإجراءات القانونية؛

(ز) منع تحركات الإرهابيين أو الجماعات الإرهابية عن طريق فرض ضوابط فعالة على الحدود وعلى إصدار أوراق إثبات الهوية ووثائق السفر وباتخاذ تدابير لمنع تزوير وتزييف أوراق إثبات الهوية ووثائق السفر أو انتحال شخصية حامليها؛

٣ - **يطلب من** جميع الدول:

(أ) التماس سبل تبادل المعلومات العملية والتعجيل بها وبخاصة ما يتعلق منها بأعمال أو تحركات الإرهابيين أو الشبكات الإرهابية؛ وبوثائق السفر المزورة أو المزيفة؛ والاتجار بالأسلحة أو المتفجرات أو المواد الحساسة؛ وباستخدام الجماعات الإرهابية لتكنولوجيا الاتصالات؛ وبالتهديد الذي يشكله امتلاك الجماعات الإرهابية لأسلحة الدمار الشامل؛

(ب) تبادل المعلومات وفقا للقوانين الدولية والمحلية والتعاون في الشؤون الإدارية والقضائية لمنع ارتكاب الأعمال الإرهابية؛

(ج) التعاون، بصفة خاصة من خلال ترتيبات واتفاقات ثنائية ومتعددة الأطراف، على منع وقمع الاعتداءات الإرهابية واتخاذ إجراءات ضد مرتكبي تلك الأعمال؛

(د) الانضمام في أقرب وقت ممكن إلى الاتفاقيات والبروتوكولات الدولية ذات الصلة بالإرهاب ومن بينها الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب المؤرخة ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩؛

(هـ) التعاون المتزايد والتنفيذ الكامل للاتفاقيات والبروتوكولات الدولية ذات الصلة بالإرهاب وقراري مجلس الأمن ١٢٦٩ (١٩٩٩) و ١٣٦٨ (٢٠٠١)؛

(و) اتخاذ التدابير المناسبة طبقا للأحكام ذات الصلة من القوانين الوطنية والدولية، بما في ذلك المعايير الدولية لحقوق الإنسان، قبل منح مركز اللاجئ، بغية ضمان عدم قيام طالبي اللجوء بتخطيط أعمال إرهابية أو تيسيرها أو الاشتراك في ارتكابها؛

(ز) كفالة عدم إساءة استعمال مرتكبي الأعمال الإرهابية أو منظميها أو من ييسرها لمركز اللاجئين، وفقا للقانون الدولي، وكفالة عدم الاعتراف بالادعاءات بوجود بواعث سياسية كأسباب لرفض طلبات تسليم الإرهابيين المشتبه بهم؛

٤ - **يلاحظ مع القلق** الصلة الوثيقة بين الإرهاب الدولي والجريمة المنظمة عبر الوطنية والاتجار غير المشروع بالمخدرات وغسل الأموال والاتجار غير القانوني بالأسلحة والنقل غير القانوني للمواد النووية والكيميائية والبيولوجية وغيرها من المواد التي يمكن أن تترتب عليها آثار مميتة، **ويؤكد** في هذا الصدد ضرورة تعزيز تنسيق الجهود على كل من الصعيد الوطني ودون الإقليمي والدولي تدعيما للاستجابة العالمية في مواجهة التحدي والتهديد الخطيرين للأمن الدولي؛

٥ - **يعلن** أن أعمال وأساليب وممارسات الإرهاب الدولي تتنافى مع مقاصد ومبادئ الأمم المتحدة وأن تمويل الأعمال الإرهابية وتدبيرها والتحريض عليها عن علم، أمور تتنافى أيضا مع مقاصد الأمم المتحدة ومبادئها؛

٦ - **يقرر** أن ينشئ، وفقا للمادة ٢٨ من نظامه الداخلي المؤقت، لجنة تابعة لمجلس الأمن تتألف من جميع أعضاء المجلس، لتراقب تنفيذ هذا القرار بمساعدة الخبرات المناسبة، **ويطلب** من جميع الدول موافاة اللجنة بتقارير عن الخطوات التي اتخذتها تنفيذا لهذا القرار في موعد لا يتجاوز ٩٠ يوما من تاريخ اتخاذه وأن تقوم بذلك فيما بعد وفقا لجدول زمني تقترحه اللجنة؛

٧ - **يوعز** إلى اللجنة أن تقوم بالتشاور مع الأمين العام بتحديد مهامها وتقديم برنامج عمل في غضون ثلاثين يوما من اتخاذ هذا القرار والنظر فيما تحتاجه من دعم؛

٨ - **يعرب** عن تصميمه على اتخاذ جميع الخطوات اللازمة لكفالة تنفيذ هذا القرار بصورة كاملة وفقا لمسؤولياته المنصوص عليها في الميثاق؛

٩ - **يقرر** أن يبقي المسألة قيد نظره.

الهوامش

هوامش المقدمة:

(١) Romesh Ratnesar, 'Do We Still Need the Saudis?' *Time*, July 31, 2002.

(٢) Linda Robinson, Peter Cary, et al., 'Princely Payment,' *U.S. News and World Report*, January 14, 2002. وقد زعم «ديك غانون»، الذي شغل منصب مدير العمليات في مكتب وزارة الخارجية لمحاربة الإرهاب حتى ٣١ تموز/يوليو ١٩٩٨، قائلاً: «حصلنا على معلومات حول من يدعم بن لادن، وفي العديد من الحالات، يرجع مصدره إلى العائلة الملكية (السعودية)». وأكد «غانون» أن السبب يكمن في أن «ثمة فرقاً في العائلة الملكية السعودية لا تحبنا». Bruce B. Auster and David E. Kaplan, 'Saudi Royalty Gives Money to Bin Laden,' *U.S. News and World Report*, October 19, 1998. وسواء نشأت هذه التمويلات عن معاداة أمريكا أو عن الحاجة إلى مال الحماية، ثمة تساؤل مفاده أن هذين الأميرين السعوديين لم يمنعا من أن يخطوا هذه الخطوة. وقد حاول «سيمور م. هورش» أن يقدم الحجة ذاتها في تقارير التسجيلات الإلكترونية التي أنجزتها وكالة الأمن القومي الأمريكي: «كشفت التسجيلات للمحللين أنه مع حلول سنة ١٩٩٦ كان المال السعودي يقدم دعماً لقاعدة أسامة بن لادن وجماعات متطرفة أخرى في أفغانستان ولبنان واليمن وآسيا الوسطى وباقي منطقة الخليج الفارسي. إذ قال لي مسؤول مخابراتي أمريكي إن سنة «ست وتسعين هي سنة أساسية، حيث جمع كل الرجال الأشرار- أشبه بالتحالف الكبير- وامتلك القدرة على إدارة عمليات واسعة النطاق». كما قال إن النظام

السعودي «انحاز إلى الجانب المظلم». Seymour M. Hersh, 'Annals of National Security: King's Ransom,' *Newyorker*, October 22, 2001.

(٣) Susan Schmidt, 'Sept. 11 Families Join to Sue Saudis,' *Washington Post*, August 16, 2002.

(٤) Thomas E. Ricks, 'Briefing Depicted Saudis as Enemies: Ultimatum Urged to Pentagon Board,' *Washington Post*, August 6, 2002.

(٥) Michael Isikoff and Evan Thomas, 'The Saudi Money Trail,' *Newsweek*, December 2, 2002.

(٦) يقدم طارق علي هذه النقطة في كتاب *The Clash of Fundamentalims: Crusades, Jihads and Modernity* (لندن: فيرسو بوكس، ٢٠٠٢)، ٢٩٨ والاقتباس مأخوذ من *News from Bangladesh*. انظر موقع www.bangladesh-web.com/news.

(٧) 'Brother Slams Moussaoui's Islam,' CNN.com/world, September 20, 2002. See europe.cnn.com/2002/WORLD/europe/09/20/France.sept11.book/.

(٨) Youssef M. Ibrahim, 'The Mideast Threat That's Hard to Define,' *Washington Post*, August 11, 2002.

(٩) Mohamed Charfi, 'Reaching the Next Muslim Generation,' *New York Times*, March 12, 2002. انظر أيضاً Ahmed Sobhi Mansour, 'Medieval Theocracies in a Modern Age,' al-Ahram Weekly, October 15- 21, 1998.

(١٠) Sahr Mohammad Hatem, 'Our Culture of Demagogy Has Engendered bin Laden,al-Zawahiri, and Their Ilk'، *الشرق الأوسط* (لندن)، ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١

(١١) Khalid Abou El Fadl, UCLA School of Law, 'Islam Is Dismissive of Power: Supremacist Puritanism in Contemporary Islam Is Dismissive of All Moral Norms or Ethical Values,' *Middle East Report 221*, Winter 2001. انظر الموقع www.merip.org/mer/mer221/221/_abu_el_fadl.html.

(١٢) Sheikh Muhammad Hisham Kabbani, 'The Doctrine of Ahl al-

Sunna Versus the Wahhabi-Salafi Movement,' Islamic Supreme Council of America, 1996. انظر الموقع:
www.islamicsupremecouncil.org/extremism/salafidoctrine.pdf.

(١٣) Hajj Salih Brandt, 'Die Hintermanner in Daghestan' in *Islamische Zeitung*, September 21, 1999. انظر: www.islamische-zeitung.de/salih_2109.html.

(١٤) Jusuf Wanadi, 'Forget the West, Indonesia Must Act for its Own Sake,' *The Age*, November 12, 2002.

(١٥) Simon Elegant, 'The Family Behind the Bombing,' *Time*, November 18, 2002.

(١٦) موقع وزارة العدل الأمريكية. انظر:
www.usdoj.gov/ag/trainingmanual.htm.

(١٧) انظر موقع: www.saaid.net/book/kotop.htm.

(١٨) في الآونة الأخيرة، اشتكى كتاب مصري متطرف صدر سراً سنة ١٩٨١: «رغم أهميته الحاسمة لمستقبل عقيدتنا، أهمل الجهاد، وربما تجاهله رجال الدين في عصرنا.» Emmanuel Sivan, *Radical Islam: Medieval Theology and Modern Politics*, (New Haven: Yale University Press, 1985), 127. وعلى نحو مماثل، أشار «بارباروس»، وهو إسلامي سعودي قاتل في البوسنا، إلى أن المسلمين نسوا مفهوم الجهاد، مؤكداً أن أنوار الجهاد «تلاشت». *الصراط المستقيم*، آب/أغسطس ١٩٩٤ انظر:
www.jihaadulkuffarin.jeeran.com/file382.htm.

(١٩) الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد، *الدعوة إلى الجهاد في القرآن والسنة* (العربية السعودية: مكتبة دار السلام)، ٢٤

(٢٠) الشيخ وجدي حمزة الغزاوي، ٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ انظر:
www.alminbar.cc/alkhutba/khutbaa.asp?mediaURL=5628?
والترجمة متاحة على الموقع:
memri.org/bin/opener.cgi?Page=archives?ID=S01002.

(٢١) ARAMCO *Handbook: Oil and the Middle East* (Dhahran: Arabian-American Oil Company, 1968), 46.

(٢٢) George Rentz, 'The Saudi Monarchy,' in Willard A. Beling, ed., *King Faisa and the Modernization of Saudi Arabia* (London: Croom

Helm, 1980), 17; Anthony Cave Brown, *Oil, God and Gold: The Story of ARAMCO and the Saudi Kings* (Boston: Houghton Miffin, 1999), 142.

(٢٣) Nawaf E. Obaid, 'Improving U.S. Intelligence Analysis on The Saudi Arabian Decision-Making Process' (Master's Thesis, John E. Kennedy School of Government, Harvard University, 1998), 34.

(٢٤) Ralph Peters, 'Turn East from Mecca: Islam's Future Will Be Decided on its Frontiers,' *Washington Post*, December 1, 2002.

(٢٥) James Bennet, 'Arafat and Peres Agree to Meet Today in Gaza in First High-Level Talks Since July,' *New York Times*, September 26, 2001.

(٢٦) Caryle Murphy, 'A Hatred Rooted In Failings,' *Washington Post*, September 16, 2001.

(٢٧) من بين المقالات العديدة التي تشدد على أن إسرائيل كانت مصدر كراهية الغرب، نذكر: Tony Karon, 'Why We Didn't Know,' *Time*, September 14, 2001; Gary Kamiya, 'The Bloody Jordan River Now Flows Through America,' Salon.com, September 17, 2001; and Jim Muir, 'Explaining Arab Anger,' BBC News, September 19, 2001.

(٢٨) Hisham Melhem, CNN, October, 2001.

(٢٩) نقطة أشار إليها ناشر *القدس العربي*، كما وردت في Peter Beinart, 'TRB from Washington: Fault Lines,' *New Republic*, October 1, 2001.

(٣٠) 'Text of Fatwa Urging Jihad Against Americans.' See www.ict.org/il/articles/fatwa.htm.

(٣١) موقع وزارة العدل الأمريكية. انظر:
www.usdoj.gov/ag/manualpart1_1.pdf.

(٣٢) F. Gregory Gause III, 'The King in the Middle: Saudi Arabia' Dougle Game,' in James F.Hoge Jr. And Gideon Rose, eds., *How Did This Happen?: Terrorism and the New War* (Oxford: Public Affairs, 2001), 109-122.

(٣٣) F. Gregory Gause III, 'Be Carefull What You Wish For: The Future of U.S.- Saudi Relation,' *World Policy Journal*, Vol. XIX, No. 1, Spring 2002, 45.

(٣٤) Thomas Fuller, 'Driving Al-Daeda: Religious Decrees: Terrorism

Experts Lays Out the Evidence,' *International Herald Tribune*, January 31, 2002.

(٣٥) روهان غاناراتنا (Rohan Gunaratna)، حاوره ستيفاني وولكر (Stephanie Walker) وسين كوستيغان (Sean Costigan)، ٢٧ يونيو ٢٠٠٢ انظر الموقع www.ciaonet.org/pub/gur01.html.

(٣٦) Stephen Schwartz, *The Two Faces of Islam: The House of Sa'ud from Tradition to Terror*, (New York: Doubleday, 2002).

(٣٧) 'Why We Fight America': Al-Qa'eda Spokesman Explains September 11 and Declares to Kill 4 Million Americans with Weapons of Mass Destruction," *MEMRI Special Dispatch Series*, No. 388, June 12, 2002.

(٣٨) Michael Scott Doran, 'Somebody Else's Civil War,' *Foreign Affairs*, January- Febrary 2002, 24.

(٣٩) Jeffrey S. Helmreich, 'Beyond Political Terrorism: The New Challenge of Transcendent Terror,' *Jerusalem Viewpoiny*, November 15, 2001.

(٤٠) Aziz al-Azmeh, *Islams and Modernities*, (London: Verso Books, 1996), 144.

(٤١) Mansour, 'Medieval Theocracies in a Modern Age.'

(٤٢) Gilles Kepel, *Jihad: The Trail of Political Islam*, (Cambridge: Harvard University Press, 2002), 254-55.

(٤٣) 'Why We Fight America,' *MEMRI Special Dispatch Series*.

(٤٤) خطبة ألقيت يوم ١٣ إيلول/ سبتمبر ١٩٩٧ انظر موقع www.alminbar.cc/alkhutab/khutbaa.asp?mediaURL=1455.

(٤٥) خطبة ألقيت يوم ٢ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠ انظر موقع www.alminbar.cc/alkhutab/khutbaa.asp?mediaURL=2761.

(٤٦) Charles M. Sennot, 'Saudi Schools Fuel Anti-U.S. Anger,' *Boston Blobe*, March 4, 2002.

(٤٧) Douglas Frantz and Desmond Butler, 'Imam at German Mosque Preached Hate to 9/11 Pilots,' *New York Times*, July 16, 2002.

(٤٨) Neil MacFarquhar, 'A Few Saudis Defy a Rigid Islam to Debate Their Own Intolerance,' *New York Times*, July 12, 2002.

هوامش الفصل الأول:

(١) Hamid Algar, *Wahhabism: A Critica Essay* (Oeonta, NY: Islamic Publication International, 2002), 6-7.

(٢) Joel Kraemer, 'The Jerusalem Question,' in Joel Kraemer, ed., *Jerusalme Problems and Prospect* (New York: Praeger Books, 1980), 34.

(٣) R. A. Nicholson, *A Literary History of the Arabs* (Cambridge: Cambridge University Press, 1969), 466.

(٤) Moojon Momen, *An Introduction to Shi'i Islam: The History and Doctrines of Twelver Shi'ism* (New Haven: Yale University Press, 1985), 125.

(٥) Wilfred Cantwell Smith, *Islam in Modern History* (New York: Mentor, 1975), 62.f

(٦) Ghassan Salame, 'Islam and Politics in Saudi Arabia,' in *Arab Studies Quarterly*, Vol. 9, No. 3, 310.

(٧) Al-Azmeh, *Islams and Modernites*, 145.

(٨) Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939* (Oxford: Oxford University Press, 1970), 37.

(٩) يستعمل الكاتب هنا ترجمة القرآن الإنجليزية، التي أصدرها ن. ج. داوود سنة ١٩٩٩ ضمن منشورات «بانغوان بوكس». والنص الأصلي في القرآن هو الآية الرابعة من سورة التوبة.

(١٠) Algar, *Wahhabism: A Critical Essay*, 18.

(١١) L. Carl Brown, *Religion and State: The Muslim Approach to Politics* (New York: Columbia University Press, 2000), 16.

(١٢) Carl Brochelmann, *History of the Islamic Peoples* (New York: Routledge, 2000), 352.

(١٣) تذكر مضاوي الرشيد سيرة لمحمد بن عبد الوهاب كتبها أ. أبو حكيمة. انظر Madawi Al Rasheed, *A History of Saudi Arabia* (Cambridge, Cambridge Uinversity Press, 2002), 17.

(١٤) Frank E. Vogel, *Islamic Law and Legal System: Studies of Saudi Arabia* (Leiden: Brill, 2000), 207.

(١٥) Phillip Khuri Hitti, *History of the Arabs* (New York: St. Martin' Press, 1963), 740.

(١٦) الشيخ جميل الزهاوي، *الفجر الصادق: في الرد على الفرقة الوهابية المارقة*، دار الصديق الأكبر: ص. ١٢ (جدير بالذكر هنا أن الاقتباس مأخوذ من نصه الأصلي العربي، وليس مترجماً. وهو مبدأ سنعتمده في كل الاقتباسات المأخوذة من النصوص العربية، إلا إذا تعذر علينا إيجاد النص العربي- المترجم).

(١٧) Ayyub Sabri Pasha, 'The Beginning of the Spread of Wahhabism.' See www.ummah.net/Al_adaab/ wah-36.html.

(١٨) Ayman al-Yassini, *Religion and State in the Kingdom of Saudi Arabia* (Boulder: Westview Press, 1985), 28; Anwar Alam, *Religion and State: Egypt, Iran, and Saudi Arabia* (New Delhi: Gyan Publication, 1998), 117.

(١٩) هذا الاقتباس مأخوذ من كتاب الياسيني، *الدين والدولة في المملكة العربية السعودية*، ص ٢٨ ولكننا رجعنا إلى النص الأصلي الوارد في: ابن غنام، *تاريخ نجد*، ص. ٢٩٩

(٢٠) *Travels of Ali Bey* (Philadelphia: Printed for John Conrad at the Shakespeare Buildings, 1816).

(٢١) Bernard Lewis, 'The Revolt of Islam,' *New Yorker*, November 19, 2001.

(٢٢) H. A. R. Gibb, *Mohammedanism* (Oxford: Oxford Uinversity Press, 1969), 117.

(٢٣) Daniel Pipes, *In the Path of God: Islam and Political Power* (New Delhi: Voice of India, 2001), 50.

(٢٤) Rudolph Peters, *Jihad in the Classical and Modern Islam* (Princeton: Markus Wiener, 1996), 187, note 52.

(٢٥) Bernard Lewis, 'Politics and War,' in Joseph Schacht and C. E. Bosworth, eds., *The Legacy of Islam* (oxford: Clarendon Press, 1974), 176; Doran, 'Somebody Else's Civil War,' 32.

(٢٦) سورة البقرة، الآية ١٨٩

(٢٧) James Reston Jr, 'Seeking Meaning from a Grand Imam,' *Washington Post*, March 31, 2002.

(٢٨) Ignaz Goldziher, *Muslim Studies*, Vol. II (London: George, Allen & Unwin, 1971), 352.

(٢٩) Abdulaziz A. Sachenda, 'Activist Shi'ism in Iran, Iraq, and Lebanon,' in Martin E. Marty and R. Scott Appleby, eds., *Fundamentalisms Observed* (Chicago: University of Chicago Press, 1991), 426.

(٣٠) Alexander Ignatenko, 'Ordinary Wahhabism: Pecularities of the Teaching of 'Monotheists',' in *RJ Politics*, December 4, 2001, translated from Russian by Olga Yurchenko.

(٣١) شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، *كتاب التوحيد* (الرياض: منشورات دار السلام، ١٩٩٦). انظر الفصل ٢٤، خاصة الصفحة ٩٧

(٣٢) المرجع السابق، ص. ٨٣.

(٣٣) المرجع السابق، ص. ٥١. انظر الفصل التاسع الموسوم بـ«من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما».

(٣٤) سورة محمد، الآية ١٦؛ سورة الواقعة، الآيات ٣٥- ٣٩.

(٣٥) Ibn Razik, cited in Alexei Vassiliev, *The History of Saudi Arabia* (New York: New York University Press, 2000), 106.

(٣٦) ورد وصفها على لسان المؤرخ السعودي عثمان بن عبدالله بن بشر، في حامد ألغار، *الوهابية: مقالة نقدية*، ٢٤

(٣٧) Vassiliev, *The History of Saudi Arabia*, 97.

(٣٨) *Travels of Ali Bey*, 152.

(٣٩) Vassiliev, *The History of Saudi Arabia*,78.

(٤٠) المرجع السابق، ص. ٩٧.

(٤١) Yitzhak Nakash, *The Shi'is of Iraq* (Princeton University Press, 1994), 57.

(٤٢) *Travels of Ali Bey*, 153.

(٤٣) F. E. Peters, *The Hajj: The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places* (Princeton: Princeton University Press, 1994), 201.

(٤٤) أيوب صبري باشا، *بداية وانتشار الوهابية*.

(٤٥) Brockelmann, *History of the Islamic Poeples*, 354.

(٤٦) ألغار، *الوهابية: مقالة نقدية*، ٢٧

(٤٧) المرجع السابق.

(٤٨) Donald Hawley, *The Trucial States* (London: George Allen & Unwin, 1970), 101

(٤٩) المرجع السابق، ص. ١١٧

(٥٠) J. B. KKelly, *Arabia, the Gulf, and the West: A Critical View of the Arabs and their Oil Policy* (New York: Basic Books, 1980), 61.

(٥١) Madawi al Rasheed, *Politics in an Arabian Oasis: The Rashidis of Saudi Arabia* (London: I. B. Tauris, 1997), 35.

(٥٢) Hitti, *History of the Arabs*, 741.

(٥٣) Stanford Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey* (Cambridge: Cambridge University Press, 1976), 270.

هوامش الفصل الثاني:

(١) Halil Inalcik, *The Ottoman Empire: The Classical Age 1300- 1600* (New York: Praeger Publishers, 1973), 57.

(٢) Bernard Lewis, *The Political Language of Islam* (Chicago: University of Chicago Press, 1988), 49.

(٣) Nakash, *The Shi'is of Iraq*,142-143.

(٤) سعى عرب الحجاز وراء الاحتماء في البحرية العثمانية من البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر، كما فعل المسلمون في الهند.

(٥) جميل الزهاوي، «الفجر الصادق: في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق»، انظر الموقع الإلكتروني: www.ummah.net/Al_adaab/ fajr.html (النص هنا مأخوذ من مصدره العربي الأصلي، المترجم).

(٦) Bernard Lewis, *What Went Wrong?: The Clash Between Islam and Modernity in the Middle East* (London: Oxford University Press, 2002), 31.

(٧) Vassiliev, *The History of Saudi Arabia*, 143.

(٨) Katherine Sim, *Desert Traveller: The Life of Jean Louis Burkhardt* (London: Phoenix Press, 1969), 299.

(٩) Jacques Benoit-Mechin, *Arabian Destiny* (London: Elek Books, 1957), 53.

(١٠) Vassiliev, *The History of Saudi Arabia*, 155.

(١١) هذا الوصف مأخوذ من كاتب القرن التاسع عشر إدوارد ريهاتسيك الذي كتب «تاريخ الوهابيين في الجزيرة العربية والهند» (The History of the Wahhabis in Arabia and India)? *Journal of the Bombay Branch of the Royal Asiatic Society*, Vol. 14, 1880, 274-401. وقد ورد هذا المرجع في: Vassiliev, *The History of Saudi Arabia*, 156.

(١٢) William Gifford Palgrave, *Personal Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia (1862-63)* (London: Macmillan and Co., 1883), 160.

(١٣) المرجع السابق، ص. ١٨٤

(١٤) Sir Richard F. Burton, *Personal Narrative of a Pilgrmage to Al-Madinah and Mecca* (New York: Dover Publications, 1964), 360.

(١٥) G. P. Badger, *History of the Imams and Seyyids of Oman* (London, 1871) cited in Kelly, *Arabia, the Gulf, and the West*, 226.

(١٦) Joshua Teitelbaum, *The Rise and Fall of the Hashemite Kingdom of Arabia* (New York: New York University Press, 2001), 9, 37-38.
أضحى العثمانيون منخرطين أكثر فأكثر في انتقاء شريف مكة. فعلى سبيل المثال، بعد سنوات، أصبح مؤسس المملكة الهاشمية المعروف الشريف حسين بن علي، الذي ولد في اسطنبول سنة ١٨٥٣، شريف مكة الذي عينه العثمانيون سنة ١٩٠٨، وأصبح أبناؤه فيما بعد يحكمون الأردن والعراق.

(١٧) Bernard Lewis, *What Went Wrong?*, 86.

(١٨) الشيخ أحمد بن زيني دحلان، *فتنة الوهابية* (اسطنبول: ١٩٧٨)، ص. ٣-٤.

(١٩) المقتطف مأخوذ من النص العربي الوارد في الهامش السابق. لكن يورده حميد ألغار في كتابه/ المقالة *Wahhabism: A Critical Essay* ص. ٧٧

(٢٠) Frederick F. Anscombe, *The Ottoman Gulf: The Creation of Kuwait, Saudi Arabia and Qatar* (New York: Columbia University Press, 1997), 17.

(٢١) Said K. Aburish, *The Rise, Corruption, and Coming Fall of the House of Saud* (London: Bloomsbury, 1994), 13.

(٢٢) Charles M. Doughty, *Travels in Arabia Deserta*, Vol. II (New York: Dover Publications, 1888), 455.

(٢٣) المرجع السابق، ٤٥٩.

(٢٤) المرجع السابق، ٣٦٨.

(٢٥) Alexander Bligh, 'The Saudi Religious Elite (Ulama) as Participant in the Political System of the Kingdom,' *International Journal of Middle East Studies*, Vol., 17, 1985, 37-50.

(٢٦) Ahmed Rashid, 'Fires of Faith in Central Asia,' *World Policy Journal*, Vol. 28, No. 1 (Spring 2001).

هوامش الفصل الثالث:

(٢٧) Gary Troeller, *The Birth of Saudi Arabia* (London: Frank Cass, 1976), 11.

(٢٨) Helmut Mejcher, *Imperial Quest for Oil: Iraq 1910-1928* (London: Ithaca Press, 1976), 4-6.

(٢٩) H.V.F. Winston, *Captain Shakespeare* (London: Quartet Books, 1976), 102-3.

(٣٠) Algar, *Wahhabism: A Critical Essay*, 22.

(٣١) Vassiliev, *The History of Saudi Arabia*, 225.

(٣٢) المرجع السابق، ٢٢٩

(٣٣) H. R. P. Dickson, *Kuwait and Her Neighbors* (London: Allen and Un win, 1956).

(٣٤) Fouad al-Farsy, *Saudi Arabia: A Case Study in Development* (London: Stacey International, 1978), 76-77.

(٣٥) المرجع السابق.

(٣٦) Vassiliev, *The History of Saudi Arabia*, 129.

(٣٧) David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York: Holt and Company, 1989), 425.

(٣٨) Dickson, *Kuwait and Her Neighbors*, 274-75.

(٣٩) Kelly, *Arabia, the Gulf, and the West*, 238. (وقد ورد هذا الاقتباس أيضاً في كتاب فاسيليف *تاريخ العربية السعودية*، المترجم).

(٤٠) Reader Bullard, British Consul- General, September 21, 1924,

India Office, See Joshua Teitelbaum, 'Pilgrimage Politics: The Hajj and Saudi-hashemite Rivalry, 1916-1925,' in Asher Susser and Aryeh Shmuelevitz, eds., *The Hashemites in the Modern World* (London: Frank Cass, 1995), 78.

(٤١) المرجع السابق.

(٤٢) Al-Azmeh, Islams and Modernities, 145.

(٤٣) Aburish, *The Rise, Corruption, and Coming Fall of the House of Saud*, 24.

(٤٤) الرشيد، *تاريخ العربية السعودية*، ٢٣١

(٤٥) F. E. Peters, *The Hajj*, 358-59.

(٤٦) Salame, *Islam and Politics in Saudi Arabia*, 313.

(٤٧) فاسيلييف، *تاريخ العربية السعودية*، ٢٥٤ (الترجمة العربية).

(٤٨) Martin S. Kramer, *Islam Assembled: The Advent of Muslim Congreses* (New York: Columbia University Press, 1989), 106.

(٤٩) المرجع السابق، ١١٣

(٥٠) المرجع السابق، ١٠٩

(٥١) المرجع السابق، ١١٦

(٥٢) Al-Farsy, *Saudi Arabia*, 35.

(٥٣) Aaron S. Kleiman, *Foundations of British Policy in the Arab World: The Cairo Conference of 1921* (Baltimore: The Johns Hopkins Press, 1970), 30-31.

(٥٤) William Roger Louis, *The British Empire in the Middle East: 1945-1951* (Oxford: Oxford University Press, 1984), 176.

(٥٥) Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism* (Princeton: Princeton University Press, 1987), 229.

(٥٦) Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939*, 231, 237.

(٥٧) Elie Kedourie, *Arabic Political Memoirs and Other Studies* (London: Frank Cass, 1974), 144-45.

(٥٨) Kramer, *Islam Assembled*, 110.

(٥٩) Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age*, 360.

(٦٠) Daniel Benjamin and Steven Simon, *The Age of Sacred Terror* (New York: Random House, 2002), 57.

هوامش الفصل الرابع:

(١) Document 14, 'British Treaty with Ibn Saud,' in J.C. Hurewitz, ed., *The Middle East and North Africa in World Politics*, Vol. 2, (New Haven: Yale University Press, 1979), 58.

(٢) فاسيلييف، *تاريخ العربية السعودية*، ٢٧٣

(٣) Al-Azmeh, *Islams and Modernities*, 144.

(٤) 'ACCOUNT OF Mr. Bird's Interview with King Ibn Saud, January 7, 1943,' United Kingdom, Public Record Office, Foreign Office, FO 371/35417 e 140/69/25.

(٥) Document 20, 'Situation in Saudi Arabia,' September 12, 1941, American Legation, Cairo, to the Secretary of State. See Also Enclosure No. 3, 'Tribal System in Saudi Arabia,' Colonel De Gaury, Mr. Hare, in Ibrahim al-Rashid, ed., *Saudi Arabia Enters the Modern World*, Vol. IV (Salisbury: Documentary Publications, 1980), 90-91.

(٦) Document 101, 'The Visit of His Royal Highness Emir Faisal al Saud to Baghdad,' July 13, 1932, U.S. Legation, Baghdad, to the Secretary of State, in Ibrahim al-Rashid, *Saudi Arabia Enters the Modern World*, Vol. IV, 125.

(٧) Nadav Safran, *Saudi Arabia: The Ceaseless Quest for Security* (Cambridge: Harvard University Press, 1985), 58.

(٨) المرجع السابق، ٦١

(٩) Martin Gilbert, *Churchill: A Life* (New York: Henry Holt and Company, 1991,), 260-61.

(١٠) Gerald De Gaury, *Fa-isal: King of Saudi Arabia* (London: Arthur Barker, 1966), 67.

(١١) H. St. John Philby, *Arabian Oil Ventures* (Washington, D.C.: The Middle East Institute, 1964), 73-74.

(١٢) 'The Acting Secretary of State to the Ambassador in Great Britain, June 16, 1932,' *Foreign Relations of the United States*, 1933, Vol. II, (Washington, D.c.: Government Printing Office, 1978), 990;

'The Secretary of State to the Charge In Great britain, April 26, 1933,' ibid., 988.

(١٣) Telegram, Political Resident to Secretary of State for India, January 11, 1934; 'Qatar Oil Concession,' January 12, 1934 FO 371/1778 E 292/81/91, and Document 110, 'British Interests in the Persian Gulf: Report of the Political Department of British India,' June 25, 1935, in Hurewitz, *The Middle East and North Africa in the World Poltitics*, Vol. 2, 476.

(١٤) William A. Eddy to the Secretary of State, 'Complaints by Certain Arabian Fanatics That King Abdul Aziz Is Surrending His Land to Unbelievers,' December 4, 1944, in Ibrahim al-Rashid, *Saudi Arabia Enters the Modern World*, Vol. IV, 201-3.

(١٥) Alam, *Religion and State: Egypt, Iran, and Saudi Arabia*, 181-83.

(١٦) المرجع السابق.

(١٧) Phillip Mattar, *The Mufti of Jerusalem: Al-Hajj Amin Al-Husseini and the Palestinian National Movement* (New York: Columbia University Press, 1988), 60.

(١٨) Elie Kedourie, 'Great Britain and Palestine: The Turning Point,' in Elie Kedourie, ed., *Islam in the Modern World and Other Studies* (New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1980), 96, 150.

(١٩) Document 17, 'Syrian Policy,' Note by the Prime Minister and Minister of Defense, May 14, 1941, in Gavriel Cohen, *Churchill and Palestine 1939- 1942* (Jerusalem: Yad Itzhak Ben Zvi, 1976), 82.

(٢٠) 'Account of Mr. Bird's Interview with King Ibn Saud, January 7, 1943.'

(٢١) Document 35, 'Visit of His Majesty King Abdul Aziz Ibn Saud to Dhahran,' January 31, 1947, in Ibrahim al-Rashid, *Saudi Arabia Enters the Modern World*, Vol. V, 97.

(٢٢) 'Audience with His Majesty King Abdul Aziz, Childs to Marshall, December 4, 1947,' *Foreign Relations of the United States*, 1947, Vol. V, 1336-37.

(٢٣) Document 41, 'Audience with His Majesty December Third,' Childs to Marshall, December 4, 1947, In Ibrahim al-Rashid, *Saudi Arabia Enters the Modern World*, Vol. V, 114.

(٢٤) 'Acting Secretary of State [Lovett] to Childs, December 12, 1947,' *Foreign Relations of the United States, 1947*, Vol. V, 1340.

(٢٥) 'Childs to Acheson, November 17, 1949,' *Foreign Relations of the United States, 1947*, Vol. V, 1621.

(٢٦) James P. Pscatori, 'Islamic Values and National Interests: The Foreign Policy of Saudi Arabia,' In Adeed Dawisha, ed., *Islam in Foreign Policy* (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), 38.

(٢٧) Safran, *Saudi Arabia*, 67.

(٢٨) Transmittal of Saudi Pamphlet Entitmed 'The Saudi Army in Palestine,' October 4, 1951, Dispatch 125, Palestine, Washington, D.C.: U.S. National Archives, NA RG 59 786A.55/10-451.

(٢٩) 'Celebrations Marking the Return of Last Saudi Contingent from Palestine,' Childs to the Department of State, February 27, 1950, Washington, D.C.: U.s. National Archives, NA RG 59 786A.54/2-2750.

(٣٠) المملكة المتحدة، مكتب السجلات الرسمية، مكتب الخارجية، رقم الوثيقة FO371/75509 XC/A 55632.

(٣١) المملكة المتحدة، مكتب السجلات الرسمية، مكتب الخارجية، رقم الوثيقة FO371/75507 XC/A 55632.

(٣٢) 'Saudi Arabia: Annual Review for 1950'، ١٩ مارس ١٩٥١، المملكة المتحدة، مكتب السجلات الرسمية، مكتب الخارجية، رقم الوثيقة FO 371/91757 55458.

(٣٣) 'Memorandom of Conversations, by the Ambassador in Saudi Arabia [Childs], March 23, 1950,' *Foreign Relations of the United States*, 1950, Vol. V, 1147.

(٣٤) المرجع السابق، ١١٤٩

(٣٥) Parker T. Hart, *Saudi Arabia and the United States: Birth of a Security Partnership* (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1998), 58.

(٣٦) 'Saudi Arabia: Annual Report for 1950.'

(٣٧) The Ambassador in Saudi Arabia [Childs], April 3, 1950,' *Foreign Relations of the United States*, 1950, Vol. V, 1155.

(٣٨) المرجع السابق، ١١٤٩

(٣٩) 'The Ambassador in Saudi Arabia [Childs] to the Consulate General at Dhahran, May 7, 1950,' *Foreign Relations of the United States*, 1950, Vol. V, 1173.

هوامش الفصل الخامس:

(١) Bligh, 'The Saudi Religious Elite (Ulama) as Participant in the Political System of the Kingdom,' 44-45.

(٢) Abbas R. Kelidar, 'The Problem of Succession in Saudi Arabia,' *Asian Affairs: Journal of the Royal Society for Asian Affairs*, February 1978, 24.

(٣) Michael Herb, *All in the Family: Absolutism, Revolution, and Democracy in the Middle Eastern Monarchies* (Albany: State University of New York Press, 1999), 102.

(٤) *Internal Security in Saudi Arabia*, United Kingdom, Public Record Office, Foreign and Commonwealth Office, FCO8/1483, 1970.

(٥) 'Saudi Arabia: Annual Review for 1964,' in Robert L. Jarman, ed., *Political Diaries of the Araba World: Saudi Arabia,*Vol. 5 (Chippenham: Antony Rowe, 1998), 525.

(٦) المرجع السابق.

(٧) De Gaury, *Faisal: King of Saudi Arabia*, 131.

(٨) فاسيلييف، *تاريخ العربية السعودية*، ٣٦٧

(٩) *Internal Security in Saudi Arabia.*

(١٠) Jacob M. Landau, *The Politics of Pan-Islam: Ideology and Organization* (Oxford: Clarendon Press, 1990), 284.

(١١) Kepel, *Jihad*, 52.

(١٢) Martin S. Kramer, 'Muslim Statecraft and Subversion,' in Haim Shaked and Daniel Dishon, eds., *Middle East Contemporary Survey, 1983-84* (Boulder: Westview Press, 1986), 166.

(١٣) Piscatori, 'Islamic Values and National Interest: The Foreign Policy of Saudi Arabia,' 40; Abdullah M. Sindi, 'King Faisal and Pan-Islamism,' in Beling, *King Faisal and the Modernization of Saudi Arabia*, 186; Mordechai Abir, *Saudi Arabia: Government,*

Society, and the Gulf Crisis (London: Routledge, 1993), 52.

(١٤) Al-Yassini, *Religion and State in the Kingdom of Saudi Arabia*, 66.

(١٥) Abir, *Saudi Arabia*, 44.

(١٦) Bligh, 'The Saudi Religious Elite (Ulama) as Participant in the Political System of the Kingdom,' 39, 43.

(١٧) Sarah Yisraeli, *The Remaking of Saudi Arabia* (Tel Aviv: The Moshe Dayan Center for Middle Eastern and African Studies, Tel Aviv University, 1997), 202-7.

(١٨) Michael Field, *Inside the Arab World* (Cambridge: Harvard University Press, 1994), 337.

(١٩) Abir, *Saudi Arabia*, 16.

(٢٠) See Foreign Office Minutes, dated January 23, 1935, in Anita L. P. Burdett, ed., *Islamic Movements in the the Arab World, 1913-1966*, Vol. 3 (Chippenham: Antony Rowe, 1998), 52.

(٢١) المرجع السابق.

(٢٢) Bligh, 'The Saudi Religious Elite (Ulama) as Participant in the Political System of the Kingdom,' 44.

(٢٣) Abir, *Saudi Arabia, 18*.

(٢٤) Gad Gilber, *The Development of Higher Education Systems in Seven Arab States, 1965- 1988* (Haifa, Israel: Technion, 1993), 13.

(٢٥) Teitelbaum, *The Rise and Fall of the the Hashemite kingdom of Arabia*, 7.

(٢٦) المرجع السابق، ١٤

(٢٧) Field, *Inside the Arab World*, 337.

(٢٨) Al-Yassini, *Religion and State in the Kingdom of Saudi Arabia*, 72.

(٢٩) انظر الحوار مع الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن نورولي، مساعد الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي، في Khouloud Soliman, 'WAMY Team in Afghanistan Risks Life to Deliver Aid,' *Saudi Gazette*, November 20, 2001.

(٣٠) Ian Black, Deborah Pugh, Simon Tisdall, Kathy Evans, and Leslie Plommer, 'Militant Islam's Saudi Paymasters,' *The Guardian*, February 29, 1992.

(٣١) 'The Struggle for Power in Saudi Arabia,' January 5, 1964, in Jarman, *Political Diaries of the Arab World: Saudi Arabia*, Vol. 6, 465.

(٣٢) Obeid, 'Improving U.S. Intelligence Analysis on the Saudi Arabian Decision-Making Process,' 13.

(٣٣) 'Saudi Arabia: Annual Review for 1969,' United Kingdom, Public Record Office, Foreign and Commonwealth Office, FCO8/1481, 1970.

(٣٤) 'Jedda Despatch No. 21 to the Foreign Office, 16 April 1964, The Political Crisis in Saudi Arabia' in Jarman, *Political Diaries of the Arab World: Saudi Arabia*, Vol. 6, 508.

(٣٥) المرجع السابق.

(٣٦) 'Saudi Arabia: Annual Review for 1965,' in Jarman, *Political Diaries of the Arab World: Saudi Arabia*, Vol. 5, 532.

(٣٧) Document 278, 'Memorandum of Conversation: President's Second Meeting with King Faisal, June 22, 1966,' U.S. Department of State, *Foreign Relations of the United States, 1964-1968*, Vol. XXI, *Near East Region: Arabian Peninsula* (Washington, D.C.: U.S. Government Printing Office, 2000), 533.

(٣٨) David Holden and Richard Johns, *The House of Saud: The Rise and Rule of the Most Powerful Dynasty in the Arab World* (New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1981), 252.

(٣٩) Bernard Lewis, *Semites and Anti-Semites: An Inquiry into Conflict and Prejudice* (New York: W.W. Norton, 1986), 194.

(٤٠) Telegram from the Embassy in Saudi Arabia to the Department of State, July 20, 1968, *Foreign Relations of the United States, 1964-1968*, Vol. XXI, *Near East Region*. See www.state.gov/www/about-state/history/vol-xxi/zd.html.

(٤١) المرجع السابق.

(٤٢) Obeid, 'Improving U.S. Intelligence Analysis on the Saudi Arabian Decision-Making Process,' 14.

(٤٣) Said K. Aburish, *Arafat: From Defender to Dictator* (London: Bloomsbury, 1998), 58.

(٤٤) Kelly, *Arabia, the Gulf, and the West*, 16-19, 270, 271.

(٤٥) Guy Bechor, *Lexicon of the PLO* (Tel Aviv: Israel Ministry of Defense, 1991), 245.

(٤٦) Martin S. Kramer, 'The Export of Islam,' in Itamar Rabinovich and Haim Shaked, eds., *Middle East Contemporary Survey: 1986* (Boulder: Westview Press, 1988), 133.

(٤٧) *Foreign Relations of the United States, 1967-1968*, Vol. XX, *Arab-Israeli Dispute*.

(٤٨) Neil C. Livingstone and David Halevy, *Inside the PLO* (New York: William Morrow, 1980), 277.

(٤٩) Janet Wallach and John Wallach, *Arafat: In the Eyes of the Beholder* (Secaucus, NJ: Birch Lane Press, 1997), 296.

(٥٠) Holden and Johns, *The House of Saud*, 253.

(٥١) Anthony Cave Brown, *Oil, God, and Gold*, 291.

(٥٢) Henry Kissinger, *Years of Upheaval* (Boston: Little, Brown, 1982), 528.

(٥٣) Aryeh Shalev, *Israel and Syria: Peace and Security on the Golan* (Tel Aviv: Tel Aviv University, 1993), 123.

(٥٤) عبيد، 'Improving U.S. Intelligence Analysis on the Saudi Arabian Decision-Making Process.' كان هناك خلاف بين الملاحظين حول ما أثار الملك فيصل. ففي تقرير شامل حول العلاقات الأمريكية- السعودية نشر في *واشنطن بوست* (١١ شباط/فبراير ٢٠٠٢)، حيث يربط «روبرت غ. كايزر» و«ديفيد أوتاواي» قرار الملك فيصل بقرار الرئيس «نيكسون» مطالبة الكونغرس بتخصيص مساعدات مالية طارئة لفائدة إسرائيل بقيمة ٢,٢ مليار دولار. غير أنهم يلاحظون مع ذلك أن «فيصل أذعن لآمال العلماء السعوديين، واستخدم سلاحه النفطي بمعاقبة الولايات المتحدة الأمريكية». بعبارة أخرى، يتفق «كايزر» و«أوتاواي» على أن الضغط من أجل استعمال سلاح النفط جاء من الزعماء الدينيين الوهابيين في العربية السعودية. ويقلل «ناداف سفران» من أهمية الفكرة بالقول إن المساعدات الأمريكية إلى إسرائيل أجبرت فيصل على كشف أسراره. إذ لم يرد فيصل، أياما عديدة قبل ذلك، على بدء مد إسرائيل بالأسلحة الأمريكية. ذلك انه يعتقد أن فيصل كان يتجاوب مع تغير كفة الحرب ضد مصر وسوريا. انظر: Safran, *Saudi Arabia* 156-58.

(٥٥) Holden and Johns, *The House of Saud*, 344.

(٥٦) 'Saudi Arabia: Annual Review for 1950,' Uinted Kingdom, Public Record Office, Foreign Office, FO 371/91757.

(٥٧) Safran, *Saudi arabia*, 221.. ومصدره هو وزارة النفط والموارد الطبيعية في حكومة العربية السعودية.

هوامش الفصل السادس:

(١) L. Carl Brown, *Religion and State*, 145; Martin S. Kramer, *Arab Awakening and Islamic Revival: The Politics of Ideas in the Middle East* (New Brunswick: Transaction Publishers, 1996), 144-47.

(٢) Aburish, *Arafat*, 32-34.

(٣) Olivier Roy, *The Failure of Political Islam* (Cambridge: Harvard University Press, 1994), 110.

(٤) Eric Rouleau, 'Trouble in the Kingdom,' *Foreign Affairs*, July-August 2002, 78.

(٥) Abir, *Saudi Arabia*, 19.

(٦) Vali Nasr, *International Relations of the Islamist Movement: The Case of the Jam'at-i-Islami of Pakistan* (New York: Council on Foreign Relation, 1990), 35.

(٧) Judith Miller, *God Has Ninety-Nine Names: Reporting from a Militant Middle East* (New York: Touchestone Books, 1996), 79.

(٨) *الجزيرة*، ٧ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١

(٩) Kepel, *Jihad*, 51; David Sagev, *Fundamentalism and Intellectuals in Egypt, 1973-1993* (London: Frank Cass, 1995), 47.

(١٠) أوردت يومية *السفير* أن زعيماً من زعماء طلائع الفتح الإسلامي المعتقلين أقر أن زعماء من الجماعة زاروا العربية السعودية بدعوة من الاستخبارات السعودية، حيث منحت الجماعة مساعدات مالية وعسكرية سعودية لمدة ستة أشهر تبدأ من أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢ *تقرير استخبارات الشرق الأوسط*، ٢ يونيو ١٩٩٣ انظر: menic.utexas.edu/menic/utaustin/course/oilcourse/mail/saudi/0002.html.

(١١) Kramer, *Islam Assembled*, 110.

(١٢) C. W. Long, British Embassy, Jedda to P.H. C. Eyers, Arabian Department, December 6, 1966, In Burdett, *Islamic Movements in the Arab World, 1913-1966*, Vol. 4, 569.

(١٣) L. Carl Brown, *Religion and State*, 156-57.

(١٤) Sivan, *Radical Islam*, 68.

(١٥) المرجع السابق، ٢٤

(١٦) المرجع السابق، ٢٥

(١٧) Bassim Tibi, *The Challenge of Fundamentalism: Political Islam and the New World Disorder* (Berkeley: University of California Press, 1998), 56.

(١٨) المرجع السابق، ٥٧.

(١٩) Ruxanne L. Euben, *Ennemy in the Mirror: Islamic Fundamentalism and the Limits of Modern Rationalism* (Princeton: Princeton University Press, 1999), 74.

(٢٠) Sagiv, *Fundamentalism and Intellectuals in Egypt*, 38-39.

(٢١) Doran, 'Somebody Else's Civil War,' 30.

(٢٢) Smith, *Islam in Modern History*, 106.

(٢٣) M. C. G. Man, British Embassy, Jedda, to T. F. Brenchley, Arabian Department, Foreign Office, February 9, 1966, In Burdett, *Islamic Movements in The Arab World 1913-1966*, Vol. 4, 545.

(٢٤) Smith, *Islam in Modern History*, 164.

(٢٥) Judith Miller, *God Has Ninety-Nine Names*, 151.

(٢٦) Ami Ayalon and Bruce Maddy-Weitzman, *Middle East Contemporary Survey: 1994* (Boulder: Westview Press, 1996), 128.

(٢٧) John L. Esposito, *Unholy War: Terror in the Name of Islam* (London: Oxford University Press, 2002), 18-19; Ed Blanche, 'Ayman al-Zawahiri: Attention Turns to the Other Prime Suspect,' *Jane's Intelligence Review*, October 3, 2001.

(٢٨) Kepel, *Jihad*, 314.

(٢٩) Fiona Symon, 'The Roots of Jihad,' BBC-News Analysis. See news.bbc.co.uk.hi/english/world/midle_east/ newsid_1603000/1603178.stm.

(٣٠) عدنا في ترجمة هذه الخلاصة إلى النص العربي *الحق بالقافلة*، وهو متاح في العديد من المواقع الإلكترونية. أما الترجمة الإنجليزية لهذا النص، فهي متاحة على موقع www.relioscope.com (المترجم).

(٣١) Kepel, *Jihad*, 146.

(٣٢) عبدالله عزام، *الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان*، المقدمة. والترجمة الإنجليزية لهذا النص، فهي مأخوذة من موقع: www.relioscope.com (المترجم).

(٣٣) كل الاقتباسات الواردة في هذا السياق مأخوذة من كتيب عبدالله عزام *الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان*، ما عدا الاقتباس الأخير، فهو مأخوذ من وصيته التي كتبها يوم الاثنين الثاني عشر من شعبان سنة ١٤٠٦هـ الموافق العشرين من نيسان/أبريل ١٩٨٦م. وهي غير واردة في الوصية، كما يشير إلى ذلك الكاتب في هامش المرجع الأصلي. فضلاً عن هذا، يتضمن النص المترجم، الذي اقتبسه الكاتب، خطأ في ترجمة كلمة «القتال» بمقابل في الإنجليزية هو «الجهاد» (المترجم).

(٣٤) Ziad Abu Amr, *Islamic Fundamentalism in the West Bank and Gaza: Muslim Brotherhood and Islamic Jihad* (Bloomington, IN: Indian University Press, 1994), 24.

(٣٥) *الصراط المستقيم*، عدد ٣٣، صفر ١٤١٥هـ، الموافق آب/أغسطس ١٩٩٤ والترجمة باللغة الإنجليزية مأخوذة من موقع: jihaadulkuffaarin. Jeera.com/file382.htm.

(٣٦) Basil Muhammad, *The Arab Volunteers in Afghanistan* (Jeddah: The Committee for Islamic Benevolence and the World Assembly of Muslim Youth, 1991), 143.

(٣٧) حسني أدهم جرار، *الشهيد عبد الله عزام رجل دعوة ومدرسة جهاد* (عمان: دار الضياء للنشر والتوزيع، ١٩٩٥)، ٣٥٥

(٣٨) Peter L. Bergen, *Holy War, Inc: Inside the Secret World of of Osama bin Laden* (New York: Free Press, 2001), 54-55.

(٣٩) المرجع السابق، ١٣٥

(٤٠) شكّلت رابطة العالم الإسلامي وسيلة لنشر الجهاد على الصعيد الدولي. إذ كان محمد جمال خليفة، صهر أسامة بن لادن، مدير رابطة العالم الإسلامي في الفلبين عبر مكاتب هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، التي تأسست سنة

١٩٧٨ (تاريخ التأسيس بحسب موقع الهيئة هو ٢٩ كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩، وليس ١٩٧٨، كما يشير إلى ذلك الكاتب) كـ«ذراع عملية» لرابطة العالم الإسلامي. Christine Herrara, *Philippine Daily Inquiry* (Manila)، أما فيما يتعلق بخلفية هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، انظر Steven Emerson, 'Fund-raising Methods and Procedures for International Terrorist Organizations,' Testimony Before the U.S. House of Representatives Committee on Financial Services, Subcommittee on Oversight and Investigations, February 12, 2002.

وفي أوائل التسعينيات، ستستفيد جماعة أبو سياف من هذا المورد الداعم. Peter Chalk, 'Militant Islamic Extremism in the Southern Philippines,' in Jason F. Isaacson and Colin Rubenstein, eds., *Islam in Asia* (New Brunswick: Transaction Books, 2002), 203.

(٤١) Ahmed Rashid, *Taliban: Militant Islam, Oil, and Fundamentalism in Central Asia* (New Haven: Yale University Press, 2000), 131.

(٤٢) Steven Emerson, 'Jihad in America,' PBS documentary.

(٤٣) Steven Aust and Cordt Schnibben, *Inside 9-11: What Really Happened* (New York: St. Martin's Press, 2002), 70.

(٤٤) Kepel, *Jihad*, 147. انظر أيضاً عبدالله عزام، *الحق بالقافلة* (الفصل الثالث: إيضاحات حول حكم الجهاد اليوم).

(٤٥) Rohan Gunartna, *Inside Alqaeda: Global Network of Terror* (New York: Columbia University Press, 2002), 22.

(٤٦) وصية الشيخ عبدالله عزام، وهي متاحة في نصها العربي على مجموعة من المواقع الإلكترونية. وانظر فيما يخص النص المترجم بالإنجليزية الموقع: www.religioscope.com/info/doc/jihad/jihadfile.htm (المترجم).

(٤٧) Emerson, 'Jihad In American.'

(٤٨) Landau, *The Politics of Pan-Islam*, 284.

(٤٩) Olivier Roy, *The Foreign Policy of Central Asian Islamic Renaissance Party* (New York: Council on Foreign Relations, 1999), 6.

(٥٠) Al-Yassini, *Religion and State in the Kingdom of Saudi Arabia*, 28; Alam, *Religion and State: Egypt, Iran, and Saudi Arabia*, 73.

(٥١) *الشرق الأوسط*، «وقفات مع أيمن الظواهري»، ٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١

(٥٢) Roy, *The Failure of Political Islam*, 117.

(٥٣) الدكتور علي محمد جريشه، المحاضر المساعد في كلية دراسات الشريعة، ومحمد شريف الزيبق، المحاضر في كلية الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، *أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي* (القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٧٨).

(٥٤) إبراهيم السلميان الجبهان، *ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير* (العربية السعودية: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٩٧٦) [يذكر الكاتب أن هذا الكتاب نشر سنة ١٩٧٧، المترجم].

(٥٥) المرجع السابق، ١٧

(٥٦) المرجع السابق، ١٨

(٥٧) المرجع السابق، ١٩

(٥٨) الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، العدد الرابع، منشورات السنة السابعة، ١٣٩٥ انظر www.binbaz.org.sa/Display.asp?f=bzz00232.

(٥٩) الجبهان، *ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير*، ٣٤

(٦٠) خالد محمد باطرفي، «لماذا نكره أهل الكتاب؟»، *الحياة*، العدد ١٤٠٩٨، الصفحة ٩، ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ والنص الإنجليزي مقتبس مـــن: 'Saudi Debate the Annihilation of Christians and Jews,' *MEMRI Special Dispatch Series*, No. 295, November 1, 2001.

هوامش الفصل السابع:

(١) Herb, *All in the Family*, 105.

(٢) Holden and Johns, *The House of Saud*, 380.

(٣) Anthony Cave Brown, *Oil, God, and Gold*, 284.

(٤) Al- Rasheed, *Politics in an Arabian Oasis*, 252.

(٥) Holden and Johns, *The House of Saud*, 383.

(٦) Judith Miller, *God Has Ninety-Nine Names*, 495, note 78.

(٧) Joshua Teitelbaum, *Holier Than Thou: Saudi Arabia's Opposition* (Washington: Washington Institute for Near East Policy, 2000), 20.

(٨) Abir, *Saudi Arabi*, 81.

(٩) Salame, 'Islam and Politics in Saudi Arabia,' 314.

(١٠) Joseph A. Kechichian, 'The Role of the Ulama in the Politics of an Islamic State: The Case of Saudi Arabia,' *International Journal of Middle East Studies*, 1986, 60.

(١١) Salame, 'Islam and Politics in Saudi Arabia,' 315.

(١٢) Al-Azmeh, *Islams and Modernities*, 144.

(١٣) Abir, *Saudi Arabi*, 82.

(١٤) المرجع السابق، ٨٥.

(١٥) المرجع السابق، ٨٨.

(١٦) Joseph A. Kechichian, *Succession in Saudi Arabia* (New York: Palgrave, 2001), 62.

(١٧) Sulaiman al-Hattlan, 'In Saudi Arabia, an Extreme Problem,' *Washington Post*, May 8, 2002.

(١٨) Abir, *Saudi Arabi*, 88.

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) انظر الموقع الإلكتروني www.fatwa-online.com.

(٢١) Holden and Johns, *The House of Saud*, 767.

(٢٢) الشيخ عبد العزيز بن باز، «وجوب عداوة اليهود والمشركين وغيرهم من الكفار». انظر موقع الإلكتروني:
www.binbaz.org.sa/Display.asp?f=bz00233.

(٢٣) انظر www.binbaz.org.sa/Display.asp?f=bz00823.htm.

(٢٤) الشيخ عبد العزيز بن باز، «فضل الجهاد والمجاهدين». انظر الموقع www.binbaz.org. sa/Display.asp?f=bz00341.

(٢٥) انظر الموقع www.binbaz.org. sa/Display.asp?f=bz00367.htm. ويقدم الدكتور علي جريشة رأياً بديلاً حول توقيت الجهاد في كتابه *أسس الدعوة الإسلامية* (جدة: دار البشير، ١٩٨٢). إذ كتب عن ثلاث مراحل واضحة المعالم: أولها، إقامة الأمة الإسلامية بتعميق قيم إسلامية بين المسلمين. وثانيها، قيام دولة إسلامية تنفذ الشرائع الإسلامية، وتكون قوية بما يكفي لتنجز المرحلة الثالثة، وهي نشر الإسلام في العالم كله بوسائل الجهاد.

(٢٦) 'A Note Printed by the National Guard,' 1393. See www.binbaz.org.sa.

(٢٧) Safran, *Saudi Arabia*, 251.

(٢٨) Holden and Johns, *The House of Saud*, 505.

(٢٩) المرجع السابق.

(٣٠) Alexander M. Haig, *Caveat: Realism, Reagan, and Foreign Policy* (New York: Macmillan, 1984), 327.

(٣١) Abir, *Saudi Arabi*, 127.

(٣٢) *الجزيرة*، ١٧ آب/ أغسطس ١٩٩٠

(٣٣) *CIA Factbook*, 2001. See www.cia.gov/cia/publications/factbook/index.html.

(٣٤) Piscatori, 'Islamic Values and the National Interests: The Foreign Policy of Saudi Arabia,' 47.

(٣٥) Nasr, *International Relations of an Islamist Movement*, 42.

(٣٦) المرجع السابق.

(٣٧) Neamatollah Nojumi, *The Rise of the Taliban in Afghanistan: Mass Moblizations, Civil War, and the Future of the Region* (New York: Palgrave, 2002), 119.

(٣٨) Iqbal Akhund, *Memoirs of a Bystander: A Life in Diplomacy* (Oxford: Oxford University Press, 1997), 329.

(٣٩) المرجع السابق، ٣٣٠

(٤٠) انظر رغبته في العمل مع الولايات المتحدة الأمريكية خلال الحظر سنة ١٩٧٣ في: Kissinger, *Years of Upheaval*, 665-994-95.

(٤١) كان هذا الأمر تفاهماً بين الرئيس «فرانكلين د. روزفلت» والوزير الأول «وينستون تشرتشل» في آذار/ مارس ١٩٤٢ انظر Maurice Matloff and Edwin M. Snell, *Strategic Planning for Coalition Warfare: 1914-1942* (Washington, D.C.: Office of the Chief of Military History, Department of the Army, 1953), 166-67.

(٤٢) Anthony Cordesman, *Saudi Arabia: Guarding the Desert Kingdom* (Boulder: Westview Press, 1997), 103-5.

(٤٣) 'History of Defense Planning and Program Development for

Persian Gulf/Southwest Asia Presence and Crisis Response,' *Conduct of the Persian Gulf War: Final Report to Congress*, Table 1, Appendix D (Washington, D.C.: Government Printing Office, 1992), 367.

(٤٤) Safran, *Saudi Arabia*, 221.

(٤٥) See www.binbaz.org.sa/display.asp?f=bz01344.htm and www.binbaz.org.sa/display.asp?f=bz00795.htm.

(٤٦) Mushahid Hussain and Akmal Hussain, *Pakistan: Problems of Governance* (New Delhi: Konark Publishers, 1994), 118.

(٤٧) HRH General Khalid bin Sultan, *Desert Warrior: A Personal View of the Gulf War by the Joint Force Commander* (New York: HarperCollins, 1995), 55.

(٤٨) Martin S. Kramer, 'Islam's Enduring Feud,' in Itamar Rabinovich and Haim Shaked, eds., *Middle East Contemporary Survey: 1987* (Boulder: Westview Press, 1989), 174.

(٤٩) Bergen, *Holy War, inc.*, 55.

(٥٠) Holden and Johns, *The House of Saud*, 267.

(٥١) Abir, *Saudi Arabia*, 111.

(٥٢) George Shultz, *Turmoil and Triumph: My Years as Secretary of State* (New York: Charles Scribners, 1993), 927.

(٥٣) Abir, *Saudi Arabia*, 110.

(٥٤) Vassiliev, *The History of Saudi Arabia*, 465.

(٥٥) Holden and Johns, *The House of Saud*, 262.

(٥٦) Anonymous correspondent with William E. Mulligan, *The Mulligan Papers*, cited in Anthony Cave Brown, *Oil, God, and Gold*; Abir, *Saudi Arabia*, 110.

هوامش الفصل الثامن

(١) Anthony Cave Brown, *Oil, God, and Gold*, 356.

(٢) Holden and Johns, *The House of Saud*, 386.

(٣) George Church, 'an Exquisite Balancing Act,' *Time*, September 24, 1990.

(٤) Cordesman, *Saudi Arabia*, 117-18. لا يسمي «كورديسمان» أي فرد حصل على السمسرات. وافترضت مكونات المعارضة السعودية أن أشقاء فهد السديري كانوا المستفيدين، خاصة وزير الدفاع سلطان بن عبد العزيز.

(٥) Said Aburish, *The House of Saud* (London: Bloomsbury, 1994), 203.

(٦) Blaine Harden, 'Saudis Seek U.S. Muslims for their Sect,' *New York Times*, October 20, 2001.

(٧) *عين اليقين*، فاتح آذار/ مارس ٢٠٠٢

(٨) *الجزيرة*، ١٦ شباط/فبراير ٢٠٠٢ يلاحظ المقال تحويل ٦ مليارات ريال سعودي إلى رابطة العالم الإسلامي، دون تقديم أي إطار زمني.

(٩) Roy, *The Failure of Political Islam*, 118.

(١٠) على سبيل المثال، تلقت مجموعة جمع الدعم تابعة لحماس في الضفة الغربية وغزة تعليمات لإرسال رسائل شكر إلى المدراء التنفيذيين في هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية والندوة العالمية للشباب الإسلامي على الدعم الذي تلقته. Richard Z. Chesnoff and Robin Knight, 'A Helping Hand from Saudi Arabia: Who Funds Hamas?' *U.S. News and World Report*, July 8, 1996.

(١١) Judith Miller, *God Has Ninety-Nine Names*, 79.

(١٢) Ahmed Rashid, *Taliban*, 85, 131, 197.

(١٣) David B. Edwards, *Before Taliban: Genealogies of the Afghan Jihad* (Berkeley: University of California Press, 2002), 270.

(١٤) Kepel, *Jihad*, 142, 395.

(١٥) المرجع السابق، ١٤١

(١٦) المرجع السابق، ١٤٢

(١٧) Bergen, *Holy War, Inc.*, 70.

(١٨) Ahmed Rashid, *Taliban*, 131.

(١٩) Bergen, *Holy War, Inc.*, 55.

(٢٠) Douglas Jehl, 'A Nation Challenged: Saudi Arabia: Holy War Lured Saudis as Rulers Looked Away,' *New York Times*, December 27, 2001.

(٢١) المرجع السابق.

(٢٢) Kepel, *Jihad*, 396, note 24.

(٢٣) Jamal Khashoggi, 'Steven Emerson Out to Wreck Arab-U.S Ties,' *Arab News*, October 17, 2002. يدعي جمال خاشقجي أنه كان حاضراً في اللقاء بين عزام وجليدان وبن لادن.

(٢٤) 'Inside Al-Qaeda: A Window into the World of Militant Islam and the Afghan Alumni,' *Jane's International Security*, September 28, 2001.

(٢٥) Roland Jacquard, *In the Name of Osama Bin Laden: Global Terrorism and the Bin Laden Brotherhood* (Durham: Duke University Press, 2002), 20. اعترف الأمير تركي بكونه التقى ابن لادن في العربية السعودية، وفي السفارة السعودية في إسلام آباد. وأنكر أن يكون لابن لادن أي صفة رسمية، لكنه لم يستبعد اتصاله بـ«مسؤولين سعوديين آخرين». انظر Jamal Khashoggi, 'Osama Offered to Form Army to Challenge Saddam's Forces,' *Arab News*, August 9, 2002. واضح أن تركي أراد أن يلقي بمسؤولية الصلة بابن لادن على مسؤول سعودي آخر.

(٢٦) Jamal Khashoggi, 'Osama Offered to Form Army to Challenge Saddam's Forces.'

(٢٧) Kechichian, *Succession in Saudi Arabia*, 83.

(٢٨) Jean-Charles Brisard and Guillaume Dasquié, *Forbidden Truth: U.S.- Taliban Secret Oil Diplomacy and the Failed Hunt for Bin Laden* (New York: Thunder's Mouth Press/ Nation Books, 2002).

(٢٩) Ahmed Rashid, *Taliban*, 132.

(٣٠) Simon Reeve, *The New Jackals: Ramzi Yousef, Osama Bin laden, and the Future of Terrorism* (London: Andre Deutsch, 1999), 113.

(٣١) Ahmed Rashid, *Taliban*, 198.

(٣٢) Kepel, *Jihad*, 226.

(٣٣) Roy, *The Failure of Political Islam*, 119.

(٣٤) المرجع السابق.

(٣٥) Jessica Stern, 'Pakistan's Jihad Culture,' *Foreign Affairs*, November- December 2000.

(٣٦) المرجع السابق.

(٣٧) Ahmed Rashid, *Taliban*, 70.

(٣٨) Thomas Friedman, 'Foreign Affairs: In Pakistan, It's Jihad 101,' *New York Times*, November 31, 2001.

(٣٩) Kepel, *Jihad*, 223; Ahmed Rashid, *Taliban*, 90.

(٤٠) Obaid, 'Improving U.S. Intteligence Analysis on the Saudi Arabian Decision- Making Process,' 33. See also Ahmed Rashid, *Taliban*, 201.

(٤١) Jamal Kashoggi, 'Oil Companies Might Have Funded Taleban,' *Arab News*, August 9, 2002.

(٤٢) Ahmed Rashid, *Taliban*, 201.

(٤٣) المرجع السابق. See also Douglas Frantz and David Rohde, 'A Natioan Challenged: The Bond: How Bin Laden and Taliban Forged Jihad Ties,' *New York Times*, November 22, 2001.

(٤٤) Ahmed Rashid, *Taliban*, 139.

(٤٥) المرجع السابق، ٧٤

(٤٦) المرجع السابق.

(٤٧) Olivier Roy, 'Afghanistan After the Taliban,' *New York Times*, October 7, 2001.

(٤٨) Ahmed Rashid, *Jihad: The Rise of Militant Islam in Central Asia* (New Haven: Yale University Press, 2002), 54.

(٤٩) المرجع السابق، ٢٥٦، الهامش ٣

(٥٠) Roy, *The Foreign Policy of the Central Asian Islamic Renaissance Party*, 5.

(٥١) United Nations Mission of Observers in Tajikistan, 'Tajikistan: Background.' See www.un.org/depts/ DPKO/missions/unmot/ UnmotB.htm.

(٥٢) Robert Baer, *See No Evil: The True Story of a Ground Soldier in the CIA's War On terrorism* (New York: Crown, 2002), 165.

(٥٣) المرجع السابق. انظر أيضاً: James Risen, 'A Nation Challenged: Qaeda Diplomacy: Bin Laden Sought Iran as an Ally, U.S. Intelligence Documents Say,' *New York Times*, December 31, 2001.

(٥٤) أخبار العالم الإسلامي، ٢٠ آذار/ مارس ١٩٩٠

(٥٥) Ahmed Rashid, 122-23.

(٥٦) المرجع السابق.

(٥٧) Bergen, *Holy War Inc.*, 219.

(٥٨) Document 1, Untitled, in Jacquard, *In the Name of Osama bin Laden*, 168.

(٥٩) See news.findlaw.com./hdocs/docs/terrorism/usarnaout10902ind.pdf, 14.

(٦٠) Pravda: News and Analysis Online, May 2, 2002.

(٦١) Wakhit Akaev, 'Religious- Political Conflit of the Chechen Republic of Ichkeria,' *Central Asia and the the Caucas, 1998-2002, Journal of Social and Political Studies*. See www.ca-c.org/dataeng/05.akaev.shtml.

(٦٢) Anatol Lieven, 'Chechnya: History as Nightmare,' *New York Time*, November 3, 2002.

(٦٣) 'Britons Killed by bin Laden Ally,' BBC News, November 28, 2001.

(٦٤) See www.fas.org/man/dod-101/ops/war/2002/01/chechnya/183.htm.

(٦٥) المرجع السابق.

(٦٦) Bergen, *Holy War Inc.*, 219.

(٦٧) Rajan Menon and Graham E. Fuller, 'Russia's War Ruinous War,' *Foreign Affairs*, March-April 2000, 39.

(٦٨) Strobe Talbott, *The Russia Hand: A Memoir of Presidential Diplomacy* (New York: Random House, 2002), 356.

(٦٩) See www.lega-musulmana.it/attualit%C%A0/communicato6.htm.

(٧٠) المرجع السابق.

(٧١) Anna Matveeva, Royal Institute of International Affairs, 'The Impact of Instablility in Chechnya on Daghestan.'

(٧٢) Mikhail Roschin, 'Dagestan and the War Next Door,' *Perspective XI:1* (September-October 2000), *Centra Asia and Caucas Update*, June 1998. See www.cpss.org/updates/cacu0698.txt.

(٧٣) See www.aeronautics.ru/chechenya/051900.htm. See also 'Russia Targets Foreign Mercenaries,' Stratfor, April, 2000; 'Russia Security Accuses Saudi Body of Financing,' Itar-Tass, May 19, 2000.

(٧٤) *Pravda*, October 22, 2001.

(٧٥) 'Russian Thwarts Coup Attempt in Caucasus,' NewsMax.com, August 17, 2001; 'The Wahhabis Reach the Volga,' Vek, July 13, 2001, 3; WPS Russian Media Monitoring Agency, No. 165, Juky 16, 2001.

(٧٦) Charles H. Fairbanks, 'U.S. Policy Caucasus and Caspian Region,' Testimony Before the U.S. House of Representatives Committee on the International Relations, October 10, 2001.

(٧٧) Gunartna, *Inside Al Qaeda*, 68.

(٧٨) Sharon La Franiere, 'Pressed by U.S., George Gets Tough with Outsiders,' *Washington Post*, April 28, 2002; Kavkaz- Center News Agency, May 3, 2001.

(٧٩) Gordon M. Hahn, 'Putin's Muslim Challenge,' *Russia Journal 5:2*, January 25-31, 2002.

(٨٠) Anthony Louis, "Sept. 11: Russia's 'Muslim Problem'," United Press International, September 5, 2002. See www.upi.com/view.cfm?StoryID=20020905-065449-1393r.

(٨١) Reuven Paz, 'Suicide Terrorist Operations in Chechnya: An Escalation of the Islamist Struggle,' June 20, 2002. See www.ict.org.il/articles/articledet.cfm?articleleid=113.

(٨٢) Reuven Paz, 'The Saudi Fatwah Against Suicide Terrorism,' *Special Reports on the Arab-Israeli Peace Process*, Number 323, Peace Watch, Washington, D.C., May 2, 2001.

(٨٣) Kepel, *Jihad*, 238, 249.

(٨٤) المرجع السابق، ٤٠٧، الهامش ٢٠

(٨٥) See www.binbaz.org.sa/Display.asp?f=bz01231.

(٨٦) Kepel, *Jihad*, 250-51.

(٨٧) Philip Corwin, *Dubious Mandate: A Memoir of the UN in Bosnia, Summer 1995* (Durham: Duke University Press, 1999), 203.

(٨٨) Kepel, *Jihad*, 250-51.

(٨٩) Press Release, Royal Embassy of Saudi Arabia, Information Office, Washington, D.C., August 14, 1995.

(٩٠) Javid Hassan, 'WAMY Calls for Muslim Forces to Defend Bosnia,' *Arab News*, September 4, 1992.

(٩١) Chris Hedges, 'Muslims from Afar Joining 'Holy War' in Bosnia,' *Arab News*, December 5, 1992.

(٩٢) انظر الموقع www.arab.net/iiro/finance.html. في بعض الأحيان، أطلق الصحافيون على هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية اسم منظمة الإغاثة الإسلامية، مسقطين كلمة «العالمية». Andrew Higgins and Christopher Cooper, 'CIA-Backed Team Used Brutal Means to Break Up Terrorist Cell In Albania,' *Wall Street Journal*, November 20, 2001.

(٩٣) Andrew Higgins, Robert Block, and Glenn Simpson, 'Assault on Charities is Risky Front for U.S.: Crackdown on Funding for Terrorist Could Destabilize Saudi Allies,' *Wall Street Journal*, October 16, 2001; John Mintz, 'Saudis Crack Down on Charity Linked to Alqaeda Network,' *Washington Post*, March 12, 2002; Isabel Vincent, 'Terrorist Plans Seized in Bosnia,' *National Post*, March 21, 2002.

(٩٤) Corwin, *Dubious Mandate, 203*.

(٩٥) Kepel, *Jihad*, 251.

(٩٦) Mone Slingerland, 'Fight Over Ruins: The Struggle for the Heritage of Kosovo,' *Het Parool*, December 24, 2001, translated from Dutch to English. See 194.109.221.18./domovina/html/ fightoverruins. html.

(٩٧) Brian Whitmore, 'Saudi 'Charity' Troubling to Bosnian Muslims,' *Boston Globe*, January 28, 2002.

(٩٨) Michael A. Sells, 'Erasing Culture: Wahhabism, Buddhism, Balkan Mosques.' See www.haverford.edu/ rel/sells/reports/ wahhabismBuddhasBegova.htm. See also Whitmore, 'Saudi 'Charity' Troubling to Bosnian Muslims.'

(٩٩) Stephen Schwartz, 'Wahhabis in America: A Saudi Export We Can Do Without,' *Weekly Standard*, November 5, 2001.

(١٠٠) Whitmore, 'Saudi 'Charity' Troubling to Bosnian Muslims.' See

also 'Official: Targets Found in October Raid,' Fox News, February 21, 2002. See foxnews.com/story/0,2933,46167,00.html.

(١٠١) Vincent, 'Terrorist Plans Seized in Bosnia.'

(١٠٢) Gunaratna, *Inside Al Qaeda*, 112.

(١٠٣) See news.findlaw.com/hdocs/docs/terrorism/burnettba81502cmp.pdf.

(١٠٤) 'On the Status, Method, and Fallout of the Global Spread of Wahhabism,' an interview with Professor Sulayman Nyang, the Islamic Supreme Council of America. See www.islamicsupremecouncil.org/ extremism/nyang_int.htm.

(١٠٥) See www.isna.net/majlis/sayyid_m_syeed.asp.

(١٠٦) المرجع السابق.

(١٠٧) Steven Emerson, *American Jihad: The Terrorists Among Us* (New York: Free Press, 2002), 217-18.

(١٠٨) See www.isna.net/majlis/Sheikh_Muhammed_Nur_Abdullah.asp.

(١٠٩) Michael Lewis, 'Israel's American Detractors-Back Again,' *Middle East Forum*, December 1997.

(١١٠) Harden, 'Saudis Seek U.S. Muslims for Their Sect.'

(١١١) Ron Kampeas, 'Fundamentalist Wahhabism Comes to U.S.,' *Washington Post*, December 10, 2001.

(١١٢) See www.nait.net/belief.html.

(١١٣) Harden, 'Saudis Seek U.S. Muslims for Their Sect.'

(١١٤) Betsy Hiel and Chuck Plunkett Jr., 'A Call for Holy War,' *Pittsburgh Tribune-Review*, August 4, 2002.

(١١٥) عالج مكتب رابطة العالم الإسلامي في مدينة نيويورك، بشكل خاص، الإسلام الوهابي المنتشر بين ساكنة السجون في أمريكا. إذ نسق المكتب أنشطته مع قساوسة كل سجن، حيث اعتبر السجناء ساكنة «خصبة» تستهدفها الدعوة، لأنهم يملكون في الغالب حصصاً كبرى من الوقت الفارغ. *رابطة العالم الإسلامي*، عدد ١٥٥٣، ماي ١٩٩٨

(١١٦) المرجع السابق.

(١١٧) Emerson, *American Jihad*, 128-31.

(١١٨) Steve Fainaru and Alia Ibrahim, 'Mysterious Trip to Flight 77 Cockpit: Suicide Pilot's Conversion to Radical Islam Remains Obscure,' *Washington Post*, September 10, 2002.

(١١٩) Khashoggi, 'Steven Emerson Out to Wreck Araba-U.S. Ties.'

(١٢٠) Fainaru and Ibrahim, 'Mysterious Trip to Flight 77 Cockpit.'

(١٢١) Gunaratna, *Inside Al Qaeda*, 112.

(١٢٢) المرجع السابق، ١١٣

(١٢٣) Matthew A. Levitt, 'Charitable and Humanitarian Organizations in the Network of International Financing,' شهادة مقدمة أمام اللجنة الأمريكية الفرعية الخاصة بالتجارة الدولية والمالية، لجنة الأبناك والإسكان والشؤون الحضرية، فاتح غشت ٢٠٠٢ انظر:
www.washingtoninstitute.org/media/levitt/levitt080102.htm.

(١٢٤) المرجع السابق.

(١٢٥) Eric Lichtblau, 'U.S. Indicts Heads of Islamic Charity in Qaeda Financing,' *New York Times*, October 10, 2001.

(١٢٦) See news.findlaw.com/hdocs/terrorism/usarnaout10902ind.pdf, 15.

(١٢٧) Emerson, 'Fund-Raising Methods and Procedures for International Terrorist Organzations.'

(١٢٨) 'Saudis Spread Hate Speech in U.S.,' Saudi Institute, McLean, Virginia, September 9, 2002. See www.saudinstitute.org.

(١٢٩) Carol O'Leary, 'Extremists in a Moderate Mand,' *Washington Post*, August 11, 2002.

(١٣٠) Eli Lake, 'U.S. Presses Saudis on Terror-Link Charities,' *Washington Times*, March 22, 2002.

(١٣١) U.S. Department of State, 'Report of the Accountability Review Boards on the Embassy Bombings in Nairobi and Dar es Salaam on August 7, 1998,' January 1999. See www.state.gov/www/regions/ africa/accountability_report.html.

(١٣٢) Jeff Gert and Judith Miller, 'Saudis Called Slow to Help Stem Terror Finances,' *New York Times*, December 1, 2002.

هوامش الفصل التاسع:

(١) Abir, *Saudi Arabia*, 130.

(٢) U.S. Department of Defence, *Conduct of the Persian Gulf War: Final Report to Congress* (Washington, D.C. Government Printing Office, 1992), 31.

(٣) George Bush and Brent Scowcroft, *A World Transformed* (New York: Knopf, 1998), 334.

(٤) H.Norman Schwarzkopf, *It Doesn't Take a Hero: General H. Norman Schwarzkopf, the Autobiography* (New York: Bantam Books, 1992), 304.

(٥) المرجع السابق، ٣٠٥

(٦) المرجع السابق، ٣٠٦

(٧) Obaid, 'Improving U.S. Intelligence Analysis on the Saudi Arabian Decision-Making Process,' 20.

(٨) المرجع السابق.

(٩) Abir, *Saudi Arabia*, 176.

(١٠) المرجع السابق، ١٧٨

(١١) Judith Miller, *God Has Ninety-Nine Names*, 114.

(١٢) المرجع السابق، ٧٤

(١٣) المرجع السابق، ١٠٦

(١٤) Mamoun Fandy, *Saudi Arabia and the Politics of Dissent* (New York: Palgarve, 1999), 48-49.

(١٥) Teitelbaum, *Holier Than Thou*, 31.

(١٦) Abir, *Saudi Arabia*, 189.

(١٧) المرجع السابق. كتب مأمون فندي أن «خطاب المطالب» وجّه إلى الملك فهد والشيخ ابن باز معاً. ذلك أن جماعة الزعماء الدينيين الذي حرروا مسودة «خطاب المطالب» التقوا بابن باز ووافق على المسودة الأولى. انظر Fandy, *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*, 119.

(١٨) Teitelbaum, *Holier Than Thou*, 52.

(١٩) Senott, 'Saudi Scholls Fuel Anti-U.S. Anger.'

(٢٠) Fandy, *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*, 64.

(٢١) المرجع السابق، ٨٦.

(٢٢) المرجع السابق، ٩٣

(٢٣) Teitelbaum, *Holier Than Thou*, 30.

(٢٤) See www.alsalafyoon.com/SalmanAldah/NihayetTareekh1.htm.

(٢٥) المرجع السابق.

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) المرجع السابق.

(٢٨) المرجع السابق.

(٢٩) المرجع السابق.

(٣٠) المرجع السابق.

(٣١) *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*, 101.

(٣٢) المرجع السابق.

(٣٣) Teitelbaum, *Holier Than Thou*, 56.

(٣٤) المرجع السابق.

(٣٥) المرجع السابق، ٤٢، الهامش ٣

(٣٦) Joshua Teitelbaum, 'Saudi Arabia,' in Ayalon and Maddy-Weitzman, *Middle East Contemporary Survey: 1994*, 555.

(٣٧) Fandy, *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*, 123.

(٣٨) Abir, *Saudi Arabia*, 198-99.

(٣٩) المرجع السابق.

(٤٠) Judith Miller, *God Has Ninety-Nine Names*, 104.

(٤١) المرجع السابق.

(٤٢) Joshua Teitelbaum, 'Saudi Arabia,' in Ayalon and Maddy-Weitzman, ed., *Middle East Contemporary Survey: 1994*, (Boulder: Westview Press, 1997), 543.

(٤٣) Ofra Bengio, 'Iraq,' in Ayalon and Maddy-Weitzman, *Middle East Contemporary Survey: 1994*, 543.

(٤٤) المرجع السابق.

(٤٥) Teitelbaum, 'Saudi Arabia,' in Ayalon and Maddy-Weitzman, *Middle East Contemporary Survey: 1994*, 571.

(٤٦) Sami Al-Faraj and Laith Kubba, with Mohammad K. Shiyyab and Dov S. Zakheim, *Common Ground on Iraq-Kuwait Reconciliation* (Washington, D.C.M Search for Common Ground, 1998), 22-23.

(٤٧) المرجع السابق، ٤٧.

(٤٨) Kepel, *Jihad*, 184.

(٤٩) Document 4, in Jacquard, *In the Name of Osama Bin Laden*, 180.

(٥٠) Shimon Shapira, *Hizballah Between Iran and Lebanon* (Tel Aviv: Hakibbutz Hameuchad, 2000), 110.

(٥١) Fandy, *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*, 185.

(٥٢) Bergen, *Holy War, Inc.*, 85.

(٥٣) المرجع السابق، ٧٨ Fandy, *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*, 186.

(٥٤) Bergen, *Holy War, Inc.*, 82-83.

(٥٥) Josgua Sinai, 'Assessing Risk: The Fire Next Time,' *Middle East Insight*, November- December 2001, 21.

(٥٦) Fandy, *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*, 186.

(٥٧) المرجع السابق.

(٥٨) Document 2, Communiqué No. 17, August 3, 1995, in Jacquard, *In the Name of Osama Bin Laden*, 172. (جدير بالذكر أننا عدنا في ترجمة هذه الاقتباسات إلى نص الرسالة الأصلي، وهو متاح على مجموعة من المواقع الإلكترونية- المترجم).

(٥٩) المرجع السابق.

(٦٠) Anthony Cordesman, *Islamic Extremism in Saudi Arabia and the Attack on Al Khobar* (Washington D.C.: Center for Strategic and International Studies, June 2001), 20. See www.csis.org/burk/saudi21/saudi_alkhobar. pdf.

(٦١) المرجع السابق.

(٦٢) Teitelbaum, *Holier Than Thou*, 76-77.

(٦٣) Fandy, *Saudi Arabia and the Politics of Dissent*, 177.

(٦٤) نسخة سنة ١٩٩٦ من «إعلان الحرب» المستعملة هنا متاحة على موقع www.religioscope.com/info/doc/jihad/jihadfile.htm. ويستعمل كيبل، الذي يحيل على عبارة «إخراج المشركين»، نسخة موقع azzam.com، الذي لا يتاح على الدوام.

(٦٥) Bernard Lewis, 'License to kill,' *Foreign Affairs*, November-December 1998, 14.

(٦٦) خطبة ألقيت يوم ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧ انظر الموقع:
www.alminbar.cc/alkhutab/khutbaa.asp?mediaURL=1455.

(٦٧) خطبة ألقيت يوم ٢ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠ انظر الموقع:
www.alminbar.cc/alkhutab/khutbaa.asp?mediaURL=2761.

(٦٨) لا تحمل الخطبة أي تاريخ. انظر الموقع:
www.alminbar.cc/alkhutab/khutbaa.asp?mediaURL=431.

(٦٩) لا تحمل الخطبة أي تاريخ. انظر الموقع:
www.alminbar.cc/alkhutab/khutbaa.asp?mediaURL=4328.

(٧٠) انظر الموقع:
www.alminbar.cc/alkhutab/khutbaa.asp?mediaURL=4068.

(٧١) وزارة التربية، مملكة العربية السعودية، *الأحاديث* «تعاليم الحديث». انظر الموقع: www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/ saudi/etc/ textbooks.html.

(٧٢) وزارة التربية، مملكة العربية السعودية، *التفاسير*، انظر www.pbs.org/ wgbh/pages/frontline/shows/ saudi/etc/textbooks.html.

(٧٣) Senott, 'Saudi Schools Fuel Anti-U.S. Anger.'

(٧٤) انظر السير على موقع www.fatwa-online.com.

(٧٥) المرجع السابق.

(٧٦) Joseph Kostiner, 'State, Islam, and Opposition in Saudi Arabia: The Post Desert-Storm Phase,' *Meria Journal*, Vol. 1, No. 2, July 1997, 8.

(٧٧) انظر الموقع: www.msapubli.com/affiliated/Html/category/ Jamiatul_ulama/hazaifi.html.

(٧٨) Joshua Teitelbaum, 'Saudi Arabia,' in Bruce Maddy-Weitzman, ed., *Middle East Contemporary Survey: 1998* (Boulder: Westview Press, 2001), 530.

(٧٩) Jim Mann and Ronald J.Ostrow, 'Saudis Derailed U.S. Plan to Seize Mideast Terror Suspect,' *Los Angeles Times*, April 21, 1995.

(٨٠) Elaine Sciolino, 'U.S. Faults Saudi Arabia on Terrorist,' *New York Times*, April 22, 1995.

(٨١) المرجع السابق.

(٨٢) Joshua Teitelbaum, 'The Gulf States and the End of Dual Containment,' *MERIA Journal*, Vol. 2, No. 3, September 1998.

(٨٣) Teitelbaum, *Holier Than Thou*, 85.

(٨٤) Elza Walsh, 'Annals of Politics: Louis Freeh's Laste Case,' *New Yorker*, May 14, 2001.

(٨٥) Jacquard, *In the Name of Osama Bin Laden*, 130.

(٨٦) Doyle McManus and David Lauter, 'Clinton Seeks Cutoff of Hamas Mideast Funding,' *Los Angeles Times*, October 28, 1994.

(٨٧) Cordesman, *Islamic Extremism in Saudi Arabia and the Attack on Al Khobar*, 28.

(٨٨) محاضرة ألقاها البروفيسور «إيمانويل سيفان»، مركز القدس للشؤون العامة، ٢٩ آب/أغسطس ٢٠٠٢

(٨٩) Jacquard, *In the Name of Osama Bin Laden*, 46.

(٩٠) Barton Gellman, 'U.S. Was Foiled Multiple Times in Effort to Capture bin Laden,' *Washington Post*, October 3, 2001.

(٩١) وصف تركي العرض السوداني بأنه «مشروط» قائلاً إن «الرئيس البشير أراد ضمانات فيما يتعلق بإعدام بن لادن، أي ألا تحاكمه أي سلطة في المملكة».
خاشقجي، 'Oil Companies Might Have Funded Taleban: Turki'

(٩٢) Auster and Kaplan, 'Saudi Royalty Gives Money to bin Laden.'
ومن أجل تأويل الأحداث خلال الفترة الممتدة بين ١٩٩٥ و٢٠١١، انظر
David Wurmer, 'The Saudi Connection: Osama bin Laden's a Lot Closer to the Saudi Royal Family Than You Think,' *Weekly Standard*, October 29, 2001.

(٩٣) Robinson, Cary, et al., 'Princely Payments.'

(٩٤) Simon Hederson, 'The Saudi Way,' *Wall Street Journal*, August 12, 2002.

(٩٥) Hersh, 'Annals of National Security: King's Ransom.'

(٩٦) المرجع السابق.

(٩٧) Bergen, *Holy War, Inc.*, 89.

(٩٨) Office of the Prime Minister, 'Responsibility for the Terrorist Atrocities in the United States, 11 September 2001,' in Appendix B, Bill Gertz, *Breakdown: How America's Intelligence Failures Led to September 11* (Washington D.C.: Regnery Publishing, Inc., 2002), 223.

(٩٩) John Miller and Michael Stone with Chris Mitchell, *The Cell: Inside the 9/11 Plot, and Why the FBI and CIA Failed to Stop it* (New York: Hyperion Books, 2002), 271.

(١٠٠) 'Yemen President: Boat Used in Cole Attack Bought in Saudi Arabia,' CNN, November 24, 2000.

(١٠١) Charles M. Senott, 'Why bin Laden Plot Relied on Saudi Hijackers,' *Boston Globe*, March 3, 2002.

(١٠٢) Gertz, *Breakdown*, 57.

(١٠٣) Senott, 'Why bin Laden Plot Relied on Saudi Hijackers.'

(١٠٤) John Miller et al., *The Cell*, 226-27.

(١٠٥) Gertz, *Breakdown*, 57.

(١٠٦) Paul Mcgeough, 'Hero of September 11 Hijackers Alive, Well, and Still Poisoning Young Minds,' *Sydney MornING Herald*, October 4, 2002.

(١٠٧) Richard Bernstein, *Out Of the Blue* (New York: Times Books, 2002), 54.

(١٠٨) Susan Sachs, 'F.B.I. Had History of Contacts with One Terrorism Suspect,' *New York Times*, September 24, 2002.

هوامش الفصل العاشر:

(١) *الحياة*، ٢٣ أكتوبر ٢٠٠١

(٢) *Arab News*, October 23, 2001.

(٣) Douglas Jehl, 'A Nation Challenged: The Network: Saudi Minister Asserts That bon Laden Is a 'Tool' of Al-Qaeda, Not Its Mastermind,' *New York Times*, December 10, 2001.

(٤) President George W. Bush, 'Address to a Joint Session of Congress and the American People,' September 20, 2001. See www.whitehouse.gov/news/releases/2001/09/20010920-8.html.

(٥) Nicolas Pelham, 'Saudi Clerics Issue Edicts Against Helping 'Infidels',' *Christian Science Monitor*, October 12, 2001; Howard Schneider, 'Saudi Arabia Wrestles with Two Views of Islam,' *Washigton Post*, December 15, 2001.

(٦) See www.saaid.net/Warathah/hmood/h41.htm.

(٧) See www.saaid.net/book/kotop.htm.

(٨) المرجع السابق.

(٩) على سبيل المثال، امتدح طالبان بسبب معاملتهم النساء، ما دام العلمانيون دفعوا النساء إلى سياقة السيارات. انظر الموقع /www.saaid.net/Warathah hmood/h41.htm.

(١٠) Thomas Fuller, 'Driving al-Qaeda: Religious Decrees: Terrorism Expert Lays Out Evidence.'

(١١) See www.jihadunspun.net/BinLadensNetwork.

(١٢) Jennifer S. Lee, 'Saudi Censorship of Web Ranges Far Beyond Tenets of Islam, Study Finds,' *New York Times*, August 29, 2002.

(١٣) Douglas Jehl, 'A Nation Challenged: Dissent: For Saudi Cleric, Battle Shapes Up as Infidel vs. Islam,' *New York Times*, December 5, 2001.

(١٤) Jehl, 'A Nation Challenged: Saudi Arabia: Holy War Lured Saudis as Rulers Looked Away.'

(١٥) Jehl, 'For Saudi Cleric, Battle Shapes Up as Infidel vs. Islam.'

(١٦) Jane Perlez, 'A Nation Challnged: Shaky Ally: Saudi Cooperation on bin Laden Lags, U.S. Aides Say,' *New York Times*, October 11, 2001.

(١٧) Neil MacFarquhar, 'A Nation Challnged: The Break: Saudis Criticize the Taliban and Halt Diplomatic Ties,' *New York Times*, September 26, 2001.

(١٨) See www.said.net/Warathah/hmood/2/oqala.jpg.

(١٩) المرجع السابق. وقد توفي الشيخ الشعيبي يوم ٢٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٢، بعد جدل تسوية وضعه.

(٢٠) Algar, *Wahhabism: A Critical Essay*, 66.

(٢١) See www.fatwa-online.com/scholarshipbiographies/15century/injibreen.htm.

(٢٢) See www.alminbar.cc/alkhutab/khutbaa.asp?mediaURL=5387.

(٢٣) Neil MacFarquhar, 'A Nation Challnged: Video: Clerics Named by bin Laden Seen as Posing Little Threat,' *New York Times*, December 15, 2001.

(٢٤) المرجع السابق.

(٢٥) 'Saudi Government Official on bin Laden as a Hero: 'He Did Not Present a Distorted Picture of Islam in the West': American Jews are 'Brothers of Apes and Pigs',' *MEMRI Special Dispatch Series*, No. 343, February 8, 2002.

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) فقد أرسله الملك فهد، سنة ١٩٩٧، إلى الخارج قصد تدشين مساجد جديدة في فرنسا وإسبانيا، كما تحدث في المركز الإسلامي في واشنطن دي. سي. انظر الموقع www.saudiembassy.net/publications/news_letter/NL_97/nl_97_10.html#WN_October.

(٢٨) Paul Martin, 'Top Saudi Imam Sees Conspiracy,' *Washington Times*, June 3, 2002. See also *Foreign Broadcast Infromation Service Report*, May 31, 2002.

(٢٩) 'Saudi Efforts to Curtail Incitement in Mosques,' *MEMRI Special Dispatch Series*, No. 34, November 28, 2001. See www.mmeri.org/bin/articles.cgi?Page=archives?Area=sd?ID=SP30401. وأثبت نواف عبيد أن هذا الحدث، إلى جانب إجراءات اتخذتها وزارة الشؤون الإسلامية، «كان له أثر عظيم في تلطيف الخطاب الديني المتشدد داخل المجتمع السعودي». لكن استمرار الخطب المستفزة، مثل خطب الشيخ السديس، يثبت أن عبيد كان مخطئاً.

(٣٠) 'A Nation Challenged: In the Prince's Words: Excerpts from Talk,' *New York Times*, January 29, 2002.

(٣١) Mitch Frank, 'A Wealthy Clan and Its Renegade,' *Times*, October 8, 2001.

(٣٢) 'Saudis Spent $2.7 M at B-M,' *O'Dwyer's PR Daily*, August 2, 2002. See www.odwyerpr.com/0802saudis.htm.

(٣٣) Christopher Marquis, 'Worried Saudis Try to Improve Image in the U.S.,' *New York Times*, August 29, 2002.

(٣٤) 'Saudis Pay Qorvis $200K A-Month,' *O'Dwyer's PR Daily*, March 21, 2002. See www.odwyerpr.com/archived _stories_2002/march/0321qorvis.htm. 'PB Lobbies for Saudis,' *O'Dwyer's PR Daily*, January 31, 2002. See www.odwyerpr.com/archived_stories_2002/january/0131saudis_pb.htm.

(٣٥) Rudolph W. Giuliani with Ken Kurson, *Leadership* (New York: Miramax Books, 2002), 374-75.

(٣٦) المرجع السابق.

(٣٧) Robert Satloff, 'Assessing Crown Prince Abdullah' 'Normalization Plan',' *Policywatch*, Washington Institute for Near East Policy, No. 604, February 21, 2002. See washingtoninstitute.org/watch/Policywatch/policywatch2002/604.htm.

(٣٨) على سبيل المثال، استعمل عمرو موسى، وزير الخارجية المصري، مصطلح «العلاقات الطبيعية» في خطابه إلى الجمعية العامة بالأمم المتحدة يوم ٢٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩

(٣٩) James A. Baker, *The Politics of Diplomacy: Revolution, War, and Peace, 1989-1992* (New York: G. P. Putnam's Son), 459.

(٤٠) David Makovsky, 'The Arab-Israeli Peace Process,' in Maddy-Weitzman, *Middle East Contemporary Survey: 1995*, 51.

(٤١) 'Concerning Peace Treaty.' See www.fatwa-online.com/fataawa/worship/jihaad/jih003/0020714.htm.

(٤٢) Teitelbaum, 'Saudi Arabia,' in Maddy-Weitzman, *Middle East Contemporary Survey: 1995*, 533.

(٤٣) David Sanger with Serge Schmemann, 'Bush Welcomes Saudi's Proposal on Mideast Peace,' *New York Times*, February 27, 2002.

(٤٤) See www.daccess-ods.un.org/doc/UNDOC/GEN/.

(٤٥) الفقرة ٣ (II) من مبادرة السلام العربية. انظر الموقع www.al-bab.com/arab/docs/league/peace02.htm.

(٤٦) *Fox News Sunday*, April 28, 2002.

(٤٧) See www.al-bab.com/arab/docs/league/abdullah00.htm.

(٤٨) David Tell, 'The Saudi- Terror Subsidy,' *Weekly Standard*, May 200, 2002.

(٤٩) Joel Mowbray, 'Blind Eye to the Saudis: Petro-Dollars Fuel Palestinian Terrorism, Yet State Sits Still,' National Review Online, July 1, 2002.

(٥٠) 'Target: Hamas- U.S. Raids Texas-Based Palestianian Charity,' ABC News, December 4, 2001. See www.abcnews.go.com/sections/us/DailyNews/hlf011204.html.

(٥١) Judith Miller, 'U.S. Is Examining Whether Donations by Two Wealthy Saudi Indirectly Aided Terrorism,' *New York Times*, March 25, 2002.

(٥٢) Douglas Farah and John Mintz, U.S. Trails Va. Muslim Money, Ties,' *Washington Post*, October 27, 2002; Glenn R. Simpson, 'Report Links Charity to an Al Qaeda Front, *Wall Street Journal*, September 200, 2002.

(٥٣) أثارت «جوديث ميلر» هاتين النقطتين الأخيرتين. انظر Judith Miller, 'U.S. Is Examining Whether Donations by Two Wealthy Saudi Indirectly Aided Terrorism'.

(٥٤) Minster Dani Naveh (team coordinator), *The Involvement of Arafat, PA Senior Officials and Apparatus in Terrorism against Israel, Corruption, and Crime* (Jerusalem: Ministry of Parliamentary Affairs, 2002), 67.

(٥٥) Ben Barber, 'Saudi Millions Finance Terror against Israel,' *Washington Times*, May 7, 2002.

(٥٦) Robert G. Kaiser and David B. Ottaway, 'Saudi Leader's Anger Revealed Shaky Ties,' *Washington Post*, February 10, 2002.

(٥٧) Lawrence F. Kaplan, 'How the Saudis Lobby Bush,' *New Republic*, December 24, 2001.

(٥٨) المرجع السابق.

(٥٩) Howard Schneider, 'Saudi Crown Prince to Carry Warning to Visit with Bush,' *Washington Post*, April 24, 2002.

(٦٠) Patrick E. Tylor, 'Mideast Turmoil: Arab Politics: Saudi to Warn Bush of Rupture Over Israel Policy,' *New York Times*, April 25, 2002.

(٦١) المرجع السابق.

(٦٢) Elisabeth Bumiller, 'Mideast Turmoil: The Meeting: Saudi Tells Bush U.S. Must Temper Backing of Israel,' *New York Times*, April 26, 2002.

(٦٣) تضمّن المخطط السعودي ذو النقاط الثماني: ١) الانسحاب الكامل والمباشر للقوات الإسرائيلية من مناطق الضفة الغربية المحتلة الحديثة؛ ٢) إنهاء الحصار العسكري في رام الله؛ ٣) انتشار قوة دولية؛ ٤) إعادة بناء البنيات التحتية التي دمرها العدوان الإسرائيلي؛ ٥) إدانة الإرهاب من الأطراف كلها؛ ٦) استئناف المفاوضات السياسية دون شروط أمنية مسبقة؛ ٧) وقف المستوطنات الإسرائيلية؛ و٨) تنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، الذي يدعو إسرائيل إلى الانسحاب إلى حدود ٤ حزيران/يونيو ١٩٦٧ *MEMRI Inquiry and Analysis Series*, No. 94, May 9, 2002.

(٦٤) Ben Caspit, "I am Just an Official': An interview with Efraim Halevy,' *Maariv*, Shabbat Supplement, November 8, 202.

(٦٥) Joshua Teitelbaum, 'September 11 and the Saudi Arabian Connection,' *Policywatch*, Washington Institute for Near East Policy, No, 573, October 12, 2001; Douglas Jehl, 'Saudi Admit Restricting U.S. Warplanes in Iraq,' *New York Times*, March 12, 1999.

(٦٦) Joshua Teitelbaum, 'September 11 and the Saudi Arabian Connection.'

(٦٧) Michael R. Gordon, 'U.S. Is Preparing Base in Gulf State to Run Iraq War,' *New York Times*, December 1, 2002.

(٦٨) David B. Ottaway and Robert G. Kaiser, 'Saudis May See U.S. Exit,' *Wsahington Post*, January 18, 2002.

(٦٩) Christopher Dickey and Rod Nordland, 'The Fire That Won't Die Out,' *Newsweek*, July 22, 2002.

(٧٠) Gause, 'Be Carefull What You Wish For: The Future of U.S.-Saudi Relations.'

(٧١) Jamal Ahmed Khashoggi, 'Saudi Religious Establishment Has Its

Wings Clipped,' Daily Star Online, June 29, 2002. See www.dailystar.com.lb/opinion/29_06_02_c.htm.

(٧٢) Neil MacFarquhar, 'A Nation Challenged: Islam: Bin Laden's Wildfire Threatens Might of Saudi Rulers,' *New York Times*, November 6, 2001.

(٧٣) Khashoggi, 'Saudi Religious Establishment Has Its Wings Clipped.'

(٧٤) المرجع السابق.

(٧٥) Dickey and Nordland, 'The Fire That Won't Die Out.'

(٧٦) 'Saudi Arabia to Also Defy United Nations Resolution,' Pakistan News Service, October 14, 2002. See www.paknews.com.

(٧٧) 'No Move to Change Curricula,' *Arab Nwes*, October 27, 2002.

(٧٨) Mordechai Abir, 'Saudi Arabia Stability, and International Islamic Terror,' *Jerusalemn Viewpoints*, No. 481, July 1, 2002, 3.

(٧٩) Thomas L. Friedman, 'War Of Ideas,' *New York Times*, June 2, 2001.

(٨٠) خبر أوردته «أسوشيايتد بريس» من كوالالمبور، *Turkish Daily News*، ٧ ماي ٢٠٠٢

(٨١) Donna Abu-Nasr, 'Saudi Cleric Disowns Militants,' *Boston Globe*, October 14, 2002.

(٨٢) McGeouh, 'Hero of September 11 Hijackers Alive, Well, and Still Poisoning Young Minds.' See www.smh.com.au/articles/2002/10/03/1033538723198.html. وقد أورد صحافي من «بي بي سي» حاور عالماً دينياً سعودياً في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢ تقريراً عن مشاعر قوية مناصرة للجهاد ضد الولايات المتحدة الأمريكية رائجة في صفوف آلاف السعوديين في «المناطق القبلية في شمال البلاد وجنوبها». Magdi Abdelhadi, 'Saudi Militants 'Ready For Jihad',' BBC News, November 1, 2002.

(٨٣) Peter Finn, 'Three Saudis Seized By Morocco Outline Post-Afghanistan Strategy,' *Washington Post*, June 16, 2002; 'Lebanon Charges 22 People with Planning Terrorist Acts,' *Wall Street Journal*, October 11, 2002; Neil MacFarquhar, 'Unmanned U.S. Planes Comb Arabian Desert for Suspects,' *New York Times*,

October 23, 2002. وقد أطلقت طائرة «بريداتر» الأمريكية غير المأهولة صاروخاً نارياً وقتلت قائد سالم سنيان الحارثي، وهو عميل أساسي في القاعدة، قرب الحدود اليمنية- السعودية. إذ قتل الحارثي بينما كان يقود سيارة تحمل لوحة سعودية، حيث من المحتمل أنه يتنقل ذهاباً وإيابًا بين العربية السعودية واليمن. Seymour M. Hersh, 'Manhunt,' *New Yorker*, December 23, 2002. وقد بدت العربية السعودية نفسها، في أواخر سنة ٢٠٠٢، منطقة أساسية من مناطق اللجوء بالنسبة إلى القاعدة بعد الحملة الأمريكية في أفغانستان. إذ شاع أن عمر البيومي، المواطن السعودي الذي استضاف اثنين من مختطفي الطائرات يوم ١١ أيلول/ سبتمبر وحصل على أموال من الأميرة هيفاء زوجة السفير السعودي في الولايات المتحدة الأمريكية، هرب إلى العربية السعودية بعد اعتقاله القصير في بريطانيا. Isikoff and Thomas, 'the Saudi Money Trail.' وفي ألمانيا، اختفى وجه بارز له علاقات مع القاعدة عن الأنظار بعد الحصول على تأشيرات إلى العربية السعودية لصالح أفراد عائلته برمتها. Desmond Butler, 'Terror Suspect's Departure from Germany Raises Concern in Other Nations,' *New York Times*, December 4, 2002.

(٨٤) 'No 'Sleeping Cells' of al-Qaeda in Kingdom, Says Prince Naif,' *Arab News*, November 24, 2002.

(٨٥) See www.alharamain.org/eng/inner.asp?order = 18?num = 1.

(٨٦) في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢، تبجحت العربية السعودية بكونها تتوفر على ٢٣٠ خيرية غير ربحية جمعت ٢٦٧ مليون دولار خلال العام الماضي. 'Saudi Societies Fight Back America's Uncharitable Charges a Year on,' *Arab News*, September 9, 2002. بل إنه من المحتمل أن المساهمات الخاصة المباشرة، التي قدمها المواطنون السعوديون الخواص، رفعت مبلغ الدعم المتاح أمام القضايا الإسلامية التي تحظى بدعم سعودي.

هوامش الفصل الحادي عشر:

(١) Lisa Beyer (with Scoth MacLeod), 'Saudi Arabia: Inside the Kingdom,' *Time*, September 15, 2003.

(٢) Ilhem Rachidi, 'Morocco Struggles with Wahhabi Legacy,' *Asia Times*, April 16, 2004.

(٣) Beyer, 'Saudi Arabia: Inside the Kingdom.'

(٤) Raymond Bonner and Carlos H. Conde, 'U.S. Warns the Philippines on Terror Groups,' *New York Times*, April 11, 2004.

(٥) Middle East Research Institute, Special Dispatch Series- No. 526- Saudi Arabia, June 20, 2003.

(٦) المرجع السابق.

(٧) Jonathan D. Halevi, 'Al-Qaeda's Intellectual Legacy: New Radical Islamic Thinking Justifying the Genocide of Infidels,' *Jerusalem Viepoints*, No. 508, December 1, 2003.

(٨) المرجع السابق.

(٩) Glenn R. Simpson, 'List of Early al Qaeda Donors to Saudi Elite,' *Wall Street Journal*, March 18, 2003.

(١٠) Steve Coll, *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, From the Soviet Invasion to September 10, 2001* (New York: The Penguin Press, 2004), 278-279.

(١١) Richard A. Clark, *Against All Enemies: Inside America's War on Terror* (New York: The Free Press, 2004), 139.

(١٢) Michael Isikoff and Mark Hosenball, 'A Legal Counterattack,' *Newsweek*, April 16, 2003.

(١٣) Robert Baer, *Sleeping with the Devil* (New York: Crown Books, 2003), 167.

(١٤) Catherine Taylor, 'Taliban-Style Group Grows in Iraq,' *Christian Sceince Monitor*, March 15, 2002.

(١٥) Jeff Klein, 'Skeikh Mohammed Mohammed Ali INC Leader Speaks on the Future of Iraq,' Kurdish Media.com, Frebruary 9, 2002.

(١٦) C. J. Chivers, 'Kurds Face a Second Enemy: Islamic Fighters on Iraq Flank,' *New York Times*, January 13, 2003.

(١٧) Stephen Schwartz, 'Islamists Invade Iraq,' *Weekly Standard*, January 26, 2004.

(١٨) سعيد الصالح وعلي الأحمد، «انتحاري سعودي يضرب شمال العراق»، *وكالة الأنباء السعودية*، ٢٦ آذار/ مارس ٢٠٠٣

(١٩) Carole O'Leary, 'Extremists in a Moderate Land,' *Washington Post*, August 11, 2002.

(٢٠) Jonathan Schanzer, 'Saddam's Ambassador to al Qaeda,' *Weekly Standard*, March 1, 2004.

(٢١) المرجع السابق.

(٢٢) Barton Gellman, 'U.S. Suspects Al Qaeda Got Nerve Agent From Iraqis,' *Washington Post*, December 12, 2002.

(٢٣) Richard Wolffe and Daniel Klaidman, 'Judging the Case,' *Newsweek*, February 17, 2003.

(٢٤) Chivers, 'Kurds Face a Second Enemy: Islamic Fighters on Iraq Flank.'

(٢٥) Schwartz, 'Saudi Mischief in Fallujah,' *Weekly Standard*, June 16, 2003.

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) Schwartz, 'Islamists Invade Iraq.'

(٢٨) Ian Mather, 'Terror Alliance Targets US Force in Iraq,' *Scotland on Sunday*, June 15, 2003.

(٢٩) Halevi, 'Who is Taking Credit for Attacks on the U.S. Army in Western Iraq? Al-Jama'a al-Salafiya al-Mujahida,' Jerusalem Issue Brief, Institute for Contemporary Affairs, founed jointly with the Wechsler Family Foundation, Vol. 3, No. 3, August 5, 2003. http://www.jcpa.org/brief/brief3-3.htm.

(٣٠) Martin Bentham, 'Coalition Officials Fear Wahhabi Infiltration of Iraq,' *Daily Telegraph*, July 7, 2003.

(٣١) *The Australian*, August 14, 2003.

(٣٢) Bentham, 'Coalition Officials Fear Wahhabi Infiltration of Iraq.'

(٣٣) http://www.saudiaffairs.net/webpage/issue07/article07r/issue07rt07.htm.

(٣٤) Neil MacFarquhar, 'Saudis Support a Jihad in Iraq, Not Back Home,' *New York Times*, April 23, 2004.

(٣٥) Reuven Paz, 'Qa'idat al-Jihad, Iraq, and Madrid: The First Tile in the Domino Effect?' Intelligence and Terrorism Information Center, http://www.intelligence.org.il/eng/g_j/rp-a-3-04.htm.

(٣٦) Douglas Jehl and David Sanger, 'Five Requests to Saudis Went Unheeded, U.S. Says,' *New York Times*, May 16, 2003.

(٣٧) *الحياة* (لندن)، ٢١ شباط/ فبراير ٢٠٠٤

(٣٨) *الوطن*، ٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣ http://www.alwatan.com.sa/daily/2003-12-03/index.htm.

(٣٩) المرجع السابق، ١١ نيسان/ أبريل ٢٠٠٤ http://www.alwatan.com.sa/daily/2004-04-11/first_page/first_page02.htm.

(٤٠) *الشرق الأوسط* (لندن)، ٨ شباط/ فبراير ٢٠٠٤

(٤١) 'Al-Qa'ida Commander in Iraq: 'A Terror Attack Against the U.S With 100.000 Deaths is Imminent; We Ordered the Riyadh Bombing',' MEMRI: Special Dispatch Series No. 609, November 14, 2003.

(٤٢) 'Al-Qaida Magazine Debates Attacks in Saudia Arabia- Proposes More Attacks in the U.S. Will Boost Support,' MEMRI: Special Dispatch Series No. 632, December 23, 2003.

(٤٣) Arieh O'Sulivan, 'Israeli Intelligence Officials Dismiss Abbas's Denial of Saudi Aid to Terrorists,' *Jerusalem Post*, August 11, 2003.

(٤٤) A 'senior security official' was reported to have stated that the amount of Saudi aid to Hamas reached 70 percent of the organization's income. See *Ha'aretz*, July 29, 2003.

(٤٥) *الجزيرة* (العربية السعودية)، فاتح تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١

(٤٦) *الحياة*، ٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣

(٤٧) Dr. Khalil bin Abdullah al-Khalil, 'The Hunt for the Riyal Designated to Charity,' *al-Majallah* (London), August 30, 2003.

(٤٨) Jane Perlez, 'Saudis Quietly Promote Strict Islam in Indonesia,' *New York Times*, July 5, 2003.

(٤٩) Steve Miller, 'Oregon Group Thrives Despite al-Qaeda Tie,' *Washington Times*, September 15, 2003.

(٥٠) *الوطن*، ٢٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤ انظر http:www.alwatan.com.sa/daily/2004-01-26/local/local05.htm.

(٥١) *الرياض*، ٩ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١ انظر:
http://www.alriyadh.com.sa/contents/2001/12/09-12-2001/page2.html.

(٥٢) http://www.al-liqa.org.sa/sa/research24.html

(٥٣) Beyer, 'Saudi Arabia: Inside the Kingdom.'

(٥٤) Michael Scott Doran, 'The Saudi Paradox,' *Foreign Affairs*, January/ February 2004, Volume 83, No. 1, 50.

(٥٥) Amos Harel, 'Al-Qaeda Tried to Recruit Saudi Pilots for Attack on Israel,' *Ha'aretz*, September 10, 2003.

(٥٦) Gideon Alon, 'Israel's Defense Minister: Al-Qaeda Trying to Infiltrate Saudi Arabia's Armed Forces,' *Ha'aretz*, December 18, 2003.

هوامش الخاتمة:

(١) 'President Bush's Address on Terrorism Before a Joint Meeting of Congress,' *New York Times*, September 21, 2001.

(٢) *International Religious Freedom Report*, released by the Bureau of Democracy, Human Rights, and Labor (Washington, D.C.: U.S. Department of State, 2002), See www.state.gov/g/drl/rls/irf/2002/14011pf.htm; www.state.gov/g/drl/rls/irf/2002/14012pf.htm.

(٣) Steven Stalinsky, 'Preliminary Overview-Saudi Arabia's Education System: Curriculum, Spreading Saudi Education to the World and the Official Saudi Position on Education Policy,' *MEMRI Special Report*, No. 12, December 20, 2002. See www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives?Area=sr?ID=SR01202. وقد نشر الكتاب المدرسي سنة ٢٠٠١

(٤) انظر القضية المدنية المرفوعة أمام المحكمة الأمريكية الإقليمية في مقاطعة كولومبيا (ما سمي بقضية ٩/ ١١): law.about.com/gi/dynamic/offsite/.htm?site=http://www.news.findlaw.com/hdocs/docs/terrorism/burnettba81502cmp.pdf. وسجلت شهادة مماثلة أثناء جلسات الاستماع لموظف في هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية يدعى محمود جبرا، بحسب تسجيلات محكمة كندية. انظر Mathew Levitt, 'Saudi Financial Counterterrorism Measures: Smokescreen or Substance?' *Policywatch*, Washington Institute for Near Near East Policy, No. 687, December 10, 2002.

(٥) Gunaratna, *Inside Al-Qaeda*, 22. وردد بعض الشيوخ السعوديين الرأي ذاته، حيث سئل الشيخ سليمان العلوان عما إذا كان من المحرم قتل المدنيين الأبرياء، بما في ذلك النساء والأطفال، في «العمليات الاستشهادية» التي قادها الفلسطينيون. وبرر التفجيرات الانتحارية وسمح بقتل النساء والأطفال. انظر www.jehad.net/download.htm. إذ جاء ذكر اسم الشيخ العلوان في شريط أسامة بن لادن الصادر في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١، باعتبار أنه أصدر «فتوى جميلة»، حاسماً أن ضحايا مركز التجارة العالمي والبنتاغون «لم يكونوا أشخاصاً أبرياء». بعبارة أخرى، من الجائز قتل هؤلاء الأبرياء. انظر www.cnn.com/2001/US/12/13/tape.transcript.

(٦) Michael Steinberger, 'Lunch with the FT: Bernard Lewis,' *Financial Times*, August 9, 2002.

(٧) 'Leading Sunni Sheikh Yousef Al-Qardhawi and Other Sheiks Herald the Coming Conquest of Rome,' *MEMRI Special Dispatch Series*, No. 447, December 6, 2002. See www.memri.org/bin/articles.cpi?Page = archives?area = sd?ID = SP44702. إذ نشر مقال الشيخ العريفي في الإنترنت دون إشارة إلى تاريخ معين، لكن يبدو أنه نشر على موقع صحيفة «كلمات» في الوقت نفسه الذي قدم فيه الشيخ القرضاوي تصريحات مماثلة في أوائل كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢

(٨) Karen De Young, 'Saudis Detail Steps on Charities: Kingdom Seeks to Quell Criticism of Record on Terrorist Financing,' *Washington Post*, December 3, 2002.

(٩) Royal Embassy of Saudi Arabia, 'Initiatives and Actions Taken by the Kingdom of Saudi Arabia in the Financial Area to Combat Terrorism.' See www.c-span.org/terrorism/Saudi.pdf.

(١٠) Badr Almotawa, 'U.S. Urged to Give Sound Proof in Julaidan Case,' *Arab News*, September 9, 2002.

(١١) المرجع السابق.

(١٢) 'The Hamas Movement in an Internal Memorandum Boasts About the Positive Results from the Visit of a High-Level Delegation Led by Khaled Mashal to Saudi Arabia and Egypt,' Intelligenge and Terrorism Information Center et the Center for Special Studies, Israel Defense Forces. ربما يحاول رأي ملطف حول الحوار بين حماس والسعوديين أن يثبت أن السعوديين أرادوا التأثير في حماس بغية التقليص من

بعض إرهابها في سياق المحادثات بين حماس وفتح التي كانت تجري في القاهرة خلال هذه الفترة. لكن حماس أوضحت أنها تخطط لمواصلة هجماتها ضد المدنيين الإسرائيليين؛ ومع ذلك، تلقت عهوداً بتواصل الدعم السعودي.

(١٣) Richard Holbrooke, *To End a War* (New York: Random House, 1998), 22-24.

(١٤) 'Saudi Columnist: 'Our Youths Must Be Reeducated... Violence Must Be Discardede',' *MEMRI Special Dispatch Series*, No. 448, December 11, 2002. See www.memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives?Area=sd?ID=SP 44802. يتأسس التقرير على كتابات كاتبي أعمدة سعوديين، أحدهما يكتب في جريدة *الشرق الأوسط*، والثاني في *عكاظ*.


Hulton-Deutsch Collection/CORBIS

في ظل الهيمنة البريطانية: في أوائل القرن العشرين، باشر المقاتلون الوهابيون السعوديون حملة توسعية وحشية، قُتل فيها وجرح نحو ٤٠٠ ألف عربي. وحدها القوة البريطانية راقبت الوهابيين آنذاك. هنا يتوسط مسؤولو لندن اتفاقاً بين الملك السعودي ابن سعود (١٨٨٠- ١٩٥٣) وملك العراق فيصل الأول سنة ١٩٣٠


Bettmann/CORBI

الخريطة الحديثة: في أواسط العشرينيات، اصطدم السعوديون بحسين شريف مكة والهاشميين الذين ناصرهم البريطانيون. إذ اتخذ الشرق الأوسط شكله الحالي عقب هذا الصراع، عندما نصب البريطانيون أبناء شريف حسين (الجالسون في الصورة) في مناصب سلطة: فيصل (إلى اليسار) سيصبح ملك العراق؛ وعبدالله ملك الأردن في نهاية المطاف؛ وعلي ملك الحجاز لفترة وجيزة.



Bettmann/CORBIS

الولايات المتحدة تتدخل: خوفاً من أن تستنفد الحرب العالمية الثانية احتياطات النفط في تكساس وأوكلاهوما، زادت الولايات المتحدة الأمريكية من انخراطها الدبلوماسي والعسكري في العربية السعودية. هنا الملك ابن سعود يلتقي بالرئيس «فرانكلين ديلانو روزفلت» مطلع سنة ١٩٤٥، على متن البارجة «يو إس إس كوينسي» في البحيرة المرة الكبرى بمصر.



Bettmann/CORBI

الحرب العربية الباردة: خلال الستينيات، حاول الرئيس المصري جمال عبد الناصر (إلى اليمين) التوسع في شبه الجزيرة العربية، مهدداً سلطة ملك سعود في العربية السعودية (إلى اليسار). ولمواجهة الاشتراكية العربية الناصرية، انقلب الزعماء السعوديون إلى الإسلام الوهابي، مانحين زعماء دينيين وهابيين نفوذاً هائلاً. كما أعدم عبد الناصر أصوليين من الإخوان المسلمين، مُجبِراً العديد من أعضائها على اللجوء إلى العربية السعودية. إذ أرست تلك الأحداثُ الأرضيةَ لدعم الإرهاب العالمي الحديث.


Bettmann/CORBIS

تصدير الوهابية: ساعد الفقهاء الوهابيون على خلع الملك سعود سنة ١٩٦٤ وتنصيب أخيه غير الشقيق فيصل (إلى اليمين)، الذي يعتبر سليلاً مباشراً من مؤسِّس الوهابية. إذ بدأ الملك فيصل تصدير الوهابية إلى العالم عبر مؤسسات إسلامية مثل رابطة العالم الإسلامي. وفي سنة ١٩٧٣، دشن فيصل، بضغط من الفقهاء الوهابيين، حظراً نفطياً ضد الولايات المتحدة، حيث حاول وزير خارجيتها «هنري كيسينجر» أن يقنع الملك برفعه.


AP Photo/Hasan Jamali


AP Photo/str

أبناء الملك فيصل: اغتيل الملك فيصل سنة ١٩٧٥، لكن أبناءه سيمارسون تأثيراً هائلاً. إذ أصبح الأمير سعود (إلى اليسار) وزيراً للخارجية سنة ١٩٧٥، وأصبح الأمير تركي (إلى اليمين) رئيس المخابرات السعودية سنة ١٩٧٨ وأشرف الأمير تركي، الذي عرف أسامة بن لادن، على الانخراط السعودي في أفغانستان ضد السوفيات- وهي الحملة التي نشأت فيها القاعدة.



AP Photo/Provided by Chicago U.S. Attorney's Offi

«الخيريات» السعودية (الجزء الأول): في سنة ٢٠٠٢، أدان القضاة الفيدراليون إنعام أرناؤوط، رئيس مكاتب مؤسسة البر الدولية في أمريكا، بسبب ارتباطاته بالقاعدة. وقد أسس أمين عام سابق للندوة العالمية للشباب الإسلامي مؤسسة البر في العربية السعودية، وعيّن أرناؤوط مديراً لمكاتبها الأمريكية. هنا يظهر أرناؤوط (إلى اليمين) مع أسامة بن لادن (في المقدمة) في أفغانستان سنة ١٩٨٨



REUTERS/Ali Jarekji

«الخيريات» السعودية (الجزء الثاني): ربطت السلطات الأمريكية الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وهي إحدى الخيريات السعودية الواسعة، بدعم الإرهاب. وربما لم يكن مدهشاً آنذاك أن يحل خالد مشعل، وهو أحد كبار قادة حماس- الحركة الفلسطينية المسؤولة عن العديد التفجيرات الانتحارية- ضيفاً على الندوة العالمية خلال مؤتمرها بالرياض في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢



REUTERS/Photo by Saudi News Agency

تغيير: بعد سكتة سنة ١٩٩٥، سلم الملك فهد (إلى اليمين) مقاليد الحكومة لأخيه الأصغر الملك عبدالله (إلى اليسار). وفي عهد قيادة عبدالله، بدأت العربية السعودية تنأى بنفسها عن الولايات المتحدة الأمريكية.

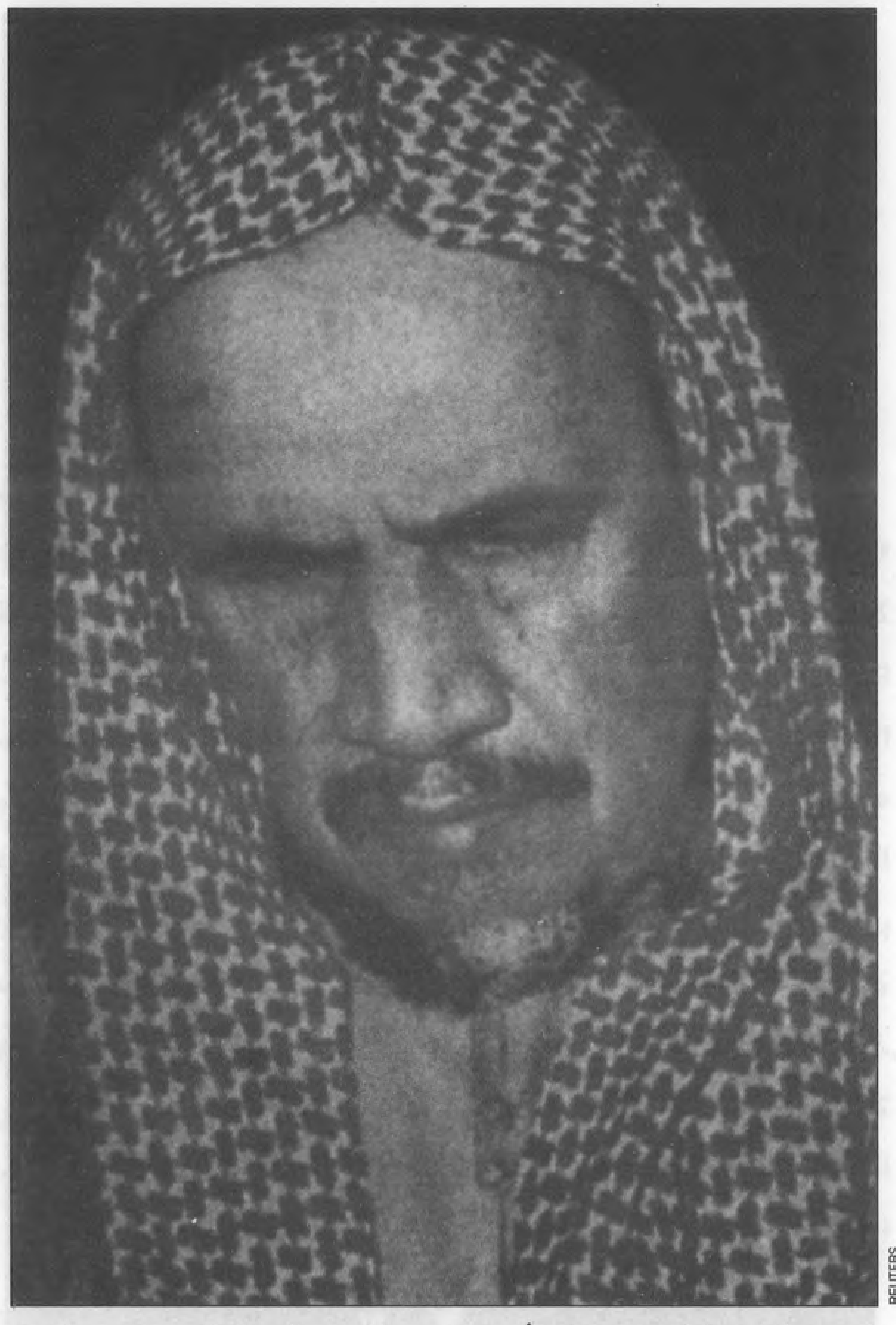


REUTERS/Dalati Nohara



REUTERS/Photo by Sharif Karim

مبادرة السلام المفترضة: في مطلع سنة ٢٠٠٢، توقعت مقالات نشرتها جريدة «نيويورك تايمز» أن يعرض عبدالله خطة سلام عربية إسرائيلية جريئة وجديدة خلال القمة العربية في بيروت. ورغم أنه تبين أن مقترحه لم يكن اختراقاً بتاتاً، فإنه بدا جهداً في العلاقات العامة، رام صرف الأنظار عن الروابط السعودية بالإرهاب. في الواقع، عانق عبدالله في بيروت نائباً رئيسياً من نواب صدام حسين هو عزت إبراهيم (إلى اليسار). كما انشغل المحللون الغربيون بكيفية تحية عبدالله زعماء حزب الله سنة ٢٠٠٠ (إلى اليمين).



REUTERS

المفتي العام: طيلة عقود، كان أقوى فقيه وهابي في العربية السعودية هو الشيخ عبدالعزيز بن باز (أعلاه)، الذي أصبح المفتي العام في المملكة. وبينما أبقى ابن باز المحافظ على توهج الوهابية، فإنه امتلك السلطة أيضاً لمراقبة انفجاراتها العنيفة. لكن ابن باز توفي سنة ١٩٩٩، ففافتقد خلفه الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ تلك السلطة، حيث أفلت أكثر فقهاء الوهابية تشدداً من المراقبة، وازداد التحريض، بل إن بعض الفقهاء برروا هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر.



REUTERS/Stan Honda/POOL

ابتسامة: في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١، قدم الأمير السعودي الوليد شيكاً بقيمة ١٠ ملايين دولار لعمدة مدينة نيويورك «رودولف جيولياني»، مساهمة في صندوق برجي مركز التجارة العالمي. لكن ظهر أن الأمير والمحيطين به، كما كتب «جيولياني» فيما بعد، كانوا يبتسمون، وهم يجولون في مكان «غراوند زيرو». وعندما أنحى الوليد باللائمة على السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، أعاد العمدة الشيك السعودي، رافضاً أن يقبل أي تبرير للتدمير الذي حصل يوم ١١ أيلول/ سبتمبر.



Alex Wong/Getty Images

حملة العلاقات العامة: حاولت جهود العلاقات العامة السعودية، باستمرار، أن تصور السعوديين باعتبارهم شريك أمريكا، وأن تخفي ارتباطاتهم بالإرهاب. إذ أصبح عادل الجبير، مستشار ولي العهد الأمير عبدالله في السياسة الخارجية، المستشار التواصلي الأكثر ظهوراً على شبكات التلفزيون الأمريكي.

كلمة شكر

كان هذا الكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه تقدمت بها لجامعة «كولومبيا» في مطلع الثمانينيات تحت إشراف البروفيسور «جاكوب كولمان هورويتز». آنذاك، تركز بحثي حول العربية السعودية على انتقال المملكة السعودية من الهيمنة البريطانية إلى مجال التأثير الأمريكي من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٥٣ وتواصل هذا الاهتمام عندما طلب مني أواسط الثمانينيات تحليل سياسات دول الخليج العربي لصالح مركز موشي دايان لدراسات الشرق الأوسط وأفريقيا بجامعة تل أبيب. وواصلت متابعة تطوراتها الداخلية عن قرب كمبعوث إسرائيلي إلى بعض هذه الدول سنتي ١٩٩٦-١٩٦٧ وبعد ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أردت، كما فعل كثيرون غيري، أن أفهم كيف أنتجت العربية السعودية، وهي البلد الذي درسته بعمق من قبل، الحركة التي كانت مسؤولة عن الهجمات ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

ما كان لي أن أباشر تحرير هذا الكتاب لولا تشجيع شخصين اثنين. أولا، أشكر جزيل الشكر صديقي ومعلمي طيلة سنوات «رونالد س. لودر» (Ronald S. Lauder)، الذي علمني، منذ أن التقينا خلال الخدمة بالأمم المتحدة، أن الصراع على الأفكار على الساحة الدولية

لا يقل أهمية عن المعارك العسكرية والسياسية والدبلوماسية التي تهيمن على عناوين الصحف. إذ أدرك على الفور أهمية الخروج من دقائق الحرب على الإرهاب إلى النظر إلى الصورة الكبرى. كما أدرك، باعتباره مبعوثا أمريكيا يجر خلفه سنوات طويلة من التجربة في البنتاغون، الحاجة إلى النظر إلى العربية السعودية، أحد أهم الفاعلين في الشرق الأوسط، نظرة جديدة.

ثانيا، كان «زاك غيرتلر» (Zak Gertler)، الذي اطلع على خلفيتي، القوة الحقيقية التي ألهمت هذا المشروع. لم يكن بإمكاني أن أعلق أنشطتي الأخرى وأعود إلى البحث في الشرق الأوسط لولا رؤيته الشخصية إلى حاجة التحقيق في مصادر هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر. فأنا مدين له لفضوله الفكري، ونقاشاته شبه اليومية، وصداقته الحميمة، وكل هذه الأمور جعلت هذا المشروع يبدأ.

كما أدين على الخصوص لـ«إيغال كارمن» (Yigal Carmon)، رئيس معهد أبحاث الإعلام في الشرق الأوسط (MEMRI)، الذي رافقني بانتظام في معالجة نصوص عربية صعبة. إذ تكتسي مساهمته في تطوير مفهوم الجهاد داخل الجماعات الأصولية الحركية قيمة عالية. كما شاطرني المقدم «جوناثان د. هاليفي» (Jonathan D. Halevi)، الذي اكتسب تجربة كبيرة في تحليل المواقع السلفية الحركية بالعربية، معرفته بسخاء في هذا المجال. وضحى البروفيسور «مناحيم ميلسون» (Menahem Milson) بوقته في ترجمة نص ديني صعب جدا.

وأقدر على نحو خاص التعليقات النقدية والتشجيع الشخصي لـ«ألن روث» (Allen Roth)، الذي فحص مسودات الكتاب الأولى، فكان يقدم اقتراحات حاسمة. وكان مكتبه مستعدا لدعم بحثي، إلى

جانب الجهود الخاصة التي بذلها «ستيفن شناير» (Steven Schneier). واستثمر «روني شاليت» (Ronni Shalit) وقتاً طويلاً للمساعدة ببحث تاريخي مفصل، حيث عاد إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكانت «باربارا كوموه» (Barbara Comeau) على استعداد دائم لتصنيف الكتب والمواد تصنيفا زمنيا، وفي مرات عديدة، بادرت إلى طلب منشورات جديدة لم أرها.

وفي المراحل الأخيرة من هذا العمل، دعمني الدكتور «روفن إرليش» (Reuven Erlich)، الذي ترأس مركز المخابرات والمعلومات حول الإرهاب بالمركز من أجل دراسات قوات الدفاع بإسرائيل (IDF)، بوثائق عربية حجزت خلال إيار/ مايو ٢٠٠٢ أثناء عملية الدرع الدفاعية لقوات الدفاع الإسرائيلية. وشاركني الدكتور «شمعون شابيرا» (Shimon Shapira) بمحض إرادته رؤاه المهنية حول حزب الله، وكذا الحركات الشيعية في لبنان. وكان «ستيفن إمرسون» (Steven Emerson) سخيا بالسماح لي بالولوج إلى المواد التي جمعها مشروع التحقيق في واشنطن دي سي. واستغرق «جين كلاينهيندلر»، صاحب المكاتب القانونية لـ«جين كلاينهيندلر أوف غروس»، و«كلاينهيندلر»، و«هوداك»، و«هاليفي» و«غرينبورغ» (Gene Kleinhendler of Gross, Kleinhendler, Hodak, and Greenberg)، التي تمتلك تجربة مهنية كبيرة في التحقيق في التلاعب غير القانوني بالنظام البنكي الأمريكي، وقتا لا بأس به لمشاطرتي معرفته. وكان «جيفري س. هيلمرايش» (Jeffrey S. Hemreich)، الذي اعتاد متابعة قضايا الإرهاب بالأمم المتحدة، مستعدا دائما للإجابة على تحقيقاتي البحثية، ومراجعة أسلوبي في الكتابة، وتحسين تدفق المخطوطات- حتى ساعات متأخرة في مرات كثيرة.

ولم يكن لهذا العمل أن يكتمل لولا صبر كل طاقم مركز القدس للشؤون العامة، خاصة مديره العام «زفي ماروم» (Zvi Marom)، الذي تحمل عبئا إضافيا، بينما كنت أبحث في الأرشيفات في لندن وواشنطن. وكان «مارك عامي إل» (Mark Ami-El) على استعداد دائم لتقديم تعليقات تحريرية أساسية عندما كنت في حاجة إلى مداخله. كما أشكر جزيل الشكر «راشيل إلروم» (Rachel Elrom)، التي لم ترقن المخطوط برمته فحسب، بل عملت على تحيين النص بشكل يومي على امتداد نصف سنة.

وأخيرا، وبعد قراءة نسخة الكتاب الأولى، عمل وكيلي «رتشارد باين» (Richard Pine) بجد على أن يطلع العديد من الناشرين على المخطوط، وتشجع على العمل رغم هذا المسار الصعب. وعملت «فيريد شاتيل» (Vered Shatil) على الخرائط بمهنية عالية. وأدين على نحو خاص لفريق العمل بدار النشر «رينييري بابليشينغ»، بدءاً بـ«ألفريد رينييري» (Alfred Regnery)، الذي كان بمثابة مدير المشروع بالنسبة إلى هذا الكتاب، و«تريش بوزيل» (Trish Bozell)، ناشر نسخة «رينييري». لقد أظهر كلاهما مهنية عالية في تحويل كتابة أكاديمية صعبة إلى لغة إنجليزية قابلة للقراءة من أجل الجمهور الأمريكي العريض.

فهرس الخرائط

المحتويات

هذا الكتاب

يشهد العالم الآن تهديداً جديداً ومدمراً: إنه الإرهاب العالمي الجديد. إنه ليس إرهاباً ذا أهداف محدودة، بل هو إرهاب يسعى إلى تحقيق انهيار خصومه انهياراً شاملاً. وتكمن المشكلة في الوهابية المهيمنة في العربية السعودية بعد أكثر من قرنين ونصف من تأسيسها. ويبقى النظامُ السعودي الداعمَ الأساس لشبكة الإرهاب الدولي. وفي الواقع، برزت العربية السعودية، التي يفترض أنها حليفة الولايات المتحدة الأمريكية، كمفتاح للإرهاب العالمي الجديد، لأن المملكة السعودية لم تتح الإيديولوجيا التي حفزت الإرهابيين فحسب، بل قدّمت قوة بشرية واعتمادات مالية طائلة لتمويل عمليات الرعب.

ISBN 978-9933350055
9 789933 350055

